تاريخ المصريين

٧٧

الحروب الصليبية

الجزء الرابع

تأليف: وليم الصوري

ترجمة وتعليق: د. حسن حبشي



رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

الإخراج الفنى : مراد نسيم

الحروب الصليبية

الجزء الرابع

تأليف : وليم الصورى

ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٥

تقديـــــم

يسرنى أن أقدم للقارىء العزيز الجزء الرابـع من تاريـــخ الحروب الصليبية لوليم الصورى ، وبه ينتهى هذا الكتاب الهام الذى يعد أحد المصادر الأساسية فى دراسة تاريخ الحروب الصليبية ٠

لقد كتب هذا الكتاب وليم الصـــورى (١١٣٠ ـ ١١٨٤م) رئيس أساقفة صور بالشام أثناء الحروب الصليبية ، وقد شجعه على كتابة هذا التاريخ عمورى ملك بيت المقدس ليضـــمنه أحداث الحرب التى أزمع شنها على مصر ، والتى كان يعتقد أنه ســـوف ينتصر فيها ٠

وقد توافرت لدى وليم الصورى أدوات البحث التاريخى من وثائق وقرارات فى المملكة الصليبية والقسطنطينية وروما ، وماحدثه به شهود العيان لأحداث معينة خلت منها كتب التاريخ الاســـلامى والمسيحى ، وما كان يقوم به شخصيا من تقصى الحقائق ٠

وقد راعى وليم الصورى فى كتابته هذه الحيدة التاريخية الى حد كبير انعكس على نقده للملك عمورى نفسه ، وتحميله اللوم على ضياع هدفه فى الاستيلاء على مصر ، كما تناول بالنقد كثيرين من كبار القادة الصليبيين وقمم المسيحية فى الشرق والغرب ، بل

ان بعض البابوات لم يسلموا من نقده · ولم يقتصر تناول وليم الصورى للحروب الصليبية على الجانب العسكرى ، بل تعداه الى النواحى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعمرانية التى تمخضت عنها ·

وهكذا يقدم لنا كتاب الحروب الصليبية بأجزائه الأربعة المترجمة الى العربية ، والتى نشرناها فى سلسلة تاريخ المصريين ، سجلا حافلا بأحداث فترة قاربت قرنا من الزمان مليئة بالصراع ، وقد حظى هذا الكتاب بمكان الصدارة بين المؤلفات التى كتبت عن الحروب الصليبية ، على نحو دعا كبار المؤرخين فى أوروبا والولايات المتحدة الى ترجمته الى لغاتهم ، والاستعانة به كمصدر أساسى لمعرفة تاريخ هذه الحروب وعالمها وأهلها وأوضاع العالمين الاسلامى والمسيحى ·

وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية أستاذ كبير فى تاريخ العصور الوسطى هو الدكتور حسن حبشى بجامعة عين شمس ، وعلق عليه بالتصحيح والتحقيق بفضل المامه بالانجليزية والفرنسية واللاتينية والفرنسية القديمة ، فخرجت الترجمة فى أسلوب عربى سليم وديباجة مشرقة ·

ونلاحظ ان الأستاذ الدكتور حسن حبشى كان أول من صرف جانبا كبيرا من حياته العلمية فى اثراء المكتبة العربية بترجمة بعض المصادر الأساسية عن الحروب الصليبية التى شارك أصحابها فيها ووقفوا على أحداثها ورأوها رأى العين ومن كان لهم نصيب فى تدبيرها ، ومن تأثروا بها ·

لقد ترجم د· حسن حبشى الكتاب المعروف بالجستا أو تاريخ الفرنجة وحجاج بيت المقدس عن الحرب الصليبية الأولى ،

وقد ظهرت هذه الترجمة فى العربية قبل أربع سنوات من ظهور أول ترجمة لها بالانجليزية ، كما ترجم كتاب المؤرخ الفرنسى جوانفيل عن الملك لويس التاسع وحملته على مصر والشام ، كما نشرت له جامعة الملك عبد العزيز بجدة مذكرات السفير الفرنسى «فلهاردوان» عن الحملة الصليبية الرابعة كذلك ترجم مذكرات الجندى الشعبى « روبرت كلارى » عن هذه الحملة ذاتها ، وهو يعد للطبـــع كتاب بادربورن عن الحملة الصليبية التى استولى فيها الصليبيون على دمياط،وكتاب «ألكسياد» الضخم للمؤرخة اليونانية «أنا كومنينا» ابنة الامبراطور ألكسيوس كومنين الذى كان له ضلع ربما أغضب رجال عصره الغربيين لما ترتب عليه من نكبات لحقت القســـم الأول من الحملة الصليبية الأولى المعروفة بحملة الرعاع ، كما أن د/ حسن حبشى يعد للطبع حوليات مؤرخ سريانى مجهول عن الحربين الأولى والثانية الى غير ذلك من المصادر الصليبية الأولى ٠

ويظهر اهتمام د / حسن حبشى بالمصادر الأساسية فى نشره وتحقيقه لكتابات المؤرخين المسلمين عن فترات شاهدوها وساهموا فى أحداثها كانباء الغمر بأنباء العمر لشيخ الاسلام ابن حجر فى أجزائه الأربعة التى قام المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بنشـــر ثلاثة أجزاء ضخمة منها والرابع فى طريقه للظهور ، وكتاب « نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ أهل الزمان » لعلى بن داود الصيرفى فى أربعة أجزاء كبار ظهر آخرها فى يناير ١٩٩٤،وانباءالهصرلنفس المؤلف ، وكتاب حوليات دمشقية عن دمشق وغير ذلك ، الى تحقيقه للمعجم الضخم الموسوم بعنوان الزمان فى تراجم الشيوخ والأقران للامام البقاعى وهو فى ستة مجلدات ضخمة وينشره مركز التراث بدار الكتب المصرية ، ومختصره « عنوان العنوان » وكلاهما لمـن عاصرهم المؤلف من رجال وقته ونسائه ، وأدرج المؤلف فيه عرضا للحركة الأدبية والشعرية وأحداث عصره ٠

الى غير ذلك من مؤلفات وأبحاث قام المترجم بها فى اللغتين العربية والانجليزية يراها القارىء فى ختام هذا الجزء ٠

ويسرنا أن الأستاذ الدكتور حسن حبشى قد أضاف بآخر الترجمة ملحقا ـ يكاد أن يكون وحده كتابا مستقلا وهو ما يثرى هذه الترجمة ثراء كبيرا ، كما قام بنفسه بعمل كشاف كامل يساعد القارىء على الوقوف سريعا على ما يبتغيه ، كما عمد الى تصويب الأخطاء التى وقعت فى بعض صفحات الأجزاء السابقة ٠

والله أدعو أن يفيد بهذا الكتاب أمتنا العربية ، التى استقبلت أجزاءه السابقة بالحفاوة والترحيب والتقدير ٠

والله الموفـــق

الهرم فى ١/٩/١٩٩٤

رئيس تحرير السلسلة

أ ٠ د ٠ عبد العظيم رمضـان

مقدمة الجزء الرابع

بقلم المترجم

هذا الجزء الرابع هو ختام دراسة ضخمة متصلة كتبها المؤرخ وليم الصورى (١١٣٠ ـ ١١٨٤م) عن فترة عاش معظمها وشارك فى كثير من أحداثها مشاركة ايجابية ، وانكب على دراسة ماتوفر عنده من وثائق واتفاقيات ورسائل فى العربية واللاتينية واليونانية ، وأخرج منها هذا السفر الذى يسعدنى أن أضمه الى سلسلة وثائق ومصادر الحروب الصليبية التى أرى أنه لايمكن أن تستقيم كتابتها الا بعد تزويد القارىء العربى بهذه المصادر الاصلية أو ـ على الأقل ـ بجانب كبير منها لتتضح حقيقتها ويغدو الحكم عليها أقرب للصحة واليقين ٠

ولقد رأيت ان أضيف الى الترجمة العربية كشافات بالأعلام والأماكن الجغرافية وغيرها مما ورد فى ثنايا الترجمة ، كما استعنت بمصادر عربية وغربية فى هذه الترجمة : تعليقا واضافة وشرحا ونقدا وتصحيحا وعرضا ٠

ولم يفتنى أن أثبت الصورة القلمية للأسماء الأعجمية حسب منطوقها فى ذلك العصر برسمها الأجنبى ليسهل على الباحث التفتيش عنها فى مظانها الأصلية ٠

والحقت الترجمة بملحق لبعض الأسماء والتعابير الصليبية والمسيحية واليهودية والأماكن المقدسة فى العهدين القديم والجديد مستعينا بالمصادر العلمية والشروح الدقيقة المتعلقة بالتوراة والانجيل وكذلك فسرت فى هذا الملحق بعض ما يبهم فهمه من تعابير ذلك العصر حتى يتمكن القارىء العربى الحديث من الوقـــوف على مايرد فى الترجمة العربية من اشارات لأماكن وأشخاص وأحداث قد يبهم عليه فهمها ان لم يطالع هذا الملحق ٠

ولا أحب أن يفوتنى أن أشكر الهيئة المصرية العامة للكتاب ورئيسها أ٠ د٠ سمير سرحان ، وكذلك أ٠ د٠ عبد العظيم رمضان رئيس سلسلة تاريخ المصريين ٠

والشكر أولا وأخيرا لله شكر المقر بفضله لما أولانى من النعمة والبركة اذ أعاننى فى تحقيق أمنية من أمانى العلمية كانت أمـــلا يراودنى فى أن أرى هذا المصدر التاريخى فى يد القارىء العربى الى جانب ما ترجمته من المصادر الأصلية وما أرجو من الله أن يعيننى على تقديمه من هذه المصادر٠

وما هدفى الا خدمة التاريخ الصحيح والقارىء وانارة السبيل أمامه فى درب الدراسات التاريخية الجادة ٠ ومن الله الســـداد والتوفيق ٠

القاهرة فى ١٤ أكتوبر ١٩٩٤ أ٠ د٠ حسن حبشى



عمورى الأول والنزاع حول مصر

سلطانا مكانه . شاور يدعو عمورى لمساعدته فيزحف الملك الى مصر ويخرج شيركوه بالقوة .

٨ ـ هزيمة نور الدين قرب طرابلس ونجاته هربا من الوقوع فى أيدى الصليبين بعد طول مشقة .

٩ ـ نور الدين يحاصر حصن حارم من أرض أنطاكية . وقوع أمير أنطاكية وكونت طرابلس و « كولمان » حاكم قيليقية فى أسره .

١٠ ـ وصول تيرى كونت فلاندرز الى الشام ومحاصرة نور الدين مدينة « بانياس » واستيلاؤه عليها .

١١ ـ الملك يمضى الى أنطاكية بعد رجوعه من مصر . اطلاق سراح الأمير من أسره بعد دفع الفدية وتسليم قلعة فى صيدا الى الترك الذين يستولون أيضا على حصن آخر وراء الأردن .

١٢ ـ وليم مؤلف هذاالكتاب يعود الىدياره ووصف ذلك وفذلكة عن بعض نشاطه .

١٣ ـ شيركوه يزحف الى مصر على رأس قوة كبيرة من المعسكر .

١٤ ـ الملك عمورى يذهب هو الآخر الى مصر لمساعدة المصريين متتبعا لشيركوه .

١٥ ـ وصف وليم لمدينة القاهرة وبعض الملاحظات عن مؤسسها .

١٦ ـ الملك يزحف شمالا لمواجهة شيركوه الذى يعبر النهر اذ يتوقع هذه الحركة .

١٧ ـ السلطان يجدد الاتفاقية لكى يطيل بقاء الملك الى جانبه فى مصر .

١٨ ـ ايفاد الرسل للحصول من الخليفة على تجديد الاتفاق ٠
وصف روعة القصر الخليفى ٠

١٩ ـ ابرام الاتفاقية وتأكيدها من جانب الخليفة بمد يده اليمنى مصافحا « هيج » صاحب قيصرية ٠

٢٠ ـ لماذا يدعى خليفة مصر مولانا ٠

٢١ ـ السبب فى تلقيب أمير مصر بالخليفة ، ولماذا هو خصم لخليفة بغداد ٠

٢٢ ـ الملك « عمورى » يقيم جسرا على النيل ، وشيركوه ينزل فى الجزيرة فيهاجمه الملك ٠

٢٣ ـ وصف الجزيرة وأسماء فروع النيل التى تصب فى البحر وعدد هذه الفروع ٠ الصليبيون يخرجون العدو ويتملكون الجزيرة فيهرب شيركوه الى الصحراء ٠

٢٤ ـ أرض مصر وخصائصها ٠

٢٥ ـ نشوب معركة حامية فى الصحراء بين الملك وشيركوه ٠

٢٦ ـ شيركوه ينسحب الى الاسكندرية فيمضى اليه الملك على جناح السرعة ويحاصر المدينة ٠

٢٧ ـ وصف موقع الاسكندرية ٠

٢٨ ـ استمرار الملك فىالحصار وفي مضايقة المصريين أشد المضايقة ٠

٢٩ ـ مبادرة شيركوه عند سماعه هذا الخبر للتفاوض مع «هيج» صاحب قيصرية لعقد الصلح ٠

٣٠ ـ هيج يعد بنود الاتفاقية مع الملك والبارونات ٠

٣١ ـ استسلام مدينة الاسكندرية للملك واعلان الصلح الىأهلها ٠

٣٢ ـ عودة الملك الى دياره منتصرا وتسريحه للجند ٠

هنـــا يبـــدأ

الكتاب التاسـع عشـر

الملك عمورى والمرحلة الأولى من النزاع حـول مصر

ـ ١ ـ

مات بلدوين الثالث رابع ملوك بيت المقدس اللاتين دون أن يترك ولدا من بعده كما ذكرنا ، فخلفه على المدينة المقدسة أخوه الوحيد « عمورى » كونت يافا وعسقلان ، وبذلك صار فى سنة ١١٩٣ م من ميلاد سيدنا (المسيح) رابـع ملك لاتينى لها ، وهذه السنة هى العام الثانى والستون من تحرير تلك المدينة الحبيبة الى الله ، وكان على كرسى الكنيسة اللاتينية يومئذ البابا اسكندر الذى كان قد مضى على بابويته ثلاث سنوات ، أما كنيسة القيامة فكان يتولاها « أماليريك »(١) وهو تاسع بطاركتها اللاتين الذى أمضى فى بطركيتها أربع سنوات ٠ أما كنيسة أنطاكية فكان يرأسـها

« ايمرى »(٢) تاسع البطاركة اللاتين عليها ، وذلك فى السـنة العشرين من ادارته ٠

أما كنيسة صور فكانت تحت امرة « بطرس » ثالث رؤساء أساقفتها اللاتين بعد الاستيلاء على هذه المدينة (من أيدى المسلمين المصريين) ، وهى السنة الثالثة عشرة من ولايته اياها ٠

أدى اعتلاء « عمورى» العرش بعدموت أخيه بلدوين الى ظهور شقاق كبير بين بارونات المملكة الذين كان تغير الملوك ذا أثر يختلف فى الواحد منهم عن الآخر ، والحق أن هذاالنزاع أوشك أن ينتهى الى تصدع حاد كاد أن يطغى على خطر الانشقاق الدينى، لكن حسن طالعنا تمثل فى أنالعناية الالهية لم يكن يفوتها انجادنا واسعافنا بالعلاج الشافى فى أشد الأزمات حلوكة ، فقد كان رجال الدين والشعب ورهط غير ضئيل من كبار رجال المملكة يؤيدون « عمورى» كلالتأييد مما عجل بفشل محاولات النبلاء المتذمرين ، ومن ثم فانه فى اليوم الثامن من وفاة الملك بلدوين (الثالث) تبوأ سدة المملكة أخوه « عمورى » وكانت وراثته اياها شرعا ، ومن ثم مسح بالزيت المقدس فى كنيسة القيامة بيد البطرك الذى كان يساعده من كانوا موجودين حينذاك من رؤساء الأساقفة والأساقفة وكافة رجال الكنيسة ووضعوا التاج على رأسه ٠ وكان أخوه الملك بلدوين (الراحل) قد نصبه من قبل فارسا ومنحه بمحض ارادته التاج وأصبح كونت يافا ثم قام اخوه بلدوين الطيب الذكر فتفضل عليه بكرمه الملوكى فأقطعه مدينـة عسـقلان ، التى هى مدينة الفلسطينيين العظيمة التى كان قد تم الاستيلاء عليها زمن بلدوين ، وهكذا عادت بعد فترة طويلة الى حظيرة الايمان المسيحى ، وقد فصلنا ذلك بأوضح مما نقوله الآن حين كنا نروى أخبار عهد بلدوين ٠

كان « عمورى » يوم اعتلائه العرش فى السابعة والعشرين من عمره ، وامتد حكمه احدى عشرة سنة وخمسة أشهر ٠

امتاز « عمورى » بالحصافة والرشد » والخبرة بالشئون الدنيوية ، وكانت فيه لكنة بسيطة اذا تكلم ،لكنها لا تعيبه عيبا شديدا فتعد عاهة تمســـك لسانه عن التعبير بطــلاقة عما يريد الافصاح عنه ، لذلك كان رأيه أحسن من نطقه أو تعبيره ، هذا الى جانب المامه بالقانون السارى الذى تسير المملكة على هديه ، وكان لا يوجد له ضريب فى هذا الالمام ، بالاضافة الى تفوقه على جميع أشراف المملكة فى حدة الذكاء وحضور البديهة ، فساس الأمور بحزم وفطنة ابان الأزمات الكثيرة التى وقعت أثناء محاولاته القوية المستمرة لمد حدود مملكته ، كما أنه كان جريئا على الدوام فى ابداء رأيه من غير خوف مع تصميم بات ، هذا الى جانب أنه كان قــد تلقى قسطا كبيرا من التعليم وان يكن أقل مما أتيح لأخيه ، ويرجع الفضل الى ذكائه الحاد وذاكرته الواعية فى أنه كان على جانب كبير من الدراية بالمسائل التى لم تكن بذات موضوع عند سلفه ، وقد أعانه على ذلك ما جرى عليه منمداومته سؤال غيره والنظر فى الكتب كلما أتيحت له فرصة فراغ من مشاغل المملكة فيمضيها فى القراءة ، وكثيرا ماكان يسأل أسئلة تفصح عن براعته ، ثم يجد اللذة فى ايجاد حلول لها ، وكان يصغى الى رواية التاريخ اصغاء تاما جيدا ويؤثره على شتى فنون المعرفة ، وكان لا يسمع شيئا الا وعاه ولاينساه أبدا بل يرويه بعد حين فى يسر ودقة ، وكانت الأمور الجدية تستغرق كل انتباهه فلا يميل الى المظاهر التمثيلية أو ألعاب الحظ ، بل يلتذ بمشاهدة الصقور والشواهين وهى تطارد فريستها ، كما كان صبورا جلدا على تحمل المشاق وان كان يضيق بالحر والبرد الشديدين لامتلاء جسمه ولفرط سمنته ٠

ويبلغ من تقواه أنه أمر برد العشور للكنيسة كاملة غير منقوصة ولا منازع عليها ، كما بلغ من ورعه أنه كان يستمع الى القداس كل يوم ما لم يمنعه من ذلك مرض يقعده أو طارىء جسيم يحول بينه وبين السماع ، هذا الى جانب رباطة جأشه فى تحمل الشتائم والتقريع الذى طالما واجهه وهو يسير بين العامة أو فى مجالسه الخاصة ، وربما صدر ذلك من أفراد لا يعتد بهم ، ولكنه كان يبالغ فى كتم مشاعره حتى ليخيل لرائيه أنه لم يسمع قط شيئا مما قيل .

كان « عمورى » الى جانب ذلك وسطا فى مأكله ومشربه ، مؤثرا الاعتدال ،كارها الافراط فى تناول الطعام ، ويقال انه كان كبير الثقة فى عماله فلم يكن يسألهم موافاته بكشوف الحسابات ثقة منه بهم حتى عهد اليهم بادارة شئونه ، وكان يرفض الاستماع الى أى طعن فيهم وفى أمانتهم ، وهو أمر يعده بعض الناس خطأ منه ويعتبرونه عيبا يلام عليه ، على حين يراه غيره فضيلة ويقولون ان ذلك برهان على صحة اطمئنانه اليهم .

الى جانب هذه الصفات الذهنية والخلقية العظيمة الا أنه كانت فيه نقائص جلية للعيان شوهت من الصفات الحميدة التى ذكرناها وطمست بعض رونقها ، اذ كان ينقصه المزاج اللطيف مع ندرة كلامه ، كما تعوزه البشاشة التى ربما كان الأمراء أكثر احتياجا اليها من بقيةالناس كى يكسبوا حب رعاياهم ، فقلما كان «عمورى » يتكلم الى أحد مالم ترغمه الضرورة على الكلام اليه ، مما كان منقصة فيه تلاحظ أكثر ماتلاحظ اذا ماقورن بأخيه بلدوين الذى كانت تسعفه الكلمات على الدوام ويصطنع البشاشة مع الجميع .

ويقال ان « عمورى » أطلق العنان لشهواته فلم يكبح جماح رغائب جسده ، فكم من نساء متزوجات أفسدهن ، .. فليغفر له الرب ما فعل ، وليسامحه .

وزيادة على ذلك فانه كان شديد المناهضة لحرية الكنائس حتى انها وجدت أشد الفتنة زمن حكمه بسبب ما أرهقها به من مطالبه المستمرة التى كان يفرضها على أوقافها حتى غرقت الأماكن الطاهرة فى الديون بصورة لم تستطع عائداتها الوفاء بسدادها .

كان حب « عمورى » للمال أكبر مما قد يحتاجه أو مما يكون حقا مشروعا له ، اذ كان يحصل عليه تارة فى صورة هدايا ، وتارة أخرى يتوسل اليه بطرق تخالف مقتضيات العدالة والانصاف ، ولقد حاول فى حديث دار بينى وبينه أن يبرر جشعه للمال فقال :

« يجب على كل أمير أو ملك أن يعمل على ألا يكون فى ضيق ذات اليد لسببين ، أولهما : أن ثروة الرعية تكون دائما فى أمان تام ما ظل الحاكم غير محتاج للمال ، وثانيا : أنه يجب أن يكون تحت يد هذا الحاكم أو ذاك من المال ما يكفيه لسد ضرورات مملكته الملحة ان جد طارىء لم يكن فى الحسبان ، اذ يجب على الملك فى هذه الحال ـ ان كان فطنا ـ أن يكون أسخى ما يكون يدا على هذه الاحتياجات ، فلا يمسك كفه عن الصرف عليها ومن ثم فانه من الواضح الجلى أن كل شىء يحوزه الملك انما يحوزه لا لمنفعتـــه الخاصة بل لصالح المملكة » .

ولايستطيع أحد ما حتى ـ خصومه ـ أن ينكروا أن هذه مبررات كانت ملائمة لظروفه ، ذلك لأنه فى الظروف العصيبة التى مرت بها المملكة لم يقصر فى الصرف ، ولم يمنعه الارهـــاق الجثمـــانى عن بذل الجهد ، غير أن أموال رعاياه كانت أبعد ماتكون عن الأمان لأنه كان يغتنم الفرصة بين آن وآخر ويتذرع بأتفه الذرائع لاغتصاب ممتلكاتهم .

كان « عمورى » ذا قامة مديدة ، فهو أطول من كثيرين وان يكن أقصر من أصحاب البنية البالغة الضخامة ، وكان وســـــيم التقاسيم ، يفصح سلوكه بجلاء ـ حتى للغرباء عنه ـ عن سلوك ملكى يستحق الاحترام ، وكانت له عينان براقتان متوسطتى الحجم ، وأما أنفه فكان أقنى متناسبا كأنف أخيه ، وأما شعره فأشقر تمتد خصلاته الى الخلف ، وتكسو خديه وذقنه لحية جميلة كثة ، وكان اذا ضحك قهقه حتى ليهتز جسده كله ، كما يحب الحديث مع أهل الحكمة والفطنة ومن لهم المام كبير بالبـــلاد البعيدة ومعرفة تامة بالعادات الأجنبية ٠

وأذكر أنه تفضـــــل فدعانى ذات مرة دعوة ودية الى قلعة « صور » وقت أن كان يعانى من حمى خفيفة ليست بالخطيرة ، وكنت خلالساعات استجمامى وفى الفترات التى تكون بيننوبات الحمى المتقطعة أتناول معه كثيرا منالمواضع تناولا وديا ، وأجيبه عن بعض أسئلته بقدر ما يسمح به الوقت اذ ذاك ، والحق أنه استفاد كثيرا من مناقشاتنا معا ، وكان من بين ما سألنيه اذ ذاك سؤال أفزعنى أشد الفزع لأنه لم يكن استفسارا مألوفا ، الى جانب أن موضوعه قل أن يكون موضوع نقاش ، لأن ديننا العالمى قضى فيه بما لا مجال لمناقشته ، واعتبره عقيدة صادقة ٠ كما أنه جرح قلبى جرحا غائرا اذ أحس أن أميرا ارثوذكسيا صادق الايمان مثله وسليل أسلاف مؤمنين ، تساوره الريبة فى عقيدة ثابتة ، اذ لا يجوز أن تكون هذه العقيدة موضع شك يتلجلج به صدره ٠

ومختصر القول أنه سألنى « هل لو أننا خلينا جانبا تعاليم المخلص وتعاليم الأبرار الذين اتبعوا المسيح ، والمبادىء التى ليست

موضع شك ، فهل ثم دليل صريح وبينة قاطعة على أن هناك قيامةبعد الموت ؟ » ، ففزعت من بدعة الاستفسار وقلت له : « ان فى تعاليم سيدنا وفادينا الكفاية فى الرد على ما تسأل عنه ، فالمسيح يبشـــر فى فقرات كثيرة من الانجيل بقيام الجسد بعد الموت ، كما وعد بأنه هو ذاته سوف يأتى كقاض يقضى فى كلشىء بما يرى ، وأنه ليقول للصفوة انه معطيهم مملكة طاهرة ، أما الأشرار فسوف يخلدون فى الجحيم الأبدى الذى أعد للشيطان وأعوانه ، ويكفى بيـــان الرسل الطوبانيين وأنبياء العهد القديم » · فرد على كلامى بقوله : « اننى أعتقد اعتقادا جازما بكل ما قلته ، ولكننى ألتمس ردا قاطعا يمكن البرهنة به لمن يشك فى هذه الأمور ولا يؤمن بدين المسيح ولا يعتقد فى بعث مقبل ، أو فى وجود حياة أخرى بعد الموت » ·

فأجبته : « اذن ضع نفســـك موضع رجل منكوب ، ودعنا نحاول تأكيد شىء حول هذا الموضوع » ·

قال : « حســـنا » ·

فسألته : « ألست تعترف بأن الله حق ؟ » ·

قال : « بلى ·· وانه لحق ما بعده حق » ·

فتابعت كلامى قائلا : « ثم أليس من الحق أيضا أن تجازى الحسنة بالحسنة ، والسيئة بالسيئة ؟ » ·

فأجاب : « صدقت فيما قلت » ·

فاسترسلت قائلا : « ان مثل هذا الأمر لايقع على الدوام ، لأن هناك بعض الخيرين لا يلقون سوى المتاعب والعداء فى هذه الدنيا ، بينما هناك قوم سوء ينعمون بالسعادة الدائمة ، ولنا فى الحياة اليومية ما يؤكد هذه البينة » ·

فأجاب : « ان الأمر كما تقول » ٠

فواصلت حديثي قائلا « اذن فان هذا سوف يقع فى حياة أخرى ، لأنه من المستحيل ألا يعدل الرب في قضائه ، ومن ثم فسوف تكون حياة أخرى ، ويكون ثم بعث لهذا الجسد حيث يجزى كل امرىء عما فعل في هذه الدنيا : ان خيرا فخير ، وان شرا فشر » ٠

فرد قائلا : « يبدو لى أن هذا الأمر صواب فوق كل صواب ، والآن أزحت عن قلبى كل شك ومحوت عنه كل ارتياب » ٠

واطمأن قلبه بهذا الكلام كل الاطمئنان ٠

لكن هيابنا نعود الى موضوعنا ٠

❊ ❊ ❊

لقد كان « عمورى » مفرط السمنة ، ذا ثديين كبيرين كثديى المرأة يتدليان حتى وسطه ، غير أن الطبيعة رحمت بقية أعضائه وعطفت عليها فلم تكتف بأن تحبوها بالتناسق ، بل زادت فحبتها بجمال غير عادى ، وما كان خصومه بقادرين أن ينكروا أنه كان معتدلا فى ملذاته الجســدية ، فحرم على نفســه الخمر فلم يكن يقربها أبدا ٠

ـ ٤ ـ

تزوج « عمورى » من « أجنس » ابنة جوسلين الصغير كونت الرها (سنة ١١٥٧ م) وقت أن كان أخوه بلدوين (الثالث) لايزال منصرفا الى سدة الحكم ، يقد حالفه النجاح فيحكم المملكة ، وأنجب من « أجنس » خلال حياة أخيه طفلين أما أحدهما فذكر سماه « بلدوين » وهو الذى عمده عمه وسميه (بلدوين الثالث) في جرن المعمودية الطاهر ، وأما الآخر فكان بنتا سماها « سيبيلا » باسم

عمتها كونتسة فلاندرز ، التى هى شقيقة كل من بلدوين (الثالث) و « عمورى » .

ولما آلت المملكة الى عمورى بالطريق الشرعى بعد موت أخيه اضطر الى ابعاد زوجته(٣) التى كان قد تمزواجه منها فى البداية رغم معارضـــة البطرك « فولشر » الطيب الذكر ، وكانت هذه المعارضة من جانب البطرك بســـبب أن القرابة بين « عمورى » و « أجنس » كانت قرابة من الدرجة الرابعة ، وقد أثبت صحتها وأكدها فى وجه الكنيسة أقـــارب كل من الطـــرفين « عمورى » و « أجنس » ، ومن ثم لم يتوان الملك عن فسخ عقد الزواج حسبما يقضى القانون الكنسى ، وتم الطلاق فى حضـــور كل من البطرك « أماريك »(٤) الطيب الذكر والنائب البابوى « يوحنا كردينال كنيسة القديســـين يوحنا وبولص ، وقد قام جماعة من أقارب « عمورى وأجنس » بتأكيد هذه الرابطة باليمين الغليظة ، مقسمين بأن الحقيقة انما هى التى قرروها ، ثم أضيف شرط ينص على وجوب اعتبار ابنى الطرفين شرعيين ، وأن لهما الحق التام فى ارث ما خلفه أبوهما .

ولما كنت شديد الاستغراب لأمور كهذه الأمور فقد قمت فيما بعد بتقص دقيق عن درجة القرابة التى تربط بين الاثنين ، وذلك لأنه فى الوقت الذى جرى فيه هذا النقاش الحاد بالقدس كنت لا أزال تلميذا فى المدارس ، بعيدا فيما وراء البحر ، منصرفا لدراســـة الآداب والقانون ، وأفضى بى الأمر أخيرا للحصول على ماحصلت عليه من المعلومات من السيدة « تيفانيا » رئيسة راهبات دير المقدسة مريم الكبيرة ، وهو الدير الواقع قبالة قبر السيد فى القدس ، وكانت هذه المرأة التى عاشت ما عاشت طاهرة الذيل نقية السريرة هى ابنة « جوسلين » الكبير كونت الرها وأخت « روجر » أمير أنطاكية

ابن « ريتشارد » وعلى الرغم من أنها كانت قد بلغت من العمر أرذله الا أنها كانت تعى تفاصيل هذا الموضوع وعيا تاما مكنها من أن تسرد على الصورة التالية أنساب الزوجين سردا عن ظهر قلب ٠

※ ※ ※

كان « بلدوين دى بورج » ثانى ملوك بيت المقدس الرجل الرائع فى كل ناحية (والذى فصلنا كل جوانب حياته : الطيب منها والسيىء على السواء حين تناولنا عهده) أقول انه هو وجوسلين الكبير كانا ابنين لأختين شقيقتين ٠

وقد ولدت الملكة مليزند لبلدوين ملكين هما : بلدوين الثالث وعمورى ٠

كذلك خلف جوسلين الكبير : جوسلين الصغير والد الكونتسة « أجنس » التى كانت فى الواقع ــ وليست شرعا ــ زوجة لعمورى ، كما أنه خلف أخاها جوسلين الثالث الذى هو الآن « سنكال » الملك وخال الملك « بلدوين » الرابع الحاكم الآن ٠

ولقد ظل « عمورى » فترة من الوقت أعزب لم يتزوج ، غير ان « أجنس » سرعان ما ربطت نفسها برابطة الزواج بالنبيل السرى « هيج دى ابلين » (ابن باليان الكبير) أخى بلدوين صاحب مدينة الرملة الذى له الحكم فيها الآن والذى مات أخوه من غير ولد يخلفه ويرثه ،كما أنه كان أخا لبليان الصغير الذى اقترن (فيما بعد) بأرملة الملك عمورى ٠

وحدث بعد وفاة « هيج » وفى حيـــاة عمورى أن ارتبطت « أجنس » برينو صاحب صيدا بن «جيرارد » بنفس وشيجة الحب التى سبق لها أن ارتبطت بمثلها ــ وكانت أبعد عن الشرعية ــ بعد ارتباطها الشرعى السابق بالملك « عمورى » ،وذلك لأن «جيرارد»

والد رينو كانت تربطه وشيجة الدم والقربى بها ، كما يؤكد هو بنفسه أنه سمع ذلك من أسلافه ٠

وترتب على ذلك أن صدر قرار ثان بفسخ الزواج ، وكان هذا القرار مطابقا لما ذكرناه حالا ٠

ـ ٥ ـ

بعد أن وطد « عمورى » نفسه على عرش القدس وخلال العام الأول من حكمه قام المصريون فرفضوا دفع الجزية التى كانوا قد قبلوا أن يدفعوها حسب الاتفاق المبرم بينهم وبين أخيه ، لذلك جمع الملك طائفة كبيرة من الفرسان وجيشا كثيفا زحف به على مصـــر فى مستهل شهر سبتمبر ، فهب لصده « ضرغام » حاكم تلك المملكة الملقب فى لغة أهلها بالسلطان ، وتصـــدى له على رأس جماعات لا يحصيها العد ، ولم يحجم عن المخاطرة بلقائه فى الصحراء بمصر ، لكنه لم يكن قادرا على احتمال هجوم الصليبيين ، وانتهى الأمر بأن راح معظم عسكره ما بين أسير وقتيل مما أرغمه على الارتداد الى أقرب مدينة اليه يسمونها بلغتهم المصرية « بلبيس »(٥) ٠

حينذاك تسرب الفزع الى نفوس المصريين مخافة أن يصمم الملك (عمورى) على الزحف بعســـكره والتوغل فى المملكة حتى أقصاها بعد احرازه هذا النصر ، لذلك راحوا يلتمســـون علاجا لوقف حملاتنا ، فدفعه اليأس على كسر السدود المائية التى كانوا يحجزون مياه الفيضان وراءها حتى يحين الوقت المناسب ، فيعمدون الى تفجيرها وهى فى أقصى ارتفاعها فتغرق ما حـــولها ، وكان المصريون يطمعون أن تقوم هذه السدود بالحيلولة دون أى تقدم آخر من جانب أعدائهم ، كما أنهم كانوا يطمحون أن يطمئنوا الى سلامتهم بسبب هذه المياه التى تكتنفهم فى كل مكان ٠

حينذاك عاد الملك « عمورى » الى مملكته ظافرا مجللا بالمجد فقد قهر أعداءه وتكللت حملته عليهم بالنجاح ٠

وكان قد حدث قبل هذا بقليل أن ضرغاما الذى كان له الحكم فى مصر كلها وسلطانا لها كما ذكرنا قد نحى عن نفس المنصب أميرا آخر قويا اسمه « شاور » ، وتوسل بالعنف تارة وبالمكيدة تارة أخرى لاحداث هذا التغيير ، الا أن الأمير شـاور نجح فى الفرار سالما بنفسه ومضى الى أبناء عشيرته العرب مستصحبا معه أصدقاءه وأتباعه ، وحاملا كل ما استطاع حمله من الأموال ، واختبأ هناك بين خاصته فى انتظار ما ينجلى عنه الموقف وتتمخض عنه الحرب ، وكان يطمع أن تسعفه قريبا الفرصة الطيبة ليقلب فيها المائدة على منافسه ، ثم بلغه خبر عودة الملك الى وطنه مع خبر استمرار خصمه فى الحكم ، جامعا بين السطوة والجاه، وازدهى الغرور ضرغاما فزاد عن ذى قبل ، وتباهى عن غير حق بأنه قاتل فى ساحة الوغى زعيما قويا(٦) ، وأرغمه على الارتداد من غير أن يمكنه من انزال الضرر الكبير بالبلاد ، لذلك أسرع شاور الى الأمير القوى نور الدين(٧) صاحب دمشق ملتمسا منه العون والنجدة راغبا فى عودته الى مصر ليخرج منها منافسه ضرغاما فيستعيد هوسيطرته على البلاد مرة أخرى فاستجاب نور الدين لعرض شاور واستمالته اليه هداياه ووعوده ، وطمع أن يستحوذ على مملكة مصر لنفسه لو تمكن جيشه من دخولها ، لذلك أردف شاورا بكبير فرسانه شيركوه المحارب القدير ، وكان شاور جم النشاط ، ذانفس متطلعة للمجد ، وصاحب خبرة واسعة فى الشئون الحربية ، هذا الى جانب ما كان عليه من الكرم الذى جاوز حدود دخل اقطاعه ، بالاضافة الى حب أتباعه له حبا عظيما ناجما عن سخائه عليهم وبسطه كف جوده اليهم ٠

وكان شيركوه رجلا ضئيل البنية ، شديد البدانة ، مفرط السمنة بصورة ظاهرة ، وقد تقدم به السن . وعلى الرغم من تفاهة أصله الا أنه ارتفع بموهبته من أدنى الرتب حتى بلغ مرتبة الأمراء، وكان يشكو من مرض باحدى عينيه ، ولكنه كان صبورا على تحمل الآلام والشدائد والجوع والظمأ تحملا غير مألوف .

هذا هو الرجل الذى أرسله نور الدين الى مصر على رأس جيش كبير ، وكانت الرسل دائمة التردد بينهما ، فعـــرف منهم الأمير ضرغام(٨) بأن عدوه الذى أخرجه من قبل عائد الآن بجيش تركى قوامه الآلاف المؤلفة من الجند ،وما لبث هذا الخبر أن ذاع وشاع .

ولما كان ضرغام قليل الثقة فى قوته الذاتية فقد اضطر لطلب النجدة على يد رسل بعثهم الى الملك « عمورى » ومعهم كتاب سلام ألح فى سطوره على التماس الغوث لمجابهة العدو الذى أصبح الآن يهدده بالهجوم عليه ،وتعهد ضرغام من جانبه ألا يقتصر على دفع الجزية التى كان قد اتفق عليها مع عمورى منقبل ، بل زاد فى المبلغ حسبما يقرر الملك ، كما صرح بأنه مستعد لارسال الرهائن اليه دليلا على صدق خضوعه الدائم له،وأنه عاقد العزم على محالفته محالفة لا يشجبها بأى حال من الاحوال .

— ٦ —

فى هذا الوقت وفى مستهل مارس من السنة الثانية من حكم الملك « عمورى » سار بطرس رئيس أساقفة صور الموقر المخلص لله فى الطريق الذى لابد لكل مخلوق أن يسير فيه ، وما انقضت أيام قلائل على ذلك ــ وقبل انصرام الشهر ــ حتى تم تعيين «فردريك »

أسقف عكا وكبير رجال كنيستها مكان بطرس حسب ارادة الملك ٠

كان « فردريك » ــ وهو من مواليد « لوثارنجيا » ــ نبيلا فى ذاته ، فارع الطول بصورة ملفتة للنظر ، وهو وان كان قد تلقى من العلم قسطا طيبا الا أنه كان مكرسا نفسه كل التكريس لفن الحرب(٩) ٠

ـ ٧ ـ

أخذ الرسل المصريون فى هذه الأثناء فى مفاوضة الملك ، وتوصلوا فى الواقع الى اتفاق ارتضاه الطرفان ، لكن حدث قبل قليل من رجوعهم الى ديارهم أن تمكن شاور وشيركوه المشار اليهما من دخول مصر على رأس عسكريهما ، والتقيا فى ساحة القتال بالسلطان ضرغام الذى هزمهما فى أول لقاء بين الجانبين هزيمة نكراء ، وحدث قبل أن يجربا حظهما فى معركة أخرى أن أصيب ضرغام بسهم غرب رماه به أحد رجاله(١٠) فمات منه فبكاه أتباعه احر بكاء ، فدخل شاور القاهرة اذ مات خصمه دخول الظـــافر المنتصر كما كان يتمنى ، وحكم السيف فى رقاب أصحاب ضرغام كلهم وأقاربه وحواشيه الذين أمكنه العثور عليهم ، وبذلك عاد الى المكانة السابقة التى كان عليها من قبل ، ولم يكن تولى هذا المنافس أو ذاك بأمر ذى بال عند الخليفة (العاضد) حتى يكترث به طالما أن هناك من سوف يكرس نفسه كالعبد لرعاية شئون مولاه الخاصة وشئون رجال المملكة ٠

وبادر شيركوه الى مهاجمة مدينة « بلبيس » القريبة منه واعتبرها من ممتلكاته الخاصة ، وظهر من أعماله بل ومن أقواله أيضا أنه عازم ــ لو واتاه الحظ ــ على اخضاع بقية البلاد لسلطانه

رغم وجود السلطان(١١) والخليفة ، لكن مالبث الفزع أن تسرب الى نفس شاور فقد خاف أن يؤدى استدعاؤه مثل هذا الضيف(١٢) الى الاضرار بصالحه الخاص وبصالح مولاه ، وأنه أدخل رجلا « أشبه بالفأر فى الصيوان ، وبالحية الرقطاء فى الصدر » ، وأن هذا الرجل سوف يجازى مضيفيه أسوأ المجازاة ، لذلك أسرع ما وسعته السرعة لارسال رسل من ناحيته الى « عمورى » فى الشام يحملون اليه رسائل الموادعة من سيدهم الذى زودهم بالصلاحية لينفذوا فى الحال بالقول والعمل شروط الاتفاق المبرم من قبل بين جلالة الملك والسلطان ضرغام وأن يقدموا ـ اذا دعت الضرورة ـ تنازلات أكبر مما سبق ·

ما كاد الاتفاق يبرم ويؤكد بين الطـــرفين حتى قام الملك (عمورى) فى السنة الثانية من حكمه بالزحف على رأس كل جيشه ومضى الى مصر للمرة الثانية حيث انضم اليه هناك شاور بمن معه من العساكر المصرية ، وحاصروا معا شـــيركوه فى مدينة « بلبيس » التى اعتصم بها كما لو كانت قلعته ، لكنه اضطر بعد الحصار الطويل وتحت وطأة المجاعة الى تسليم الموضع ، وكانت الشروط التى اشترطها هى السماح له بالرجوع الى بلاده بجميع قواته دون أى مضايقة ، فأذن له بذلك ومن ثم أخلى المدينة وعاد عبر الصحراء الى دمشق ·

ـ ٨ ـ

كان نور الدين فى هذا الوقت يذرع نـــواحى طرابلس فى موضع يعرف بالبقاع وكان زهوه العظيم الذى أحسه يرجع الى انتصاراته ، فقل اكتراثه وتراخى بعض الشــىء ، مما أســـفر عن نكبة فادحة كاد ألا يبرأ منها ، فقد قدم فى هذا الوقت رهط

كبير من النبلاء من بلاد «اكويتانيا» فى رحلة الحج للعبادة ، وكان من بينهم واحد اسمه «جود فروى» ويلقب « بمارتل »(١٣) ، وهو أحد اخوة كونت « انجوليم » و « هيج اللوزنيــانى » الكبير المنعوت بالأسمر ، فلما فرغوا من حجهم وفق العادة الجارية تابعوا سيرهم الى أرض أنطاكية ، وهنا علموا أن نور الدين لايزال موجودا فى ضواحى طرابلس بعسكره فى المكان الذى اشرنا اليه آنفا ، وكان الظان عنده انه من كل الأمان ، فكان يقضى فراغه فى الراحــة والاستجمام ، لذلك جمع الصليبيون قواتهم وباغتوا جيشه بغارة لم تكن فى الحسبان ، فأخذته الدهشة ووقع رهط كبير من رجاله فى الأسر ، ولقى أكثر منهم حتفهم بالسيف .

لقد دارت دائرة البوار على رجاله فهلك معظمهم عن آخرهم ، أما هو نفسه فقد نجا وان لم يشعر بالاطمئنان فى نجاته ، وقد ترك وراءه متاعه بل وسيفه وخرج حافى القدمين ، وامتطى احدى دواب الحمل اذ كان قاب قوسين أو أدنى من الوقوع فى أيدى قواتنا .

أما الصليبيون فقد عادوا منصورين الى وطنهم ، محملين بالأسلاب والثروات الطائلة .

وكان قائد هذه الحملة هو « جيلبرت دى لاسى » وكان رجلا شريفا سامى المكانة ، ومقاتلا تمرس بالحرب ، وهو فى الوقت ذاته قائد فرسان المعبد فى تلك النواحى ، ويعاونه الرجلان العظيمان المذكوران أعلاه ،وكذلك « روبرت مانزل » قائد العسكر الغاليين فى تلك الحملة وطائفة أخرى من الفرسان .

ـ ٩ ـ

بلغ الغضب بنور الدين ذروته ، واضطرب أشد الاضطراب ، واستبد به القلق ، واستولى عليه اليأس بسبب هذه النكبة الفادحة،

يتحرق لمحو العار الذى لحقه والثأر للبلاء الذى حل به وبمن معه من النبلاء ، فراح يلتمس العون من الأقارب والأصحاب ، وقل أن كان هناك أمير من أمراء المشرق لم يستدعه نور الدين الى مساعدته بل انه أخذ يلتمس المساعدة بالصلات وقطع العهد على نفسه بمكافأة الجميع ، وحشد فى الوقت ذاته عسكره ، وجمع الامدادات الحربية من شتى النواحى ، فأسفر ذلك عن جيش كثيف وآلاف من الفرسان الذين جمعهم وحاصر بهم حصن حارم أحد معاقل الصـــليبيين المسيحية فى امارة أنطاكية ، ونصب آلاته الحربية حوله بالأسلوب التقليدى ، وأسرع يغير عليه فى غضب جارف ، ولم يسمح للسكان بشىء من الراحة ·

وسرعان ما ترامى الى القادة الصليبيين نبأ نشاطه فأسرعوا فى لحظتهم الى «حارم » بالمشاة والفرسان الذين تسنى لهم جمعهم وكان من بينهم « بوهيموند » الثالث امير أنطاكية ، وريموند الصغير كونت طرابلس بن ريموند (كونت تولوزالصجيلى) « وكولمان » حاكم « كليكية » وهو أحد أقارب الامبراطور ، وكان له النظر فى الشئون الامبراطورية فى تلك الولاية ، ثم« توروس » أحد أمراء الأرمن وقد بلغ من القوة شأوا كبيرا ، فساروا بالعسكر الذين هم على أهبة القتال وفى عزمهم رفع الحصار رغم قوة نور الدين ·

غير أن الأمير(١٤) ومن معه من القادة البارثيين(١٥) قرروا بعد التشاور أنه من الأصوب رفع الحصار(١٦) والرحيل من تلقاء أنفسهم ، فذلك أجدى عليهم من المخاطرة بالتصدى للعدو الذى كان على وشك القدوم عليهم ، لذلك جمعوا أثقالهم وحرصـــوا على الارتداد سالمين ، غير أن الصليبيين قويت عزائمهم بما هيأته لهم مساعيهم من النصر فشرعوا فى تعقب العدو غير مكتفين بانقـاذ

المواطنين من الحصار الذى فرضه عليهم هؤلاء الأمراء العظام ، فاقدموا غير مبالين بقواعد التكتيك الحـــربى وانطلقوا على غير هدى ، وتفرقوا هناوهناك يطاردون أعداءهم الأتراك الذين سرعان ما استردوا شجاعتهم وبأسهم ٠

ثم وقع الصليبيون فى مأزق خطر حين وجدوا أنفسهم فى موضع شديد الضيق كثير الوحل والمستنقعات ، وقد كر الترك عليهم كرة عنيفة فرقوا فيها صفوفهم ، وهكذا أصبح الذين كانوا من قبل يبثون الفزع فى قلوب الترك ألعوبة يلهو بها الترك الذين أطبقوا عليهم من كل ناحية ومزقوهم بسيوفهم شر ممزق ، وفتكوا بهم أقبح فتك حتى لكأنهم القرابين تقدم أمام المذبح ، ولم يستطع أحد منهم استرداد شجاعته المفقودة ، بل لقد نسى كل منهم هيبته ومـــكانة آبائه فلم يقم أحدهم بمحاولة يدرأ بها النكبة التى نزلت بهم ، أو يقاتل دفاعا عن الحرية وعن أمجاد أسلافه ، ولم يعودوا يكترثون بما يمليه عليهم الشرف ، فألقوا سلاحهم ، وراحوا يتذللون للعدو كى يبقى على أرواحهم التى كان أجدى عليهم أن يبذلوها فى القتال بشجاعة من أجل أرض آبائهم ليكونوا مثلا تقتدى به ذراريهم ٠

فلما رأى « توروس » الأرمنى أن الغلبة صارت للترك وأن الهزيمة قد حاقت بالمسيحيين أجمع العزم فى هذه اللحظة الحرجة على النجاة بنفسه والابقاء على حياته بالانسحاب من أتون المعركة وكان من رأيه منذ البداية ألا يجدوا فى مطاردة الترك ،كما أنه بذل قصارى جهده فى ثنى الصليبيين عن محاولتهم هذه فلم يستمعوا له بل أخذوا بمشورة الآخرين الطائشة ٠

غير أن « بوهيموند » امير أنطـــاكية و « ريموند » كونت طرابلس استسلما للعدو ، ومؤثرين الحفاظ على روحهما حتى ولو

كلفهما ذلك أن يجلبا على نفسيهما العار والملامة ، واقتفى أثرهما « كرلمان » والى كيليكية ، و« هيج دى لوزنيان » المشار اليه من قبل وجوسلين الثالث كونت الرها وغيرهم من ســـراة النبلاء ، فصفدهم العدو فى الحديد كأخس العبيد ، وساقهم تجللهم الفضيحة الى حلب حيث زج بهم فى حبسها ، وصاروا تسلية للكفار ٠

تشجع نور الدين ومن معه بهذا النجاح وبالحظ الحسن الذى صادفوه فعادوا ثانية يهاجمون الحصن المنيع الذى كانوا يحاصرونه من قبل ،واتسم حصارهم اياه هذه المرة بثقة أعظم من السابقة ، حتى أنه لمتنقض أيام قلائل الا وقد تم الاستيلاء على المكان عنوة وقسرا ٠

وقد جرت هذه الحادثة فى اليوم الرابع قبل منتصف أغسطس من سنة ١١٦٥ م من مولد سيدنا ، وفى العام الثانى من حكم الملك عمورى الذى كان لايزال موجودا فى مصر وقتذاك ، لأن مشاغله بها استلزمت وجوده هناك ٠

— ١٠ —

خلفت هذه التغيرات الكبرى والناكبات الفظيعة بصماتها على أوضاع الصليبيين وأحوالهم ، فتدهورت معنوياتهم النفسية غاية التدهور ، ولم يبق الآن بصص من الأمل لهم ، فراحوا كلهم بقلوب يائسة يتوقعون أياما أشد أسودادا عما قبلها حين وصـــل اليهم « تييرى كونت فلاندرز » وفى صحبته أخت الملك وهى امرأة متدينة تقية ، وكان معه طائفة كبيرة من الفرسان ، ففرح الجميع بمقدمه ، وتلقوه بالغبطة فقد بدى لهم وكأنه نجدة كبرى أهديت لهم ، وكان مجيؤه أشبه بالنسمة الرقيقة بعد القيظ اللافح ، وطمعوا أن يتمكنوا بمعاونته لهم من الصمود حتى يعود الملك والجيش الصليبى ٠

لكن وا أسفاه !! فان هذه الحالة من الاطمئنان التى بدت أصفى ما تكون سرعان ما غطتها سحابة دكناء جاءت اليهم على غير انتظار فأحالت كل شىء الى ظلام دامس، « وتحولت الشمس الى ظلمة ، والقمر الى دم »(١٧) ، فقد شمخ نور الدين بأنفه تيها لنجاحه حتى لقد عزم على اغتنام الفرصة لمحاصرة مدينة «بانياس » ليقينه التام بخلو المملكة ممن اعتادوا الدفاع عنها بسبب الملك على رأس معظم قوة المملكة الحربية ولمعرفته بوجود القادة الكبار فى أسره بحلب ٠

وبانياس مدينة قديمة كل القدم ، تقع عند سفح جبل لبنان الشهير ، وكانت فى الأزمنة الغابرة وفى أيام اسرائيل تسمى « دان » وهى الحد الشمالى للأراضى الاسرائيلية ، كماكانت « بير سبع » الحد الجنوبى لها ، ومن ثم فانه عند الكلام عن طول أرض الميعاد يقال : « من دان الى بير سبع » ، كما نقرأ فى انجيل لوقا أن فيليبس بن هيرودس(١٨) حاكم ربع « ايطورية » وكورة تراخونيتس زاد فى رقعة تلك الناحية تكريما واجلالا للقيصر « طيبريوس » ورغبة منه فى تخليد اسمه هو ذاته فقد سماها قيصرية فيليبس ، كما أنها تعرف أيضا ببانياس ، لكن جماعتنا اللاتين حرفوا الاسم كدأبهم فى أسماء المدن فسموها « بلنياس »٠

وتتاخمها من الشرق أرض دمشق قرب الموضع الذى ينبع منه نهر الأردن ، وهذه هى المدينة التى ورد الكلام عنها فى الانجيل(١٩) حيث جاء « ولما جاء يسوع الى قيصرية فيليبس سأل تلاميذه قائلا : من يقول الناس انى أنا ابن الانسان » ٠ وهنا أيضا تسلم « بطرس » أمير الحواريين مفتاح مملكة السماء من السيد المسيح مكافأة له على اعترافه الرائع ٠

ولقد حاصر نور الدين هذا الموضع فوجده خاليا من كل مدافع عنه ، وذلك لأن صاحبه الذى ورثه وهو « همفرى » الكونستابل الملكى كان غائبا فى مصر برفقة الملك (عمورى) ، كما أن أسقف هذا المكان كان هو الآخر بعيدا عنه ـ أما الأهالى فقد نقص عددهم نقصا بينا بسبب ما جرى عليهم من القتل ، لذلك نصب نور الدين مكائن الحرب وآلات القتال فى هذه اللحظة ذاتها وأحدق بالبلد الذى تهدم سوره وضعفت أبراج معظم نواحيه بسبب القذائف الحجرية المستمرة مما حمل منكانوا بداخلها على الاستسلام بعد أيام قلائل على أن يؤذن لهم بمغادرة المدينة بما ملكته أيديهم سالمين من غير سوء ، وهكذا تمكن نور الدين من أخذ البلد فى سنة ١١٦٧ من مولد سيدنا .

وقد جرت هذه الحادثة فى السنة الثانية من حكم الملك « عمورى » وفى اليوم الثامن عشر من أكتوبر(٢٠) .

وكان الكونستابل المبجل قد عهد ببانياس عند رحيله لمصر الى واحد من خاصة فرسانه هو «وولتر دى كيسنوى» Quesony الذى يؤكد البعض أنه أهمل الدفاع عن المكان ، كما أشيع أكثر من هذا أنه تواطأ مع قسيس اسمه « روجر » من رجال الكنيسة وخانا الأمانة،حين قبلا من العدو رشوة ليسلماه الموقع ففعل،فلما عادالملك من مصر استبد الذعر الشديد بالخائنين مخـــافة أن يأمر الملك باعدامهما ، وليس بين أيدينا النبأ اليقين عن هذا الأمر ، الا ما نعرفه من أن المدينة استسلمت للعدو .

على هذه الصورة كان الوضع فى الشام ٠

وبعد أن تم للملك اخراج شيركوه على هذه الصورة من مصر وتنصيبه «شاور » سلطانا يكون له الحكم فى البلاد رجع الى القدس رجوع القائد الظافر حيث علم بأنباء الأحداث المحزنة التى جرت فى المملكة ، وعلى الرغم من ان بعض هذه الأخبار كانت قد بلغته من قبل الا انه اصغى الآن الى بيان مفصل عن تلك النكبات ، وعلم أن أهالى أنطاكية قد صاروا فى موقف يبعث على الاسى فراحوا يلتمسون منه المعونة ، ومن ثم نهض بدافع ما يكنه من الشفقة الأخوية والحب الصادق الى الاسراع الى أنطاكية المنكوبة ليقدم لها ما هى فى مسيس الحاجة اليه من العون ، واصطحب معه فى هذه المرة «كونت فلاندرز » يرعاه بعطفه ، وما كاد يبلغ أنطاكية حتى أخذ لنفسه صلاحيات أميرها فدبر أمورها فى صدق واخلاص ، وبذل لها من عنايته قدرا ربما كان أكبر مما يبذله فى العادة تجاه شئونه الخاصة ، كما بســـط مظلة الرحمة البالغة والحكمة العظيمة على جميع النبلاء والعامة على السواء ، فأقام فى كل مدينة رجلا كفؤا لادارة دفة جميع الأمور المتعلقة بأملاك الأمير ادارة أمينة دقيقة حتى اذا اطمأن باله الى حسن سير الأمور وانتظامها عاد أدراجه الى مملكته ، ومع ذلك فانه استعان بأتباع الأمير (بوهيموند) وأصـدقائه المخلصين فى متابعة الاهتمام بما يتعلق بتدبير الفدية يفتدون بها هذا الأمير ، وأتت جهـــود الملك النشطة ثمارها فعاد أمير أنطاكية فى صيف نفس السنة الى مكانته العظيمة وحريته السابقة بعد أن دفع قدرا كبيرا من المال بعد بقائه فى أسر العدو ما يقرب من سنة ، فلما قدر لبوهيموند أن يعود الى أنطاكية لم يركن الى الهدوء بل أبدى نشاطا كبيرا فى جمع الفدية

من أجل الرهائن الذين أسلمهم للعدو حتى لا يطاول بقاؤهم فى يده ٠

* * *

وكان امبراطور القسطنطينية (مانويل)(٢١) قد تزوج قبل قليل من هذا الوقت من «مارية » صغرى شقيقات الأمير « بوهيموند » الذى أسرع اليه فرحب به الامبراطور ترحيبا بالغا وأدناه اليه وأحسن معاملته كل الاحسان ، فأقام بوهيموند عنده بعض الوقت ثم عاد الىأنطاكية محملا من جلالته الامبراطورية بالهدايا والتحف الرائعة ٠

ربما بدى من العجب أن يقبل نورالدين ـ وهو من هو فى رجاحة عقله وبعد نظره ـ أن يطلق سراح أمير أنطاكية مع أنه كان ينفر على الدوام من تحرير أسراه المسيحيين ، ولا يكف عن التباهى بأنه قد أسر كثيرا من قومنا لاسيما ذوى المكانة الرفيعة منهم ، وعندى لهذا الأمر تفسيران محتملان أولهما أنه كان يخشى أن يتدخل الامبراطور (البيزنطى مانويل) بنفسه فيسأله اطلاق سراح الأمير بلا فدية فلا يجرؤ نور الدين حينذاك على رفض سؤال مثل هذا الحاكم الرفيع الشأن ٠

وأما ثانى التفسيرين عندى فربما أن نور الدين قدر أن يعمد أهالى أنطاكية ان طال حبس الأمير عنده ـ لاسيما وهو شاب ـ أن يدفعهم حرصهم على مصالحهم الى التماس واحد آخر يولونه مكانه، وربما يكون هذا الآخر أقوى من بوهيموند فيكون بذلك خصما أشد منه عنفا ، لذلك دله ذكاؤه وأرشدته فطنته الى أن الخير له فى أن يستمر بوهيموند فى حكم مملكته أنطاكية حتى لايحل محله من قد يكون أشد بأسا منه وأصعب مراسا فيصبح التعامل معه اذ ذاك أثقل ٠

والرأى عندى أن هذه النظرية الثانية تفسر الدوافع الحقيقية التى كانت تسيطر على نور الدين ، وهو الأمير اللبيب الفطن ·

وكثيرا ما ترد الاشارة الى أن شيركوه الذى ألى على نفسه الا أن يحطم الصليبيين كان قد احتل فجأة وعلى غرة منهم قلعة لهم قرب صـــيدا وتعرف بحصن صور ، ويعتبر معقلا حصينا لا يمكن اقتحامه ، لكن يقال ان الاستيلاء عليه تم برشوة حراسه ، واتضح صدق ذلك القول فى أنه ما كاد الحصن يستسلم حتى فر جميع من كانوا فيه الى أرض العدو ، ولم يبق فيه غير كبيرهم الذى شـاء قدره أن يتم القبض عليه وتكون نهايته أسوأ نهاية فقد شنق ·

وفى أثناء هذه السنة ذاتها(٢٢) امتدت يد الموت الى وليم ملك صقلية ذى الصيت المدوى وهو ابن الملك روجر ·

كما حدث قرابة هذا الوقت أيضا أن أخذ شيركوه قلعة شبيهة لتلك القلعة التى ذكرناها ، وكانت منيعة الجانب لا يمكن اقتحامها وهى واقعة وراء الأردن على حدود بلاد العرب وقدسلمها لشيركوه بعض الأخوة من فرسان الهيكل الموكول اليهم حراستها ، فبادر الملك فى ساعته اليها فى طائفة كبيرة من الفرسان نجدة لها ، فلما كان فى بعض الطريق وقد نزل على شواطىء الأردن جاءه الخبر بأن هذا الحصن قد سقط فى يد العدو فتبلبل خاطره ، وأمر بشنق حوالى أثنى عشر رجلا من الفرسان الداوية كانوا هم المسئولين عن هذا التسليم ·

وهكذا ففى السنة الثالثة من حكم عمورى ابتلى الصليبيون بكثير من المصائب ، وصارت المملكة كلها ـ بسبب خطايانا ـ تعانى أشد الأخطار التى تهددها ·

- ١٢ -

خلت الأصول من نص لهذا الفصل(٢٣) ٠

- ١٣ -

على هذه الصورة كان وضع قومنا يومذاك ٠

كما انتشرت فى كل النواحى فى هذه الآونة اشاعة تعددت مصادرها تقول ان شيركوه خرج على رأس قوة ضخمة من الفرسان الذين جمعهم من ممالك المشرق ومن الجهات الشمالية ، وأنه يستعد للاغارة على مصر مرة أخرى بقوة كبيرة ، ولم تكن هذه الشائعة نابعة من فراغ اذ كان شيركوه قد زار خليفة بغداد وهو أعظم حكام المسلمين وأخطرهم شأنا ، كما أنه يعتبر صاحب السلطان الأعلى بين الجميع ،فما جاءه شيركوه وحياه التحية المألوفة حتى شرع يفصل له ضخامة ثراء مصر ، وأنبأه أنها حوت كثرة عجيبة من كل رائع ونادر ، كما قص عليه ما عليه أميرها (الخليفة الفاطمى) من غنى فاحش وذكر له الأموال الكثيرة المتدفقة فى خزائنه من الضرائب والمكوس التى يفرضها على البلاد ومن دخله السنوى الهائل ، وزاد على ذلك فقال ان أهل البلاد قد استناموا الى حياة الترف واستراحوا الى البلهنية فوهنت حميتهم لطول عهدهم بالسلم الدائم ، وراح يكرر على سمع الخليفة مرة بعد أخرى أن الأمير الحاكم الآن فى مصر وأسلافه قد أقاموا خلافة منافسة لخلافته وخلافة أسلافه ، وأنهم تجرؤوا على القول بأن خلافتهم (الشيعية) هذه مكافئة لخلافة صاحب بغداد (السنية) التى لا يمكن أن يقارن بها شىء قط ، أضف الى ذلك أنهم بذلوا جهدهم فى الدعاية لشريعة أخرى وتعاليم تمام المخالفة لشريعة خليفة بغداد وتعاليمه ٠

وأدت كثرة تكرار شيركوه لهذه الأقوال على سمع الخليفة (العباسى) الى استجابة الأخير لتنفيذ رغائبه فكتب الى جميع من كان على مثل مذهبه من أمراء المشرق آمرا اياهم أمرا حاسما لا رجعة فيه بجمع جيوشهم والسير وراء شيركوه لمساعدته ٠

فلما ترامى هذا الخبر الى سمع عمورى نادى بعقد اجتماع عام فى نابلس لرسم خطة تؤدى الى افساد خطط الخليفة (العباسى) وقام الملك فى حضور البطرك والأساقفة ورؤســائهم وغيرهم من رجال الكنيسة وكذلك البارونات والناس قاطبة شارحا لهم شرحا وافيا مدى الخطر الذى يهدد المملكة ، وسعى السعى الحثيث فى طلب معونتهم ، ومن ثم فانه نظرا لهذه الظروف الطارئة المحيطة بهم فقد انعقد اجماعهم على أن يدفع كل فرد جزءا من عشــرة من أملاكه العينية من أجل انقاذ المملكة ، ثم وضع هذاالقرار موضع التنفيذ ٠

واستمرت الأخبار تترى بأن شيركوه قد زود بما يلزمه من الطعام لأيام طويلة ، وبكمية وفيرة منالماء ادخرها فى القــرب والروايا ، وأنه بدأ سيره عبر الصحراء ، سالكا الطريق الذى سلكه بنو اسرائيل حين دخلوا أرض الميعاد ، وحينذاك حشد الملك كل ما استطاع حشده من الفرسان وأسرع فى الخروج لمواجهـــة شيركوه وصده ،وظل يتقدم حتى بلغ موضعا يعرف بقادس بارنيه Kades Barnea فى الصحراء ، لكنه لم يجد خصمه هناك ، فبادر فى ساعته لقص أثره ٠

ـ ١٤ ـ

صدر الأمر حينذاك الى المنادين أنينادوا بأن يخرج عسكر كل مدينة من مدن المملكة : فرسانا كانوا أو مشاة ، وتكون عسقلان

مركز تجمعهم ، حتى اذا كان اليوم الثلاثين من يناير بدأ الجيش زحفه حاملا معه ما يحتاجه من المئونة اللازمة للرحلة ، واستطاع بخطى قوية أن يجتاز صحراء التيه المترامية الأطراف الواقعة بين غزة التى هى آخر مدن المملكة وبين أرض مصر عند قلعة العريش القديمة بالصحراء ، وهنا أحصوا عسكرهم وتلبثوا فى انتظار بقية الجيش الذى تكامل بوصوله الى المدينة المعروفة الآن ببلبيس (٢٤) وان عرفت فى الأزمنة القديمة باسم « بيلوزيوم » التى سابقا وردت بهذا الاسم فى سفر الأنبياء ·

اشتد الفزع بالسلطان شاور اذ علم بحضور الملك عمورى ، وطار قلبه شعاعا عند ظهور الصليبيين الفجائى ، وساوره القلق من العسكر الزاحف وخاف أن يوجه هذا الزحف الحربى ضده هو ذاته ومع أن المعروف عنه أنه كان حاكما لبيبا قادرا ، واشتهر ببعد نظره الا أنه أبدى فى هذه المناسبة جبنا شديدا وجهلا فاضحا ، ومع أنه كان يعلم بالسبب الذى حدى بنا للحضور الا أنه لم يطمئن الى صدق ما علم ، وانتهى به الأمر أخيرا ــ وان جاء متأخرا جدا وفى تردد ــ الى ارسال كشافته الى الصحراء يأتونهبالنبأاليقينحول حركات العدو ، فلما عاد اليه رسله أنبأوه بأن العسكر التركى قد وصل الى « اطفيح »(٢٥) ، وان ذاك تعجب السلطان من شدة وفاء الصليبيين وأثنى عليهم الثناء العاطر ، وبادر ــ اعترافا منه بوفاء الجيش الصليبى تجاه حلفائه المصريين ــ فوضع رهن تصرف الملك كل ما تملكه الدولة والخليفة من الأموال ، كما أظهر منذ ذلك اليوم الحماسة القصوى فى تنفيذ جميع رغبات الملك « عمورى » الذى أصبح قادرا على تحقيق كل ما كان فى حاجة اليه بفضل هذه الأموال ·

من الصليبيون فى طريقهم بمدينتى بلبيس والقاهرة التى كانت بمبانيها الفخمة تعتبر مقعد السلطة الملوكية وتمثل مجد مصر الرفيع الرائع ، فضربوا معسكرهم على اليسار من المدينة الجليلة الشهيرة المسماه ببابليون(٢٦) والمعروفة فى العربية باسم « مصـــر » ولم أستطع الوقوف على اسمها الذى كان يطلق عليها فى الأزمنة القديمة ذلك لأن بابليون كانت مدينة بالغة القدم فى الشرق ، ولكن التواريخ التى تؤرخ للعصور القديمة لا تشير الى أى مدينة بهذا الاسم منذ أن عرفت مصر فى الوجود ، ومن ثم فمن المحتمل أن لاتكون قد تأسست فى عهد الفراعنة الذين كانوا أول من حكموا مصر ، ولا زمن البطالمة الذين تولوا الحكم فيما بعد ، بل ربما كانت ترجع الى عصـــر الرومان الذين حولوا مصر الى ولاية رومانية ٠

أما فيما يتعلق بمدينة القاهرة فالمعروف أنها تأسست على يد جوهر (الصقلى) بعد أن تم له فتح كل بلاد مصر وهو قائد جيوش المعز لدين الله (الفاطمى) الذى كان له الحكم انذاك فى أفريقية ٠

أما كيف حدث هذا الأمر فلذلك قصة نسردها فيما بعد ٠

يذهب بعض المؤرخين للجزم بأن « بابليون » هذه هى مدينة « ممفيس » القديمة الرائعة التى طبقت شهرتها الآفاق ، والتى كثيرا ما وردت الاشارة اليها فى كتب التاريخ القديم وفى الأنبياء والتى قبل انها كانت عاصمة المملكة كلها وكثير من الولايات المجاورة ، وانها هـــى واســطة عقدها ، على أنه لايزال يوجد حتى اليوم على بعد عشرة أميال وراء النيل الذى يجرى الى جوار بابليون التى نتكلم عنها الآن ، أقول لاتزال توجد حتى اليوم أطلال مدينة جليلة

كبيرة الاتساع تشهد بعظمة مندثرة ، ويصر سكان تلك النواحى على أن هذه هى ممفيس الدارسة ٠

وعلى ذلك فمن المحتمل أن يكون أهالى « ممفيس » قد رحلوا عنها تحت ظروف الحاجة الملحة أو لأن هذا المكان (الجديد) كان أنفع لهم ، ومن ثم نقلوا مساكنهم الى الضفة الأخرى من النهر ، وحدث فى ذلك الوقت – أو ربما بعد حين – أن تغير اسمها القديم الأصلى .ونحن لا نشك فى أن مولاه الأمير العظيم (المعز لدين الله الفاطمى) كان قد أرسل مولاه جوهر الصقلى مؤسس القاهرة على رأس العسكر لفتح مصر ، فلما تم له فى سنة ٣٥٨ هـ التغلب على كل البلاد وفرض الجزية على الأهالى أنشأ هذه المدينة قرب بابليون وأصبحت المقر الأثير عند سيده واتخذ مقامــــه بها ، فلما انقضت ثلاثة أعوام على هذا الفتح غادر المعز « القيروان » التى كانت كرسى مملكته لسنوات عدة ، ثم بذل غاية اهتمامه ليجعل من القاهرة بلدا رائعا يليق أن يكون عاصمة لدولته ومقرا لها ٠

وقد جرى هذا سنة ٣٦١ هـ أعنى فى العام العشرين من ولاية المعز – حسبما أفضنا فى ذلك بموضــــع آخر من كتابنا عن أمراء المشرق ٠

– ١٦ –

حينما ضرب الصليبيون معسكرهم على شاطىء النهر وعلى بعد أقل من مرحلتين من المدينة المذكورة آنفا عقدوا مجلسا من بينهم وطال الجدل فى الاجتماع ، ونوقشت فيه الآراء المختلفة مناقشة جدية حتى انتهى الرأى بهم الى أن خير ما ينبغى عليهم عمله هو أن يسيروا لمواجهة شيركوه وقواته قبل اجتيازهم النهر ، كما رأوا

أن منعه من دخول المملكة (المصرية) أصوب منمقاتلتهم اياه بعد أنيكون عسكره قد شقوا طريقهم اليها ، وان ذاك تصــعب على الصليبيين العودة ثانية للعبور ، وهو أمر يؤدى بهم الى مقاتلته قتال اليائس ·

وعلى الرغم من ذلك فقد نقضوا خيامهم وأغذوا السير الى الوضع الذى كانوا يتوقعون أن يكون العدو معسكرا عنده ، ويقال ان هذا الموضع كان يبعد قرابة عشرة أميال عن المكان الذى كان جنودنا معسكرين فيه من قبل ، فلما وصلوا الى هناك علموا أن شيركوه ــ وهو القائد المحنك ــ قد اجتازه بكل جنده تقريبا ، ولم يبق منهم الا شرذمة قليلون فبادر رجالنا الى القبض عليهم وتقييدهم ولما شرع الصليبيون فى استجوابهم أفادوهم بأخبار عظيمة النفع لا سيما فيما يتعلق بعبور شيركوه للنهر وعن عدد عسكره ·

وأماطت أقوالهم اللثام عن حقيقة كانت مجهولة لرجالنا تلك هى أنه بعد اجتياز قوات شيركوه لصحراء جنوب سورية فاجأتهم زوبعة ارتفعت معها ذرات الرمل ارتفاعا عاليا ودارت فى الجو على غير توقع من أحد ، ثم انعقدت أمامهم كأنها كسف السحاب القاتمة أو الضــباب الكثيف ، فلم يجرؤ أحد منهم على فتح فمه للكلام مع رفيقه ، وأغمضوا كلهم عيونهم ولم يستطيعوا فتحها ، فترجلوا عن جيادهم وانطرحوا على الأرض معتصمين بها وأنشبوا أيديهم فى الرمال حتى لا تجرفهم العاصفة الهوجاء فترفعهم الى أعلى ثم تلقيهم أرضا ، ذلك أنه قد يهب فى الصحراء عواصف رملية كعواصف البحر فترتفع ثم تهوى كالسيل ، مما يجعل عبور هذه المناطق لا يقل خطورة عن ركوب ظهر الماء ·

ثم عاد الجو ثانية صحوا لطيفا بعد أن ظلوا(٢٧) أياما عدة هائمين على وجوههم هنا وهناك وقد ضلوا السبل فلا يعرفون أى

الطرق يسلكون ، ولم يعد لهم من مطمع سوى البقاء أحياء فظلوا هكذا حتى انتهى بهم الأمر الى الوصول الى ما ذكرنا بعد أن نفقت جمالهم ، وضاع الجانب الأعظم من مئونتهم ، وهلكت طائفة كبيرة من رجالهم ، وتشرد أكثر منها فى هذه الصحراء المضلة الشاسعة التى لا حدود لها ٠

ولما اتضح أن شيركوه ورجاله قد عبروا النهر قام جيشنا فتعقبهم سالكا نفس الطريق الذى كانوا قد جاءوا منه ، وضربوا معسكرهم على شاطىء النهر قرب المدينة التى غادروها من قبل ٠

ـ ١٧ ـ

أيقن شاور الآن أنه من المستحيل عليه أن يقاوم هؤلاء الخصوم الذين دخلوا مملكته حتى بلغوا أقصاها ، وأنه عاجز عن طردهم منها بعون يرفده به الملك ، ومن ثم بذل غاية جهده ليعرف أضمن وسيلة يمكنه بها استبقاء عمورى فى مصر فقد خشى أن يحمله الضجر من المصاعب التى يلقاها على العودة الى بلاده ٠

والواقع أن شاور أدرك أن الوسيلة الوحيدة لاستبقاء الملك فى البلاد انما تتمثل فى أن يقوم من جانبه بمضاعفة الجزية التى التزم بدفعها له حتى تكون هذه الجزية كافية لسداد نفقات الملك ذاته ونفقات باروناته ٠

لذلك عزم على أن يجدد الاتفاقيات القديمة ويعقد صلحا دائميا بين الملك (الصليبى) وبين الخليفة (الفاطمى) وقد استصوب الصليبيون هم أيضا هذه الشروط، على أن يقوم هذا الصلح على أساس ثابت لاينقض ولا يشجب ولا ينصرم أجله بحال من الأحوال،

وما من سبيل الى ذلك الا بزيادة الجزية السنويةمع اضافةمبلغمعين من المال يكون منحة للملك من خزينة الخليفة ، لأن الأمر كما بدى للعيان كان امرا لا يمكن انجازه بيسر بل يتطلب المزيد من الجهد والزمن .

وبعد مناقشة مطالب كل من الجانبين ورغباتهم قرر المسئولون عن اعداد الاتفاقية وعن ترتيب الشروط أن تدفع (مصر) للملك أربعة الاف دينار ذهبى منحة لا ترد ، يعجل بنصفها حالا ، أما النصف الآخر وقدره مائتا ألف دينار ذهبى فيرسل فى أوقات معينة حددوها فيما بينهم ، وكانت الشروط كالتالى :

« يؤكد الملك عمورى بخط يده وبصدق من غير غش ولا سوء نية على أنه لن يغادر أرض مصر حتى يتم القضاء على شيركوه وجميع عسكره ، أو يخرجوا من البلاد عن بكرة أبيهم » .

ووافق الطرفان على هذه الشـــروط ، وأراد الملك أن يظهر رضاءه عن الاتفاقية فمد يده اليمنى مصافحا نواب الخليفة ، كما اختار فى الوقت ذاته « هيج » صاحب قيصرية ، وكان شابا على جانب كبير من العقل والحكمة الرائعة وحسن التصرف لا يتوقعها أحد ممن كان فى مثل عمره ، وأرسله مع نفر آخرين ليحصلوا على موافقة الخليفة على العهد المتفق عليه لأن موافقة الوزير وحدها فى مثل هذا الموضوع بدت غير كافية .

– ١٨ –

ولما كان قصر هذا الحاكم (أعنى الخليفة الفاطمى) فريدافىنوعه ويسير على تقاليد لم نألفها فى الغالب فى عالمنا (الغربى) فقد رأيت من الأوفق أن أدون بالتفصيل ما وقفت عليه من الأخبـــار

الموثوق بها والتى رواها من زاروا هذا الأمير(٢٨) العظيم ، وأن أصف أحواله وعظمته وثراءه الفاحش ، وأبهته التى تفوق الوصف، ذلك أن الحصول على فهم دقيق لكل هذا لن يذهب هباء من غير جدوى لقرائى ·

لقد دخل القاهرة « هيج القيصرى » وسفارته التى بعثناها الى هناك ، وفى صحبته « جورد فروى فولشر » أحد فرسان الداوية، وكان دخولهم اياها فىحماية حرس السلطان فلما بلغوا القصر الذى يسمونه فى اللغة المصرية بالـ Cascare (٢٩) سار بهم الحرس فى دهاليز ضيقة ليس فيها بصيص من النور،ووراءهم عدد كبير من المرافقين حاملى السيوف ، كما رأوا عند كل مدخل زمرا من السودان المسلحين الذين يبالغون فى اظهار توقيرهم للسلطان بكثرة تحياتهم له ·

ولما اجتازت السفارة طائفتى الحرس الأولى والثانية جىء بالرسولين جود فروى فولشر وهيج القيصرى الى ساحة كبيرة فسيحة غير مسقوفة تأذن للشمس بالدخول ، وتؤدى الى ردهات ذات أعمدة رخامية منقوشة برسوم بارزة ، تحمل سقوفا ذهبية ، وحولها أرضيات من الأحجار المختلفة الألوان وتبدو فى هذا المكان كل مظاهر الأبهة الملوكية التى أبدعتها يد الصانع الماهر مما يشير الى روعة الصنعة · هذا الى أنها بلغت حدا من الابداع تجعل العين لا تستطيع الا أن تحملق فى دهشة من روعة هذا الجمال النادر الذى لا يكل المرء من التطلع اليه ، فهناك برك من الرخام للسمك ملآى بالماء الصافى ، وهنا طيور من شتى الأنواع لانعرفها فى عالمنا ، وهى أكبر حجما من الطيور التى ألفناها ذات أشكال عجيبة وألوان متنوعة ، وتغريدها يختلف عما نألفه ، وكان طعام

كل منها يختلف عن طعام الآخر حسب أنواعها ، اذ لكل نوع منها طعامه الخاص به ٠

وتقدم كبير الخصيان بهيج (القيصرى) وبصاحبه من هذه الساحة الى مبان تبز فى روعتها تلك المبانى التى تسنى لهما مشاهدتها حتى هذه اللحظة ، فقد كان ما وقعت عليه عيونهما أخيرا أروع من كل ما شاهدته العين من مبان تبدو عادية ، فقد كانت هناك مجموعات عجيبة من الحيوانات تتحدى يد الفنان ابداع مثلها ويعجز خيال الشاعر عن تصورها ، اذ كانت أشبه بما يراه النائم فى حلمه ، ولكنها مخلوقات موجودة فى الواقع فى بلاد الشرق وفى الجنوب ولكن لم ير الغرب مثيلا لها أو يسمع عنها الا نادرا ، غير أنها كانت بلا جدال من الأماكن التى استمد منها كاتبنا « سولينوس » ما ذكره فى كتابه ٠

ـ ١٩ ـ

وانتهى المطاف بهؤلاء السفراء المبعوثين الى القصر بعد اجتيازهم كثيرا من الممرات المتعرجة ، وسلوكهم طرقا يضل فيها المرء وتستلفت عجائبها انتباه الجميع حتى أكثر الناس استغراقا فى تأملاتهم ، ولما بلغوا القصر وجدوا جماعات أكثر عددا وكلهم من حملة السلاح ، وأرتالا من الأتباع يدل مظهرهم وكثرة عددهم على عظمة مولاهم التى لا تقاربها أية عظمة ، كما أن منظر المكان يدل دلالة صريحة على ما عليه الحاكم من الثراء الفاحش الذى لا يماثله ثراء ٠

ثم سير بالمبعوثين الى القسم الداخلى من القصر حيث أظهر السلطان (شاور) التوقير الذى اعتاد اظهاره لمولاه ، فقد انطرح

على الأرض مرتين وقدم فروض الطاعة المهينة كما لو كان يقدمها لاله معبود ، وذلك ترجمة عن اجلاله الذليل له ، ثم ركع على الأرض مرة ثالثة ثم أمسك بسيفه الذى يتلقده والذى يتدلى من عنقه وألقاه على البساط ، واذ ذاك انزاحت فى سرعة عجيبة الستائر المرصعة بالجواهر والذهب وظهر العرش خلفها ، والخليفة ســـافر الوجه جالس على تخته الذهبى ، وحوله طائفة من مستشاريه وعبيده ، وقد بدى منظره أكثر من منظر ملوكى ، فدنى السلطان (شاور) منه بكل احترام وقبل فى مذلة قدميه وهو على عرشه ، ذاكــــرا له الغرض من زيارة المبعوث (الصليبى) وفحوى شروط الاتفاق وحاجة المملكة(٣٠) الشديدة اليه ، كما شـــرح له أن فى قلب الامبراطورية(٣١) ذاتها عدوا(٣٢) شــــديد المراس ، وأوجز فى كلمات قـلائل ما هو مطلوب منه كخليفة ، وما ســـيقدمه الملـك (الصليبى) لقاء ذلك ، فأجاب الخليفة بوجه طلق غير متجهم وفى مودة ظاهرة وقال انه مستعد للوفاء بنصوص الاتفاق الذى اتفق عليه الجانبان وارتضياه ، وأنه يفعل ذلك وفاء منه للملك (عمورى) وبنفس راضية غاية الرضاء تقديرا منه له ٠

حينذاك التمس الصليبيون من الخليفة ان يحذوحذوهيج فى تأكيده ما قال بيده ، لكن حدث فى بادىء الأمر أن اضطرب رجال البلاط الذين يحيطون بالخليفة ، كما فزع من هذا الطلب مستشاروه وكبار حاشيته المسئولين عن تنفيذ خطط الخليفة ، وكان انزعاجهم ناجما عن أن مثل هذا المطلب شىء لا تتصوره عقولهم أبدا ، غير أن الخليفة استجاب بعد لأى وطول جدل وتحت الحاح (وزيره) المستمر ، فمد يده ولكن على مضض منه وكانت مغطــاة ، وزاد من فزع المصريين الذين دهشوا غاية الدهشة من أن يتحدث شخص ما الى الخليفة بالصراحة التى تحدث بها « هيــج » معه اذ قال له : « مولاى ، ان العهد الصادق لا يخفى شيئا ، لكن اذا كان الأمراء

الكبار صادقين كل الصدق مع أنفسهم فيجب أن يكون كل شيء واضحا جليا ، وأن تكون الصراحة طابع ما يقولون ، في رفض أو قبول الشروط المقدمة ، ومن ثم فانه اذا لم تبسط يدك عارية فاننا نكون مضطرين للظن بأن عندك اعتراضا أو تحفظا مرجعه النقص في الاخلاص » ٠

وأخيرا وضع الخليفة(٢٣) يده من غير قفاز في يد « هيج » وقد فعل ذلك على كره منه كما لوكان هذا العمل يقلل من هيبته الملوكية ، ورفت ابتسامة خاطفة أزعجت المصريين ثم راح الخليفة يردد كل ما يقوله « هيج » كلمة بعد الأخرى وهو يملي صـــورة الاتفاقية ، وأقسم صادقا بلامين ، أو سوء نية على ألا يشجبها ٠

كان الخليفة كما حدثني « هيج » شابا على جانب كبير من الخلق الكريم لم تنبت لحيته الا منذ وقت قريب جدا ، وكان طويل القامة ، أسمر البشرة ،رائع البنية ، وعنده زوجات كثيرات ٠

وبعد انصـــراف المبعوثين(٣٤) أرســل الخليفة اليهم الهدايا والتحف رمزا لسخائه الملوكي ، وكانت هذه الصــلات في كمها وكيفها مما زكت العطاء الخليفي أكبر تزكية في نفوس السفراء الذين غادروا الحضرة الخليفتية وهم في غاية السرور وعادوا الى ديارهم ٠

ـ ٢٠ ـ

أما وقد وصفنا عظمة الخليفة بناء على ما ذكره لنا أولئك الذين شاهدوا بأعينهم ما ذكروه لنا فاننا نواصل الآن الخبر عن عظمته ، وأصل ذلك وتطوره بقدر ما نعرف ، ونحن نستمد هذا البيان من النظر في كتب تاريخ العصور السالفة ، وكذلك من

شهادات الكثيرين التى يوثق بها كل الثقة ، ذلك لأنه سوف يكون من المستحيل ـ من غير الاستعانة بالتاريخ ـ أن نفصل للقارىء هذه الأمور ·

***

يطلق قوم مصر على أميرهم اسمين ، أحدهما هو « الخليفة » أى الوريث لأنه يشغل نفس مكانة نبيه العظيم وهى المكانة التى تعطى « الخليفة » شرعه ·

وأما ثانيهما فانهم ينادونه « بمولانا»(٣٥) أى مالك أمورنا ، ويظهر أن الأصل فى ذلك يرجع الى عهد « فرعون » حين جاء يوسف(٣٦) الشهير واشترى اقليم مصر كله ، واضطر الأهالى تحت وطأة المجاعة المروعة لبيع كل ممتلكاتهم فقام يوسف وجعل كل السكان والأراضى من أدناها الى أقصاها خاضعين لفرعون ، وقال للمزارعين :

« عليكم أن تقدموا الخمس للملك ، أما الأربعة أخماس الباقية فانى آذن لكم أن تقوموا بفلاحتها لتعيشـــوا عليها أنتم وذووكم وصغاركم » ·

لقد اشترى يوسف أولا أملاكهم ثم اشتراهم هم أنفسهم ·

وهكذا ارتبط المصريون بمولاهم برباط وثيق غليظ أشد مما ارتبط به سكان أى بلد بحاكمهم ، وهذا الأمر يفسر لنالماذا هم مرتبطون به ارتباط العبودية ·

هكذا صار المصريون عبيدا لحكامهم حتى لقد راحوا ينادون فيما بعد أميرهم بكلمة « مولانا » التى تنطوى على الاحترام ، وقد ترسخت هذه الظاهرة فى أيام الفراعنة وانتشرت فى عصر البطالمة ثم استمرت خلال عهد الرومان الذين أنزلوا البلد ـ كعادتهم فى

فتوحاتهم الآخرى ـ الى مرتبة الولاية ، ولايزال هذا الوضع القديم مستمرا مما يجعل فى الواقع أمير مصر لا يتحمل أبدا أية مسئولية ولا يدرى شيئا عن الاضطرابات والفتن ، ومن ثم ينصرف تمـــام الانصراف الى مافيه متعته ، على حين أن حاكما كيوسف(٣٧) ذى العهد القديم يقوم بتصريف كل أمور المملكة معتمـدا فى ذلك على قوة السيف ومنفذا العدالة بدلا من مولاه ، ويسمى هذا الحاكـــم بالسلطان . وكان يتقلد هذه الوظيفة (حينئذ) شاور الذى أشرنا اليه كثيرا ٠

\- ٢١ -

أما الســـبب فى لقب الخليفة فهو كما يلى : ذلك أن محمدا نبى المسلمين(٣٨) عليه الصلاة والسلام) خلفه بعده مباشرة أحـد أتباعه واسمه أبو بكر الذى خلفه هو الآخر عمر بن الخطاب ثم جاء من بعده على ابن أبى طالب(٣٩) ، ونعت كل من هؤلاء الأربعـــة بالخليفة وكذلك من جاءوا بعدهم لأنهم جميعا خلفوا النبى ، وكانوا ورثته ، على أن خامسهم عليا كان محاربا أكثر من أسلافه وأعلم من معاصريه بالأمور الحربية ، ثم أنه فوق ذلك كله كان ابن عـــم محمد (عليه الصلاة والسلام) فرأى أن ليس من الملائم الاقتصار على نعته بأنه ابن عمه ٠

....(٤٠)

....

....

ومات على غيلة فآلت السيادة الى يد الحزب المناهض له . وأصبحت مملكة الشرق تحت سلطان خلفاء محمد (عليه الصلاة

والسلام) ، فلما صارت القوة فى أيديهم ألجموا جميع أصحاب الرأى المعارض ، فلما كانت السنة المائتين والسادسة والثمانين بعد موت الرسول قام رجل بارز يدعى « عبيد الله بن محمد بن جعفر بن محمد بن على ابن الحسين بن الامام على «فخرج منمدينةسلمية(٤١) بالمشرق ومضى نحو أفريقية حتى اذا فتح كل بلادها أعلن نفســـه المهدى(٤٢) وبنى مدينة عظمى سميت بنعتهمى«المهدية»شاءهاأنتكون عاصمة ملكه وبلدا ضخما يفوق كل ما سواه من البلدان ، كما أنشأ أسطولا احتل به صقلية وخرب بعض أجزاء من ايطاليا ، وكان هو أول من تجرأ من بين جميع من جاءوا من ذرية (الامام) على ، ولقب بالخليفة يعنى « خليفة على » الذى هو الامام دون غيره ، ثم قام واحد من ذريته واسمه « أبو تميم » ويلقب بالمعز فبعث قائده جوهر الصقلى فاستولى على مصر وشيد القاهرة التى معناها « الغالبة » لأنه شاءها أن تكون مقام سيده العظيم ومولاه « قاهر » الجميع » .

وترك هذا الخليفة (المعز) مدينة القيروان الواقعة فى ولاية أفريقية التى كان قد أقام بها أربعة من أسلافه ومضى الى القاهرة المذكورة حيث اتخذها قاعدة لملكته ، ولكنه لم يحدث منذ ذلك الوقت حتى الآن(٤٣) أن تولى حكم مصر منافس لخليفة الشرق الذى كانت له الرياسة على مدى سنين كثيرة .

واذا أراد أحد أن يعرف المزيد عن هذه الأمور فليقرأ التاريخ الذى راعينا الدقة الكبيرة فى كتابته وجمعنا مادته من المصـــادر العربية باشارة من الملك عمورى وبأمر منه ، اذ أنه تاريخ يتعلق بأمراء المشرق وأعمالهم منذ زمن محمد (عليه السلام) أى أنه يغطى فترة من التاريخ تبلغ خمسمائة وسبعين عاما ، أعنى حتى السنة الراهنة سنة ١١٨٢ من مولد المسيح .

حين جددت الاتفاقية(٤٤) ووافق الطرفان على بنودها كما فصلنا ذلك من قبل ،راحا يشمران عن ساعد الجد لانجاز العمل الذى بين أيديهم ، واستعدوا لمهاجمة العدو(٤٥) واخراجه من كل أرجاء البلاد ، غير أن دخول الليل أتاح لهم لحظـــات من الراحة تستجم فيها أبدانهم . فلما أسفر الصباح وجدوا الموقف قد تغير بعض الشىء ذلك ان شيركوه كان قد وصل خلال الليل وعسكر على الجانب الآخر من نفس النهر فى مواجهة عسكرنا ، واذ ذاك أمر الملك باحضار المراكب وجذوع أشجار النخيل الموجود هناك بكثرة وبنى من ذلك كله جسرا وأمر بجلب السفن وربط كل اثنتين منهما بعضهما ببعض بالهلب ، ثم بسطوا عليها الواح الخشب وهالوا عليها التراب ،فتم بذلك تدعيم الجسر بأبراج خشبية مزودة بالآلات الحربية ، واستمروا فى هذا العمل بضعة أيام حتى بلغوا وسط النهر ثم توقفوا خوفا من أن يحول العدو بينهم وبين مد الجسر الى الشاطىء المواجه لها ، وتوقفت جميع أعمال المقاومة لشهر أو يزيد ، لأن الصليبيين أصبحوا عاجزين من جانبهم عن عبور النهر، كما أن الأعداء لم يجرؤوا على القيام بمثل هذا العمـــل تجنبا لغارة نشنها على مؤخرتهم .

هكذا كان الموقف فى مدينة القاهرة .

وفى خلال فترة الهدوء هذه كان شيركوه قد أرسل طائفة من الرجال للاستيلاء - ان امكن - على جزيرة مجاورة زاخرة بشتى أنواع المئونة ، راجيا من وراء ذلك أن يتمكن من منع الصليبيين من الاغارة عليها فيما بعد ، ولقد تم انجاز هذا العمل (من جانب شيركوه) على أحسن صورة ممكنة .

ما كاد الملك يسمع بخبر استيلاء العدو على الجزيرة حتى بادر فأرسل اليها « ميلون دى بلانسى » والكامل بن السلطان (شاور) على رأس فرقة من الفرسان ، فلما جاؤوها وجدوها وقد فرغ الترك حالا من احتلالهم اياها ، وانهم كانوا يسومون الأهالى المذلة ، فهاجموهم فى لحظتهم وشبت معركة قاتل فيها كل من الجانبين قتالا ضاريا وانتهت أخيرا بانتصار الصليبيين بعون الرب، اذ أرغموا العدو كله على الاندفاع شطرالنهر الذى ابتلعت مياهه النادرة بعض من نجوا من القتل بالسيف ، وهلك فى هذا اليوم من عسكر العدو ورجاله بمختلف صور الهلاك خمسمائة نفس ، فلما سمع شيركوه بذلك تملكه الغضب واستولت عليه الشكوك القاتلة عن مدى النجاح الذى يمكن أن تحرزه حملته ٠

* * *

كانت الأمور تجرى على هذه الصورة حين وصل الى ساحة القتال اثنان من رجال الملك من ذوى الرأى ، هما الكونستابل الملكى « همفرى » صاحب تورون و « فيليب » صاحب نابلس وكانا قد تخلفا عن مرافقة « عمورى » لأمور شخصية ، ثم ما لبثا أن لحقا بالجيش وانضما الى معسكرنا ، فهب العسكر للترحيب بهما وهم أشد ما يكونون غبطة وسرورا لما ذاع بين الناس من شجاعتهما وبراعتهما فى حمل السلاح والتمرس بأعمال الحروب منذ نعومة أظفارهما ٠

لذلك انعقد فى الحال مجلس للتشاور فى الخطة التى ينبغى اتخاذها ، وانتهى اجماعهم الى وجوب اغتنام فرصة سكون الليل فيخرج الأسطول كله دون أن يعلم العدو بخروجه ويمضى الى جزيرة واقعة أسفل المعسكر على بعد ثمانية أميال تقريبا ، واتفقوا على أن يخرج الجيش فى أول نوبة حراسة ليلية على العبارات فيجتاز النهر ، ثم يهاجم العدو تحت جنح الظلام ويصيبه بأكبر خسارة ممكنة ٠

وصدر الأمر بتنفيذ هذه الخطة ، وسرعان ما مضى الأسطول الى الموضع المتفق على مهاجمته والعدو فى جهل بخبره ، وسار الجيش فى أثر الأسطول الى الموضع المتفق على مهاجمته والسكون مطبق على الكون تمام الاطباق ، وما لبثوا أن وصلوا الى هناك وتم لهم الاستيلاء على الجزيرة ٠

وبينما كانوا يحاولون اجتياز آخر نقطة فى مجرى النهر وهم على ما هم عليه من التوفيق فى تنفيذ الخطة اذا بريح عاصفة تهب فجأة وتحول بينهم وبين اكمال غرضهم ، فاضطروا لأن يعسكروا حيث هم فى تلك الناحية من الجزيرة المواجهة للشاطىء الآخر ، وتركوا خلفهم بعض قواتهم لاتمام بناء الجسر وحراسته بعد تشييده ووكلت قيادة هذا الفريق الى « هيج دى ابلين » الفارس المغوار ذى البطش الشديد والذى كان قد تزوج من (أجنس)(٤٦) مطلقة الملك عمورى ٠

ـ ٢٣ ـ

كانت الجزيرة التى نتكلم عنها الآن تسمى عند الأهالى بالمحلة وهى ذات تربة شديدة الخصب تجود بشتى أنواع الثمار ، وقد تكونت من التقاء مياه النيل التى تتفرع عندها ولا تلتقى هذه الأفرع ثانية ، بل تمضى فتختلط بمياه البحر عن طريق أربعة فروع أما أولها الذى يواجه بلدنا الشام فيصب فى البحر بين مدينتين قديمتين هما تنيس(٤٧) والفرما ، وتقترب مياه هذا الفرع اقترابا شديدا فى جريانها من احدى هاتين المدينتين حتى لتكاد أن تمس مبانيها ، ولكنها تبعد عن الأخرى بما يقرب من ثلاثة أميال أو أربعة ٠

أما الفرع الثانى فيصب فى البحر عند مدينة دمياط(٤٨) ٠

وأما الفرع الثالث فيصب عند سدربو .

وأما الرابع فيصب فىالبحر عند مدينة رشيد(٤٩) التى تبعد عن الاسكندرية بأربعة أميال أو خمسة .

ولم يتسن لى أن أكتشف فروعا أخرى لهذا النهر رغم ماقمت به من استقصاء وبحث دقيقين ، وعندى أن نهر النيل هذا فريد فى نوعه لأن القدماء يصفونه بالنهر « السباعى الفروع » لأن له سبعة منافذ تصب فىالبحر ، وربما كان التفســـير الوحيد الذى يخطر ببالنا هو أن التغير اعنى وجه الاقليم ، كما بدل النهر مجراه كما حدث فى كثير من الأنهار الأخرى ، على أنه يمكن أن يقال ان أهل تلك الحقب البعيدة لم يفهموا حقيقة الموضوع أو ربما أن النهر قد زادت مياهه أكثر من المألوف ففاضت فأغرقت الأراضى فكان ذلك فيضانا لم تجر بهالعادة ترتب عليه شق مجار أخرى أكثر من هذه الأربعة التى يخلفها البحر حين ترجع المياه الى مجراها الأصلى ، فان كان شىء من هذا القبيل لايزال باقيا فاننا لم نحسبه فى عداد الفروع لعدم امتلائها على الدوام بالمياه ، ولكن تلك الفروع هى أشبه ما تكون بالسيول التى تحدث فى فصول معينة من السنة .

* * *

وعلى الرغم من الاستيلاء على الجزيرة الا أن الفرع الأصغر ظل كما هو ، فلما أشرق الصباح استيقظ العدو من نومه ليجد خصمه قد رحل وأن الأسطول قد أبحر ، فهب رجاله الى سلاحهم تخوفا من هجمة صليبية عليهم يفاجأون بها على غرة ، فلما أسرعوا فى التقدم وبثوا عساكرهم على طول النهر شـــاهدوا رجالنا قد استولوا على الجزيرة وأدركوا أنهم بادخالهم الأسطول أصـــبحوا واثقين من عبورهم هذا الفرع دون غيرهم، ومن ثم نصبوا معسكرهم حيث هم وان كان موقعهم هذا خلف الشاطىء بعض الشىء ، على الرغم

من أنهم بوضعهم هذا لم يعد لهم مجال للوصول الى النهر ، لكنهم كانوا مضطرين للذهاب بعيدا كي تشرب جيادهم ٠

صمم الصليبيون على تجربة حظهم حتى النهاية فى اليوم التالى وأن يشقوا لأنفسهم طريقا بالسيف ان دعت الضرورة الى ذلك ، لكنهم لم يعلموا أن الكفار قد رحلوا أثناء الليل ،فلما تبلج الصبح ورأى عسكرنا أن العدو قد رحل عبروا هم النهر على عجل وأسرعوا يطاردونه ، وخلفوا وراءهم المشاة حيث تكون الخيالة أسرع تقدما ٠

وخرج الملك غير مســـتصحب معه ســـوى نفر ضـــئيل من الفرسان وان كان قد بعث « هيج الابلينى » والكامل بن السلطان على رأس قوة كبيرة من الفرسان الصليبيين والمصريين معا لحماية القاهرة والجسر الذى كان العسكر قد بنوه ، ولصد أى غزوة عدوانية مفاجئة ، وعهد الى رجال من رجالنا بحراسة أبراج هذه المدينة الرائعة وبجميع تحصيناتها ٠ اما قصر الخليفة الذى لم يكن معروفا للصليبيين فقد أصبح مألوفا عندهم ، لأن صاحبه الخليفة وكل اهل بيته أضحوا يعتمدون فى سلامتهم اعتمادا تاما على قوات الملك ، وهكذا أصبح مفتوحا ــ أمام المسيحيين ــ قدس الأقداس بعد أن كان سرا مغلقا فى وجه الناس أجمعين ، وانكشف ما كان سرا من ادق الأسرار كانت عجائبه غير معروفة الا لنفر قليل ٠

كذلك بعث الملك بجيرار « دى بوجى » وابنـــا(٥٠) آخر للســـلطان (شـــاور) الى الجـــانب الآخـــر من النهر على رأس قـــوة من الشعبين(٥١) ، وصـــدرت اليهم الأوامر بصـــد العدو ان(٥٢) هو حاول عبور النهر ، ولما كان الملك نفسه قد خلف وراءه ــ كما قلنا ــ معظم أثقال الجيش فقد راح يطارد العدو مطاردة فى عكس اتجاه جريان النهر لأن طبيعة تكوين البلاد كانت تجعل تعقب العدو أمرا من السهولة بمكان ٠

تقع مصر من أقصى حدودها التى يقال انها على تخوم بلاد الأثيوبيين بين صحراويين رمليتين قضى عليهما أن تظلا قاحلتين الى الآن ، كما أن أرض البلاد نفسها لا تنتج أى نوع من الغلة الا فى فصول معينة من السنة بفضل فيضان النيل ، اذا أن هذا النهر يجعل تربتها صالحة لانتاج الغلة أنى جرى ماؤه ، فهو كلما صادف سطحا منبسطا فى البلاد انتشر فيه وأحاله أرضا خصبة منتجة ، وكلما زادت مساحة الأرض التى ترويها مياهه كلمـــا كثر الزرع ونمـــا .

وتجد المياه متسعا كبيرا لها فيما وراء القاهرة كلما اتجهنا نحو البحر حيث تكون الأرض مستوية كل الاستواء ، ولذلك كانت النواحى التى تفيض بالانتاج الوفير هى الجهات التى يرويها نهر النيل الخصب ، وتجود الفلاحة لمسافة مائة ميل أو أكثر تمتد من حصن فاقوس(٥٣) المواجه للشام حتى الاســـكندرية القريبة من الحدود الليبية الصحراوية ، على أنه يوجد فيما بين القـــاهرة وقوص(٥٤) التى هى أقصى مدن جنوب مصر أراض تمتد حتى تجاور مملكة الأثيوبيين ، وتحميها التـــلال الرملية ، لكن النهر ينساب فى تلك النواحى هنا وهناك حتى يبلغ أقصى اتســـاع له (ويقدر بسبعة أميال أو ثمانية ، وقد تضيق الأرض التى على ضفتيه فتصل الى أربعة أو خمسة أميال تبعا لاتساع مدى فيضان النيل ، وبهذه الطريقة فان حدود المملكة تنكمش هنا أو تتسع هناك لأن الأراضى الزراعية التى لا يرويها النهر انما هى أراض محكوم عليها بالجدب الدائم بسبب حرارة الشمس القوية ، ويسمى هذا الاقليم الأعلى فى لغة المصريين بالصعيد ، ولم نتمكن من الوصول الى أصل هذه التسمية وان كان كاتبنا « أفلاطون » يذكر الاقليم

لتلميذه « كرتياس » فى حديثه عن سولون المؤلف العظيم · وربما كان أحسن من هذا كله أن نورد نص كلماته حتى يتأكد ما نقوله وهو أن مياه النيل تنقسم عند نهايتها الى فرعين ·

وكانت توجد بالقرب من هذه الناحية مدينة عظيمة اسمها « سيس»(٥٥) تحكم حسب العادة القديمة بالقانون الساتيرانى . وقد كان الامبراطور «أماسيس » فى الأصل من هذه المدينة ·

وهناك قسم آخر من هذه الناحية فى مصر يقع على مسيرة يوم من القاهرة ، ولكنه غير صالح للسكن وان كان ذا تربة خصبة بفضل فروع النهر التى تروى حقوله وبساتينه المثمرة ، ويسمى المصريون هذا القسم من البلد باسم « الفيوم »(٥٦) ·

وتقول الأخبار القديمة ان هذا الاقليم كان أرضا قاحلة جدباء لم يعرف المحراث أبدا طريقه اليها ، وأنه كان مهجورا فلم يعرف الزراعة ولا الفلاحة منذ بداية العالم شأنه فى ذلك شأن بقيةالنواحى الأخرى منتلك الصحراء ، ولكن لما جاء يوسف (النبى) الى مصر وكان يستعد لكل شىء ويحيله الى ما فيه النفع لمصر فقد استكشف تلك الناحية وعرف انخفاض مستوى أرضها عما حولها من الأراضى وأدرك أنه لو أزيلت بعض الأكمات الواقعة بين المناطق الصالحة للسكن وبين هذا الجزء من الصحراء ففى الامكان اذ ذاك أن تجود الأرض بأحسن ما يمكنها ان بلغتها مياه الرى ، لذلك شيد السدود ومهد الأرض متيحا لمياه الفيضان أن تغمرها وصارت المياه تجرى فى ترع شقت من أجلها بالذات فأخصبت الأرض بعد امحال واهتزت وربت وأنتجت ما لم يكن معروفا من قبل ·

وعلى الرغم من أنى لا أعرف اسمها القديم الا أننى أعتقد أن هذا الاقليم كان يطلق عليه فى العصور الأولى اسم « طيبة »

التى تزعم الأسطورة القديمة أنه جاء منها الطيبون الطاهرون الذين توجوا بتاج الشهادة فى « أجونيم ، Agunum زمن «دقلديانوس» و « مكسيمانوس » أوجستوس والذين يقال أن أول شهيد منهم هو « موريشيوس » .

وهناك اشارة أخرى الى أن أحسن أنواع الخشخاش كانت تنمو هنا ، ومن ثم عرفه الطيبون باسم « الخشخاش الطيبى » .

وان ارض « جوشن » Goshen التى يقال ان يوسف منحها لاخوته انما هى هذا الجزء من مصر وهى تواجه الشـــام بناء على الوصف الوارد فى سفر التكوين ، وهو أمر يستطيع القارىء اللبق أن يستنبطه من تلقاء ذاته منقراءتهاياه،وهذاالقسم من الأرض هو الذى يتاخم ليبيا ويقع فى أقصى الطرف الآخر من مصر وعلى أبعد نقطة من شاطىء النهر ، وهو اقليم فسيح الأرجاء يضم فيما يقال ثلاثمائة وستا وستين مدينة وقرية .

وتعتبر المملكة بسبب طبيعة الاقليم شديدة الصغر كما قلنا حتى أنه لا يمكن التحرك فيها الى اليمين ولا الى اليسار .

كانت الأخبار عن تقدم العدو تأتى الى الملك « عمورى » والى الوزير (الفاطمى) من غير انقطاع ، وكان ينقلها اليهما كشافتهما وقد استمرت المطاردة ثلاثة أيام بطولها ، فلما كان اليوم الرابع(٥٧) ـ وهو السبت الذى يسبق اليوم الذى تنشد فيه فى الكنائس ترنيمة « افرحى يا أورشليم » جاء الخبر بأن العدو قد أصبح قريبا منهم .

ـ ٢٥ ـ

عقد رجالنا مجلسا اقتضت الضرورة أن يكون قصيرا ، اذ كان واضحا أن هناك حاجة ملحة لسماع المشورة الحكيمة التى

يمليها الاخلاص القوى وتتطلبها الظروف القاهرة التى لا يصح معها شىء من التسويف فأجمعوا رأيهم على وجوب القتال ، وصفقوا أذ أوصى بأن يكون الحكم للسيف فى هذه المسألة ، الا أن عدد الفرسان المدرعين بزرديات الحديد لم يكن متكافئا بين الجانبين ، فقد كان عند شيركوه اثنا عشر الف تركمانى ، منهم تسعة آلاف يلبسون الدروع على صدورهم والمغافر على رؤوسهم ،أما الثلاثة آلاف الآخرون فقد اقتصر سلاحهم على الأقواس والسهام كما كان تحت امرته غير هؤلاء عشرة آلاف أو أحد عشر ألف عربى يحاربون كعادتهم بالرماح ولا شىء سواها ٠

أما الصليبيون من الناحية الأخرى فلم يكن لديهم من الفرسان سوى ثلاثمائة وأربعة وسبعين فارسا الى جانب من لا جدوى منهم من المصريين الذين كانوا يشكلون عبئا ثقيلا عليهم وعقبة كأداء أمامهم أكثر من أن يكونوا عونا لهم ، كذلك كان عندهم من أصحاب الأسلحة الخفيفة الجند المسمون بالتركوبولية وهم من الخيالة ، وان كنت لا أعرف عددهم ٠

ولقد أخبرنى الكثيرون أنه فى خلال الاشتباك الحربى الكبير فى ذلك اليوم لم يكن لهذه الطائفة من العسكر أى جدوى ٠

ما كاد كل جانب من المحاربين يدرك اقتراب الآخر منه حتى رتب صفوفه حسبما تتطلبه الظروف ، ونظم رجاله كتائبهم وأشهروا أسلحتهم ، فأما اكابرهم من أهل الرأى السديد الذى هو خلاصة تجاربهم القتالية السابقة فلم يبخلوا على الجند بالمشورة وبذلوا لهم النصيحة وأثاروا حميتهم ووعدوهم بالنصر ، وأنهم سوف يجنون ثمار نجاحهم فوزا عظيما ومجدا تليدا ٠

كانت ساحة القتال المتوقع وقوع المعركة فيها هى المنطقة الفاصلة بين الصحراء والأرض الخصبة ، وهى أرض غير ممهدة تكثر بها الكثبان الرملية وتتخللها الحفر مما لا يتسنى معها رؤية القادمين أو الخارجين ان كانوا على بعد منها ، ويعرف هذا الموضع باسم البابين »(٥٨) لشدة ضيق النهر الواقع فى تلك المنطقة بين المرتفعات الموجودة على الجانبين · ويبعد هذا المكان عشرة أميال عن المنيا ، ومن ثم عرفت هذه البقعة احيانا بوقعة المنيا ·

كان العدو لبعد نظره قد احتل المرتفعات الموجودة على اليمين واليسار ، ونظم كتائبه استعدادا للقتال ، وأدت تضاريس الأرض وارتفاعها وطبيعة الأرض الرملية الى أن يصادف رجالنا مشقة كبرى فى الهجوم على هذا الموقع الذى تمكن شيركوه بمن معه من التركيز فيه ، واصطف الآخرون على الجانبين ، وسرعان ما أصبحت المعركة وشيكة الوقوع لوقوف كل واحد من الخصمين فى وجه الآخر ، ولم يعد ثم مناص من الحرب بينهما ، وحينذاك تقدم من كانوا مع الملك فى شجاعة وعزم أكيد فأحدقوا برجال شيركوه وأعملوا السيف فيهم ، كما أن شيركوه ذاته لاذ بالفرار فانطلق خصمه فى أثره يطارده عن قريب ·

وأما « هيج القيصرى »فقد هاجم الجماعة التى كانت بقيادة صلاح الدين بن أخى شيركوه ، غير أن رجاله فروا عنه مما أسفر عن هزيمته ووقوعه فى يد خصمه الذى أسر طائفة كبيرة من رجاله « هيج » وفتك بأكثر منهم، وسقط فى هذا الصدام النبيل « استاس شولبه » الذى كان سيدا شجاعا من منطقة « بنتيو » ·

أزدهى النصر الكتائب التركية فضمت صفوفها بعضها الى بعض وأحدقت من كل جانب بالقوات الصليبية التى كان موكولا

اليها المحافظة على المتاع والذخيرة ، وهاجمها هجوما ضاريا أسفر عن تفرق جموعها وأنزل العدو البلاء بنا ٠

ولقد لقى « هيج » الذى هو من « كريونا » مصرعه فى هذه المعركة ، وكان صقلى المولد ذا مجد أثيل وسيرة عطرة ٠

على هذه الصورة كان اندحار القوات الصليبية وهلك الكثيرين من رجالنا ، أما الذين نجوا من السيف فقد لاذوا بأذيال الفرار فاستولى العدو على متاعهم وذخيرتهم دون أن يجد أحدا يصده فحمل كل ذلك معه ٠

أما القوات المشتتة هنا وهناك فى الأودية الصغيرة فقد حاربت حربا لا تدرى فيه مصيرها ، وكان المقاتلون أنفسهم هم الشاهد الوحيد على ما جرى ، لأنه لم يكن فى قدرة أحد سواهم أن يرى ما حدث ، على أن معركتهم هذه لم تكن بالمعركة الفاصلة فقد كان النصر تارة فى جانب الترك وتارة أخرى فى جانب الصليبيين ، وكان كل منهما يجهل ما حل بالطرف الآخر ، فبينما كان الواحد منهم يرى نفسه وقد رجحت كفته فى ناحية اذا به لا يلبث أن يراها تشيل فتلحقه الهزيمة فى موضع آخر ، ولقد جرح أخونا الموقر « رالف » أسقف بيت لحم والمستشار الملكى الذى تولينا من بعده(٥٩) هذه الوظيفة(٦٠) ، وكان جرحه شديدا وفقد كل متاعه ٠

ولقد ظلت نتيجة الوقعة غير معروفة وقتا طويلا دون أن يتبين أحد الأمر الفصل الا عند انصرام النهار حين عاد الجند المشتتون للوقوف تحت راياتهم ، وسرعان ما انضم اليهم من كانوا قد انطلقوا بعيدين عنهم ، وكان الدافع لهم الى ذلك هو خوفهم من دخول الليل وحرصهم على أن يكونوا مع الملك ، فعادوا من شتى النواحى وعاد الملك وهو على وشك الانتصار من حيث كان يقاتل عسكره أما

غيرهم فكانوا يقاتلون هنا وهناك فتلحقهم الهزيمة فى موضـــع ويواتيهم النصر فى موضع آخر ،وبذلك اســـتحال على أحد من الجانبين أن يزعم أن المعركـــة كانت فاصـــلة ، وانتهى الأمـــر أخيرا بأن انسحب الملك وقلة ممنكانوا معه الى أحد التلال الذى يرتفع بعض الشيء عن السهل فرابطوا به ، ثم رفع « عمورى » علمه ليتجمع تحته عسكره المشتتون ، ووقف هو يرقب توالى حضور رفاقه ، فلما تجمعوا رأى الصليبيون الفريق التركى الذى كان قد استولى على متاعهم وفتك برهط منهم وأسر غيرهم ٠٠ أقول رأوه وقد سادته الفوضى وعمه الاضطراب وهو على التلين المواجهين لهم ، ولم يكن هناك أى طريق يسلكه جيشنا انهو أراد الارتداد الا أن يمـــر بين هذيـــن التليـــن اللذين يحتلهمـــا العـــدو ، واذ أجمع الصليبيون عزمهم على الارتداد مهما كانت الظروف فقد رتبوا صفوفهم وشرعوا فى التقدم فى بطء بين العدو الذى كانوا يرونه على يمينهم وشمالهم ، وساروا فى ثبات عجيب حتى أن الكفار لم يجرؤوا على محاولة التصـــدى لهم بالأذى ٠ ولما كان رجالنا قد أوقفوا أقوى رجالهم وأحسنهم تسليحا حولهم فقد شقوا طريقهم الى موضع معين من النهر وجدوا به مخاضة فعبروه منها سالمين ، واستمروا على هذا النسق من التنظيم فى ارتدادهم طول الليل فى نفس الطريق الذى سبق لهم أن تقدموا منه ٠

وصادفهم فى المنيا « جيرارد دى بوجى » ومعه خمســـون فارسا ومائة منالتركبولية يعاونهم أحد أبناء السلطان واســـمه محيى الدين(٦١) الذى كان يقف على الشاطيء الآخر من النهر لصد العدو ان حاول العبور ، والواقع أن الفـــرحة قد دبت فى النفوس بوصول « جيرارد دى بوجى » لأن الملك كان يخشى أن يهاجمه الأعداء وهو وحيد على احدى ضفتى النهر ، كما أنه كان جزعا على طائفة المشاة التى كانت تسير تحت قيادة الفارس الحكيم

الشجاع «جوسلين » صاحب سميساط · وكان أشد ما يبعث على الخوف أن يعترضهم العدو فجأة وهم بلا حراسة ·

وظل الملك فى انتظار وصولهم الى « المنيا » مدة طالت حتى بلغت ثلاثة أيام ،فلما كان اليوم الرابع أخذ المشاة فى التجمع شيئا فشيئا وانضموا الى قواته ، ثم تابعوا الزحف بلا توقف حتى بلغوا الجسر الموجود أمام بابليون فعسكروا عنده ، وشـــرع الملك فى احصاء فرسانه فتبين له هلاك مائة منهم ، وقيل ان هلكى العدو حين أحصوا كانوا ألفا وخمسمائة ·

ـ ٢٦ ـ

حينذاك جمع شيركوه كل من بقى من عسكره وجعلهم طائفة واحدة ثم زحف سرا دون علم الصليبيين مجتازا بهم الصحراء وقاصدا الاســـكندرية فأســـرع أهلها لتســـليمه المدينة وجاء فى الحال خبر هذا الزحف الى الملك الذى استدعى فى لحظته كبار مستشاريه ومعهم السلطان (شاور) وأولاده وعلية المصريين ، وشاورهم فى الأمر فى ما يتخذه من الاجراءات ، وبعد الحوار الطويل الذى يطول فىمثل هذه الأحوال التى هى موضع خلاف فى وجهات النظر تم الاتفاق على انزال الأسطول فى البحر لمضايقة العدو وتعطيله ، لأنه لم يكن فى داخل الاسكندرية مخـــزون من الحبوب ولا غيرها من مواد الطعام ، ومرجع ذلك اعتماد المدينة كليا على ما تجلبه اليها السفن من صعيد مصر ، ومن ثم كان وضع الأسطول على هذه الصورة يسد فى وجوههم جميع منافذ المتاجرة مع من هم فى خارجها ،فلما فعلوا ذلك قاد الملك جيشه كله وضرب معسكره بين تروجة(٦٢) ودمنهور فى موضع يبعد عن الاسكندرية ثمانية أميال وراح يطلق منه عيونه لاســـتكشاف تلك الناحية ،

وافساد ما يستطيعون افساده من المنشآت والمساكن ، مستهدفا من وراء ذلك قطع الطريق على أية نجدة تريد الوصول اليهم ومنع أى رسل يحاولون مغادرة المدينة لطلب النجدة من خارجها ، وزاد على ذلك بأن قام رجال الأسطول بسد كل المنافذ النهرية ، ولم يعد يسمح لأحد ما — مهما كان معروفا عندهم — بركوب النهر الا بعد استقصاء وتحر دقيقين ·

وانقضى شهر على هذه الاجراءات الاحتياطية انقطع خلاله عن المدينة وصول أى امدادات تموينية من خارجها ، وعم التذمر الناس قاطبة ، فقد قل الخبز عندهم وعدموا الطعام ، فلما وصل خبر ذلك الى علـم شيركوه تسرب الخوف الى نفسـه خوفا من أن يكابـد جيشه هو الآخر المجاعة التى يقاسيها هؤلاء ، لذلك ترك ابن أخيه صلاح الدين ومعه ما يقرب من ألف فارس لحراسة المدينة ، أما هو فقد انسحب تحت جنح الظلام مجتازا الصحراء ،وعلى الرغم من أنه كان قريبا كل القرب من قواتنا الا أنه دبر خطة فراره الى صعيد مصر الذى كان قد جاء منه منذ قليل ·

ما كاد الملك يعلم برحيل شيركوه حتى بادر فتعقبه حتى بلغ بابليون ،وكان جنده جميعا على استعداد للتقدم حين جاءه على غير توقع واحد من كبار رجـالات مصـر الأقوياء واسـمه ابن عبد الرسول(٦٣) وأفضى اليه بما تكابده الاسـكندرية من المجاعة القاتلة ، وزاد فأخبره أن له أقارب من ذوى النفوذ الكبير فيها وانهم أشبه ما يكونون بحكام لها ، وأنهم قادرون فى سهولة ويسر على توجيه سكانها الجوعى الوجهة التى يريدها الملك حتى ولو كان فى ذلك تسليمهم المدينة اليه هى وجميع من بها من الترك ، فتأثر الملك بهذا الخبر وراح يستفسر من مستشاريه عن أحسن السبل التى يرون اتباعها ، ولما كانت رغبات الجميع واحدة بما فيهم السلطان

(شاور) ذاته فقد كروا راجعين الى الاسكندرية وحاصـــروها بالجيشين معا ٠

ـ ٢٧ ـ

تعتبر الاسكندرية آخر مدن مصر الواقعة فى الاقليم الممتد غربا نحو ليبيا ، وهى تقع على الحدود الفاصـــلة بين المناطق الخصبة وبين الصحراء الجرداء ، كما يقع خلف أسوارها وعلى تخومها الغربية مباشرة منطقة فسيحة لم تنعم قط بنعمة الزراعة ولم يهتم بها أحد فيرعاها ، وقد جاء فى كتب التاريخ القديم أن الاسكندر المقدونى بن فيليب هو الذى بناها فسميت باسمه ، ويذهب « يوليوس سولينوس » للقول بأنها شيدت أيام الألمبياد الثانى عشر بعد المائة فى أيام قنصلية « لوكيانوس بابيروس » بن « فوريوس » وزمن « بتيليوس بن جايوس » ووضـــع حجر أســـاسها المهندس « دنيوكريتس » الذى كان يتبوأ المرتبة الثانية فى نظر الشـــعب تمجيدا له ٠

ولا تبعد الاسكندرية كثيرا عن مصب النيل الذى يســـميه بعضهم بالفرع الهرقلى ، ويسميه البعض الآخر بالفرع الكانوبى ٠ على أن هذا الموضع الذى اشتق منه اسمه وكان أقرب الفروع الى المدينة ضاع فيما ضاع من الأسماء ، ثم أطلق عليه اسم فرع رشيد ٠

وتقع هذه المدينة على بعد خمسة أو ستة أميال من مجرى النهر ،فاذا كانت أيام فيضانه جاءتها مياهه عبر كثير من القنوات، وتبذل العناية الكبرى فى الاحتفاظ بمياه الفيضان هذه فى صهاريج ضخمة أعدت خصيصا لهذا الغرض ليستعملها الناس على مدار

السنة ، وتصرف - كلما دعت الضرورة - فى قنوات تحتية ارى البلدتين الواقعة خارج المدينة ·

والاسكندرية أصلح ما تكون التجارة الواسعة ، ولها ميناءان يفصلهما عن بعضهما لسان من الأرض ضيق جدا ، ويقوم عنده برج شاهق الارتفاع يسمى بفاروس ينسب الى يوليوس قيصر الذى بناه للانتفاع العام به ولانشاء مستعمرة هناك ·

وترد الى الاسكندرية من مصر العليا عبر النيل مختلف أنواع الأطعمة وكميات هائلة من شتى صنوف البضائع ،واذا احتاج البلد الى شىء ما جاءته السفن الضخمة بأحمال كبيرة منه من البلاد الواقعة وراء البحر مما ترتب عليه ذيوع شهرة الاسكندرية ، وأنه يصل اليها كميات هائلة منمختلف أنواع البضائع التى تفوق فى حجمها الكميات التى تصل الى أى مدينة بحرية أخرى ، وان كل ما تحتاجه بلادنا من أنواع التوابل والجواهر والتحف الشـــرقية والمصنوعات الأجنبية انما يرد من بلاد الهند وسبأ وبلاد العرب والحبشة والسودان وكذلك من فارس وغيرها منالبلدان المجاورة لها ، حيث يتم نقل كل هذه السلع الى صعيد مصر عبر البحر الأحمر الذى يعتبر المنفذ لهذه الشعوب الينا ، ثم تفرغ السفن حمولتها فى عيذاب(٦٤) الواقعة على ساحل هذا البحر ثم ينزلونها فى النيل الى الاسكندرية ، ولذلك فانه يتدفق عليها جموع غفيرة من أهل الشرق والغرب معا وتصبح الاسكندرية سوقا عاما لكلا العالمين ، ولذلك ذاع صيتها فى العالم القديم والحديث على الســـواء ، وان تبوأت ذروة الشرف وكانت لها الصدارة بسبب المبارك الطوباوى مرقص الابن الروحى لأمير الرسل الذى بعثته العنــاية الالهية لكنيستها فبشر بها بين الناس وهداهم ، وزيادة على ذلك فقد ارتفع صيتها اذ اختارهـــا الأبـــوان الطوبانيـــان « أثناســـيوس »

و « كيرلس » كنا لهما ثم دفنا فى ثراها بعد موتهما • وتعد كنيسة الاسكندرية ثانى الكنائس الأربعة الكبرى ، كما أنها تعتبر الكنيسة الأم لكنائس مصر وليبيا وبنتابوليس وغيرها من الولايات •

ولقد أرسل الأسطول كله الى الاسكندرية ولكن كانت جميع وســـائل الاقتراب منها موصـــدة فى وجهنا ولم يؤذن لأحد ما بدخولها •

— ٢٨ —

حينذاك علم من بقى من الصليبيين فىالشام بحصار الملك للاسكندرية وعرفوا أنهم قادرون على بلوغ هذه المدينة فى أيام قلائل لو أنهم ظلوا مبحرين بلا توقف ومن ثم حملوا السلاح وتلهفوا على السفر سريعا ، وأوسقوا سفنهم بكل ما يلزمهم من الميرة ، وفردوا قلاعهم مبحرين فرحين الفرحة الغامرة ،ورافقهم فى سفرهم هذا سلفنا « فردريك » رئيس أساقفة صور الذى أثارته حماسة الآخرين وحبه الكبير للملك ، فمضى الى مصر على ظهر احدى السفن فى زمرة من أتباعه الأفاضل ، لكن سرعان ما داهمه مرض الدوسنتاريا الخبيث لشربه من مياه النيل ، وزادت عليه العلة حتى اضطر الى الرجوع الىبلده قبل استيلاء الملك على الاسكندرية •

احتشد أمام الاسكندرية الجيش المحاصر لها وجمع أعدادا كبيرة منالسفن ،وأرسل القوم فى طلب الصناع والنجارين وكلفوهم ببناء برج شاهق الارتفاع يمكن للواقف أعلاه أن يطالع كل نواحى المدينة ، كما أن الآلات التى تسمى بالبطاريات والتى ترمى بالأحجار الثقيلة الضخمة وضعت هى الأخرى فى أماكن استراتيجية حول الأسوار ، وشرعت ترمى من غير انقطاع كتلا صخرية ضخمة ثقيلة

الوزن فدكت الأسوار التى تصلها ، وبثت الفزع فى قلوب السكان بصورة لاقدرة لأحد على احتمالها ٠

كانت البساتين المثمرة البهية المنظر والمحملة بكل أنواع الثمار والفاكهة والنباتات الطبية تحيط بالمدينة حتى لتبدو وكأنها غابة ملتفة ،وكان هذا المنظر البهيج يغرى من يمر بهذه الحدائق على دخولها ، فان دخلها طاب له أن يستريح بها ، ولقد اقتحمها عسكرنا فى جموع ضخمة وكان الحافز لهم على هذا الاقتحام أولا رغبتهم فى العثور على المواد التى تعينهم على بناء آلاتهم ، لكن سرعان ما تملكتهم همة واحدة هى التخريب وانزال المضرة بابلد فاندفعوا اندفاعا جنونيا فاجتثوا النباتات العطرية التى تصلح لكثير من الأغراض ، وما لبثت هذه الحدائق والبساتين أنسويت بالأرض ولم يعد ثم أثر الى ماكانت عليه من قبل ،وترتب على هذه الانتهاكات أن تعالت شكوى الناس المريرة وزادت من مرارتهم أنها جرت بعد عقد معاهدة الصلح التى تمت الموافقة عليها ، ورأوا أنهم جوزوا على ما وافقوا عليه أسوأ الجزاء ٠

واستمر جيشنا فىحصاره الذى تضاعف عن ذى قبل ٠ ولم يدع وسيلة تؤدى الى الأذى الا استعملها وتفنن فى أساليب جديدة لازعاج المحصورين ، ولم تترك الهجمات المستمرة للمدافعين المجهدين فرصة يلتقطون فيها أنفاسهم ، أما الأهالى الذين اقتصر نشاطهم على ممارسة المتاجرة ولميتعودوا على القتال ولم تكن لهم خبرة بالحرب فقد رأوا أن ما نزل بهم من مشقة غير معهودة انما هو أمر بالغ الشدة ولايطيقون معه صبرا ٠

وأما الترك الذين ظلوا مقيمين بالمدينة فكانوا شرذمة قليلين لا يستطيعون الاطمئنان على أنفسهم ان هم ركنوا فى حماية أنفسهم

الى الأهالى الذين ضعف عزمهم ووهى بأسهم ، لذلك كانوا نادرا ما يبرزون للقتال ، فان هم قاتلوا لم يكن قتالهم بالذى يشجع غيرهم على الحرب ٠

فهل ثمت حاجة لمزيد من القول ؟

لقد فت القتال الدائر رحاه كل يوم فى عضد الناس،وأحزنهم هلاك الكثيرين من اخوانهم وقيامهم بالحراسة طول الليل ،وكانوا اذا خيم الظلام فزعوا من الظلام ، وفوق ذلك كله فقد أضنتهم شدة حاجتهم للطعام وندرته عندهم مما أدى الى استيلاء اليأس على نفوسهم ، فثبطت هممهم حتى لقد نحوا جانبا كل رغبة فى الحرية وآثروا أن يسلموا المدينة وأن يكونوا رقيقا لأى من الناس مفضلين ذلك على أن يموتوا هم ونساؤهم وصغارهم غرثى فى بيوتهم ، وعم التذمر الناس فى أول الأمر فكان همهمة ثم مالبث أن صار جهرا وعلانية فصرحوا أنه يجب عليهم اتخاذ اجراءات معينة تخلصهم من هذه الكوارث الفادحة وتؤدى الى رفع الحصار عنهم فتعود المدينة الى سابق عهدها من الكرامة والحرية ٠

ما كان لهذا الشعور العام الذى استولى على الناس أن يفوت انتباه صلاح الدين فبادر بارسال المبعوثين من ناحيته فى سرية تامة الى عمه (شيركوه) مع تقرير مفصل عما فيه المدينة من مأزق وشدة ، وأظهر حاجته الملحة الى الطعـــام وميل الأهالى للانفضاض عنه هو ذاته ، وكان أعظم ما ألح به عليه هو أن يبعث اليه فى الحال بنجدة تنقذه ، ووجه همته أثناء انتظاره هذه النجدة الى كبار رجال المدينة وأهلها على السواء فذكرهم بأن واجبهم يقتضيهم أن يحاربوا حتى آخر رمق من أجل نسائهم وأطفالهـــم ، وحثهم على الاقتداء بتقاليد أسلافهم ، وأنبأهم أن الغوث قريب ،

بأن النجدة على وشك الوصول ممثلة فى دخول عمه شيركوه مصر فيطرد منها الأعداء وينقذ الاسكندرية ، وأنه واصل على جناح السرعة على رأس أعداد كبيرة من العسكر ·

أما ما كان من الملك (عمورى) فانه لما كان مدركا تمام الادراك مدى القلق الذى يعانيه الأهالى فقد طالب بمضاعفة الحصار واستمراره · وكان كلما علم بما فيه الناس من أحوال سيئة بائسة كلما شدد من هجومه عليهم · كما استعد السلطان (شاور) من ناحيته فلم يقصر فى تحريض جميع القادة وبسط كفه بالمال فى الصرف على آلات البناء الخاصة ، وبذل المبالغ الكبيرة على كل ما تتطلبه الحرب ، وغالى فى أجور العمال ، وأجزل العطاء للفقراء والمعوزين ، كما أهتم اهتماما خاصا بالجرحى وأولاهم العناية الواجبة ، وسخى على المقاتلين لاسيما من اشتهروا بالشجاعة فى القتال ·

– ٢٩ –

بينما كانت هذه الأحداث تجرى أمام الاسكندرية كان شيركوه يحارب فى مصر العليا ، وتابع زحفه حتى اذا بلغ مدينة قوص حاول الاستيلاء عليها عنوة ، وشن عليها هجوما خاطفا لكنه سرعان ما أدرك أن جهوده فى هذا المجال لن تثمر الثمرة المرجوة ، لما يتطلبه انجاز هذا العمل من وقت طويل ، هذا بالاضافة الى أن وضع ابن أخيه (صلاح الدين) المتأزم يفرض عليه الانصراف الى عمل آخر ، ومن ثم قبل أن يتسلم من هذه المدينة ماتقدمه من المال وأن يسرع فى متابعة زحفه على رأس قواته الى مصر السفلى ·

ولما وصل شيركوه الى بابليون وجد أن الملك كان قد أرسل « هيج دى ابلين » ليتولى حراسة القاهرة والجسر الذى بها ، أى

انه وجد الأمور على غير ماتصوره ولذلك بحث فى استقدام صاحب قيصرية الذى كان أسيرا عنده ودعاد الى حديث ودى · ولما كان شيركوه رجلا ذلق اللسان ، لطيف المعشر ، بشوش الوجه فقد بدأ يتكلم اليه بكلمات تفنن فى اختيارها وقال له :

« انك أمير جليل القدر سامى الرتبة وعظيم النفوذ بين قومك. وانى ما كنت أوثر أحدا من البارونات غيرك لو شئت لأجعله موضع ثقتي وأأتمنه على سر يتلجلج في صدري ،ولكن شاء حسن الطالع وحده أن تكون انت دون سواك هذا الرجل ،وشاءت الحرب أن تقدم لى فرصة ما كان يمكن الحصول عليها الا بشق النفس لأستعين بخبرتك فى هذا الأمر الذى أنا فى حاجــة ماســة اليك فيه ، وانى لأعترف لك بصراحة أننى طموح للمجد شأنى فىذلك شأن الخلق اجمعين ، وقد اجتذبنى ثراء مملكة مصر ،كما لا أكتمك أن نفسى روادتنى أن تكون هذه المملكة لى فى يوم من الأيام اعتمادا على طبيعة أهلها الذين لا حول لهم ولا قوة لذلك جئت الى مصر رغــم كثير من الأخطار وبذلت البذل الكبير ، ولقيت الصعاب الجمة ، وجاء معى اليها نفر كبير من الفرســـان ، تحدوهم نفس الرغبة الجامحة التى تضطرم فى صدرى ، لكن آمالى لم تتحقق ، اذ أنى أرى الآن أن المقادير تحول بينى وبين دخولى البلد ، فهل تراها تسمح لى بالعودة اليه تحت ظروف أطيب ·· ؟ انك كما أقول رجل عالى الهمة سامى القدر وقريب الى قلب الملك ،كما أنك نافذ الكلمة عنده مسموعها ،فهل لك أن تكون وسيط الصلح بينى وبينه ؟ ، ولعل النجاح يتم على يديك فى هذا المسعى ،فامض الى الملك (عمورى) وقل له : اننا(٦٥) نضيع وقتنا هنا سدى ، وهاهى الأيام تمر دون أن تتمخض عن شيء ، وهناك أمورا هامة تستلزم وجودنافىديارنا، كما أن تواجد الملك فىمملكته من ألزم الأمور ، ولكنه يبعثر جهوده هنا من أجل غيره ، فلو أنه تغلب علينا فلابد له من أن يسلم كل

ثروات هذا البلد الى سكانه التعساء الذين حرموا الحياة فدعه يسترد أسراه الذين هم فى يدى الآن ، واطلب اليه أن يرفع الحصار ويرد على أسراى الذين فى يده ، كذلك الذين سنت عليهم المنافذ فى مدينة الاسكندرية ، وانى لمستعد من جهتى للخروج حالما أتسلم منه تأكيدا بعدم ازعاج عسكره لنا فى الطريق والتعرض لهم بما يضرهم » .

- ٣٠ -

بعد أن استمع « هيج »لهذا الكلام أخذ يدير فى ذهنه هذا العرض الذى تقدم به شيركوه ، ومضى يفكر فيه تفكيرا دقيقا بما طبع عليه من الفراسة والفطنة ، ولم يساوره أدنى شك فى أن الصلح تحت ظروف الاتفاقية لابد وأن يكون خيرا للصليبيين ، لكنه تردد فى أن يقوم بنفسه باداء هذه المهمة مخافة أن تذهب الظنون بالبعض الى أنه يسعى لما فيه حريته هو ذاته أكثر مما يسعى لما فيه النفع العام ، لذلك رأى أن ربما كان من الأشرف له أن يقوم أحد غيره بالخطوة الأولى فى هذا الموضوع ، ولقد ذكر لى(٦٦) فيما بعد وأفضى الى سرا بشعوره هذا واتمنني عليه .

ومن ثم فقد عهد بهذه المهمة الى أسير آخر هو « أرنولف » من تل باشر وكان صديقا للملك ،كما أنه كان قد وقع أسيرا فى نفس المعركة التى وقع فيها « هيج » الذى نتكلم عنهالآن ، وكلفه هيج بحمل الرسالة الى الملك (عمورى) فمضى (أرنولف) فى لحظته اليه وشرح له بالتفصيل الغرض من حضوره ، فبادر الملك الى عقد مجلس باروناته ،كما حضره السلطان (شاور) وولداه، فبسط أرنولف عرض شيركوه وشرح طبيعة العرض ، فقابل الجميع فكرة الصلح بالاستحسان ، وتبينوا أن ليس فىالشروط المقدمة ما

يخل بالاتفاقية المبرمة بين الملك والخليفة ، بل أنها تضمن الوفاء بها وفاء صحيحا ، وتقضى هذه الشروط بوضع المدينة فى يد الملك ، ويتم تبادل جميع الأسرى من الطرفين ، وأن يطلق سراح الترك الموجودين تحت الحصار الذى يجب أن يرفع عنهم ، وأن تغادر مصر كلها جميع قوات شيركوه الموجودة بها ٠

ووافق شاور وجميع ولاة مصر على الاتفاقية وقبلوا شروطها عن طيب خاطر ، وصرح شاور عن رضائه التام عنها لاسيما أنها قضت على أشد خصومه عداوة له ، ونعنى بذلك من ينافسونه فى السيادة على المملكة ٠٠

ثم كشف « هيج » عن نفسه بعدئذ فقام بوضع اللمسات الأخيرة للاتفاقية بعد مناقشتها مناقشة دقيقة من الجانبين ، ووصل بالموضوع الى الغاية المرضية ٠

ـ ٣١ ـ

ونودى بعد ذلك فى الجيشين وبين العامة أنه قد توقف القتال، وصدر مرسوم ملزم بكف الأذى عن أهل الاسكندرية، وما كاد السلام يعلن حتى عمت الفرحة الناس الذين مزقهم طول الحصار واستمراره، وألقوا عن كواهلهم ما يثقلها ، وانطلقوا يمرحون لا يعترضهم معترض ، وتخلصوا من متاعبهم ، وتوفر الطعام بكثرة عندهم ، واستعادت التجارة حريتها ، ولما تخلص الناس من المجاعة التى ظلوا يقاسونها زمنا طويلا أخذوا فى الاهتمام بصحتهم وارتفعت معنوياتهم، وراحوا يمتعون أنظارهم بالقوات التى أصبحوا ينظرون اليها الآن نظرة مودة بعد أن كانوا حتى الأمس القريب يرمقونها بعيون ملؤها الحقد وتشف عن الاحتقار ،أمام اليوم فهم يتجاذبون معها الأحاديث فى

مودة لاتشوبها شائبة ويبتسطون فى الكلام مع العسكر الذين كانوا يخافونهم منذ قريب ويعدونهم رسل الخطر والهلاك .

لم يكن الصليبيون أقل منهم لهفة وشوقا لدخول المدينة التى كانت هدفا لحملتهم منذ أمد بعيد ، وراحوا يتجولون فى شوارعها أحرار ، ويملأون نواظرهم من أبوابها وحصـــونها ، وتجمعت من ملاحظاتهم الدقيقة مادة كانوا يستطيعون - بعد عودتهم الى ديارهم - أن يقصوا منها على أخـــوانهم مختلف القصـــص فتلتذ بها آذان سامعيها .



ويشرف على هذه المدينة الرائعة برج شاهق الارتفاع يقال له « فاروس » يطاول النجم بنوره المشع المنبثق من كثير من المشاعل المنيرة التى تهدى السفن التى لا تعرف المنطقة حتى لا تضل طريقها ليلا ، وذلك لأن الاقتراب من الاسكندرية محفوف بالمخاطر الجسيمة ، بالاضافة الى أن البحر المظلم ملىء بكل ما ينطوى عليه من الأخطار، فتكون هذه المصابيح المتقدة على الدوام والموجودة فوق هذا البناء تحذيرا للبحارة لتنجو سفنهـــم من العطب وتأمن خطر الجنوح ، وليبحروا بها سالمين .

ورفع على هذا البناء علم الملك (عمورى) خفاقا رمزا لانتصاره ودليلا على الاستسلام الذى ظل الكثيرون يجهلونه حتى لحظتهم هذه وحينذاك - وقد رفرفت رايةالملك - أصبح معروفا للجميع أن السلام قداستتب ، وعلى ذلك فان الكثيرين الذين كانوا يتخوفون فى بادىء الأمر من الاتفاقية وينظرون اليها نظرة الشـــك والريبة ويخشـــون الاستسلام للصليبيين فانهم - وقد رفرف السلم - لم يترددوا فى الاتصال بنا ، واطمأنوا الى صدق عهودنا - على أن شيئا واحدا فقط هو الذى بدى غريبا كل الغرابة وأعنى به أن جيشا قليل العدد استطاع

ان يحبس فى الاسكندرية مثل هذا العدد الكبير من الأهالى ومعهم كثير من الأغراب الذين تعاونوا تعاونا صادقا فى الدفاع عن البلد ، وان هذا الجيش (الصليبى) أرغمهم على الاستسلام المهين ، اذ لم يكن عند الصليبيين أكثر من خمسمائة فارس وأربعة آلاف أو خمسة آلاف من المشاة — أما المحصورون فكانوا يزيدون على خمسة آلاف رجل ، وكلهم من القادرين على حمل السلاح ٠

— ٣٢ —

حينذاك خرج صلاح الدين من المدينة ومضى الى الملك وظل مقيما فى المعسكر الصليبى تأهبا للرحيل ، ولقى صلاح الدين كل مظاهر الاحترام فى المعاملة ،وجعلوا له حرسا لحمايته من أى اهانة قد يتعرض لها من قبل أناس لا خلاق لهم ٠

أما السلطان (شاور) فقد سار على رأس عسكره فى صفوف يتلو بعضها بعضا ، واجتاز أبواب المدينة مزهوا زهو المنتصـــر ، تتقدمه الطبول ، وتنفخ أمامه الأبواق وكل آلات العزف ، ومشت حوله أجواق المغنين وسار أمامه الخدم الكثيرون وزمر من المنادين فى زيهم الحربى ، ولكن القلق أفزع البعض اذ أدان نفرا فأمر بقتلهم وأطلق سراح آخرين ، ذلك أنه وان كان يأخذ المذنب بالشدة الا أنه كان يضفى نعمه وصلاته على من يستحق النعمة والصلة ٠

ثم قضى أخيرا على أهل الاسكندرية بدفع مبلغ كبير من المال لم يحدد قدره ، ورتب طائفة لجمع الضرائب ، وعين الجباة من المدينة لجمع المكوس ،فلما جمعوا قدرا كبيرا من المال عهد شاور بأمر المدينة الى عمال مخلصين له من خاصة أتباعه ، وعاد الى معسكره تهزه نشوة المجد ٠

بعدئذ تشوق الجيش الصليبي الى دياره ،فأما الذين كانوا قد ندموا عن طريق البحر فقد أعدوا مايحتاجونه فى رحلتهم ، وركبوا السفن راجعين الى بلادهم مغتبطين بما هم فيه ، كما أمر الملك بحرق الآلات وحزم الأمتعة ، ثم مضى فى طريقه الى بابليون حيث انضم الى عسكره من كان قد تركهم هناك من قبل ، ثم أقر السلطان فى حكومة المملكة وأخرج العدو واسترد رجاله الذين كانوا فى الأسر ، ودخل عسقلان يوم الحادى والعشرين من أغسطس سنة ١١٦٧ ، وكان ذلك فى السنة الخامسة من حكمه ٠

انتهى الكتاب التاسع عشر

حواشى الكتاب التاسع عشر

(١) هو أمالريك أو عمورى دى نيزل الذى ولى بطركية بيت المقدس خلفا للبطرك فولشير فى نوفمبر ١١٥٧ م ، وذلك باختيار خفى من الملكة الوصية مليزند لمعرفتها القوية به وصداقتها الراسخة ، وقد تم على يده عقد قران « ماريا كومنينا » في كنيسة صور فى أغسطس ١١٦٧ م ، ثم أرسله الملك عمورى على رأس سفارة الى كل من الامبراطور فردريك ولويس السابع وهنرى الثانى ملك انجلترا ومرجريت الوصية على صقلية ، والى كونت فلاندرز ودى بلوا وذلك سنة ١١٦٩ م لكن لم يقدر اتمام هذه السفارة فقد هبت عليها ريح عاتية ردتها الى عكا . كما أن أمالريك البطرك هذا صحب عمورى فى ديسمبر ١١٧٠ م فى زحفه على الداروم .

(٢) تولى « ايمرى » الذى هو من ليموجيس بطركية أنطاكية بعد نزاع ١١٦٩ م الدينى الذى تدخلت فيه البابوية ونجم عنه خلـــع البطـــرك « رودلف » لعدم امتثاله للحضور أمام المجمع فاختير مكانه « ايمرى » الذى كان كثير التدخل فى السياسة المحلية بالامارة ، كما كان صـــديقا حميما للمؤرخ الصليبى ميخائيل السريانى ، هذا الى جانب موقفه فى استدعاء الملك بلدوين حين مات ريموند أمير أنطاكية خوفا من تقدم نور الدين ، وقد تدخل بصورة مباشرة فى النزاع البيزنطى الأرمنى ، كما أدى طيش « أرناط » الى مطالبته « ايمرى » بمبالغ مالية ضخمة لم يكن فى استطاعته دفعها

فأهانه أرناط وسجنه وجرمه وجرسه حتى لقد لطخ جراح رأسه بالعســــل وأوقفه فى حمارة القيظ وكبله بالحديد يوما بأكمله مما أغضب بلدوين ملك القدس وأرغم أرناط على اطلاق سراح البطرك فأطلقه فمضى الى القدس فرحب به ملكها وأمه الملكة مليزند ، ولكنه كره العودة الى كرسى بطركيته · ولما نودى ببوهيموند الثالث أميرا شرعيا على البلاد عهد الملك بلدوين الى « ايمرى » دى ليموجيس » بحكومة البلد بعض الوقت مما أغضب الأميرة « كونستانس » فالتمست من الامبراطور مانويل التدخل لصالحها كما يشير الى ذلك وليم فى الترجمة اعلاه · راجع فى هذا أيضا
Michael Le Syrien, Chronique, t. II. P. 324.

(٣) المقصود بذلك الأميرة « أجنس » التى تزوجها ـ بعد انفصالها من عمورى ـ أحد نبلاء المملكة وهو كونت هيج دى ابلين صاحب الرملة ·

(٤) راجع الحاشية رقم ١ ص ٨١ ·

(٥) بلبيس من المدن المصرية القديمة واسمها القبطى Beeck والرومى Bibios وأشار محمد رمزى : القاموس الجغرافى ق ٢ ، ج ١ ، ص ١٠٠ الى تعدد أسمائها ، وقد وردت الاشارة اليها فى ابن خرداذبة وابن حوقل والمقدسى وفى صبح الأعشى ، ووصف المقريزى أهلها فى خططه بأنهم « أصحاب نعمة ويسار » ·

(٦) المقصود بذلك عمورى ملك القدس ·

(٧) راجع حسن حبشى : نور الدين والصـــــليبيون حركة الافاقة الاسلامية فى القرن السادس الهجرى ·

(٨) فى الأصل « السلطان » وهى الكلمة التى دأب وليم الصورى على استعمالها للوزيرين شاور وضرغام ·

(٩) من الأمور الجديرة بالملاحظة مساهمة رجال الدين المسيحى مساهمة فعالة فى حمل السلاح واستعماله ، وقد أشارت الى ذلك الأمر المؤرخة أنا كومنينا وأوردت فى كتابها «الكسياد» أمثلة عدة على هذه الظاهرة فى بيزنطة ·

(١٠) وكان ذلك فى أغسطس ١١٦٤ م ، وانظر
Stanley Lane-Poole, Hist. of Egypt in the Middle Ages, PP. 177 — 178.

(١١) المقصود بلفظ السلطان « هنا الوزير شاور · انظر الحاشية رقم ٨

(١٢) المقصود بذلك نور الدين وأسد الدين شيركوه ·

(١٣) يتردد لفظ « مارتل » أى « المطرقة » فى كثير من الأسماء الفرنسية فى العصور الوسطى ، ويعرف العرب من هؤلاء على وجه الخصوص « شارل مارتل » فى معركة بواتييه عام ٨٣٢ م ·

(١٤) المقصود بذلك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، راجع عن سيرتهوجهاده حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ·

(١٥) يريد المؤلف بهذا اللفظ هذا « الأكراد » . وان كان المراد به الفرس عامة والسلاجقة ·

(١٦) المقصود رفع الحصار عن حارم ، وتتمثل أهمية هذا المكان فى أنه قلعة شديدة الحصانة مجاورة لأنطاكية ولكنها داخلة فىأعمال حلب ، وقد أشار الى «حارم» الجغرافيون المسلمون فى العصور الوسطى أمثال ياقوت فى معجمه ، وابن عبد الحـــق فى مراصـــــده وأبى الفدا فى جغرافيته · راجع ذلك بالتفصيل فى:
Le Strange (G) : Palestine Under The Moslems, P. 449.

(١٧) فى هذا اشارة الى ما جاء فى أعمال الرسل ١٩/٢ ــ ٢٠ « وأعطى عجائب فى السماء من فوق ، وآيات على الأرض من أسفل : دما ونارا وبخار دخان ، تتحول الشمس الى ظلمة ، والقمر الى دم قبل أن يجىء يوم الرب العظيم » ومثل هذا الكلام وارد أيضا فى يوئيل ٣١/٢ ·

(١٨) ضبطت الأسماء وصححت فى العربية على ما ورد فى لوقا ١/٣ · وانظر أيضا : قاموس الكتاب المقدس ، حرره بطرس عبد الملك ، وجـــون الكساندرطمسن ، وابراهيم مطر ·

(١٩) راجع متى ١٣/١٦ ــ ١٩ · أما بقية النص فهى « فقالوا يوحنا المعمدان ،وآخرون ايليا ، وآخرون أرميا أو واحد من الأنبياء ، قال لهم : وأنتم من تقولون أنى أنا ؟ ، فاجاب سمعان بن بطرس وقال « انت هو المسيح الحى » فاجاب يسوع وقال له « طوبى لك ياسمعان بن يونا · ان لحما ودما لم يعلن لك ، لكن أبى الذى فى السموات وأنا أقول لك ايضا : انت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى » ·

(٢٠) يحدد المؤرخ الانجليزى ستيفنسون ســـقوط البلد بانياس بسنة ١١٦٧ م ٠

(٢١) فيما يتعلق بزواج الامبراطور مانويل من مارية الأنطاكية اخت بوهيموند.راجع ماورد عن ذلك فى الجزء الثالث من هذه الترجمة،ونزيدفنقول فى هذه الحاشية أنه بعد وفاة « برتا سيليزباخ » حوالى سنة ١١٥٩ م ترمل الامبراطور مانويل ، فلما كانت السنة التالية بعث سفارة الى ملك القدس يرجوه اختيار احدى الأميرات اللاتينيات فاقترح الملك له الأميرة « ماليند » ابنة أخت ملكة القدس وشقيقة ريموند الثانى كونت طرابلس الذى رحب بهذا الأمر أعظم ترحيب وجهزها أحسن جهاز وأغلاه وتسابق الأمراء اللاتين فى الشرق يبعث هداياهم اليها ، ولكن مانويل امسك عن الرد بلا أو نعم وطال صمته وترددت الشائعات سرا بما يمس أمها فأثر ذلك الحدث على الفتاة تأثيرا سيئا وأصابها الاكتئاب والاحباط مما أغضب اخاها ريموند اشـــد الغضب فلم يتورع عن سلوك أى طريق مهما كانت دناءته مما سبق لمؤرخنا وليم شرحه فى الجزء الثالث من هذه الترجمة العربية ٠ ولقد قام الامبراطور مانويل فى الوقت ذاته بارسال سفارة سامية الى انطاكية عقدت له على « الأميرة مارية » أخت الأمير ، وعلى الرغم مما كان فى ذلك العمل من حرج وجرح لملك بيت المقدس الا أنه لم يجد بدا من الرضوخ لما جرى ، وراح يفلسف الأمر فعد ما حدث فاتحة خير تؤدى الى تأكيد المودة بين الفرنجة والبيزنطيين للوقوف فى وجه المسلمين ،وسافرت الأميرة « مارية » الى القسطنطينية وعقد لها فى كنيسة سنت صوفيا فى حفل حضره وباركه بطاركة القسطنطينية والاسكندرية وأنطاكية ٠ وعلى أية حال فقد كانت « مارية » هذه اول امرأة لاتينية فرنجية تعتلى العرش البيزنطى فكرهها أهل القسطنطينية الى جانب كراهيتهم للجنس اللاتينى عامة ، ومما زاد الطين بلة ان مارية اتخذت مستشارا لها البروتوسيباستوس الكسيوس كومنين ، وما لاكته الألسن من اتخاذها اياه عشيقا لها بالاضافة الى ما هو عليه من التهور وعدم الفطنة ، مما أدى الى تأليب النفوس ضد الامبراطورة الوصـــية فحاكوا مؤامرة لاغتيالها راجع فى ذلك

Ostrogorsky : Hist. of The Byzantine State (tr. by Hussey); Runciman : Hist. of the Crusades. Vol. II, P. 359, Vasiliev : Hist. of the Byzantine Empire, Vol. I. P. 376.

(٢٢) أعنى سنة ١١٨٩ م ٠

(٢٣) خلت نسخة وليم الأصلية (كما أشارت الترجمة الانجليزية) من أى كلام كان المؤلف ينوى تضمينه هذا الفصل ٠

(٢٤) راجع ما سبق ، الحاشية رقم ٥ ٠

(٢٥) اطفيح أو Attasi من المدن المصرية القديمة بمركز الصف فى محافظة الجيزة ، راجع عنها محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ق ٢ ، ج ٣ ، ص ٢٥ ٠

(٢٦) بابليون ، ويقال ان اسمها الأصلى هو « باب أليون » ، وذكر تاج العروس ان « اليون » حصن فتحه عمرو بن العاصى . انظر محمد رمزى شرحه ، ج ١ ص ١٣٨ ٠

(٢٧) الضمير هنا عائد على شيركوه ورجاله بعد أن ظلوا هائمين على وجوههم من العاصفة وهم فى طريقهم الى مصر ٠

(٢٨) المقصود بالأمير هنا الخليفة الفاطمى ، ويلاحظ أن المؤلف لم يكن دقيقا فى استعماله الألقاب الاسلامية الصحيحة ٠

(٢٩) علقت الترجمة الانجليزية على هذا اللفظ بأن قالت انه مستمد من الاسم اللاتينى للقلعة وهو Castrum ، ونعلق نحن هنا فنقول انه ليس هناك ما يشير الى أصل لاتينى لهذه الكلمة ، ولكن الأرجح أن تكون كلمة Castrum تصحيفا لكلمة « القصر » العربية ، ونطالع فى بعض المراجع اللاتينية أن هذه الكلمة مرادفة لكلمة Casa اللاتينية التى يقصد بها البيت أو الكوخ ٠ مما يرجح الأصل العربى للكلمة ٠

(٣٠) يقصد بذلك مملكة مصر ٠

(٣١) يقصد بذلك مصر ٠

(٣٢) هذه اشارة الى قوات نور الدين وشيركوه الموجودة فى مصر ٠

(٣٣) كان الخليفة الفاطمى المشار اليه فى المتن هو أبو محمد عبد الله العاضد لدين الله وهو آخر الخلفاء الفاطميين فى مصر ، وتختلف المصادر فى تقدير سنه حين ولى الخلافة فمنها ما يزعم أنه كان فى التاسعة من عمره

ومنها ما يصل به الى السابعة عشرة وهو الأرجح ، ومن المعروف انه مات سنة ١١٧١ م مخلفا اثنى عشر ولدا ، انظر عن بقية بيته
Casanova : Les Derniers Fatimides (in) Mem. de la Mission Arch., t. VI, PP. 415 et seq.

(٣٤) يلاحظ أن وليم يستعمل فى الاشارة الى هذه السفارة صيغة المفرد حينا وصيغة التثنية والجمع حينا أخر ·

(٣٥) تشير الترجمة الانجليزية (ج ٢ · ص ٣٢٢ . حاشية رقم ٤٣) الى أن لقب مولانا هذا ظهر على نقش كانت تعلوه دبتة من الدهن فى المسجد الأقصى ، وقد قصد به الخليفة المستنصر (١٠٣٥ ــ ١٠٩٤ م) وتعلق الترجمة الانجليزية على ذلك بقولها « انه من المحتمل جدا أن يكون وليم الصورى قد طالع هذا النص ذاته ، ثم تحيل القارىء الى التحقيق الذى كتبه :

S.A.S. Husaini : Inscription of the Caliph al-Mostansir (in) Palest. Deptt. of Antiquities. (1942), PP. 77 — 80.

(٣٦) المقصود بذلك النبى يوسف عليه السلام ·

(٣٧) هذه رواية يظهر فيها الخيال والوضع مما لايتلاءم مع التاريخ ، وهذه سقطة من وليم فى محاولته تفسير الأحداث التاريخية ولسنا نعرف من أين استقى وليم هذه الأخبار ، كما أن اخباره عن النبى يوسف مضطربة أشد الاضطراب ·

(٣٨) أورد المؤلف فى المتن كلمات ننزه عنها نبى الرحمة عليه الصلاة والسلام ، وقد حذفناها من الترجمة وحذفها لا يضير التاريخ الذى نحن بصدده ، وكم كنا نود لو ترفع وليم عما قال وهو من المؤرخين الكبار القلائل الذين نظروا فى كتب التاريخ ، وكان من اليسير عليه ــ وهو المدقق الباحث والعارف بالعربية ــ أن يتبينّ فى جلاء حقيقة الاسلام ونبيه ، ولكنها زلة تؤخذ عليه ، وحسابه عند خالقه ·

(٣٩) ترتيب الخلفاء الراشدين كما هو معروف كالآتى : أبو بكر فعمر فعثمان فعلى ، وليس كما ذكر المؤلف فى المتن أعلاه ·

(٤٠) هنا أسطر قلائل حذفناها لما فيها من ضلالة لا يليق صدورها من مؤرخ كبير تفترض فيه العدالة التاريخية ، والأسطر المحذوفة تصف الامام

عليا بما لا يرضاه على ، وما كان الذى يقوله وليم عنه فى تلك السطور الا من اسرائيليات ابن سبأ • راجع فان فلوتن : الشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن ومحمد زكى ابراهيم •

(٤١) تعرف مدينة سلمية عند الصليبيين باسم Salaminias وهى مركز من أكبر مراكز الشيعة ، راجع ماذكره عنها الجغرافيون المسلمون أمثال ياقوت وابن عبد الحق واليعقوبى والاصطخرى وابى الفداء والادريسى والمقدسى مما جمعه Le-Strange op. cit. P. 528.

(٤٢) فسر المؤلف كلمة «المهدى» بأنه الشخص الذى « أخضع كل شىء للسلام ، وعبد الطرق ويسرها للناس » ، ولكن للفظ دلالته التاريخية والدينية قديما وحديثا ، وقد ترجمت النسخة الانجليزية كلمة المهدى بـ Leveller أى المنصف والمساوى بين الناس •

(٤٣) أى حتى سنة ١١٨٢ م وقت أن كان وليم يختم هذا الكتاب •

(٤٤) Runciman : op. cit. II, P. 373.

وانظر فى هذا الموضوع ماسـبق وروده فى هذا الجزء عن سفارة هيـج •

(٤٥) المقصود بالعدو هنا شيركوه وقوات نور الدين محمود •

(٤٦) راجع عن أجنس وخبر طلاقها من عمورى وزواجها من هيج دى ابلين ما سبق حاشية رقم ٣ •

(٤٧) تنيس من المدن المصرية القديمة المندثرة كما يشير الى ذلك محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ق ١ ، ص ١٩٧ ، وأشار الى أن ياقوت ذكر أنه تصنع بها الثياب الملونة والفرش ، ويكون ماؤها أكثر أيام السنة ملحا لدخول ماء البحر الأبيض المتوسط اليها فى أول الشتاء ، ويقول محمد رمزى ان تنيس كانت سنة ٢٠ هـ ـ وقت دخول العرب ـ أخصاصا من قصب ، وكانت تعرف الى صدر زمن بنى أمية بذات الأخصاص ، ثم بنى أهلها بها قصورا ، ثم دخلها أحمد بنطولون سنة ٢٦٩ هـ فبنى بها عدة صهاريج عرفت بصهاريج الأمير • أما الفرما فمن أقدم الرباطات المصرية ، وكانت زمن الفراعنة حصن مصر من جهة الشرق لأنها فى طريق المغيرين على البلاد ، واسمها المصرى

القديم « بر آمن » أى مدينة الاله آمون ، ومنه اسمها العبرى « برمون » ، والقبطى « برما » والعربى « الفرما » وسماها الروم « بيلوز » أى الأرض الوحلة ، وقد ذكر ذلك بالتفصيل القاموس الجغرافى ، ق ١ ص ٩١ ، وزاد فقال اندثرت وتعرف آثارها اليوم بتل الفرما على بعد ثلاثة أميال من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وعندها أطلال قلعة كانت تعرف بقلعة ألطينة ، كانت منفى لمن يغضب عليهم الحكام ٠

(٤٨)دمياط من ثغور مصر القديمة على الشاطىء الشرقى لفرع النيل المعروف بفرع دمياط واسمها المصرى القديم Ta Meht أى بلد الشمال وجاء فى القاموس الجغرافى ق ٢ ، ج ١ ، ص ٨ انها كانت فى الأصل واقعة فى الشمال من دمياط الحالية ثم نقلت الى موضعها الحالى من سنة ٦٣٣ ٠

(٤٩) رشيد من الثغور المصرية القديمة وكان اسمها Bolbitine وأما اسمها القبطى فكان Raschit واللاتينى Rosetto وقد ذكرها ابن حوقل فى مسالكه وقال ان بها أسواقا صالحة وحمامات ونخيلا ٠ انظر عنها بالتفصيل محمد رمزى : شرحه ق ٢ ، ج ٢ ص ٣٠٠ ٠

(٥٠) الوارد فى الترجمة الانجليزية ، نقلا عن الأصل اللاتينى كلمة ترجمناها الى أقرب لفظ لها وهو محيى الدين ، وقال انه ابن شاور والمعروف انه كان لشاور ولدان هما « طى » الذى قتل فى رمضان ٥٥٨ هـ ، و « الكامل » الذى تولى الوزارة نيابة عن أبيه ، راجع القلقشندى : صبح الاعشى ٣١٨/١٠ ـ ٣٢٥ ٠

(٥١) يعنى بذلك الصليبيين والمصريين ٠

(٥٢) المقصود بالعدو هنا قوات نور الدين وشيركوه ٠

(٥٣) انظر ما قاله جوتييه وأميلينو عن « فاقوس » مما أورده محمد رمزى فى قاموسه الجغرافى ق ٢ ، ج ١ ص ١١٦ وما بعدها ، ومنه نستفيد أن « فاقوس » الحالية من مستجدات العصر العثمانى ٠

(٥٤) قوص من المدن المصرية القديمة واسمها Hat Hor أى قصر الاله حوريس ، ويقال للبلد « بربير قوص » أى « قوص الحارة » ٠ وعرفت منذ أواخر القرن الثالث باسم Diocletianopolis نسبة الى « دقلديانوس » الطاغية ، الذى أسرف فى اضطهاد المسيحية والمسيحيين ٠ وقد أشار اليها الادريسى فقال ان بها جامعا وأسواقا عامرة جامعة ووصفها بكثرة الوافدين عليها والخارجين منها ٠ انظر ما كتبه الجغرافيون والرحالة العرب فى رمزى: شرحه ق ٢، ج ٤ ، ص ١٨٧ ٠

(٥٥) لانعرف الداعى الى اقحام « سيس » وهى عاصمة الأرمن فى هذا الموضع ولا ندرى ما الذى يقصده المؤلف ٠

(٥٦) انظر تاريخها ونشأتها وتطورها فى محمد رمزى : المرجع السابق ق ٢ ج ٣ ص ٩٦ ٠

(٥٧) كان ذلك يوم ١٨ ابريل سنة ١١٦٧ م ٠

(٥٨) فيما يتعلق بالمنيا حيث جرت وقعة البابين راجع القاموس الجغرافى للمدن المصرية ، ق ٢ ، ج ٣ ، ص ١٨٢ وما بعدها ، و ص ١٩٦ ٠

(٥٩) تشير عبارة « من بعده » الى ان وليم الصورى مؤلف هذا الكتاب كتب هذا الخبر بعد أن صار مستشارا للملك عمورى ، ولقد رجح مترجما الكتاب الىالانجليزية (ج ٢ ، ص ٣٣٣ حاشية رقم ٤٥) أن وليم قد كتب ما بالمتن أعلاه بعد وفاة عمورى ملك بيت المقدس ، ولكنهما لم يبينا السبب الذى يحدوهما الى هذا الترجيح ٠

(٦٠) أى وظيفة مستشار الملك عمورى ٠

(٦١) راجع ما سبق الحاشية رقم ٥٠ ٠

(٦٢) تروجة من البلاد المصرية القديمة ، ذكر معجم البلدان انها من قرى البحيرة من أعمال الاسكندرية ، وذكر محمد رمزى ، القاموس الجغرافى، ق ١ ، ص ١٩٠ أنها اندثرت ومكانها اليوم كوم تروجة بمركز أبو المطامير بالبحيرة ٠

أما دمنهور فقد أشار رمزى : شرحه ، ق ٢ ، ج ٢ ص ٢٨٤ الى انها مذكورة فى قاموس جوتييه باسم Demi n Hor أى مدينة الاله حور وكانت مسرحا لعمليات حربية هامة فى بداية الفتح الاسلامى ، وأورها ابن مماتى فى قوانينه باسم دمنهور الوحش ، وذكر رمزى انها قاعدة لاقليم البحيرة من عهد الفراعنة الى اليوم ٠

(٦٣) فى الأصل Ben Areselle وقد ترجمناها بابن عبد الرسول وهذا اجتهاد منا ، لعل هناك من يؤكده أو يرشدنا الى الصحيح ٠

(٦٤) عيذاب : ذكر ياقوت فى معجمه أنها ثغر على ساحل بحر القلزم تابع لمصر كما أشار رمزى : شرحه ، ق ١ ، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ أنها كانت مرساة شهيرة للسفن وكانت طريق الحج المصرى فى القرون الوسطى ومنها يجتازون الى جدة فمكة ٠

(٦٥) يقصد شيركوه بذلك نفسه والملك عمورى ، ولعل فيما يذكره وليم فى المتن أعلاه ما يبعث على التفكير أكان شيركوه ـ ان كان ما نقل عنه حقا ـ يريد الاستئثار بملك مصر فيما بعد دون رعاية لالتزاماته تجاه مولاه نور الدين ؟ ، أم أنه كان يريد التمويه على عمورى حتى يخرج من مصر مع ضمان سلامة الجيش النورى الشامى ؟ ، على أننا لا نستبعد صدور ذلك القول من شيركوه ، فماكان من أحد من هؤلاء القادة الا وهو يسعى لما فيه صالحه ، وحسبنا فى الاستدلال على موقف صلاح الدين حين تخلص من الخليفـــة الفاطمى ثم تجاهله لمولاه نور الدين ثم مواقفه مع ابن نور الدين وأخيه قطب الدين مسعود ٠

(٦٦) تشير كلمة « لى » هنا الى وليم نفسه ، وهو بذلك يســـوق لنا معلومات هامة لم يتسن لأحد سواه من المؤرخين الصليبيين أو المسلمين أن يلم بها ويمدنا بها ، فقد تلقاها هو من هيج ذاته مباشرة ٠

فصول الكتاب العشرين

الصـــراع حول مصـــر

١ ــ « هيرنليسيوس » رئيس أساقفة قيصرية ، و « ايود » دى سانت أماند الساقى الملكى يعودان من القسطنطينية وفى صحبتهما زوجة الملك المقبلة ، وتتويج «عمورى » فى كنيسة صور وزواجه ٠

٢ ــ أندرونيكوس » أحد أقارب الامبراطور يمضى بتيودورا أرملة الملك بلدوين الى بلاد العدو ٠

٣ ــ انشاء كنيستين احداهما فى تدمر والأخرى فى الجليل وتعيين أسقفين لهما ٠ مجىء « ستيفن » مستشار ملك صقلية وأسقف الكنيسة المنتخب فى بالرمو ٠ وفاة وليم كونت نيفيرز أثناء وجوده معنا ٠

٤ ــ حضور رسل من جهة الامبراطور الى الملك فى طلب عقد اتفاق

معه،ارسال رئيس شمامسة صور رسولا الى القسطنطينية· امضاؤه الاتفاقية المقترحة مع الامبراطور ·

٥ ـ الملك يقود جيشا يغير به على مصر مناقضا بذلك شروط الاتفاقية التى كان قد عقدها مع المصريين ويشن الحرب عليهم ·

٦ ـ حصار مدينة بلبيس والاستيلاء عليها · السلطان شاور يغرى الملك ويعده بدفع مبلغ كبير من المال له ·

٧ ـ الملك ينصب معسكره أمام القاهرة فى انتظار المال الذى وعده به شاور ·

٨ ـ أسطولنا يبحر فى النيل وينضم الى القوات البرية · السلطان (شاور) ينقض اتفاقه ويحاول المقاومة ويلتمس المساعدة من الترك ·

٩ ـ « ميلون دى بلانسى » يفسد تفكير الملك برأيه الشرير · وصول شيركوه (الى مصر) تلبية لاستغاثة المصريين به · الملك يتقدم عبر هذه الصحراء فلما لم يصادفه يعود أدراجه الى مملكته من غير أن يحقق غرضه ·

١٠ ـ شيركوه يستولى على مصر ويقتل السلطان · نهاية شيركوه ·

١١ ـ صلاح الدين يخلف عمه شيركوه (فى قيادة الجيش) ويحكم مملكة مصر ·

١٢ ـ تعيين « برنارد » رئيس دير جبل الطور مشرفا على كنيسة اللد ورحيل « فرديناند » رئيس أساقفة صور الى الغرب فى طلب المعونة من الأمراء هناك ·

١٣ ـ الامبراطور فى تشوقه لامضاء الاتفاقية يرسل أسطولا الى الشام بقيادة بعض أتباعه النبلاء ·

١٤ ـ الملك يزحف بجيشه على مصر ويصحبه البيزنطيون بقوات برية وبحرية ·

١٥ ـ الملك يحاصر مدينة دمياط · الاغريق واللاتين يجهدون أنفسهم فى الحصار ولكن بلا جدوى ·

١٦ ـ انتشار المجاعة فى المعسكر المسيحى · أسطولنا ينجو بمعجزة من الهلاك بالنار · ضياع جميع جهودنا هباء وأخيرا يتم رفع الحصار ·

١٧ ـ استدعاء الحملة ثانية وعودة الملك الى دياره · ضياع معظم الأسطول البيزنطى فى العودة بسبب هبوب رياح أغرقته ·

١٨ ـ دمار المدن القديمة أثر زلزال يكتسح فى الواقع الشرق كله ·

١٩ ـ صلاح الدين يغزو أرضنا ويحاصر قلعة الداروم ·

٢٠ ـ الملك يسرع الى هناك فى رهط قليل من الفرسان ويفتك بالعدو بكثير من قومنا فى مدينة غزة فى أثناء زحفه ·

٢١ ـ عودة صلاح الدين الى أرضه ورجوع الملك الى عسقلان بعد زيارته الداروم التى صار بعضها الآن خرابا · اغتيال الشهيد الممجد « توماس » رئيس أساقفة كانتربرى فى نفس هذا العام، ويكون اغتياله فى كنيسته ·

٢٢ ـ الملك يزور القسطنطينية وفى معيته بعض نبلائه ويغدق عليه الامبراطور كثيرا من مظاهر الشرف ·

٢٣ ـ ادخال الملك الى حضرة الامبراطور الذى يلقاه بالتجـــلة

والاحترام العظيمين · المحادثات الكثيرة بينهما حول مسائل ذات أهمية خطيرة ·

٢٤ ــ عودة الملك واشـــرافه الى بلدهم محملين بالهدايا بعد أن تحققت أغراض الرحلة ·

٢٥ ــ الملك يحشد الجيش فى   وعودة رئيس
أسقفة صور من البلاد الواقعة فيما وراء البحر ومقتل وليم أسقف عكا فى بلاد الروم ·

٢٦ ــ « مليح » الأرمنى ــ أخو توروس ــ ينضم بقواته الى نور الدين ويفسد فى أرض أنطاكية فيسرع الملك الى هناك لكبح أعماله الشريرة ·

٢٧ ــ صلاح الدين يحاصـــر قلعة الكرك الواقعة وراء الأردن وينجح فى محاولته هذه ثم يعود الى بلده ·

٢٨ ــ صلاح الدين يخرب كل الأراضى الواقعة وراء الأردن فيحصر الملك وجيشه فىمكان يسمى بالكرمل · عودة كونت طرابلس من الأسر ·

٢٩ ــ وصف طائفة الحشاشين ووصف السفارة التى بعثوها الى الملك ·

٣٠ ــ الاخوان الفرسان الداوية يذبحون مبعوث الحشاشين ويترتب على هذا الحادث وقوع أضطرابات عنيفة فى المملكة · وفاة « رالف » أسقف بيت لحم ·

٣١ ــ وفاة نور الدين · الملك يفرض الحصار على بانياس ولكنه يبرم فى النهاية اتفاقية وينسحب ، مرضه واسراعه الى القدس لكنه يموت فى مدى أيام قلائل ·

هنا يبدأ

الكتاب العشرون

الصراع حول مصر والتحالف مع الامبراطور مانويل

- ١ -

عاد فى هذه الآونة الى صور وأرسى بها كل من «هيرنيسيوس» Hernesius رئيس أساقفة قيصـــرية الطيب الذكر و « ايود Eudes دى سانت آماند » الذى كان فى ذلك الوقت ساقى الملك وكان الاثنان قد أنجزا على أحسن وجه المهمة التى عهد اليهما القيام بها عند الامبراطور « مانويل » وتكللت سفارتهما بعد عامين بالنجاح لأنهما أحضرا معهما ابنة جون « البروتوسيباستوس » لتكون زوجة الملك المقبلة .

وما كاد الملك يعلم بوصولهما حتى أسرع الى صور ، وبعد استدعائه كبار رجال الكنيسة وأشـــراف المملكة زف الى الأميرة

« مارية » التى كانت قد نالت نعمة المسح بالزيت المقدس والترسيم الكنسى ، وتم الاحتفال بالزواج فى أبهة رائعة وتعظيم كبير ، وذلك يوم ٢٩ أغسطس فى كنيسة صور على يد البطرك «أماريك » الطيب الطيب الذكر ،وقد طلع الملك متدثرا باللباس الملكى فكان مرآه رائعا وقد وضع على مفرقه تاج أسلافه ·

كان « البروسيباستوس » جون الذى تزوج الملك كما قلنا بابنته هو الأبن الأكبر لشقيق الامبراطور مانويل الذى أرسله رفقة ابنة أخيه فى طائفة من علية القوم وكبار الأشراف ممن تربطهم به وشائج القربى ، وكان فيهم المبجل « باليولوجس » ، والسرى الأمجد «مانويل سباستوس » أحـــد ذوى قرباه وكثيرون غيرهم(١) ، وعهد اليهم بمرافقة الملكة المقبلة والقدوم بها فى أروع أبهة الى جلالة الملك ، وكلفهم بالحرص على استيفاء جميع المراسيم المقررة وملاحظة عدم التقصير فى شىء منها ·

وكانت كنيسة صور هى الموضع الذى ستقام فيه الاحتفالات ، وكان رئيسها حينذاك هو المعظم « فردريك » الذى كان قد انتقل اليها من كنيسة عكا ، وبعد انقضاء ثلاثة أيام من تتويج الملك وحفلات قرانه تفضل « فردريك » على بوظيفة رئيس أساقفة كنيسة صور وهى الوظيفة التى كان وليمقد تركها حين استدعائه لكنيسة عكا ، وقد فعل فردريك هذا العمل بتوجيه من الملك وفى حضور الكثيرين من الرجال الأمجاد ·

ـ ٢ ـ

وفى هذه الأثناء ، وبينما كان الملك (عمورى) لايزال موجودا فى مصر جاء كيليكية أحد كبار رجال بيزنطة واسمه «أندرونيكس(٢) فى حاشية كبيرة من أتباعه ذوى النفوذ الضخم ، وكان ذا صلة قرابة

بامبراطور القسطنطينية وظل مقيما بيننا حتى عاد الملك من مصر ، والحق أن وجوده ، بيننا كان مبعث غبطة كبيرة لنا ،ولكنه كان أشبه بالحية في الصدر وبالفأر في صيوان الملابس اذ رد جميل مضيفيه أسوأ رد ، وبرهن على صدق المثل الذى قاله « مارو » لست أطمئن للاغريق ولو جاءوا محملين بالهدايا وماكاد الملك يعود (من مصر) حتى تفضل عليه فأقطعه مدينة بيروت ، واذ ذاك بادر هذا الاغريقى فدعى « تيودورا » أرملة بلدوين لمرافقتـــه لزيارة بيروت ، وكانت « تيودورا » تمتلك مدينة عكا التى كانت قد اتخذتها كصداق لها وقت زواجها ،وكانت تيودورا هذه قد استضافت فى بيتها « أندرونيكوس » فترة طويلة حيث تقيم فقضى عندها فترة ليست بالقصيرة وحدث فى أثناء سفرته هذه أن اتصل بنور الدين ، ثم خان الأمانة فاختطف الملكة وحملها معه الى دمشق من بلاد العدو ثم مضى بها فيما بعد الى بلاد فارس(٣) .

ـ ٣ ـ

لم يجد فى هذه الأثناء خلال هذه السنة جديد يستحق الاشارة الا ما كان من تشييد كنيستين وقت عيد الفصح وتعيين أسقفين لهما ، وكانت أولى هاتن الكنيســـتين فى وادى موسى الواقع وراء الأردن فى أرض مؤاب وعاصمة اقليم تدمر،ولم يحدث قط أنكانلهذهالمنطقة أسقف لاتينى منذ قدوم المسيحيين الى أرض الميعاد ، كما أنه لم يتسن للأخرى ـ وهى كنيسة الجليل ـ أبدا أنحظيت بهذا الشرف ، فقد ظلت طوال عهد البيزنطيين وهى لاتعدو أن تكون أبرشية ، وكذلك كان الحال ازاء كنيسة بيت لحم كماهو معروف تمام المعرفة ، غير أن ما كانت تنعم به بيت لحم من توقير باعتبارها البقعة التى ولد بها سيدنا المسيح رفعها عن جدارة الى هذه المكانة السامية ، كما أنها

نالت كلما تتمتع به الكاتدرائية من حقوق وامتيازات ، وكان ذلك زمن الملك بلدوين الأول فى أعقاب تحرير المدينة المقدسة مباشرة(٤) .

كذلك حظيت مدينة الجليل هى الأخرى فى نفس السنة التى نتحدث عنها ولأول مرة بهذا التعظيم الذى هى أهل له بسبب ما كان لها من صلات بخدام المسيح الخالدين المباركين الى الأبد وهم ابراهيم واسحق ويعقوب ، واختير « جيريكوس » أسقفا لكنيسة تدمر وكان من قبل قيما على هيكل السيد ،كما اعتبر هذا الأسقف ذاته مطرانا لاقليم الكرك ، ونصب « رينالد » ابن أخى البطرك فولشر ذى الذكر المجيد رئيسا لكنيسة الجليل ،فلما كان صيف العام التالى وصـــل «ستيفن» الى المملكة فى رهط قليل ، وكان رجلا رفيع القدر سامى المكانة ويعمل مستشارا لملك صقلية وهو الأسقف المنتخب لكنيسة بالرمو وهو شقيق « كونت ريترو دى بيرش » الذى كان شابا جميل المنظر موهوبا بطبعه ، وقد وقع «ستيفن » ضحية مؤامرات دبرها ضده رهط من نبلاء صقلية الذين نجحوا فى اخراجه من تلك البلاد فخرج من غير موافقة مليكها الشاب الذى كان لايزال صغيرا ، وكذلك رغم أنف أمه ، لكن لم يكن لهما حول ولا قوة تمكنهما من منع ما جرى، على أن « ستيفن » استطاع بصعوبة شديدة أن يتجنب أحابيل النبلاء ومكرهم ، ونجح فى الوصول الينا بحرا لكن مالبث أن وافته منيته اثر مرض خطير اعتراه ولم يفارقه الاوقد فارق الحياة فدفن بالقدس بما يليق به من الاحترام،وسجى جثمانه فى احدى كنائس هيكل الرب .

كذلك حدث فى نفس هذا الوقت أن وفد الى القدس من مملكة فرنسا فى زمرة من الفرسان الأشراف « وليم كونت نيفيرز » وكان أميرا اقطاعيا كبيرا من عائلة شريفة واســـعة النفوذ ، وكان دافعه الى المجىء هو محاربة خصوم العقيدة تحت لواء المسيحية ، وذلك على نفقته الخاصة . غير أن الموت(٥) أحس الغيرة من نجاحه

ذكر اليه ، وهكذا حال سوء الحظ بين هذا الرجل الورع « وليم دى نيفيرز » وبين مشروعه النبيل ، فقدألمت به وعكة شديدة طالت عليه فمات منها وهوعلى أول درجات حياة كانت تبشر بالأمل العريض فحزن الجميع على وفاته وذرفوا عليه الدمع السخين .

– ٤ –

وجاءت فى صيف هذه السنة ذاتها سفارة(٦) امبراطورية فيها أثنان من بلاط امبراطور القسطنطينية هما «اسكندر » كونت جرافينا ئـ وآخر اسمه « ميخائيل هيدر نتيس » الذى هو من أترانتو فأمر الملك بعقد اجتماع خاص لسماع ما يقولانه وما جاءا من أجله،ودعى الملك الى هذا الاجتماع من أراد أن يكونوا حاضريه ، فشرع الرسولانفى شرح الدواعى وراء مجيئهما ، وحملا الى الملك رسالة من صاحب الجلالة الامبراطورية عما قدما من أجله ، وكان فحواها ما يلى :

« لقد لاحظ الامبراطور أن مملكة مصر التى ظلت حتى هذه اللحظة الحاضرة قوية وبلدا فاحش الثراء قد وقعت فى أيدى جنس ضعيف ألف الاسترخاء ، كما أن الشعوب المجاورة لها هى الأخرى لم يفتها ماكان عليه حاكم مصر وأمراؤه من الوهن وعدم الكفاءة مما يشير بوضوح الىانهيستحيلعلىهذه المملكة أن تستمر طويلا فيما هى عليه الآن ، وأنه لابد أن تؤول حكومتها والاشــــراف عليها الى غـــيرها من الأمم ، وان الامبراطور مؤمن بأن باستطاعته ـ بمساعدة الملك ـ أن يضمها اليه »(٧) .

لذلك فان الامبراطور أرسل من أجل هذا الغرض رسوليه الى الملك .

ويقول البعض ـ وهذا أمر كبير الاحتمال ـ أن الملك كان هو

البادىء فى التفكير فى اقتراحه هذا الموضـــوع وعرضــــه على الامبراطور على أيدى رسل أنفذهم اليه برسائل ألح فيها عليه أن يسعفه من لدنه بالعسكر وبالأسطول والمال اللازم لانجاز هذا الأمر ، على أن يكون للامبراطور (البيزنطى) لقاء ذلك نصيب فى هذه المملكة وفى جميع الغنائم التى يمكن الاستيلاء عليها ·

كانت هذه هى طبيعة المهمة التى جاء بها الرسولان الى الملك فلما تم الاتفاق بين الطرفين على شروط الاتفاقية أضافونى « » الى اللجنة كواحد منهم وكان ذلك بأمر الملك ، ولما كنت أنا حامل رسائله فقد كان على أن أزور الامبراطور وأنقل اليه قرار الملك وعزم المملكة(٨) كلها ، وزيادة على ذلك فقد خولنى صلاحية الموافقة على مايبرم من اتفاق بينهما(٩) ، كما طلب منى ذلك ولكن وفق الصورة التى اتفق عليها · وعلى هذا الأســاس أنضممت الى المبعوثين الامبراطوريين اللذين كانا فى انتظارى بطرابلس حسب التوجيهات الصادرة من الملك ، وأبحرنا جميعا معا الى القسطنطينية فعلمنا أن الامبراطور كان متغيبا اذ ذاك فى الصرب حيث كان أهلها ثائرين على حكومته التى أقامها لتحكمهم ·

* * *

وبلاد الصرب اقليم جبلى واقع بين دلماشيا والمجر والليريا ، غنى بالغابات الكثيفة مما يجعل اقتحامه أمرا عسيرا أشد العسر ، ولقد قام الصربيون بالثورة اعتمادا منهم على استحالة دخول أحد بلادهم لشدة ضيق الممرات الموصلة اليها ·

وتقول الأخبار القديمة انهذا الشعب كله يرجع فى أصله الى المنفيين الذين طردوا الى تلك الناحية ، وفرض عليهم العمل فى محاجر الرخام وفىالمناجم ، ويقال انه بسبب هذه العبودية اشتق اسمهم(١٠) ·

والصرب قوم غلاظ لا يعرفون النظام وهم يسكنون الغابات ويقيمون فى الجبال ، لا يدرون شيئا عن الزراعة لكن عندهم قطعان كبيرة من الماشية وأسراب ضخمة من الدواب التى توفر لهم الكميات الهائلة من الألبان والأجبان والزبد واللحم ، ويطلق على رؤسائهم اسم « سوباتى » .

وكانوا يخضعون للامبراطور فى بعض الأحيان ، كما كانوا فى أحيان أخرى ينسلون من معاقلهم الجبلية ويعيثون فسادا وتخريبا فى كل النواحى المحيطة بهم ،وكانوا مدفوعين الى ذلك بما فطروا عليه من البطش وما طبعوا عليه من حب القتال ، وقد أدت اعتداءاتهم التى لا تحتمل وما أوقعوه بجيرانهم الى اقدام الامبراطور (مانويل) اقداما بطوليا على الزحف عليهم بجيش كثيف ، وتمخض زحفه هذا فى النهاية عن نجاحه وفل شوكتهم وأسر زعيمهم الأكبر .

ولقد تسنى لى ولمن معى أن نقابل الامبراطور بعد عودته من حملته هذه وبعد أن تغلبنا على الكثير من متاعب الطرق ، وكان لقاؤنا اياه فى المدينة المسماة « بوتيلا » فى ولاية « بلاجونيا » قرب المدينة القديمة التى كانت تعرف باسم «جستنيانا » الكبرى وهى مهبط رأس أحكم الناس وأسعدهم طالعا والذى لم يقهر وهو الامبراطور « جستنيان » ، ولكنها أصبحت تعرف الآن باسم « أوكريدا » . وقد استقبلنا الأمبراطور فى هذه المدينة استقبالا كريما وحبانا بلطفه الامبراطورى فأخبرناه بالدافع الذى دفعنا للقيام بهذه الرحلة وتلك السفارة ، وشرحنا له شرحا دقيقا مضمون المعاهدة فأصغى لكل ما قلناه بنفس راضية وتقبله قبولا حسنا ، وأعلن موافقته على جميع ما كان قد تم الاتفاق عليه ،وبعد تبادل الطرفين الأيمان الغليظة وافق الامبراطور بما له من الصلاحية على الشروط كما ارتضاها المبعوثون وصادق عليها ، وأخذنا كتبا امبراطورية تتضمن نص الاتفاق فى

صورته الكاملة ، وأذن لنا بالسفر بعد أن حملنا كثيرا من الهدايا حسب العادة المتبعة ، وهكذا نجحت سفارتنا فى انجاز ما جاءت من اجله ، وحينذاك شرعنا فى رحلة العودة فى الأول من أكتوبر ٠

ـ ٥ ـ

فى هذه الأثناء وبعد مغادرتنا مباشرة وقبل أن تعود سفارتنا لتخبر الملك بالمساعدة التى وعدنا بها الامبراطور سرت فى أرجاء البلاد شائعة تقول أنشاور سلطان مصر دأب على أن يبعث فى السر بالكتب الى نور الدين ملتمسا منه مد يدالمساعدة اليه ، وادعى له أن كل مشاركة منجانبه فى عقد أى اتفاقية سلام معنا انما تمت على كره منه ، وعلى غير رضائه ،وأنه راغب فى الانسحاب من الاتفاق الذى كان أبرمه مع الملك (عمورى) وأنه سوف يشجب هذا الاتفاق ويستقل عنالملك نهائيا ان تأكد تماما من مساعدة نور الدين له ٠

ويقال ان هذا الخبر أسخط الملك كلالسخط وحقله ان يسخط . ولذلك جمع خيالته وفرسانه من كل نواحى المملكة وغادرها على جناح السرعة الى مصر ٠

على أن هناك من راحوا يزعمون أن هذه الأقوال التى نسبت الى شاور ان هى الا افتراءات افتريت عليهوأنهبرىءمنهاكلالبراءة، وأنه لا يستحق أبدا مثل هذه المعاملة من جانب الملك ، اذهو مخلص فى حفاظه على الاتفاق والوفاء بماتضمنه ، كما أكد هذا البعض أن الحرب القائمة ضده ان هى الا حرب ظالمة منافية للحق الالهى ، وما هى الا ذريعة يتذرع بها البعض للدفاع عن مشروع عدوانى ، ومن ثم ففى رأيهم أن الرب العالم بأسرار القلوب ، المطلع على ما فى الضمائر قد قبض عنا رحمته ولم يهيىء لنا النجاح فى خطتنـــا الظالمة ٠

ويقال ان « جيلبرت الأسالي » رئيس الاسبتارية بالقدس كان أكبر المؤيدين ـ ان لم يكن هو المخطط الأول ـ لهذه الحملة الكريهة، وكان « جيلبرت » رجلا طموحا سخي اليد ولكن لا يقر له قرار ولا يثبت على رأى ، وانه بعد استنفاده جميع أموال الاسبتارية اقترض مالا كبيرا صرفه كله على الفرسان الذين جمعهم من كل ناحية ، وبهذا تراكمت الديون على طائفته تراكما أثقل كاهلها حتى لم تعد هناك أى امكانية فيأقالتها من عثرتها والنهوض بها من كبوتها ، وحمله الناس على التنحى عن وظيفته في رياسة الاسبتارية مخلفها مثقلة بديون تبلغ مائة ألف قطعة ذهبية ، ويقال انه صرف كل تلك المبالغ الضخمة على أساس تفاهمه مع الملك على أن تصبح بلبيس التى كانت تعرف قديما ببلوزيوم بكل ماحولها من الأراضى ملكا دائما لهذه المنظمة وذلك حين يتم للملك فتح مصر واخضاعها .

أما فرسان الهيكل فنهجوا عكس هذا المنهج تماما اذ رفضوا أن يساهموا فى هذه الحملة ، وربما كان مرجع ذلك عندهم أنها كانت حملة مخالفة لما تمليه عليهم ضمائرهم ، أو لأن رئيس المنظمة المنافسة لهم كان كما يظهر هوالمخطط لهذا المشروع ومنفذه ، ومن هنا كان رفض الداوية مرافقة الملك أوامداده بقوات من عندهم ، ذلك أنهم رأوا أن اعلان الحرب على بلد صديق لنا يثق فى صدق يميننا انما هو عمل خاطىء ومخالف لنصوص الاتفاقية ، وفيه تحد للحق والعدالة ، لأن مصر ظلت وفية مخلصة لما أبرمته معنا ، ومن ثم فهى لا تستحق مثل هذه المعاملة .

ـ ٦ ـ

أتم الملك كل استعداداته وجمع كل ما يحتاجه للحرب ، ولذلك فانه ما كاد يبدأ شهر أكتوبر من السنة الخامسة من حكمه حتى كان قد حشد قوات المملكة للزحف على مصر ،وبعد مسيرة استغرقت

عشرة أيام عبر الصحراء الفاصلة وصل الى بلبيس حيث شرع فى الحال فى القيام بعمليات الحصار واستطاع فى مدى ثلاثة أيام أن يشق طريقه بالسيف فيها فاستولى عليها بالحرب ، فلما كان الثالث من نوفمبر كان عسكره قد ملكوا المدينة تماما ·

ما كاد يتم الاستيلاء على المكان حتى حكم الملك السيف فى رقاب الكثيرين من الأهالى دون مراعاة لعمر أو جنس ، فأما الذين شاء القدر لهم النجاة من الموت فقد كتب عليهم أن يفقدوا حريتهم وأن يقعوا فى ربقة الأسر البغيض وهو أمر يراه الشرفاء أقبح من أى صورة من صور الموت ، وكان من بين كبار الأسرى فى بلبيس ومن أصحاب المكانة الرفيعة ففيها محيى الدين(١١) ابن السلطان ، وكذلك أحد أبناء اخوة الأخير ، وكانا مسئولين عن المدينة وقيادة القوات الموجودة هناك ·

ما كاد باب المدينة يفتح حتى اندفعت منه القوات فعم الهرج واختلط الحابل بالنابل ولم تراع حرمة أى شىء فتوغل العسكر فى البلد حتى أقصى نواحيه ، واقتحموا البيوت الخاصة وجعلوا الأصفاد فى أيدى كل اللائذين بها الذين ظنوا أنهم ناجون اذ اعتصموا بها فخانهم ظنهم واقتيدوا الى الموت الشنيع ، وعرضوا على السيف فى الحال جميع الذكور الذين هم فى مقتبل العمر القادرين على حمل السلاح ، وقل أن نجا من بطشهم الشيوخ ولا الأطفال ، ولم يهتموا كثيرا بالعامة البسطاء ، وغنموا كل ما رغبوا فى غنيمته ، وقسمت بالقرعة باعتبارها أسلابا ·

لم يدر السلطان ماذا يفعل حين وافته أنباء هذه الانتهاكات ، وتحير لا يدرى أى الطرق يسلك ، ثم أخذ الأمور بقدر ما يسمح له الوقت والظروف المحيطة به ، ولم يعد يدرى أيعمد الى تهدئة ثائرة

الملك بتقديم مبلغ من المال اليه ، أم تراه يلتمس من الزعماء المجاورين ممن على دينه المجيء لمساعدته طوعا أو مأجورين، فتبين له في النهاية أن الأمر يتطلب اجراء سريعا فعزم في الحال على أن يسلك الطريقين معا في آن واحدة، ومن ثم أرسل سفارة الى نور الدين تسأله النجدة فاستجاب له نور الدين واستدعى اليه شيركوه الذى أشرنا اليه من قبل وعهد اليه بقيادة طائفة من الجيش وأيده بالكثير من كبار خاصته ليشاركوه تبعة الأمر ثم أمر بتجهيز الذخيرة اللازمة للزحف ، وأعد عددا كبيرا من الابل لحمل المتاع وبعث بالحملة الى مصر ٠

- ٧ -

بعدان فرغ الملك من تدميره بلبيس زحف بكل عسكره نحو القاهرة في بطء شديد فلم يقطع في عشرة أيام الا ما يستغرق يوما واحدا فقط ، فلما بلغ غاية زحفه نصب معسكره أمام القاهرة وأعد آلات القتال ، ومدت الستائر المجدولة من الحبال ، ووضع كلما يمكن أن يجدى في عمليات الحصار ، وكانت هذه الاستعدادات المقامة وراء الأسوار تنبيء عن هجوم وشيك الوقوع مما أوقع الفزع في القلوب وارفضت هلعا ، وقد أصبح شبح الهلاك يهدد الناس ٠

وقال الواقفون على بواطن الأمور ، العارفون بماوراء أفعال الملك هذه أنه تلكأ في الهجوم عن قصد حتى تتوفر للسلطان (شــاور) فسحة طويلة من الوقت فيقدم المال الذى يحمل العسكر على الانسحاب، أى أن الهدف الذى يسعى اليه الملك هو أن يبتز المال من السلطان ، وقال هؤلاء الناس انه كان يفضل أن يأخذ رشوة كبيرة فينسحب بدلا من أن يدع هذه المدينة نهبا لعصابات قومه كما حدث في بلبيس ، وسنفصل شرح هذه الحقيقة فيما بعد ٠ ولقد حاول السلطان خلال هذه الفترة بشتى الطرق التقرب الى عمورى عن طريق رجال من

خاصة أهل بيته هو ذاته ومن خاصة اقارب الملك نفسه ، ولم يدع أى وسيلة مهما بلغت من المكر الا اصطنعها فنجحت عروضه فى النهاية فى التأثير على الملك الذى كان شرها كل الشراهة فى حبه للمال ٠

كان المبلغ الذى وعد به شاور كبيرا جدا قل أن تكفى جميع موارد المملكة(١٢) للوفاء به حتى ولو أضيف اليه مايمكن استخلاصه من كل بلادها ، اذ يقال انه وعد بدفع مليونى قطعة ذهبية لقاء أسر ولده وابن أخيه وانسحاب القوات الصليبية الى ديارها ، ولقد كشف القناع فيما بعد أنه قـدم هذا العـــرض وهو يدرك ان ليس فى قدرتـــه سداده ، لكنه عرضـــه لا لشىء الا لكى يمنع الملك من الزحف الفجائى على مدينة القاهرة التى لم تكن على استعداد مطلقا للمقاومة مما يجعل الاستيلاء عليها أمرا يســـيرا ان هى فوجئت بالغارة تشن عليها اذ كانت تعوزها وسائل الدفاع ٠

ويعتقد الذين كانوا موجودين اذ ذاك أنه اكان من الممكن حدوث هذا الأمر(١٣) لو أن جيشا كان قد تقدم الى القاهرة فى أعقـــاب استيلاء الملك على بلبيس ،فقد كان المصريون حينذاك فى الواقع فى أشد حالات الفزع ونزل عليهم خبر المذبحة التى حدثت منذ قريب نزول الصاعقة ، وأفزعتهم النكبة التى لم تكن متوقعة أشد الفزع ، وكان هذا رأيا محتملا كل الاحتمال لأن سكان القاهرة كانوا قد استناموا للتراخى لطول البلهنية التى كانوا يتقلبون فى أعطافها ، ولأن أعمدة الدخان كانت لاتزال تتصاعد فى الناحية المجاورة ، وكانوا هم أنفسهم حزانى على هلاك أصحاب لهم لا يحصيهم العد ، وعلى ذلك فقد كان متوقعا فى هذه الظروف أن تفارقهم شجاعتهم وترث حبال صمودهم خوفا من أن يلاقوا المصير الذى لقيه الآخرون ٠

هكذا كان الوضع فىنواحى القاهرة ٠

ثم وصل في هذا الوقت الأسطول الذى كان الملك عند مغادرته المملكة(١٤) قد أمر أن يبحر بأقصى سرعة ،وكانت الريح طيبة ، ودخل النيل من فرعه المعروف بالفرع «الكاريبى » ، واستولت القوات البحرية في احظتها على « تنيس »(١٥) وهى مدينة موغلة في القدم وتقع على شاطىء النهر وسلمتها الى العسكر لينهبوها ويسلبوها ثم حاول الأسطول المضى قدما لينضم الى الملك ولكن المصريين سدوا عليه النيل بقواربهم وأغلقوا كل طريق للعبور فيه ، واذ ذاك بعث الملك بهمفرى صاحب تورون مع طائفة منتقاة من الفرسان لاحتلال الشاطىء الآخر من النهر أن أمكنهم احتلاله عسى أن يظل هناك منفذ ولو واحد على هذا الجانب مفتوحا أمام المغير ، ويبدو أنه كان فى مقدور همفرى ورجاله انجاز هذا العمل من غيرم شقة لولا انطلاق شائعة فىهذا الوقت بالذات تشير الى اقتراب شيركوه منهم مما اضطرهم لتغيير خطتهم، فصدر الأمر للأسطول بأن يخرج الى البحر فى الحال ويكر راجعا الى دياره فأطاع الأسطول الأمر الصادر اليه ، غير أن واحدة منشوانيه ضاعت بسبب عدم اتخاذ الحذر الواجب اتخاذه ٠

لم يكف السلطان (شاور) وقومه فى الوقت ذاته عن بذل كل جهدهم لاخراج الملك من بلادهم ، ولقد تم لهم بالحيلة ما عجزت القوة عنالاضطلاع به ، واستعاضوا عن ضعف قواتهم بركونهم الى أساليب المكر ، ذلك أنهم ما كادوا يعدونهم بالمال حتى طالبوا باطالة فترة السماح التى يدفعونه فيها لهم، وكانت حجتهم فى طلبهم هذا أن مثل هذا القدر الكبير منالمال لايستطاع توفيره من مصدر واحد، ومن ثم فلابد لهم من فترة أطول قبل وضع الاتفاق موضع التنفيذ ،

وان لم يمنعهم ذلك من أن يدفعوا فى الحال مائة ألف قطعة ذهبيـة لقاء اطلاق سراح ابن السلطان وابن أخيه ، ثم قدم شاور رهائن عما تبقى من المال فكانت الرهائن ولدى أخيه الصغيرين ، وكانا شابين ٠

حينذاك رفع الملك الحصار وسحب قواته الى موضع أبعد من موضعه هذا بما يقرب من ميل ضرب عنده معسكره على مقربة من حديقة شجر البلسم حيث بقى العسكر مرابطين هنا لمدة ثمانية أيام تسلم الملك خلالها من السلطان رسائل كثيرة ، ولكنها غير مرضية ، وانتهى به الأمر أخيرا الى نقل معسكره ثانية الى موضـــع يعرف بسرياقوس(١٦) ٠

كان السلطان فى هذه الأثناء يبعث برسله الى كافة أرجاء البلاد فى التماس المساعدة ، فاستطاع أن يجمع كل ما أمكن جمعه من السلاح ، ثم طلب المساعدة ممن حوله ، كما أمر بتزويد القاهرة بكل مواد الاعاشة ،وقام بنوبات يتفقد فيها المدينة وراح يعمل على تقوية كل المواضع الضعيفة فى التحصينات ويتدبر كل طريقة للمقاومة واستطاع بكلماته القوية أن يدعو شعبه للحرب حفاظا على أنفسهم وصونا لحريتهم ودفاعا عنحريمهم وذودا عنأبنائهم ، ووضع أمام أعينهم صورة حية للنكبة التى نزلت بمدينة مجاورة لهم ، ووصف لهممرارة الأسر وفظاظة الوقوع فى نيرالغالب وهى فظاظة لا تحتمل ، بالاضافة الى سوء حالة من فى القيود ٠

ـ ٩ ـ

كان فى جيش الملك شخص من أسرة شريفة ولكنه لئيم الخلق خسيس الطبع لايرعى فى الله الا ولا ذمة ولايوقر أحدا ، واسمه «ميلون دى بلانسى » قدخلع برقع الحياء ،وكان ميالا للمخاصمة

مغتابا ، بارعا كل البراعة فى اثارة المشاكل ، ولما كان يعرف تمام المعرفة شراهة الملك للمال فقد عمل على تغذية جشعه بدلا من أن يقدم له العظة الحسنة والنصيحة الطيبة ، فدأب منذ البداية على اغرائه بتكريس كل جهوده نحو هدف واحد دوأن يبتز من المملكة المصرية المبلغ الذى ذكرناه من قبل ، ثم يعقد بعد ذلك اتفاقا مع السلطان والخليفة بدلا من محاولته الاستيلاء على القاهرة وبابليون بحد السيف ، ويقال انه فعل ذلك عن ايمان منه باستحالة أخذ المدينة عنوة بل رجاه فى أن يخدع الفرسان وغيرهم ممن كانوا يتحرقون لأخذ الغنائم ، ومن ثم يحيل كل ما تتمخض عنه هذه الحملة العظيمة الى مال ينصب فى الخزانة الملكية ، اذ جرت العادة أنه اذا فتحت مدينة من المدن فى بلد ما فان الغنائم والأسلاب التى تقع فى حوزة الجيش تكون أكبر مما لو أن هذا البلد استسلم مباشرة للملك أو الأمير تبعا لشروط اتفاقية لا يستفيد منها سوى السيد وحده .

ففى الحالة الأولى فان سنة الحرب تتيح لكل جندى أن يستحوذ على كل ما تضعه الصدفة فى طريقه وبذلك يتضخم مايملكه الجندى المنتصر ، أما فى الحالة الثانية فان النفع كله يعود على الملك وبذلك ينصب كل ما يتحصل عليه بهذه الطريقة فى خزينة الملك وحده ، وعلى الرغم مما يبدو من أن كل ما يزيد فى ثروة الملك وأصحاب المكانة العليا يعود بالنفع غير المباشر على رعاياهم الا أن الانسان يسعى على الدوام فى اصرار الى الحصول على مكاسب تؤدى الى زيادة ما يملكه .

ولقد أدى هذا الأمر المتناقض الى مشاحنات خطيرة ، الا أن الأغلبية طالبت أن يكون السيف هو الفيصل وأن يكون كل شىء نهبا مباحا ، لكن الملك ومن حوله رفضوا هذا الرأى وكانت لهم الغلبة فى النهاية وتحقق ما أراده .

وبينما كان الجيش معسكرا فى القرية التى ذكرناها من قبل التى تبعد عن القاهرة خمسة أميال أوستة كان هناك سيل لا ينقطع من الرسل يتردد بين الجانبين ، ولم يكف السلطان عن ارســـال مايفيد بأنه غير مدخر جهدا فى جمع المبلغ الذى وعد به ، والتوسل الى الملك فى الوقت ذاته بأن لا يضيق ذرعا بالتأخير ، ولكن عليه أن يتمسك بالصبر ، كما نصحه ألا يزيد مناقترابه من المدينة حتى لا يتســرب الخوف الى الخليفة والناس الذين كانوا مطمئنين كل الاطمئنان الى اتفاقية الصـــلح التى أبرمت منذ قليل ، ولقد نجح شاور بهذه الآمال الكاذبة فى استغلال ســـلامة طوية الصليبيين فنبذوا ظهريا النصيحة الحق ولم يستمعوا الى التحذيرات الأخرى الصـــادقة التى اقترحها عليهم آخرون وكانت خيرا مما اقترحه شاور ٠

لكن حدث أن شاعت الشائعة فجأة بأن شيركوه على مقربة منهم وأنه على رأس جيش من التركمان لا يحصيه العد ، فما أن طرق هذا النبأ سمع الملك حتى قوض خيامه وجمع متاعه وأثقاله وعاد الى بلبيس حيث جهز نفسه فيها بما يستلزمه الزحف من مواد ضرورية ، ثم عهد بحماية المدينة الى قوة من الخيالة والفرسان ، وزحف يوم ٢٥ ديسمبر عبر الصحراء ضد شيركوه ، فلما تقدم بعض الشيء فى الفيافى وافاه الكشـــافة الموثوق بهم العارفون بالناحية تمام المعرفة بان شيركوه قد عبر النيل بعسكره ، فاضطره هذا الخبر الى أن يغير خططه ، واذ كانت قوة العـــدو لابد وأن تتضاعف بهذه الامدادات فقد أدركالملك مدى الضرر الجسيم الذى يلحق به ان هو تريث أكثر منذلك ،ولكنه رأى فى الوقت نفسه أن الاشتباك فىالقتال ضد شيركوه ليس بمأمون العاقبة عليه ، كما أن السلطان (شاور) لم يظهر منه ما يفيد التزامه بالاتفاقية ، ولم نكن نحن بقادرين بحال من الأحوال أن نفعل ذلك ، وقد استطاع

شـــاور بسياسة المماطلة الذكية الدقيقة أن يطيل فى أمد الموقف مما أتـــاح للترك أن يقتربوا ولـــم يعد أمامنا مندوحـــة من الرحيل ، وعادت القوات الى بلبيس حيث انضمت اليها الكتيبة التى كانت باقية بها لحراستها ،فلما أطل اليوم الثانى من يناير أخذ الجيش الصليبى طريقه عائدا الى فلسطين ٠

— ١٠ —

شعر شيركوه فى هذا الوقت أن الوقت قد حان لتنفيذ غرضه اذ لم يعد أى عائق بينه وبين تحقيق رغباته مادام الملك قد رحل ، واذ ذاك أمر بوضع خطته التى أعدها موضع التنفيذ فنصـــب معسكره قبالة القاهرة حتى يبدو وكأن عودته ليست تنطوى على قصد عدوانى ، وبدت حكمته فى تمسكه بالصبر فبقى حيث هو بضعة أيام لم يبد خلالها أى مظهر يدل على ما يضمره من شعور معاد أو نية سوء ، وهكذا استطاع بمكره الذى لا يجارى أن يخفى هدفه الحقيقى حتى أن السلطان شاور كان يمضى كل يوم مع رهط كبير من أتباعه لزيارته فى معسكره ثم يعود الى المدينة بعد أدائه التحية المألوفة ، وبعد أن يصله بالهدايا العظيمة ٠

كان الأمن الذى يصاحب هذه الزيارات المتالية يوحى بالأمل فى أن يسفر الأمر عن غد أفضل ، وزاد من اطمئنانه ما كان يلقاه من شيركوه من حسن الاستقبال واستمر ذلك أياما عديدة ، لكن وا أسفاه ٠٠ لقد خدعه هذا الأمان المصطنع فوثق كل الثقة بحسن نية الترك واطمأن اليهم حين أخذه شيركوه — وهو سيد المتآمرين — على غرة منه ومن حيث لا يحتسب ، وأصدر أوامره سرا الى أعوانه أنهم اذا رأوه خارجا بنفسه فجر اليوم التالى كعادته فى الذهاب الى الشاطىء فى الوقت الذى اعتاد السلطان المصـــرى

شاور زيارته فيه كل يوم ··· أقول انه أسر الى أعوانه أن رأوا ذلك أن يثبوا على شاور ويفتكوا به · ومن ثم فانه ما كاد شاور يمضى الى معسكر شيركوه فى الساعة التى اعتادها لتحيته حتى وثب عليه رسل الموت تنفيذا للأوامر الصادرة اليهم من شيركوه وطرحوه أرضا وأنهالوا عليه طعنا وفصلوا رأسه عن جسده (١٧) ·

شاهد أولاد شاور مصرع أبيهم بأعينهم وسرعان ما امتطوا جيادهم وأسرعوا نحو القاهرة ومثلوا امام الخليفة وركعوا امامه يلتمسون منه الحفاظ على أرواحهم ،ويقل أنه وعدهم بالحياة ان هم قطعوا كل اتصال سرى بالترك فوعدوه أن يستجيبوا لما طلبه ، لكنهم ما لبثوا أن نقضوا عهدهم حيث أرسلوا الرسل فى الخفاء الى شيركوه يفاوضونه فى الصلح ، فلما علم الخليفة بذلك أمر بقتلهم فقتلوا بالسيف ·

كان الملك (عمورى) حينذاك قد غادر البلاد كما غادر شاور هو الآخر الدنيا ، فوقع ذلك كله موقع الغبطة من نفس شيركوه اذ تحققت رغباته ودانت له المملكة فزار الخليفة لأداء فروض الاحترام ·

واستقبله الخليفة أجل استقبال وخلع عليه منصب السلطنة ·

وهكذا أصبح شيركوه سيد مصر كلها ، وصارت له القوة بفضل السيف ·

فيالجشع الرجال الأعمى الذى هو أشد وأنكى من كل جريمة نكراء !! ·· ويالخساسة القلب الشره الطامع !!

لكم تدفعنا الرغبة الجامحة فى التملك حين تسيطر علينا الى حال من الفوضى ،وتنزع منا الهدوء لتلقينا فى ظلام القلق !!

لقد كانت جميع مصادر مصر وثروتها الضخمة كافية لسد

حاجاتنا ،وكانت حدود مملكتنا معها آمنة مطمئنة ، ولم يكن هناك من عدو نخشاه من الناحية الجنوبية ، كما كان البحر يعتبر ممرا آمنا يرفرف عليه السلام لمن يسعون للمجيء الينا ، وكان قومنا يدخلون أرض مصر آمنين غير خائفين ،مطمئنين فى استبضاعهم ومتاجرتهم ،كما أن المصريين كانوا من جانبهم يجلبون الى المملكة(١٨) الثروات الأجنبية والبضائع الغريبة التى لم نكن نعرفها من قبل ، وكان مقدمهم مقدم خير وسعادة لنا ، وزيادة على ذلك فان ما يصرفونه من الأموال الطائلة بيننا كل عام كان يملأ خزائننا ويزيد من دخل كل شخص ، أما الآن فقد انقلب الحال رأسا على عقب وتغير كل شيء الى ما هو أسوأ « كيف أكدر الذهب · تغير الابريز الجيد »(١٩) · وها قد صار « عودى للنوح ، ومزمارى لصوت الباكين »(٢٠) ·

اننى حيثما قلبت ناظرى لم أر الا ما يدعو للفزع والاضطراب فلم يعد البحر كما كان من قبل معبرا آمنا ، وأصبحت جميع الأراضى التى حولنا تخضع للعدو ، وشرعت الممالك المجاورة لنا تتأهب للقضاء علينا ومحونا من الوجود ·

ان جشع رجل واحد جلب علينا كل هذه البلايا ، كما أن طمعه الذى هو أس جميع الشرور قد عكر صفو سمائنا ، وهو صفو كانت تظللنا به العناية الربانية من قبل ·

لكن دعونا نتابع قصتنا ·

لقد لقى السلطان (شاور) وولداه مصرعهم الذى لم يكونوا يستحقونه بسبب سلوكنا المعوج ، واذ ذاك آلت السلطة العليا فى مصر الى يد شيركوه فراح يحكم حسب هواه ، لكن لم يقدر له أن ينعم طويلا بهذه المكانة الرفيعة ، فلم يكد يقيم فيها بعض السنة حتى فارق هذه الدنيا بكل ما فيها(٢١) ·

ما أن مات شيركوه حتى تولى الأمر من بعده السلطان صلاح الدين وهو ابن أخيه نجم الدين ، وكان هذا الحاكم الجديد رجلا شديد الذكاء ، وبطلا مغوارا فى الهيجاء ، ومعطاء الى أقصى حدود العطاء ،ويقال انه فى مستهل حكمه (وقد زار الخليفة ليؤدى واجب الولاء المفروض له عليه) ضرب مولاه بصولجان فى يده ضربة جندلته أرضا فقتله ، ثم حكم السيف فى جميع أولاد الخليفة حتى لا يكون ثم سلطان فوق سلطانه ، وحتى ينفرد هو بالحكـــم خليفة وسلطانا فى آن واحد ، ولما كان المصريون ينظرون بعين الكراهية للترك فقد خشى صـــلاح الدين أن يأتى يوم يكون فيه بحضرة مولاه الخليفة فيأمر الخليفة بقتله ، لذلك احتاط للأمر كل الاحتياط وأعد العدة لاحباط قصد كهذا القصد ، فأمضى فى الخليفة ما كان هذا الخليفة كما قيل يعتزم امضـــاءه فيه هوذاته كوزير له(٢٢) ٠

ولما مات الخليفة استولى صلاح الدين لنفسه على بيت المال وعلى جميع الخزائن الخليفية وساس كل شىء وفق هواه ، وبسط يده كل البسط لاسيما على خاصة جنده ، فلم تمض أيام قلائل حتى كانت جميع الخزائن خاوية مما اضطره للاقتراض من الآخرين والاستدانة وتراكمت الديون(٢٣) عليه حتى أثقلت كاهله ٠

على أنه يقال أن بعض أبناء الخليفة الراحل نجوا سرا على يد رجال أخلصوا نيتهم لأبيهم الخليفة ، وقد زادوا من وراء ذلك أنه اذ أتيح للمصريين استرداد سلطتهم على الحكومة وجدوا فى واحد من هؤلاء الناجين الوريث الذى يحمل اسم الخليفة ويتولى مكانه وتجرى فى عروقه نفس دمائه ٠

بعد عودة الملك الى مملكته لم يجد شيء ذوبال خلال الفترة الأولى من تلك السنة سوى وفاة « رينيروس » Raynerus أسقف اللد الطيب الذكر ، وتولى « برنارد » رئيس دير جبل الطور مكانه .

فلما كان الربيع التالى الذى هو مستهل السنة السادسة من حكم عمورى أدرك عقلاء المملكة أن خضوع مصر للترك كان ضربة أليمة وجهت الينا ، وأن موقفنا أصبح من الناحية العملية أسوأ مما كان عليه ، فقد استطاع نور الدين – أشد خصومنا لدادة لنا – بخروجه من مصر بأسطوله الضخم أن يحاصرنا بصورة فعلية وأصبح فى قدرته حصار جميع المدن الساحلية برا وبحرا بجيشيه، وزاد من خوفنا أنه أصبح قادرا على قطع الطريق على الحجاج ومنعهم من المجيء الينا ، بل وألا يأذن لهم بالسير بتاتا ، لذلك رؤى أن الظروف المحيطة بنا تفرض ارسال سفارة من كبار رجال الكنيسة البارزين الى أمراء الغرب ليفصلوا لهم تفصيلا وافيا الأحوال المفجعة التى تمر بها المملكة ، وما ابتلى به الشعب المسيحى من بلوى فادحة ، ويصوروا لهم المصائب التى تهدد اخوانهم ، واتفق الاجماع على أن تناط هذه السفارة الى الموقرين «هرنيسيوس» Hernesius رئيس أساقفة قيصرية ووليم أسقف عكا ، وكانا على جانب من الرأى المصيب والبلاغة ،فقوبل اختيارهما بالرضا من الجميع فأبحرا مزودين برسائل من الملك ومن جميع الأساقفة الى كل من « فردريك » امبراطور الرومان ولويس ملك الفرنجة ، وهنرى ملك الانجليز ، ووليم ملك صقلية ، وكذلك الى الكونتات الأفاضل فيليب كونت فلاندرز ، وهنرى كونت تروى ، وثيوبولد الثانى كونت شارترز ، أو بمعنى أدق الى جميع كبار رجال الغرب .

على أنه حدث فى الليلة التالية لابحارهما أن هبت فجأة عاصفة عاتية وراحت سفينتهم تتأرجح ذا تاليمين وذات الشمال وتتقاذفها الأمواج هناوهناك ، وتحطمت مجـــاديفها ، وتمزقت أشرعتها ، فعاد المبعوثان بعد ثلاثة أيام فزعين أشد الفزع وقد كتبت لهما النجاة بعد يأس من النجاة اذ لم يكونا من الغرقى ·

ومن ثم جهزت سفارة ثانية بدل الأولى تتألف من فردريك رئيس أساقفة صور الذى قبل القيام بها بعد الحاح وتوسل من الملك والنبلاء كما انضم اليه أسقف بانياس وكبير رجال هذه الاسقفية وهو « جون » فسافر الاثنان وحالفهما حسن الطالع فبلغا برنديزيا سالمين بعدرحلة موفقة ، لكنهما لم يحرزا توفيقا كبيرا فى المهمة التى وكلت اليهما ،وقد مات الأسقف فى باريس فى أعقاب وصولهما الى فرنسا ، أما رئيس الأساقفة فقد عاد بعد عامين من بقائه فى الخارج دون أن يحرز شيئا من النجاح ·

- ١٣ -

وانتهى الصيف دون حدوث شىء ذى بال يستحق الذكر ·

فلما كان مستهل الخريف التالى أرسل الامبراطور (مانويل) - المهتم بتنفيذ اتفاقه - الأسطول الذى وعد به وفاء للمعاهدة التى كان قد أبرمها مع الملك باقتراح ورغبة منا(٢٤) ، وانه لمحمود كل الحمد من هذه الناحية فقد نفـذ الاتفـــاق تنفيذا دقيقا وبعظمـة الامبراطور بل أنه كان بذلك قد أوفى بأكثر مما كان قد وعد به ·

كانت هذه القوة البحـــرية (البيزنطية) تتألف من مائة وخمسين سفينة حربية مجهزة بالحراب وصفين من المجـــاديف تعرف هذه السفن بالشـــونيات وقد صـــنعت للقتال على وجه الخصوص ·

وكان هناك الى جانب هذه الشوانى ستون سفينة من السفن الكبيرة المسلحة على أحسن صورة وكانت معدة لنقل الجياد ومجهزة بمنافذ واسعة فى مؤخرتها ليسهل شحنها بالخيل وانزالها منها ، كما كانت بها جسور يمكن للرجال والخيل على السواء الصعود عليها أو النزول منها الى اليابسة ، كما كان هنا أسطول يتضمن فيما يتضمن عشر قوارب أو عشرين من القوارب الكبيرة الحجم المعروفة بالدرامين(٢٥) المعدة لحمل شتى أنواع الميرة ، وكانت هذه السفن هى الأخرى تحمل كثيرا من صنوف السلاح زيادة عن معدات الحرب وآلات القتال ٠

وجعل الامبراطور قيادة هذا الأسطول العامة فى يد واحد من كبار أشرافه وذوى قرباه هو الدوق الكبير « الكسيوس كونتستفانوس » ، وأردفه بنبيل آخر اسمه « موريس »كان أثيرا عند مولاه الامبراطور وموضع ثقته ،كما كان مانويل يعتمد على خبرة هذا الرجل اعتمادا كبيرا كما يستدل على ذلك مما حدث فيما بعد من أنه وكل الى « موريس » هذا النظر فى جميع شئون الامبراطورية ٠

كذلك أشرك الامبراطور معهما فى القيادة اسكندر كونت كونفرسانا وهو من أشراف أبوليا ، وكان الامبراطور يخصه بصافى وده لماكان يظهره الكونت من التعلق الصادق به ٠

هكذا عهد الامبراطور الى هؤلاء الثلاثة الكبار بقيادة العسكر الامبراطورى حين أرسله الى جزئنا هذا من الشرق ، فلما قارب شهر سبتمبر على الانصرام دخل الأسطول ميناء صور بعد رحلة لازمه التوفيق فيها ، ثم تابع ابحاره الى عكا حيث ألقى مراسيه فى ناحية هادئة بين النهر والميناء ٠

ولما كانت سنة ١١٦٩ من ميلاد المسيح وهى السنة الثامنة والستون من تحرير مدينة القدس والسنة السادسة من حكم الملك عمورى قام الملك بتنظيم شئون مملكته ، وخلف بها طــــائفة من الفرسان بعد أن عهد اليهم بالقيام خلال غيبته بحماية المملكة من تعديات ومطامع نور الدين الذى كان لايزال يتحرك فى أرض دمشق ، كما أنه امر المحاربين من اللاتين والاغريق بالتجمع فى عسقلان فى الخامس عشر من أكتوبر ، وكان الأسطول قد أبحر من ميناء عكا قبل ذلك ببضعة أيام قاصدا الديار المصرية ٠

وتحرك الجيش يوم ١٦ أكتوبر(٢٦) ، واتسم سيره بالحركة البطيئة وعلى مهل حتى يتجنب خيالته الاجهاد الذى لامبرر له ، وتقدم العسكر فى يسر بضعة مراحل وكثر استفادتهم من مواضع التوقف التى لا ينقصها الماء حتى بلغوا مدينة الفرما القديمة فى اليوم التاسع (من زحفهم) وأرادوا أن يسلكوا الطريق الساحلى ، ولكن جد جديد فرض عليهم أنيسلكوا الطريق الداخلى رغم طوله فقد انفجرت بعض السدود الموجودة بين السهل والبحر المجاور من جراء استمرار ضرب الأمواج لها فشقت المياه لنفسها طريقا عبر الحواجز المواجهة لهذه السدود ، فلما لم تجد مايصدها تدفقت فأغرقت الطريق ثم اجتاحت السهل الواقع فىالخلف ،وتكونت فى بادىء الأمر بركة صغيرة مالبثت أن اتسعت اتساعا كبيرا وفاضت حتى اتصلت بالبحر الذى جلب اليها كميات ضخمة من الأسماك ، ثم جاءت مقادير كبيرة منه لم يكن يدور بخلد أحد من قبل أن يأتى مثلها ، ولم يقتصر نفعه على المدينة القريبة فحسب بل جاوزها حتى بلغ الأماكن النائية ٠٠

ولما كان البحر قد أغرق القطر على طول الســـاحل فان المسافرين الذين كانوا يعتزمون الذهاب الى مصر عبر الطـــريق الساحلى وجدوا أنفسهم مضطرين أن يزيدوا فى سفرهم عشرة أميال أو أكثر يدورون فيها حول هذه البركة قبل أن يصلوا ثانية الى الطريق ٠

ولقد أوردنا هذه التفاصيل لجدة هذا الحادث العجيب ، ولأن استمرار طغيان البحر جعل هذا الاقليم الصحراوى مغطى بالمياه كما كثر تردد أصحاب القوارب اليه بعد أن كان من قبل اقليما معرضا لحرارة الشمس المحرقة ٠

ولما أصبح هذا الاقليم الآن غزير الانتاج فقدامتلأ بشـــباك الصيادين وأخرجوا منه مالم يكونوا يعرفونه من قبل ٠

أما مدينة الفرما(٢٧) التى أشرنا اليها منقبل فخالية الآن من السكان بعد أنكانت فى القديم غاصة بهم ، وهى تقع على مشاريف الصحراء قرب الفرع الكاريبى أول فروع النيل الذى تصب مياهه فىالبحر (الأبيض المتوسط) ، ومن ثم فهى واقعة بين النهر والبحر والصحراء ، كما أنها على مسافة ثلاثة أميال من مصب النيل ٠

وحين بلغ حيشنا الفرما وجد الأسطول قد سبقه منذ قليل فجاء العسكر فىالحال بمن يحتاجون اليهم من المجدفين ، وتم نقل الجيش بأكمله الى الضفة الأخرى بعد أن جعلوا تنيس على يسارهم، وكانت « تنيس » فى الزمن الغابر مدينة عظيمة ، أما الآن فانها لا تعدو أن تكون قرية صغيرة ، ومن هنا تابع الجيش زحفه قدما مسافة تقرب من عشرين ميلا عبر طريق واقع بين أحد المستنقعات وبين الشاطىء حتى أفضى به الزحف بعد مســـيرة يومين الى دمياط ٠

وتعتبر دمياط واحدة من أقدم مدن مصر وأعظمها ذكرا ، وهى واقعة على شاطىء النيل كما أنها أقرب ما تكون الينا عند النقطة التى يصب فيها النيل فى البحر عبر فرعه الثانى الذى يبعد عنها مسافة ميل واحد ، ولقد بلغ جيشنا دمياط يوم السابع والعشرين من اكتوبر وعسكر فى موضـــع بين المدينة والبحر فى انتظار وصول الأسطول (البيزنطى) الذى حال هياج البحـــر والرياح المضادة دون وصوله ، وظل الحال على هذا المنوال ثلاثة أيام انكسرت بعدها حدة الأمواج فاغتنم الأسطول موآتاة الريح له ودخل النهر وأرسى فى ميناء شديد الهدوء على الساحل فيما بين المدينة والبحر ٠

وكان على الشاطىء الآخر برج عال يقف وحده شامخا قد قام على حراسته حراسة يقظة طائفة كبيرة من الرجال المسلحين ، وتمتد من هذا البرج الى المدينة سلسلة حديدية تقف سدا منيعا دون الوصول الى الناحية العلوية من النهر فكانت عقبة كأداء فى وجه قواتنا ، غير أن جميع السفن النازلة من القاهرة وبابليون استطاعت أن تمضى اليهم دون أى عائق ٠ فلما اتخذ الأسطول موضعه مرت القوات عبر البساتين والحقول الواقعة بين معسكرهم وبين المدينة ذاتها ، ونصبت خيامها فى موضع كان أقرب ما يكون الى دمياط التى كان الوصول الى أسوارها سهلا ميسرا ، غير أن هذه القوات تريثت فى هجومها ثلاثة أيام ، وهنا علموا صدق المثل القائل « اذا تم اعداد كل شىء ففى التسويف الندامة » ، فقد قدم من أعالى الصعيد بمصر جيش لا يحصيه العد من الترك ، كما جاء الكثير من السفن المشحونة بالرجال المسلحين مما أرغم جيشنا على الوقوف بلا حراك لا يستطيع عمل أى شىء فى الوقت الذى

يرى فيه المدينة التى كانت خالية تماما قد ازدحمت ازدحاما شديدا وغصت بالمحاربين ، وسرعان ما تبين رجالنا استحالة الاستيلاء على دمياط من غير الاستعانة بالآلات الحربية والعدد التى ترمى بالمنجنيق . هذا على الرغم من أن المدينة كانت تبدو حين وصول الصليبيين وهى مرشكة على الوقوع فى أيديهم عند أول هجوم يشنونه عليها .

لذلك اختير العمال وجهزت المواد الملائمة واستطاعوا بعد بذل المزيد من الجهد الشاق والعرق أن يقيموا برجا عاليا ذا سبعة طوابق يستطيع الناظر من أعلاه أن يرى المدينة بأكملها فى وضوح .

كما نصبت آلات مختلفة الأنواع منها ماكان لرمى الأحجار الضخمة لدك الأسوار ، ومنها ما كان لحماية الذين يضعون الألغام اذ كانوا يتخذون من هذه الآلات مخابىء تخفيهم عن العيون ولكنهم يستطيعون الاقتراب من التحصينات فيحفرون أسفلها الأنفاق مما يؤدى الى انهيار الأسوار حيث لا يوجد تحتها ما يسندها .

فرغ رجالنا فى هذه الأثناء من تمهيد مدخل المدينة بصورة تجعل الآلات التى تم بناؤها قادرة على الارتكاز على الأسوار ، واستمر المحاربون الموجودون فى البرج المتحرك يواصلون ضغطهم على المحصورين ويواصلون رميهم بوابل من السهام والأحجار من غير انقطاع الى جانب الأسلحة الأخرى التى تسعفهم بها مساحة المكان الضيق ،كما راح الذين فى آلات الرمى يطوحون فى الوقت ذاته بالصخور الضخمة ويتنافسون فى حماسة طاغية لدك الأسوار وما جاورها من الدور .

فلما رأى أهل البلد محاولات الصليبيين هذه حاولوا مقابلة الشديدة بالمثل ، وحملتهم رغبتهم فى مواجهة جهودنا بما

يوازيها مكرا على أن يشيدوا برجا عاليا فى مواجهة برجنا وشحنوه بالرجال المسلحين الذين كان عليهم مقاومة محاولاتنا من آلة مشابهة للآلة التى عندنا ، وردوا على هجماتنا بمثلها ردا مؤلما ورفعوا آلاتهم الى أعلى فى مواجهة آلاتنا ، ولم يدخروا وسعا فى بذل ما فيه القضاء على جهدنا ، وأسعفتهم حاجتهم فى الدفاع عن أنفسهم فأمدتهم بالمهارة ،كما أسعفهم الظرف الطارىء الذى هم فيه بالقوة فازدادوا بأسا ٠

وأما الذين ظلوا حتى هذه اللحظة وهم يشعرون أنهم ليسوا قادين على الصمود والمقاومة فقد أجبرتهم الحاجة الملحة الى ابتداع خطط لم يكن يدور بالظن أنهم قادرون على ابتداع مثلها ، بل ان أغبى الناس فيهم راحوا يبتكرون من الوسائل ما يضمن لهم السلامة ، وعلمتهم التجربة القاسية صدق المثل القائل « الحاجة أم الاختراع » ٠

لكن فى نفس اللحظة التىكان ينبغى على الصليبيين فيها أن يشددوا الحصار عن ذى قبل اذا بهم يبدون من الجبن وعدم الاكتراث الشىء الكبير ، وينسب البعض هذا التغير السلوكى الى الخيانة ، ويعزوه آخرون الى التهاون واللامسئولية ، فقد وضح التراخى جليا على رجالنا كما وضحت عليهم دلائل التكاسل ، كذلك اتضح أن من كانوا يتصرفون بروح تفصح عن الخيانة لأمانتهم أمروا باسناد أحد الأبراج الحديثة البناء الى السور وجعلوه فى مكان شديد الانحدار ، وكان بهذا القسم من المدينة كثير من النواحى التى كانت الأسوار فيها أكثر انخفاضا وأقل احتمالا مما يتيسر معه الاستيلاء عليها وعلى هذا القسم ، لكنهم وضعوا البرج المتحرك فى الناحية التى هى أمنع وأشد تحصينا ، وهى ناحية تجعل وضع الآلات الحربية فيها أمرا شديد الصعوبة ،وزيادة على ذلك فان التدمير الذى يقع من هذا الموضع لن يصيب أهل البلد ولا

مبانيهم ولكنه يصيب كنيسة أم الاله الطاهرة الواقعة لصق الأسوار مباشرة ·

وليس من شك فى أن الامتناع عن مهاجمة دمياط فى أعقاب وصولنا الى هناك مباشرة انما كان صادرا عن نية فاسدة وقصد لئيم ، فقد كانت المدينة فى الواقع حينذاك مهجورة تماما ليس فيها من أهلها سوى الضعاف المسالمين الذين يجهلون جهلا تاما كل شىء عن الحرب وأساليبها ، فلو كان الصليبيون هاجموها هجوما عنيفا فى الحال ـ وهو أمر كان ينبغى عليهم القيام به ـ لسقطت المدينة فى أول هجوم عليها ، ولكن الذى جرى هو أنهم أتاحوا فرصة للمحصورين يلتقطون فيها أنفاسهم ، فكانت أعدادهم خلال ذلك تتزايد بكثرة بسبب توالى امدادهم بالمقاتلين الشجعان البواسل مما أسفر عن أنهم أصبحوا قادرين على مقاومة هجماتنا ليس فقط فى داخل المدينة ذاتها ، بل وأيضا خارجها فى ساحة القتال ·

ـ ١٦ ـ

فى هذا المنعطف من الأحداث الجارية حاق بالصليبيين خطب جديد أضيف الى الخطوب التى حاقت بهم من قبل ، ذلك أن الاغريق الذين كانوا قد قدموا فى أعداد كبيرة فى الأسطول أخذوا الآن يكابدون النقص فى الطعام فقد نفذ كل ما كان عندهم من الخبز حتى آخر لقمة منه ، ولم يعد لديهم فى الواقع أى طعام يسدون به رمقهم، وحدث أن مزرعة من نخيل التمر قريبة من المعســـــكر اجتثت لاستعمالها فى أمور أخرى ،فلما اجتثت انطلق الاغريق الجوعى يلتمسون القطع اللينة الصغيرة التى تنمو بالأطراف حيث تظهر الأغصان والتى تمد الغصون بالعصارة ، ولما كانت هذه الأجزاء صالحة للأكل فقد اتخذوها كنوع من الطعام رغم تفاهة قيمتهـــا

الغذائية ، لكنها كانت على أية حال تخفف قرصات الجوع الذى أدى بهؤلاء الناس الى الاجتهاد فى البحث عن شىء يأكلونه ، كما أن تلهف البطون الخاوية أذكى مهارة أصحابها فى الكشف عما يسد احتياجاتهم ، ولقد ظلوا بضعة أيام يعيشون على هذا الطعام بينما تغلب غيرهم على جوعهم – وان كانوا أقل منهم حرمانا – بالشوفان والزبيب والقسطل ٠

أما الصليبيون فكان عندهم ما يكفيهم من الخبز وغيره من شتى صنوف الطعام ، وكانوا ينحون جانبا بعضا مما فى أيديهم ويدخرونه مخافة أن تضربهم هم أيضا المجاعة ٠ يضاف الى ذلك أنهم كانوا لا يدرون على وجه التحقيق كم سيطول مكثهم فى دمياط وان كانوا يتوقعون أن يكون بقاؤهم فيها طويلا ٠

ثم حدث أن سقطت الأمطار غزيرة فى هذا الوقت ، واشتدت العواصف العنيفة بصورة جعلت من هم أفقر منهم غير قادرين على اصطناع أى وسيلة لمنع الماء من التسرب الى داخل خيامهم ، ولم يكن الأغنياء أحسن منهم حظا لأن فساطيطهم تشربت بمياه الأمطار الغزيرة ترسلها عليهم السماء مدرارا فكانوا يحفرون الخنادق حول خيامهم فتتحول اليها المياه فيكون فى ذلك بعض الوقاية لهم ٠

※ ※ ※

ثم ألمت بهم داهية دهياء مرة أخرى ، هى أنه كانت قد رست هنا على مقربة من المدينة السفن المختلفة الأنواع التى جىء بها من البحر الى النهر ، فلما رأى أهل البلد أن الريح تهب من الجنوب وأن مياه النيل تتدفق فى عنف شديد اغتنموا هذه الفرصة لتنفيذ خطة دبروها فى لحظتها اذ أخذوا قاربا من الحجم العادى وملؤوه

كله بالأخشاب الجافة وبالقار وبكل مادة قابلة للاشتعال وتزيد النار ضراما وأوقدوا ذلك كله ثم دفعوا بالقارب وما يحمل الى النهر فحملته الأمواج من تلقاء ذاتها ورمت به أسطولنا وسرعان ما أذكى هبوب الريح الجنوبية النار ، واصطدم القارب المشتعل بسفن الأسطول التى كانت متلاصقة الى بعضها ، واستحالت ست من سفننا [illegible] الشراعى الى رماد ، وكاد الضرام المتزايد أن يأتى على كل الأسطول لولا حنكة الملك الذى بادر – حين رأى الحريق ، [illegible] على وجهه [illegible] اذ لم يجد وقتا للانفعال [illegible] جواده وأيقظ البحارة وصرخ فيهم صرخات متزنة وطلب منهم فى اشارات مذعورة أن يبذلوا جهدهم على اطفاء النيران فنجحوا فى التغلب عليها اذ فصلوا كل قارب عن الآخر فخمد اللهب المستعر ، وكان البحارة يسارعون الى انقاذ كل سفينة تمسك بها النيران بسبب الشرر المتطاير والمواد الملتهبة التى تسفيها الريح ، وكان الفضل فى اخمادهم هذه النيران راجعا الى النهر الذى كان قريبا منهم كل القرب .

لبثت المدينة بضعة أيام وهى عرضة لهجمات كان النصر فيها تارة فى جانب الصليبيين وتارة أخرى فى جانب أعدائهم كما يحدث غالبا حين لا تكون هناك وقعة فاصلة ، وكان الصليبيون هم الذين يتحدون عدوهم للقتال رغم انه لم يكن يحارب الا اذا دفع للحرب دفعا .

كان المحصورون اذا ما خالجهم الشعور بالثقة انطلقوا من باب سرى فى الخلف فى مواجهة معسكر الاغريق وشنوا هجماتهم على غير انتظار على ذلك القسم من الجيش ، ومن المحتمل أنهم ربما كانوا قد سمعوا بأن القوات الاغريقية كانت أقل من قواتنا بأسا ، أو ربما كانوا قد علموا نبأ المجاعة الشديدة التى يكابدها

اليونان بصورة تجعلهم أقل قدرة على صد الهجوم عليهم ان أغار عليهم مغير . لكن على الرغم من هذه النكبة الا أن القائد « ميجالدوكس » وغيره من البيزنطيين كانوا يغتنمون الفرصة كلما واتتهم فيحاربون حربا تنطوى على البطولة والشجاعة مما يحمل الجيش على الاقتداء بقواده ، فيهاجمهم المرة تلو المرة ببسالة معدومة النظير ويحمى موقعه بقوة .

على أن قوة المحصورين كانت تتضاعف عددا بالامدادات الكبيرة المتواصلة القادمة اليهم برا وبحرا ، مما ترتب عليه أن سكان البلد ـ رغم انحصارهم داخل مدينة محاصرة كانوا مصدر فزع كبير لأعدائهم أكثر مما كان الصليبيون لهم .

وأخذ الناس(٢٨) يتهامسون فيما بينهم ـ ويغلب عليهم شعور واحد ـ هو أن جهدنا ليس سوى جهد ضائع ، وأجمعوا رأيهم على أن الخروج بهذه الحملة كان بغير رضى الرب ، حتى لقد أشاح بوجهه عنا فى غضب ، وقال الناس أن الرجوع من حيث جئنا أجدى لنا من أن نفنى فى مصر جوعا أو نهلك بسيف الكفار ، ومن ثم عقد اتفاق تضمن بعض الشروط السرية ، ويرجع الفضل فى عقده الى مجهودات مشتركة من جانب بعض قواتنا وطائفة من الولاة الترك وكان أبرز الساعين فى ابرام هذا الاتفاق واحد اسمه « الجاولى » Javelino . ووافق البيزنطيون على هذا الاتفاق . وحينذاك نادى المنادى معلنا باقرار الصلح واستتباب السلام .

حينذاك انطلق الأهالى والحلفاء الذين كانوا قد قدموا لمساعدتهم ترفرف عليهم راية الأمن وجاءوا الى معسكرنا ، كما سمح بمثل ذلك لمن شاء من جنودنا الذين أكثروا من التردد على المدينة والمعسكر

من غير عائق يعوقهم وهم مطمئنو البال،وأخيراراح الجانبان يتاجر ا
فى حرية مع بعضهما ، وأذن للجميع بالبيع والشراء كيفما أرادوا
ومتى شاؤوا ، وظل المسيحيون يترددون على السوق ثلاثة أيام
يتبايعون مع الكفار ثم استعدوا بعد ذلك للمغادرة فهدموا آلاتهم
الحربية وأحرقوها ومضى الجيش البرى فى أعقاب ذلك فى صحبة
الملك الى فلسطين ، وقد اضطرتهم المستنقعات أن يسلكوا نفس
الطريق الذى سلكوه فى قدومهم ، حتى اذا كان الحادى والعشرون
من ديسمبر بلغوا عسقلان ، ونظرا لقرب عيد الميلاد فقد أسرع الملك
الى عكا التى وصلها عشية ميلاد السيد .

أما الذين ركبوا السفن فقد أبحروا تحت ظروف سيئة ونذر
لا تبشر بالخير اذ ما كانوا يبدءون رحلتهم حتى هبت عاصفة عاتية
هاج معها البحر هيجانا لم يستطيعوا دفع أخطاره ، فحطمت
الأمواج سفنهم وألقت بها على الشاطىء وعطب معظمها ولم يبق
من ذلك الأسطول الضخم الذى كان قد جاء الينا سوى بضع سفن
سليمة بعضها كبير وبعضها صغير كانت هى القادرة على العودة .

وعلى الرغم من أن رسل الامبراطور بذلوا كل ما فى وسعهم
لاتمام المهمة التى نيطت بهم الا أنهم اضطروا للعودة مغلوبين على
أمرهم بقلوب ملؤها الحزن والأسى فزعا من المصير الذى ينتظرهم
وخوفا من أن ينسب اليهم جلالة الامبراطور المآل السىء الذى آلت
اليه حملتهم فى الوقت الذى لم يكن لهم يد فيه ، وعلى الرغم من
أن هذه النتيجة كلها ترجع الى مشيئة القدر التى لا مفر لهم منها
الا أنه كان من الممكن أن ينسب الامبراطور – وهو فى سورة غضبه –
هذه الخاتمة الى اهمال منهم أو سوء سياسة وتصرف من
جانبهم .

وانني لأذكر أني قمت بعد عودتى بتحقيق دقيق وتقص عميق واستفسار كبير من الملك وبعض كبار رجال المملكة لماذا تتمخض حملة كهذه الحملة الكبيرة عن خاتمة كهذه الخاتمة التعيسة مع أنها كانت تسير بتوجيه من كبار الأمراء المسئولين ٠

ولقد كنت منصرفا خلال هذه السنة الى مسائلى الشخصية اذ ذهبت الى رومة فرارا من عداوة يضمرها لى رئيس أساقفتى ، وهـــى عداوة(٢٩) ظالمة باطلة ، فلما رجعت من رومة حـــاولت تقصى ماوراء هذا الموضوع ، واســـتمعت الى كثير من الآراء المتضاربة التى حاولت منها أن أصل الى الحقيقة الثابتة لأن نتائج الحملة كانت أبعد ما تكون عما كنا نطمع فيه ، واستعملت الحذر الشديد لاننى كنت قد آليت على نفسى كتابة تاريخ هذه الأحداث فوجدت أن الاغريق لم يكونوا بمنجـــاة من اللوم اذ أن الامبراطور كان قد وعد وعدا لامغمز فيه بارسال المال الكافى لسد حاجات هذا الجيش الكبير ، لكن ثبت زيف هذا الوعد ، ذلك أنه منذ اللحظة التى وصل فيها نوابه الكبار الى مصر كان المفروض أن يكونوا قادرين على سداد كل احتياجات الآخرين من المنحة الامبراطورية ٠

الا أن هؤلاء النواب أنفســـهم وقعوا تحت وطأة الحاجة الشديدة وشرعوا يلتمسون المال يشترون بهالطعام لأنفسهم ويدفعون منهرواتب عساكرهم فلم ينجدهم أحد قط بما أرادوا ٠

فلما كان يونيو من صيف العام التالى (١١٧٠ م) أعنى فى السنة السابعة من عهد الملك عمورى ضرب الشرق زلزال مروع كان أشد هولا من أى زلزال تعيه أذهان من لازالوا أحياء فقد تحطمت منه مدن شديدة التحصين وترجع الى عصور سحيقة القدم واستحالت أطلالا ، كما هلك من كانوا فى بيوتهم عن بكرةأبيهم ســـوى

نفر قليل جدا . ولم تكن هناك ناحية في المنطقة كلها لم تصبها خسارة في الممتلكات والأرواح ، فخيم الحزن على كل موضع ولم تخل ناحية من النواحي من جنائز للموتى ، ودفن بفعل الزلزال أكبر الشخ في كل من بلادنا والشام وفينيقيا ، وهي مدن ذاعت شهرتها على مدى العصور لما لها من التاريخ القديم ،كما اندثرت في نواحي سهل البقاع وأنطاكية وغيرهما من البلاد مدن أخرى كانت لها الصدارة في وقت من الأوقات ، وكانت هذه المدن سيدة مدن كثير من الممالك ، وانهارت الأسوار الهائلة والأبراج الشديدة المنعة في كل هذه النواحي واستحالت أنقاضا ، ولحق الدمار بكثير من الكنائس وشتى أنواع المباني وكان دمارا مروعا لم يمكن معه ترميم الا بعض أجزاء منها رغم مابذل في سبيل ذلك من جهد كبير ومال عظيم ، وكان من بين المدن الأخرى التي مسها الضر في هذه الولاية ذاتها مدينة « جبلة » و « اللاذقية » وهما أشهر مدينتين على الساحل ، وكان من المدن التي أصابتها النكبة « بوريا » المعروفة وحلب وشيزر وحماة وحمص وغيرها من المدن الداخلية التي كانت في حوزة العدو ، ناهيك بالحصون والقلاع التي دمرت فقد كانت من الكثرة بالدرجة التي لا يحصيها العد .

ولما كان يوم ٢٩ يونيو (سنة ١١٧٠ م) وحوالي الساعة الأولى من النهار ضرب زلزال عنيف فجأة مدينة طرابلس الكبيرة المزدحمة بالسكان جاء تقريبا على كل من كان وراء أسوارها واستحالت معه المدينة كلها الى أكوام من الحجارة وأصبحت مقبرة جامعة لمن هلك من سكانها .

كذلك كان الزلزال مدمرا في « صور » أشهر مدن هذه الولاية وبلغ تدميره حدا تهاوى معه العديد من الأبراج الضخمة ، لكن لم تحدث خسارة في الأرواح

ولقد وجدت فى كل من أقاليمنا وأقاليم العدو قلاعا وحصونا نصف مدمرة مفتوحة الأبواب لا يمنع العدو شىء من أن يأتيها من أى جانب فيذيقها بأسه وعدوانه ، لكن لم يجرؤ أحد قط على ايذاء غيره مخافة أن يحل به غضب الرب وتصيبه نقمته وانشغل كل امرىء بهمومه الخاصة وأصبح يرزح تحت عبء أموره الذاتية ، ولم يعد ثم أحد يفكر فى الاضرار بجاره ·

وتم الصلح بسعى من الجميع لم يشذ عنه أحد ، وان ظل لفترة قصيرة ، وأدى خوف الجميع من الغضب الالهى الى عقد الاتفاقية ، فقد توقع كل شخص أن تنزل به نقمة الله من السماء عقابا له على خطاياه فتحاشى كلهم أعمال السوء ونبذوا البغضاء ·

لم يكن غضب الرب أمرا مؤقتا كما يحدث عادة ، اذ أن تلك الهزة المروعة ظلت ثلاثة شهور أو أربعة بل وأكثر وهى تحدث ليلا ونهارا وتتكرر ثلاث مرات أو أربع مرات ، ومن ثم كانت كل حركة يحس بها الفرد تبعث الفزع فى نفسه ، ولم يعد هناك مكان يستشعر فيه المرء الأمان حتى ان الوعى الباطن أثناء النوم (وقد أفزعه ما جرى فى اليقظة) كان يوقظ النائم فيهب واثبا وجلا من هذه الأهوال التى شاهدها فى يقظته ·

وقد شاءت رحمة حافظ الجميع العطوفة أن تكتب النجاة من هذه الأهوال للأجزاء العليا من ولايتنا وأعنى بها فلسطين ·

- ١٩ -

وفى ديسمبر من هذه السنة ذاتها (اعنى سنة ١١٧٠ م) فى العام الثامن من حكم الملك عمورى انتشرت شائعة قوية بين الناس تقول ان صلاح الدين يوشك أن يغزو بلادنا ، وجاءت الأخبار من

مصادر متعددة أنه قد فرغ من حشد قواته من كافة أنحاء مصر ودمشق أيضا ، وأنه زاد فى عدد جنده زيادة كبيرة بتجنيده رجالا من المنطقتين الوسطى والدنيا قاصداً الزحف على فلسطين تقريبا لذلك ماكاد هذا الخبر يطرق سمع الملك حتى هب فى لحظته الى عسقلان ، حيث جاءه الخبر اليقين من مصادر موثوق بها حملها اليه قومه أن هذا الأمير الكبير القوى قد حاصر قلعة « الداروم » على مدى يومين بجيش ضخم أقوى من كل جيش سبق أن جمعه من قبل ، ولم يسمح لمن كانوا بداخل الحصن بلحظة يلتقطون فيها أنفاسهم بسبب ما أنزله بهم من الأهوال الجسام ، اذ يمطرهم بسيل مستمر من السهام فأثخنهم جراحا ، ولم يبق منهم غير رهط قليل كان قادرا على حمل السلاح دفاعا عن هذا المكان ، وكان قد وضع ألغين تحت السور فانهار فاقتحمه رجاله بالقوة ، واستولى صلاح الدين على قسم من الناحية مما حمل أهالى البلد على أن يلتمسوا ملاذا فى أحصن مكان عندهم ألا وهو القلعة ، غير أن العدو كان قد شق لنفسه طريقا بالقوة فى القسم الأسفل من أحد الأبراج وأضرم النار فى مدخله ، وان لازال المحاصرون يدافعون عن القسم الأعلى .

٢

هذا هو التقرير الذى جاء الى الملك ، وكان كلما فيه صدقا .

كان قائد قلعة الداروم(٣٠) وحاميها هو النبيل «أنزلم دى بى» Anselme De Pass ، وكان رجلا تقيا يخشى الله ويخافه ومحاربا صنديدا ، وليس من شك فى أنه لو تأجل الهجوم على الحصن لما كان شك فى وقوعه فى يد العدو .

فاض قلب الملك بالحزن العميق واستبد به الغضب الطاغى حين علم بهذا الموقف الحرج فجمع فى الحال الخيالة وقوات الفرسان من كل النواحى رغم قصر الوقت وقرب العدو منه ، وخرج من

عسقلان فى الثامن عشر من نفس الشهر مغذا السير الى غزة ، ورافقه فى خروجه البطرك المعظم حاملا الصليب المبجل الواهب الحياة ، كما صحبه اثنان من أصحاب القداسة هما مستشاره الملكى « رالف» أسقف بيت لحم وبرنارد أسقف اللد ، كما خرج معه رهط قليل من نبلاء المملكة ، فلما أحصى من معه من المحاربين كانوا مائتين وخمسين فارسا وقرابة ألف من المشاة ·

وأمضى العسكر فى غزة ليلة ليلاء لم يغمض لهم فيها جفن ، ومرت الساعات عليهم ثقيلة بطيئة ، وقد أزعجهم ماحاق بهم من فزع مقيم ، فلما أشرقت شمس اليوم التالى بدءوا سيرهم من غزة ، وانضم اليهم الاخوان من فرسان المعبد الداوية الذين جاءوا الى هنا ليشاطروهم المحافظة على المكان ،فلما التأم شملهم ساروا جميعا الى قلعة الداروم ·

وأعتقد أن هذه القلعة واقعة فى « أدوم »(٣١) Edom وراء مجرى الماء المسمى بنهر مصر الذى هو الحد الفاصل بين فلسطين والاقليم الذى أشرنا اليه آنفا ، وكان الملك عمورى قد شيد قبل سنوات قلائل هذه القلعة على أكمة قليلة الانحدار فوق الأطلال القديمة التى لاتزال بعض أنقاضها باقية حتى اليوم ، ويحكى سكان هذه النواحى القدماء ـ كما أفضوا الينا ـ أنه كان فى الأيام الغابرة دير يونانى فى هذا الموضع ، كما أن الاسم الحالى وهو الداروم ومعناه بدت الاغريق يشير الى هذه الحقيقة ·

كان الملك قد أمر كما قيل أن يشيد فى هذا الموضع قلعة متوسطة الأبعاد ، تغطى مساحة لا تزيد عن رمية حجر واحد وتكون مربعة الشكل ، ويقوم عند كل ركن من أركانها برج كان أحدها أكبر من بقية الأبراج وأكثرها أمنا ، على أنه لم يكن لها خندق ولا فصيل يحميها ·

وتقع الداروم على بعد خمسة أميال تقريبا من البحر وأربعة أميال من غزة ، وقد قام نفر قليل من زارعى الحقول المجاورة لها بالاتحاد مع بعض التجار وكونوا مستعمرة صغيرة ، وشيدوا على مقربة من القلعة قرية وكنيسة واستقر المقام بهم هنا ، وكانت بقعة تشرح النفس قد وفرت لأناس من الطبقات الدنيا كثيرا من أسباب الحياة ، وكان الملك قد شيد هذه القلعة سعيا لمد حدود ، كما كان فى ذهنه أيضا أن يستطيع من هذا المكان أن يتيسر له الأمر فى جمع الضرائب السنوية كاملة غير منقوصة ممن ينزلون بهذه القرى التى يسميها قومنا بالضياع أو الدساكر Casalia

كذلك تم فرض مبلـــغ معين يجبى من المســـافرين فى ذلك الطريق ٠

ـ ٢٠ ـ

انطلق جيشنا بعدئذ من غزة ، وبينما كان واقفا على مرتفع منحدر بعض الشىء يمتد بطول الطريق اذا به يرى عسكر العدو الذى بثت أعداده الكثيفة الفزع فى نفوس عسكرنا فشرعوا فى الانضمام بعضهم الى بعض أكثر مما جرت به العـــادة ، فأدت جموعهم الكثيفة الى عوق تقدمهم فلم يبرحوا مكانهم هذا ، فلما رآهم الكفار على هذا الوضع هاجموهم محاولين صدع شملهم ، لكن الصليبيين استطاعوا بفضل الرب أن يتجمعوا ويضموا صفوفهم أكثر من ذى قبل وصدوا هجمة العدو عليهم ، ثم أسرعوا فتابعوا زحفهم قاصدين الموضع الذى كان جيشهم كله متوقفا عنده وناصبا فيه خيامه ، وعاد السيد البطرك الى القلعة وعسكر الباقون فى الخارج بجوار القرية الواقعة على الأطراف ، وقد حدث ذلك حوالى الساعة السادسة من النهار بعد أن جرت طوال ذلك اليوم مناوشات فردية

وبعض اشتباكات ساهمت فيها جماعات بأكملها ، وأبدى رجالنا شجاعة فائقة سواء فى الهجوم أو الصد ، ولما أوشك الليل أن يسدل طنبه أخذ صلاح الدين يستعد للزحف بقواته وسار بهم قاصدا غزة ، ولكنه أقام تلك الليلة قرب النهر ليستجم حتى اذ تنفس الصباح زحف على مدينة غزة وتوقف أمامها ؛ ·

لقد كانت غزة القديمة الوجود العاصمة الكبرى لفلسطين ، وترد الاشارة اليها كثيرا فى كل من التواريخ الدينية والعلمانية ، كما أن المبانى الفخمة الكثيرة التى لاتزال موجودة تدل على مجدها الغابر ، ولقد ظلت ردحا طويلا من الزمن قفرا بلقعا لا يسكنها أحد مطلقا ، ثم جاء أخـــيرا بلدوين الرابع الطيب الذكر ورابع ملوك القدس فجمع قوة المملكة وحشد مواردها وشيد على أحد أجزاء الأكمة حصنا بديعا منيعا(٣٢) ، فلما فرغ العمل عهد به الى الاخوان الداوية ومنحهم اياه ملكا خالصا لهم لا ينازعهم فيه منازع ·

على أن القلعة لم تشغل كل التل الذى شيدت عليه المدينة كما قلنا ، غير أن الأهالى الذين قاموا للاقامة هنا رأوا تأمين أنفسهم فحاولوا حماية بقية التل بسور وأبواب ، وكان هذا السور قصيرا وأبعد ما يكون عن القوة ·

ولما تسامع سكان التل بخبر اقتراب العدو قرروا الاعتصام بالقلعة مع نسائهم وأولادهم فمضوا اليها مخيمين بها وتخلوا للعدو عن الجزء الباقى من المدينة الذى ظل بلا مدافـــع عنه ، اذ كان عملهم قاصرا على فلاحة الأرض وليس لديهم من السلاح ما يدافعون به عن أنفسهم ، ولا يعرفون شــــيئا عن فنون القتال ، وقد أراد « ميلون دى بلانسى » وكان واحدا من كبار رجال المملكة ـ وان يكن مطبوعا على الشر ـ أقول انه أراد أن يشجعهم على المقاومة فأنكر

عليهم الاستسلام ورفض الخضوع وأمرهم بالدفاع عن ذلك الجزء الضعيف من المدينة ٠

وحدث أن كان بغزة جماعة قوامها خمســـة وستون شابا مسلحين بالأسلحة الخفيفة ، وكانوا أبطـالا من بلدة يســـمونيا « المحمرة » قرب بيت المقدس ، وكانوا قد وصلوا فى تلك الليلة بالذات الى غزة فى طريقهم للانضمام الى الجيش فأمرهم « ميلون دى بلانسى » بالوقوف عند باب البلد الخارجى حيث استبسلوا فى الدفاع عن بلدهم وحريتهم ، وأفسدوا بحد السيف محاولات العدو لاقتحام البلد عنوة ودخولها بالقوة ، ولكن الكفار اقتحموا المكان على حين فجأة منناحية أخرى تقع بين القلعة وبين الباب الذى أشرنا اليه حالا ، وباغتوا من الخلف النفر القـــلائل الذين كانوا مستبسلين أحسن استبسال فى الدفاع عن البوابة ، وأحدق الكفار بهم من كل جانب ، ولما كان هؤلاء الشباب قدأخذوا على غرة فلم يعد فى مقدورهم الصمود طويلا ، فهلكوا بحد السيف غير قليل منهم أثخنتهم جراحهم ، الا أن العدو لميعد سالما هو أيضا من هذا الصدام فكان انتصاره داميا ٠

حينذاك حاول أهل البلد مرة ثانية اقتحام القلعة لكنهم لم يستطيعوا دخولها وسدت أمامهم أبواب النجاة اذ أصبح الترك وراء الأبواب وأعملوا مذبحة شرسة لم يبقوا فيها على أحد ، ثم سرعان ما اندفعوا بعدها الى المدينة فاستولوا على البلد ولميبقوا على ذكر ولا أنثى ، حتى الأطفال الرضع لم يسلموا من الأذى فقد لاقوا مصرعهم بالحجارة ٠

لكن ذلك كله لميكن كافيا لاطفاء فورة غضب الغزاة الأشراس، فقد نجح من كانوا قد لجأوا الى البرج فى ابقاء الأعداء بعيدينعنهم،

ولم يكن بأيديهم من سلاح يدافعون به عن أنفسهم سوى الحجارة يقذفونهم بها وبعض الأسلحة الأخرى ، ومن ثم بقى الحصن سليما بفضل الرب ٠

حين تم للعدو الاستيلاء على البلد والفتك بأهله عاد الى «الداروم» ودخلها دخول الظافر المنتصر ، فلاقاهم فى بعض الطريق طائفة من خيالتنا تقدر بخمسين رجلا كانوا مغذين السير للانضمام الى قواتنا دون أن يأخذوا حذرهم فهلكوا على بكرة أبيهم رغم محاولتهم البائسة لانقاذ أنفسهم ، وكانت محاولتهم هذه محاولة اتسمت بالبراعة فى القتال بالسيف ٠

ـ ٢١ ـ

أخذ الترك فى اعداد صفوفهم للقتال حسب الأصول الحربية، وقسموا قواتهم الى اثنتين وأربعين فرقة ، وصدرت الأوامر الى عشرين منها بالزحف عبر الطريق الساحلى الواقع بين « الداروم » والبحر ٠ أما البقية الباقية من هذه الكتائب فقد كان عليها أن تسلك الطريق البرى ، حتى اذا جاوزت القلعة انضم العسكر كلهم بعضهم الى بعض ، وصاروا مجموعة واحدة ٠

واستعد الصليبيون هم أيضا من جهتهم للقتال حين عرفوا أن العدو راجع اليهم لمحاربتهم ، وعلى الرغم مماكانوا عليه من قلة العدد الا أن ثقتهم كانت كبيرة فى أن تكلأهم رعاية الرب ، وتهيأوا للحرب بعد أن توجهوا بقلوبهم الى العناية الالهية يسألونها العون ، فأمدهم الرب بالبأس والشجاعة الفائقة ، وكانوا على ثقة تامة من أن العدو راجع لقتالهم ، لكنه فى الواقع كان يعتزم شيئا آخر غير ما ظنوه ، فلم يعج يمينا ولا يسارا بل اسرع فى سيره مبمما وجهه شطر مصر ٠

وجاء الرسل الثقات الى الصليبيين يعلمونهم أن العدو قد رحل وليس فى عزمه الرجوع ، واذ ذاك جمع الملك هو الآخر جيشـــه وارتد الى عسقلان فى رعاية الرب ، تاركا وراءه فى «الداروم» طائفة من الرجال لاعادة ترميم ما تصـــدع من القلعة التى كانت نصف مهدمة ،فلما فرغوا من ترميمها عادت أمنع مما كانت عليه من قبل وقد حصنوها بعناية ، ويقول من فى المملكة ممن تسنى لهم رؤية كثيرمن الحملات بها أنهم لم يشاهدوا ولايذكرون أنهم شاهدوا مثل هذا الجيش التركى فى كثافته ، والذى تقول الأخبار عنه ان عدد فرسانه وحدهم قارب الأربعين ألفا ·

❊ ❊ ❊

وحوالى هذا الوقت بالذات وفى اليوم التاسع والعشرين من ديسمبر أقيم احتفال فى مدينة كانتربرى الشهيرة بانجلترا فى ذكرى استشهاد « سنت توماس »(٣٣) العظيم رئيس أساقفة تلك المدينة الذى كان من أهل لندن ثم صار رئيس شمامستها أيام « ثيوبولد » رئيس أسقفة كانتربرى المجيد الذكر ، ثم استدعاه هنرى الثامن ملك انجلترا فيما بعد ليشارك فى تحمل مسئولية الأمور بالمملكة ، فأبدى ــ وقد صار مستشارا الملك ــ غاية الوفاء ، وتجلى ما هو عليه من الحكمة والمقدرة فى ادارة شئون المملكة ، ثم أمر الملك ــ بعد وفاة الأب المبارك ثيوبولد ــ بأن يتولى « توماس بيكيت » أمر كنيسة كانتربرى مكافأة له على خدماته ،فدافع فى حماسة لا تعرف الخوف عن حقوق الكنيسة ، ووقف فى وجه الظلم والانحراف مما ترتب عليه اضطراره للفرار الى فرنسا ليتحاشى اضطهاد الملك هنرى له ، وتحمل فى فرنسا مرارة النفى سبع سنوات فى صبر عظيم يستحق الثناء الجميل عليه ، فلما عاد بعد هذه الغيبة التى فرضت عليه فرضا ، وبينما هو ينتظر السلام الذى وعد به اذا بيد الا ثم تمتد اليه فتغتاله بسيوف شرذمة من الأشرار فى نفس الكنيسة التى وليها بارادة الرب ، ذلك أنه بينما كان يصلى من أجل مضطهديه

اذا به يقع صريعا فى خسة ، واستشهد ، وكان دمه تاجه الذى توج به ، ولقى ما يلقاه الشهيد من خاتمة رائعة ٠ ولقد شاء السيد الرحيم أن يتم على يد هذا الشهيد وفى نفس الكنيسة وكذلك فى كل أرجاء الولاية من المعجزات الكثيرة التى كانت شبه يومية ما يخيل معه أن زمن الرسل قد عاد حقا ٠

— ٢٢ —

ولما كانت السنة التالية وهى السابعة(٣٤) من حكم عمورى استدعى اليه جميع نبلائه وبسط أمامهم احتياجات المملكة التى كان يراها تئن تحت وطأة كثير من الأهوال ، فأعداء الملة المسيحية لا يتزايدون فى الكثرة والبطش فحسب بل وفى القوة والثروة أيضا ، كما أن مملكتنا كانت تعانى من جانب آخر نقصا تاما فى القادة الألباء المحنكين العقلاء ، ذلك أن الجيل الجديد الذى حل محل الجيل القديم وأخذ مكان كباره كان جيلا ترعرع فى الحمأ الخسيس، ولم يتمخض حلوله محل الرجـــال العظام عن أمر ذى بال فبدد أصحابه ما ورثوه منأسلافهم بطرق شائنة ،مما أسفر عن تدهور المملكة تدهورا ملحوظا بات فيه ضعفها واضحا حتى لأغبى الناس٠ لذلك التمس الملك من نبلائه أن يمحضوه النصيحة فى كيفية معالجة هذه الأوضاع الشريرة وكيف يتسنى له انقاذ المملكة مما آلت اليه ، فلما تشاوروا فيما بينهم ما هم فيه أصفق ردهم على قولهم « ان سقوط المملكة الى هذا الدرك الباعث على اليأس سقوطا لم تعد معه قادرة علىمهاجمة أعدائها ،أو تحمل الصمود لغاراتهم انما نجم عن خطايانا ، ثم نصحوا بوجوب التماس النجدة من أمراء الغرب للقضاء على هذه المتاعب ، ولم يكن لديهم اقتراح لأى خطة انقاذ أخرى ، ومن ثم فقد قرروا باجماع الآراء ارسال سفارة مؤلفة من أصحاب المكانة الرفيعة الى أمراء الغرب ، يشرحون لهم مشكلات

المملكة ويسألونهم مد يد المساعدة والعون لها ، كما عهدوا الى هؤلاء الرسل بزيارة البابا وأمراء الغرب البارزين ، وهم امبراطور الرومان وملوك فرنسا وانجلترا وصقلية والأسبان ، وكذلك زيارة غيرهم من الأدواق والكونتات الكبار ، يناشدونهم الوقوف الى جانبهم وتأييدهم فى القضاء على الأخطار الفادحة التى تهدد المملكة، وزادوا على ذلك فاتفقوا على وجوب ايقاف امبراطور القسطنطينية على مدى الوضع المتردى الذى تجتازه المملكة ، فمانويل أقرب الناس الينا وأغنى من كل أحد سواه ، وهو بذلك قادر على امدادنا فى يسر ما بعده يسر بالنجدة المرجوة · كذلك تقرر أن يكون المبعوث المرسل الى الامبراطور رجلا حكيما فصيح اللسان رفيع المكانة حتى يستطيع بحذقه وكفاءته أن يجعل تفكير هذا الحاكم العظيم متسقا مع رغباتنا ·

وبينما كانوا يجهدون أنفسهم حول اختيار الشخص الملائم لأداء هذه المهمة والسفارة الخطيرة كان الملك يتشاور مع غيرهم من أشد مستشاريه التصاقا به ، ثم قام فبسط أمام الجميع خطة ارتآها وتبناها ، وأوضح لهم أن سفارة لها هذا الأمر من الأهمية لا يمكن أن ينهض بها الا واحد فقط ، هو ذاته ولا أحد سواه ، وأضاف أنه مستعد لتحمل جميع المخاطر والصعاب حتى يزيح عن المملكة هذه الغمة الكبيرة ، وتملك الاعجاب العظيم نبلاء المملكة مما قال وان ذهلوا لاقتراحه واحتجوا بأن المهمة عسيرة كل العسر، مضافا الى ذلك أن المملكة ستحس بالوحشة لغيبته ، ولكن عموري رد عليهم قائلا : « فلتكن المملكة فى يمين الرب الذى أنا عبده وقد آليت على نفسى أن أذهب وما من أحد بقادر على أن يثنينى عما اعتزمته » ·

فلما كان اليوم العاشر من مارس خرج الملك فى رحلته مصحوبا بحاشية كبيرة تليق بالجلالة الملكية ، ومعه عشر شوانى ، وفى

معيته « وليم » أسقف عكا ونبلاؤ المملكة ،التالية أسماؤهم ، وهم : « جورموند » صاحب طبرية ، و « جون » صاحب أرســـوف ، والمرشال الملكى « جيرارد دى بوجى » ، و « روهارد » محافظ القدس و « رينيه دى نيفيز » ٠

أما « فيليب »النابلسى الذى كان قد اســتقال من وظيفته كرئيس لفرسان الداوية فقد بعثوه أمامهم برا ٠

واذ كانت العناية الالهية ترعى الملك فقد تمــت الرحلــة بالتوفيق ، ووصل سالما الى مضايق « أبيدوس » ومدخل البسفور المعروف عندالعامة بذراع سنت جورج ٠ أما الامبراطور العظيم وهو الملك العاقل والعلم المفرد الذى هو أهل لكل ثناء فقد استولت عليه الدهشة حين علم بأن ملكا قويا وحاكما لمملكة عظيمة شهيرة محبوبة من الرب يخالف العرف ويوشك أن يزور امبراطوريته ، وكان تفكيره فى بادىء الأمر يتمثل فىدهشته منالدافع الذى يحمل الملك على القيام برحلة صعبة غير مألوفة كهذه الرحلة ، ثم مالبث أن فاض قلبه غبطة حين تصور أى عطف كبير لا مثيل له يحبوه به الله ، وهو عطف يؤدى الى تمجيده ورفعة قدره وتشريفه ، فليس فى صفحات تاريخ امبراطوريته حدث كهذا الحدث الفذ،ولميحدثقط أن ملكا من ملوك بيت المقدس ــ وهو المدافع عن الأماكن التى شهدت آلام السيد وقيامته وحامى هذه المواضع ــ أن قام بزيارة أحد من أسلافه الأباطرة ، لذلك رأى أن يستعد لوصول الملك (عمورى) وأن يقدم له الاحترام العظيم ، فاســتدعى اليه ابن أخيه «حنا « البروتوسيباستوس » وهو واحد من أبرز كبار رجال القصر السامى والذى تزوج الملك (عمورى) ابنته ، وعهد الامبراطور الى هذا البروتوسيباستوس باستقبال ضيفه الملكى ، كما كلفه بأن يتأكد من احتفاء جميع المدن والمواضع التى يمر بها الملك الاحتفاء الرائع اللائق به بما يتفق ومراسيم الامبراطورية الثابتة منذ زمن طويل

وانه حظى بالتعظيم الذى لا مثيل له · كذلك كلفه أن يشير على الملك كان له أن ينتظر حتى يحضـــر اليه ممثلـــو الامبراطور الذين سيرافقونه فى دخوله المدينة الملوكية ·

وأطاع هذا الأمير(٣٥) الجليل أوامر الامبراطور فقضى المث فى حاشية من النبلاء فى مدينة «جاليبولى » المطلة على البسفور والتى لا تبعد كثيرا عن مضيق « أبيدوس » · ولما كانت الريح غير مواتية فلم تسمح لسفينة الملك بالذهاب الى المدينة الامبراطورية مما حمل الملك على النزول الى البر من سفينته ، وتابع مع حاشيته الرحلة على ظهور الجياد الى مدينة « هرقلية » الواقعة على نفس الساحل حيث كان الأسطول راسيا فى الميناء ، واستفاد من اعتدال هبوب الريح وتغيير اتجاهها فأبحر وبلغ المدينة قبل الملك الذى ركبه مرة ثانية ووصل الى القسطنطينية بعد رحلة ناعمة ·

ـ ٢٣ ـ

كان القصر الامبراطورى فى هذه المدينة المعروف بقصـــر قسطنطين يقع على شاطىء البحر مواجها الشرق ،وكان للطريق المؤدى اليه من ناحية البحر رصيف عجيب من الرخام الرائع ، كما كانت السلالم المؤدية الى الماء وتماثيل الأسود والأعمدة منحوتة كلها من الرخام وتخلع على القصر روعة ملوكية ،وكان هذا المدخل مخصصا فى العادة لاســتعمال الامبراطور دون غيره حين يريد الصعود الى القسم العلوى من القصر ،لكنهم خرجوا على هذه القاعدة المرعية حين ميزوا الملك (عمورى) عمن سواه فخصوه باستعمال هذا المدخل كمظهر من مظاهر التقدير والتبجيل له هو وحده دون سواه ·

ثم مضوا بالملك وهو فى حاشيته وبعض كبار رجال القصر السامى وساروا به فى أبهاء متنوعة وحجرات مختلفة الأنواع حتى انتهوا به الى القسم العلوى من القصر حيث كان الامبراطور مع كبار نبلائه ، وقد أسدلت على صالة الاجتماع الامبراطورية الستائر الرائعة الصنع ، المحلاة بالأشغال اليدوية التى لا تقل فى قدرها عن القماش ذاته ، حتى ليمكن أن يقال عنها ما قاله « ناسو » من أن « الصنعة فاقت المادة » .

وكان كبار شخصيات الامبراطورية فى استقبال الملك خارج هذه الصالة ، ثم ساروا به الى ماوراء هذه السجوف ، ويقال انهم فعلوا ذلك حتى تظل هيبة السدة الامبراطورية محفوظة ، ويظل حسن تقدير الملك تجاه الامبراطورية باقيا ، كما يقال ان الأخير (الذى لم يكن حوله سوى أعظم رجال بلاطه) نهض فى ود محييا الملك ، وهو أمر لو كان قد جرى فى حضور كل رجال البلاط لعده المجتمعون تنازلا عظيما من جلالته(٣٦) الامبراطورية . وما كاد الملك يدخل الصالة حتى رفعت الستائر ، وبدى الامبراطور لمن كانوا فى الخارج جالسا على عرش من الذهب مرتديا الملابس الامبراطورية ، والى جواره الملك (عمورى) على عرش آخر فخم ولكنه دون عرش الامبراطور درجة .

وأدى الامبراطور فى رقة بالغة مظاهر التحية المألوفة وقبلة السلام لكبار نبلائنا ، وتعطف فاستفسر عن راحة الملك ورجال حاشيته ، وعبر بالكلمة والاشارة تعبيرا واضحا عن سعادته القصوى بحضورهم ، وكان قد أمر خدم القصر السامى وموظفيه باعداد أجنحة خاصة بالغة الروعة فى داخل القصر نفسه لنزول الملك وحاشيته ، كما أعدت بالمدينة وعلى مقربة من الملك دور خاصة منفصلة تليق بمكانة كل واحد من النبلاء المرافقين له ، ثم انسحب

الضيوف من الحضرة الامبراطورية كى يرافقوا الملك ويكونوا فى خدمته، ثم أذن لهم بالانصراف الى حيث ينزلون بعدأن حدد الساعة التى يجب أنيعودوا فيهااليه ٠

كان الرسل يعقدون كل يوم وفى ساعات معينة اجتماعات دائمة ، تارة مع الامبراطور وتارة فيما بينهم ،يتناقشون فيها حول المواضيع التى دفعتهم للحضور الىهنا ، وزيادة على ذلك كله فانهم أولوا كل الاعتبار للاجراءات التى يمكن بها انجاز الغرض الذى جاءوا منأجله حتى يعودوا الى وطنهم وقد تكللت مساعيهم بالنجاح ٠٠ وكان الملك يشرح الأسباب التى حملته على القيام بهذه الزيارة ، ويبسط احتياجات مملكته ، وكان يفعل ذلك تارة فى محادثات ثنائية بينه وبين الامبراطور حينا ، وحينا بحضور كبار شخصيات البلاط الامبراطورى ، وقد ركز بالذات على ماســـوف يحظى به الامبراطور من المجد الخالد ان قام بحملة لاخضاع مصر ، وأثبت بالبراهين الايجابية امكانية تحقيق هذا المشروع من غير عسر ٠ واجتذبت الامبراطور كلمات الملك فأصغى الى مقترحاته بأذن واعية ووعده وعدا أكيدا بتنفيذ كل رغباته ٠

وفى أثناء ذلك راح الامبراطور يغدق على الملك ونبـــلاء حاشيته الهدايا التى تتناسب وعظمته الامبراطورية ، هذا بالاضافة الى أنه فى زياراته المتكررة لهم كان لا يتوقف عن الســـؤال عن راحتهم وصحتهم ٠ كما أصدر أوامره بأن تفتح لهم ـ كما تفتح لأهل بيته ـ جميع الأماكن حتى ما كان منها من أسرار قصره وكذلك حجراته المحرمة الا على خاصته ٠ وشملت هذه الامتيازات أيضـــا المواضع المغلقة فى وجه العامة والذخائر النادرة التى جمعهـــا أسلافه الأباطرة ، بل أنه أتاح لهم رؤية مخلفات القديسين وآثار سيدنا عيسى المسيح الغالية كالصليب والمسامير والحربة (المقدسة)

والاسفنجة وقصبة الغاب والتاج الشوكى والثوب الكتانى والخفين، ولم يحجب عنهم رؤية شيء من الأشياء السرية والموقرة التى ترجع الى أيام الأباطرة الأمجاد : قسطنطين وتيودوسيوس وجستنيان ، والتى كانت محفوظة فى الخزائن الخاصة الموجودة بالحجرات المغلقة ٠

وكان الامبراطور يدعو الملك وبطانته بين آونة وأخرى وكذلك فى الأعياد وساعات الفراغ ليروحوا عن أنفسهم بشتى صنوف التسلية التى تهيؤها لهم الحفلات ذات الطابع اللائق بمكانة العاهلين الرفيعة ، وكانوا يأتونهم أحيانا بمختلف الآلات الموسيقية التى تنساب منها الألحان العذبة لادخال البهجة والسرور على نفوسهم، ثم يأتونهم بفرق من المغنيات والممثلين ، كل ذلك مع المحافظة التامة على الذوق الجميل والتقاليد ، كما أمر الامبراطور باقامة الألعاب العظيمة الرائعة التى تشبه ما نسميه نحن بالروايات المسرحية أو السيرك ليشاهدها الناس الذين يعيشون فى المدينة ٠

كل ذلك كله على شرف الملك ٠

ـ ٢٤ ـ

وبعد اقامتهم فى قصر قسطنطين بضعة أيام ورغبة من الامبراطور فى التغيير الذى يخلصهم من الرتابة المملة فقد أمر أن ينقل محل اقامته ـ وفى صحبته الملك ـ الى القصر الجديد المسمى بقصر « بلاشرناى »(٣٧) ، وهنا أيضا راعى الامبراطور كل قواعد الضيافة مراعاة تامة ، فاستضاف الملك عمورى بضعة أيام فى قصره الخاص للترحيب به ، حيث خصصت له بعض أجنحة ، وأخذ يتباحث معه على انفراد فى أكثر الحجرات سرية فى قصر أسلافه الامبراطورى ،كما صدرت الأوامر بأن تعد لحاشية الملك

أماكن تتوفر فيها الراحة وتليق بمكانتهم ، وأن يراعى فى هذه الأماكن ألا تبعد كثيرا عن هذا القصر ، وحين ـ كما هو الحال من قبل ـ للخدمة الداخلية رجالا لم يكن لهم من عمل سوى التأكد من توفير كل وسائل الراحة التى لاتقتصر على الضروريات فقط بل تتجاوزها أيضا الى وسائل المتعة الزائدة عن الحد ٠

وكان الملك لايسير الا وحوله الحرس سواء أكان ذلك فى داخل المدينة أو خارجها ، وقد زار الكنائس والأديرة التى كان منها بالبلد ما لا يحصيه العد ، وشاهد أقواس النصر والأعمدة المزينة بالرسوم التذكارية ، وكان مرشدوه فى جولاته هذه رجالا من كبار النبلاء الملمين بكل هذه الأشياء الماما تاما ، فكان اذا سألهم عن طبيعة ما يراه والغرض من كل منها تقدم لشرح ذلك له أكبرهم مكانة وأكثرهم معرفة بها، وفصلوا له القول تفصيلا ٠

كذلك ركب الملك فى هذا الوقت ذاته البسفور ووصل الى مدخل البحر الأسود الذى تبدأ من عنده مياه البسفور تشق طريقها الى البحر الأبيض المتوسط ، وبهذا أتيح له ـ وهو المطبوع على حب الاستفسار عن كل شىء ومعرفة سببه ـ أن يزور أماكن كانت مجهولة لديه ،فلما أشفى غليله بما رأى وبما سمع عاد أدراجه الى المدينة مواصلا مفاوضاته الودية مع الامبراطور ، مدفوعا الى ذلك برغبته الملحة الصادقة فى أن تتكلل بعثته بالنجاح ٠

وبعد أن أمضى فترة مناسبة من الوقت انتهت المواضيع الهامة الى خاتمة سعيدة ، وانتهى الاتفاق الى معاهدة ارتضاها هو والامبراطور ، ثم أكداها كتابة وختماها بخاتميهما ٠ وحينذاك استأذن الملك فى الرحيل فأذن له ، فأخذ أهبته للسفر مشيعا بأمانى الجميع الطيبة ، وأغدق الامبراطور عليه وعلى من معه من كومه

ما يفوق كل ما كان أغدقه عليهم من قبل وما يعجز اللســـان عن ايفائه حقه من الثناء ،فقد وصله الامبراطور بأثقال من الذهب وأحمال من الملابس الحريرية وكثير من السلع الأجنبية الصنع كما نال من معه ـ حتى أصغرهم مكانة ـ هدايا لا حصر لها ٠

كذلك سخا « جون البروستاتيوس » السخاء العظيم على كل أفراد البعثة ، وأذكى هذا العمل روح المنافســـة بين الأمراء الآخرين فراحوا يتنافســـون فى تقديم الهدايا الرائعة الى الملك ، وكانت هذه الهدايا على جانب كبير من دقة الصنعة ٠

فلما تأهب الأسطول للابحار ركبه الملك وقد أنجز مهمته وسافر الى القسطنطينية لمسافة ميلين عبر البسفور الذى يعتبر عادة الحد الفاصل بين أوربا وآسيا ، ومر فى ابحاره بمدينتى « سستوس » و « أبيدوس » الشهيرتين بموطن «لياندر »(٣٨) و « هيرو » ثم دخل البحر الأبيض المتوسط ، وكانت الرحلة طيبة فأرسى يوم الخامس عشر من يونيو سنة (١١٧١ م) عند مدينة صيداء ٠

ـ ٢٥ ـ

حين عاد الملك الى مملكته بلغه أن نورالدين لايزال على رأس جيش ضخم فى ناحية بانياس ، فداخلت الرهبة قلب عمورى أن يشن نور الدين الغارات من هناك على بلادنا لذلك استدعى اليه بارونات المملكة ، وسار بهم فى أرض الجليل حتى يتجنب بقدر الامكان مثل هذا الهجوم ، ثم عسكر قرب النبع الشهير الواقع بين الناصرة وصفورية ، ولما كان هذا النبع شديد القرب من وســـط المملكة فقد كان من اليسير عليه أن ينتقل منه الى أى مكان فى القطر يجدنفسه راغبا فى الانتقال اليه ، ولهذا السبب الذى ذكرناه

حالا نجد أن عمورى وأسلافه من قبله اعتادوا تجميع جيوشهم فى تلك البقعة ٠

وواكب هذا الوقت رجوع سلفنا «فردريك » رئيس أساقفة صور من سفرته(٣٩) التى كان قد قام بها نائبا عن المملكة بقصد التماس المعونة والارشاد من أمراء الغرب ، وهى سفرة استغرقت منه عامين فى بلاد ماوراء البحر عاد أثرها دون أن يقدر له التوفيق فقد كان الفشل التام من نصيب جهوده ، ولم يحصل على شىء مما سألهم اياه نيابة عنا ، كما أرسل قبله كونت ستيفن(٤٠)(أكبر أولاد ثيوبولد الثانى لكونت بلوا وشارترز وترو) الذى هو من أسرة شريفة ولكنه كان يحيى حياة أبعد ما تكون عن الشرف والاستقامة وكان الملك (عمورى) قد بعث فى طلبه بناء على اشـــارة رئيس الأساقفة ليزوجه ابنته ، فلما وصل الكونت الى المملكة شرح له الملك الموضوع بروح طيبة ، لكن على الرغم من أن العرض كان قد عرض من قبل على «ستيفن » ووافق عليه الا أنه عاد الآن فرفضه ، وبعد أن قضى عدة شهور فى المملكة عاشها عيشة فسق وفجور قرر الرجوع برا الى وطنه ، فمضى أولا الىأنطاكية ثم يمم وجهه شطر « كيليكية » ،وبعد أن جهزه سلطان قونية بالحرس يحرسونه فى الطريق سافر برا الى القسطنطينية ، ولكن شاء سوء طالعه (وهو لايزال فى كيليكية وعلى مقربة من المصيصة) الا أن يقع فى كمين نصبه له الأمير « مليح » الأرمنى القوى أخو « توروس » (الثانى) اذ خرج عليه رهط من قطاع الطرق وثبوا عليه وسلبوه كل ما كان معه من غال وثمين وجردوه منه ثم استطاع بعد لأى من توسلاته الملحة اليهم أن يحملهم على أن يتركوا له جوادا هزيلا يستعمله ، ومضى الى القسطنطينية على هذه الصورة المزرية فى قليل من أتباعه بعد أنكابد أهوالا كثيرة ٠

وقد لاحقته كراهية جميع أهل الشرق •

***

ووصل فى هذه السنة ذاتها الى المملكة للحج والعبادة رجل آخر اسمه أيضا الكونت ستيفن ، وهو ابن وليم كونت الساؤون ، وعلى الرغم من أنه كان يحمل نفس اسم سابقه الا أنه كان يختلف عنه تمام الاختلاف ، فقد كان رجلا متواضعا طاهر الذيل ، أهلا للاحترام العظيم ، وكان فى صحبته ابن أخته هنرى الصغير دوق برجنديا ، لكنهما لم يقيما فى المملكة الا فترة قصيرة عادا بعدها الى ديارهما غير أنهما توقفا فى القســـطنطينية حيث اهتم بهما الامبراطور اهتماما كبيرا وصرفهما محملين بالهدايا الجمة •

ولما كانت السنة التالية وهى العاشرة(٤١) من حكم الملك عمورى لقى وليم أسقف عكا الطيب الذكر خاتمة عجيبة لايستحقها اذ كان الملك قد أرسله من القسطنطينية الى ايطاليا ، وطاف فى سفره بكل هذا الاقليم محاولا جهد ما أمكنه اتمام هذه المهمة الموكول اليه القيام بها ، فلما كان فى طريق عودته الى عكا عزم على زيارة الامبراطور بناء على اتفاق سابق بينهما فوصل الى « أدرنة » احدى المدن الشهيرة فى « تراقيا » الصغرى ، وهناك أحس الأسقف وليم بالانهاك الشديد من طول رحلته ، ولما حانت ساعة الظهيرة تناول طعامه ثم رقد ليريح جسده المرهق ، وكان بصحبته فى سفره هذا واحد من رجاله اسمه « روبرت » كان وليم قد رسمه من قبل قسيسا وجعله من ملازميه ، وكان « روبرت »هذا يقيم فى نفس الحجرة التى كان يستريح فيها الأسقف • وكان روبرت قد أبل من مرض طويل عانى منه شدة كبيرة ، لكن حالة من الجنون الفجائى اعترته فاستل سيفه وطعن به الأسقف النائم طعنة أصابته بجروح قاتلة تعالى منها صراخه ، فأدرك من كانوا فى الخارج أنسيدهم يعانى سكرات الموت ، فاندفعوا لنجدته ولكن الباب كان محكم الاغلاق من الداخل مما استحال معه دخولهم اليه • غير أنهم فتحوه عنوة فوجدوا مولاهم

قد أظلهحمامه ، وأنه أقرب للميت منه الى الحى وان كان قلبه لازال ينبض نبضات واهية ، فكان أول ما فكروا فيه هو الامساك بقاتله واسلامه مقيدا بالحديد ليلقى الجزاء الذى هو أهل له حسب ما تقضى بهالقوانين التى تحرم قتل النفس ، ولكن الأسقف منعهم بالهمهمة والاشارة ، وتوسل اليهم من أجل نجاة روحه أن يغفروا للقاتل جرمه ، ثم أسلم الروح وهو يستعطفهم ألا يجعلوا ما اقترفه الشاب جريمة تؤدى الى هلاكه ٠

وقد حدث هذا يوم ٢٩ يونيو ٠

ولم نستطع حتى الآن أن نقرر بسهولة ما الدافع لروبرت على اقتراف تلك الجريمة الشنعاء ،وان قال البعض أنه كان يعانى مرضا لازمه طويلا ، وعلى الرغم من شفائه منه الا أن نوبة خبل فجائية عنيفة اعترته فجعلته غير مسئول عن جرمه الشنيع ٠

ويذهب البعض الآخرون الى عكس ما ذهب اليه هؤلاء اذ يؤكدون ارتكابه جريمته بسبب ماكانت تنطوى عليه نفسه جوانحه من كراهية سوداء نحو مولى معين منموالى الأسقف كان يعتمد كثيرا على عطف مولاه الشديد عليه فكان يسىء معاملة روبرت أسوأ معاملة ٠

وفى الثالث والعشرين من نوفمبر نصـــب مكان ولیم فی أسقفية عكا رجل اسمه « جورفيناس » وقد تم ترسيمه كاهنا ثـــم شماسا فى نفس الكنيسة ٠

ومات فى هذه الأثناء الشريف المبجل والعالى القدر «توروس» الذى طالما أشـــرت اليه كأمير قوى للأرمن ، واذ ذاك قام أخـوه

« مليح » الذى كان من أشر من حملته الأرض على ظهرها فطمع فى احتجان الميراث نفسه، فمضى من أجل تحقيق هذا الغرض الى نور الدين وألح عليه الحاحا عنيفا أن يمده بطائفة من الفرسان يستطيع بهم اغتصاب أملاك أخيه قسرا ، وكان وجوه أمراء تلك البلاد قد بعثوا بعد وفاة « توروس » فى طلب « توماس » ابن أخت « توروس » و« مليح » ونصبوه حاكما من غير معارضة على امارة خاله بأجمعها ، وكان توماس لاتينى الأب لكن كانت تنقصه الشجاعة والحكمة اللازمتان ليتلاءم مع هؤلاء الذين استدعوه ·

واستطاع « مليح » أن يحصل من نور الدين على عدد كاف من الفرسان بعد أن قدم لنور الدين شروطا محددة مرضية له كل الرضا ، فكان « مليح » بعمله هذا أول واحد من بنى قومه يشذ عن عادات أسلافه اذا استعان بالعدو فأدخل جيشا من الكفار الى الامارة ثم غزى أرض أجداده بالقوة وأخرج ابن أخته وسيطر على الاقليم كله ، وكان أول عمل قام به بعد أن صارت البلاد فى قبضته هو انتزاع كل ما فى أيدى فرسان الهيكل من ممتلكاتهم فى « كيليكية » على الرغم من أنه كان ذات يوم أحد أفراد هذه المؤسسة ، ثم عقد مع نور الدين والترك حلفا قل أن يحدث مثله حتى بين الأخوة ، ثم طرح جانبا شريعة الرب فجب ملته وكفر بها ، ولم يدع ضررا يستطيع الحاقه بالمسيحيين الا أنزله بهم فألقى فى الحبس من شاء قدرهم أن يقعوا فى يده فى ساحة القتال أو حين اجتياحه الحصون ثم حملهم الى بلاد العدو فبيعوا بيع العبيد ، وسرعان ما دلت الجرائم التى ارتكبها هذا الوغد ضد المسيحيين على أنه واحد من ألد أعدائهم مما دفع أمير أنطاكية وكبار رجال الامارة الى حمل السلاح ضده على الرغم من أنه كان من أخطر الأخطار وأغربها أن يحارب المسيحى مسيحيا من أهل ملته مما يعنى فى الواقع حدوث حرب أهلية · لكن لما كان من المستحيل أن يسكت هؤلاء المسيحيون

عن المصائب التى نزلت باخوانهم على يد « مليح » فقد أعلنوها حربا عليه واعتبروه عدوا للمملكة ٠

فلما علم الملك بالاضطراب السائد فى ذلك الاقليم أسرع بقوته الى امارة أنطاكية لرغبته فى أن يساهم بدوره فى كل ما يمكن أن يؤدى الى اقرار السلام ، فلما بلغها أنفذ من هنا مبعوثيه الشخصيين الى هذا الشقى « مليح » الذى لا يراعى الرب أبدا ، وأفصحوا له عن رغبة الملك فى عقد حوار معه هو ذاته متىشاء وانى شاء ، فتظاهر « مليح » بغبطته اذ يتلقى هذه الرسالة ، ولكن الواقع هو أن باطنه كان يخالف ظاهره تمام المخالفة ـ وتعددت مرات ارسال الملك المبعوثين اليه رجاء دفعه الى اتمام هذا اللقاء الكبير ، لكن تبين له فىالنهاية أنه كان مخدوعا بحيل هذا الرجل الخسيس ، وأدرك أنه لا يستطيع تحقيق شىء ما عن هذا الطريق ، واذ ذاك جمع كل أفراد هذه الامارة ونزل بهم وبجيشه على بلاد عدوه غازيا وأضرم العسكر النار فى ما وجدوه فى سهل «كيليكية » من المحاصيل لأن السير فى الطريق الجبلى كان أمرا بالغ المشقة ، كما حاول العسكر الاستيلاء بالقوة على القلاع التى مروا بها ، لكن جاءه على حين فجأة رسول من الرسل يحمل اليه أنباء سيئة تشير الى أن نور الدين محاصر مدينة « تدمر » عاصمة المنطقة العربية المعروفة أيضا باسم « الكرك » وكان الخبر صحيحا ٠

قلق الملك لهذا النبأ قلقا بليغا ، فاستأذن من أمير (أنطاكية) وأسرع وفى أثره أتباعه وحدهم ، لكن حدث أن قام أمراء مملكته قبل وصوله اليها بعمل حاسم مفيد هو أنهم جمعوا كل قوى المملكة الحربية وعهدوا بالقيادة العامة الى الكونستابل «همفرى» وتشرف « رالف » أسقف بيت لحم بحمل الصليب ، وكانت القوات تتوالى دون ابطاء وتسرع فىشجاعة الى المكان المحدد حين قابلهم رسول

يحمل اليهم خبرا تأكدت صحته ، ألا وهو أن نور الدين رفع الحصار عن الناحية(٤٢) دون أن يمسها بسوء وأنه عاد الى دياره ، وترتب على ذلك أن وجد الملك عند بلوغه المملكة كل شيء عكس ما كان يتوقع ، وأن الهدوء سائد والأمن مستتب على خير ما يجب ٠

ـ ٢٧ ـ

فلما كانت السنة التالية وقد هلت طلائع الخريف استعد صلاح الدين لغزو ديارنا بقوات كثيفة وعدد ضخم من الفرسان واجتاز الصحراء على رأس عسكره الذين جمعهم من كل أرجاء مصر ووصل الى الناحية المسماة بكانة الأتراك ٠

ولما كان الملك يتوقع مجيء صلاح الدين فقد جمع جيشه الخاص وخرج وفى صحبته البطرك المبجل حاملا صليب المسيح الموقر الواهب الحياة،ثم نصب معسكره قرب «بيرسبع» ليسهل عليه مواجهة الخصم المتقدم ، ثم جاء الخبر بأن قوات صلاح الدين لا تبعد أكثر من ستة عشر ميلا عن معسكر الملك ،ولكن عمورى لم يكن واثقا تمام الثقة من أن الترك قد وصلوا فى الواقع الى هذا الموضع ، غير أن الخبر كان صادقا اذ كان صلاح الدين قد اقام معسكره هناك لوفرة الماء به حيث يمكن التزود به بسهولة ٠

وبعد أن تشاور الملك مع نبلائه صمم على أن يغير طريقه تجنبا للاصطدام بالترك ، ومن ثم زحف العسكر والناس جميعا نحو عسقلان بدعوى التنقيب عن العدو الذى كانوا قد نجحوا فى تجنب الالتحام به وقت أن كان على مقربة منهم ٠

ثم تابعوا زحفهم من عسقلان الى «الداروم » وعادوا على أعقابهم الى نقطة البداية الأصلية بعد أن أضاعوا الجهد والمال ٠

فى هذه الأثناء ســــار صــــلاح الدين عبر ســــهول أدوم Idumea ودخل بجيوشه منطقة البقاع حيث حاصر قلعة هناك كانت تعد من أحصن قلاع هذا الاقليم كله وأهمها ، ثم أغار عليها غارة شعواء بقدر ما يسمح له موقعها ، اذ كانت واقعة على سفح التل فى بقعة منحدرة ، هذا الى جانب ما كانت عليه من المناعةبفضل أسوارها وأبراجها واستحكاماتها ، وكانت القرية التى توجد بها هذه القلعة خارج الأسوار ، وهى على سفح التل فى بقعة شديدة الانحدار ، شاهقة الارتفاع مما يجعلها آمنة من الغارات والهجمات عليها بالآلات الحربية أو رميها بالأقواس ، وكان سكانها جميعــا مسيحيين ولذلك كان فى الاستطاعة الاعتماد عليهم والثقة بهم ، ويضاف الى ذلك أن القلعة كانت مجهزة أحسن تجهيز بالسلاح والذخيرة ، ويقوم على حراستها رهط كاف للدفاع عنها ٠

ظل الكفار مثابرين فى الهجوم على هذا المكان بضعة أيام دون أن ينالوا ما يشتهون ، حتى اذا ما أيقنوا أنه موضع عزيز لا يمكن اقتحامه أصدر صلاح الدين أوامره بالرحيل عنه وعاد الى مصر بجيشه عبر الطريق الصحراوى ٠

ـ ٢٨ ـ

فلما كانت السنة التالية التى هى العاشرة من حكم الملك عمورى استعد صلاح الدين للمرة الثانية لغزو المملكة ، واذ كان يدرك أنه لم يجن فائدة كبيرة من جراء قتاله لقواتنا فى العام المنصرم فقد سعى هذه المرة لتعويض فشله فجمع من كافة أنحاء مصر ومن غيرهــا جيشــا كبيرا من المقاتلين ، وحــاول أن يخفــى عن الجميع تحركاته فتقدم عن طريق الصحراء وأنزل أكبر الاضرار

بالسكان(٤٣) ، ووصل فى شهر يوليو الى نفس البقعة التى كان قد احتلها بعسكره فى السنة الماضية ٠

غير أن خبر زحفه بلغ مسامع الملك عمورى فخرج على رأس زهرة قوات المملكة الحربية ،وانطلق فى الصحراء ليقابل الأمير المارق ، ولكنه علم ـ كما علم فى العام السالف ـ أن صلاح الدين قد ترك الناحية الى اقليم البقاع فانصرف عن قصده خشية أن يصل خبر خروجه الى صلاح الدين فيعود من ناحية أخرى ويحدث تخريبا فى المملكة ، لذلك سلك عمورى الطريق الجبلى وتخير مكانا ملائما ثم ارتد الى الكرمل،وليس الكرمل هذا هو جبل الكرمل الساحلى الذى كان مسكن « الياس » بل هو قرية نقرأ فيما نقرأ عنها أن « نابال »(٤٤) الأرعن كان يعيش فيها ٠ ولقد كان الملك حكيما فى اختياره هذا الموضع لوفرة مائه بسبب وجود بركة قديمة به ، فسيحة الاتساع ، تستطيع أن تمد الجيش كله بفيض وافر من الماء ٠

وزيادة على ذلك فان « الكرمل » كان قريبا من الاقليم الواقع فيما وراء الأردن ولا يفصله عنه سوى الوادى الشهير الذى يعتبر الحد الفاصل بين الاقليمين ،كما يقع فيه البحر الميت ، ومن ثم كان فى استطاعة جيشنا الحصول على كثير من أخبار تحركات العدو والتحقق من أوضاع قوات صلاح الدين ٠

على أن توقف الملك عن الاقتراب من تلك الناحية للأسباب التى ذكرناها أتاح الفرصة لصلاح الدين ليفسد فى الاقليم كله حسبما يهوى ، فلم يترك شيئا صادفه خارج القلعة الا جعله طعمة للنيران ، وأمر باجتثاث الغابات وقطع الكروم وتدمير القرى حتى اذا آذن شهر سبتمبر على الانتهاء عاد الى مصر بعد أن اجتاح الاقليم كله اجتياحا طاغيا حسبما زينه له هواه ٠

كذلك عاد ريموند الصغير كونتطرابلس فى هذا الوقت تقريبا الى أرض أسلافه بعد أن قضى سنوات فى الأسر(٤٥) فى الغربة ومقيدا بالسلاسل ، ثم أطلق سراحه فى النهاية ، وردت اليه حريته بعد دفع فدية قدرها ثمانون ألف قطعة ذهبية ، فرحب الملك بعودته أجمل ترحيب وبادر فرد عليه الاقليم الذى ظل عمورى نفسه يدير شؤونه طول فترة غياب ريموند ، ثم زاد فوصله من الخزانة الملكية بالصلات الكثيرة مساعدة منه له فى دفع فديته وأضاف الى ذلك قيامه بحث نبلائه وكبار رجال الكنيسة على نهج نهجه مع ريموند ٠

ـ ٢٩ ـ

وألمت بنا فى هذا الوقت تقريبا كارثة فاحشة كان لها أضخم العواقب على المملكة والكنيسة معا ، ومازلنا نعانى منها حتى الآن بل وربما سنظل حزانى بسببها الى الأبد ، وأرى أن فهم هذه المسألة يتطلب منا الرجوع الى الوراء قليلا لبداية القصة ٠ ذلك أنه كان يعيش فى ولاية صور وفى أبرشية « طرطوس » أمة من الناس يملكون عشر قلاع وما يلحقها من المدن ، وكان عدد هؤلاء الناس ـ كما سمعنا ـ يقرب من ستين ألف نسمة أو أزيد من ذلك قليلا ، وكانوا اذا أرادوا أن يولوا أحدا عليهم اختاروا بالتصويت ولم تجر عادتهم على توليته بالوراثة ، وكانوا يقدمون من يختارونه بناء على مزاياه فاذا تم انتخاب هذا الزعيم نعتوه بشيخ الجبل ، وهو لقب يؤثرونه على سواه من ألقاب التعظيم ، وأسلموا له أمرهم من غير جدال ، وأطاعوه طاعة عمياء لا يأبهون معها بشىء مهما كانت صعوبته ولا يكترثون بأى مشقة فى سبيل تنفيذ أوامره ،وينهضون نهوضا صادقا بما يكلفهم به وينصاعون اليه انصياعا قد يكون فيه الخطر الجسيم عليهم ،والمثال على ذلك أنه اذا حدث أن استوجب أمير ما كراهية هؤلاء القوم أو أسخطهم قام الشيخ فناول واحدا من أتباعه

أو أكثر خنجرا فيبادر من وقع عليهم الاختيار بتنفيذ ما وكل اليهم القيام به في الحال غير عابئين بنتائج ما هم مقدمون عليه أو مكترثين بعدم نجاتهم أو عودتهم سالمين ، بل يتحمسون كل الحماسة لعملهم ايمانا منهم بضرورته ويترقبون الفرصة المناسبة التى تمكنهم من تنفيذ أمر شيخهم ، وكان هؤلاء القوم يسمون بالحشاشين ، ولا يعرف أحد من النصارى ولا المسلمين مما اشتقت هذه التسمية ·

ولقد ظل هؤلاء الحشاشون أربعة قرون من الزمان وهم يتبعون شريعة المسلمين وسننهم اتباعا دقيقا ، واذا ما قورنوا بغيرهم من الأمم الأخرى بدوا وكأنهم مخادعون ويظنون فى أنفسهم أنهم وحدهم الذين يراعون الشرع · لكن حدث فى أيامنا هذه أن اختاروا لهم شيخا ألمعيا فصيح اللسان ذكيا غاية الذكاء · وكان عند هذا الرجل ــ على عكس أسلافه ــ كتب العهد الجديد وشرائع الرسل ، وكان دائم النظر فيها · كما حاول فى ذات مرة أن يتبع ناموس المسيح الصحيح ويأخذ بالعقيدة الرسولية ·

وقد حملته تعاليم المسيح وتلاميذه الرائعة السمحة على نبذ العقائد التى رضعها منذ صغره ، ثم راح يلقن أتباعه هذه التعاليم حتى أخرجهم من تعاليم ملتهم فهدم أماكن عبادتهم التى اعتادوا الصلاة فيها ، ومنعهم من الصيام وأباح لهم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، ثم دفعته أخيرا الرغبة فى الوقوف التام على أسرار دين الرب الى ارسال مندوب منه الى الملك يدعى « عبد الله » ، وكان عبد الله هذا فطنا فصيحا ألمعى الفؤاد ،محافظا على تعاليم مولاه ، وحمل معه الى الملك اقتراحات سرية يتلخص أخطرها فى أنه اذا تعهد فرسان المعبد الذين لهم قلاع منيعة مجاورة لأراضى الحشاشين أن يردوا على الحشاشين الألفى قطعة الذهبية التى كان قومه يدفعونها لهم سنويا وأن يكلأوهم بنظرة أخوية فان كافة أهل الطائفة سوف يعتنقون ماة المسيح وينتصرون ·

استقبل الملك رسول شيخ الجبل بالغبطة ، واذ كان عموري رجلا ذكيا فقد وافق على كل المطالب التى عرضها عليه ، بل انه أبدى استعداده - كما يقول البعض أن يعوض الداوية من خزينته الخاصة المبلغ الذى يطالبهم به الحشاشون وقدره ألفا قطعة ذهبية ، لذلك إستبقى الملك عنده رسول شيخ الجبل فترة طويلة لاستكمال تفاصيل الاتفاق ثم رده الى مولاه لوضع اللمسات النهائية للاتفاقات ، ثم بعث معه مرشدا يدله على الطريق ويحرسه. وتمكن عبد الله وهو فى حراسة الدليل ومن بعثهم الملك لمرافقته - أن يجتاز طرابلس ، حتى اذا أوشك على الدخول الى بلده باغته ومن معه الفرسان الداوية ، ووثبوا عليهم بسيوفهم وقتلوا هذا المبعوث الذى لم يكن يدور قط بخلده حدوث شيء من هذا القبيل ، حتى انه سافر دون أن يأخذ الحيطة الواجبة ثقة منه بما فى يده من كتاب أمان زوده به الملك ، واطمئنانا الى ايمان أمتنا ، وبذلك عرض الفرسان (الداوية) أنفسهم للرمى بتهمة الخيانة .

أثارت أخبار هذا الفعل الدنيء ثائرة الملك وجن جنونه ، فاستدعى اليه البارونات وبين لهم وهو فى سورة غضبه لأن خيانة الأمانة انما ترقى الى اعتبارها اهانة بالغة تلحقه هو ذاته ، ثم طلب اليهم أن يشيروا عليه بالرأى الواجب عليه اتخاذه ، فاتفق رأيهم جميعا على أنه لا يمكن التغاضى عن هذا الجرم البشع لأن الكرامة الملكية بدت فى ظل هذه الجريمة معدومة تماما ، وأن ما جرى جلب العار الذى لايمحى أبد الدهر وعد مغمزا فى حسن نية المسيحيين الطيبة ووفائهم الحميد ،وزيادة على ذلك فمن المحتمل جدا أن تفقد الكنيسة فى المشرق ازدهارها الذى يرضى الرب ، والذى كانت تعد نفسها له .

واذ ذاك اتفق الجميع على انتخاب اثنين من النبـــلاء هما « زيهر دى ماميدون » Sieher De Mameđun وآخر اسمه « جونشو تيرتو» Godechaux ليكونا رسولين خصوصيين يطالبان «ايود دى سنت اماند » رئيس فرسان المعبد بتقديم الترضية الكافة للملك وللمملكة معا عن هذه الفعلة النكراء الدنسة ·

ويقال ان أحد الاخـــوان واســـمه « وولتر دى ميزنيليو » Walier Maisnilio وكان أعور شريرا خسيس النفس أوكما يقال « كانت روحه فى منخاريه »(٤٦) هو الذى دبر هذه الجريمة لكن بموافقة الفرسان ،وزاد البعض فقالوا ان رئيس المنظمة ـ رغبة منه فى الابقاء على هذا الرجل بعيدا عن أن ينال جزاء اثمه ـ بعث الى الملك بكتاب مع رسول من قبله يخبره أنه أنزل العقوبة على هذا الأخ المذنب ،وأنه على وشك ارساله الى البابا ، وأنه نهى الجميع ـ نيابة عن البابا ـ أن يصيبوا أو يصيب أحدهم الأخ المشار اليه بأدنى سوء . وأضاف الى ذلك ملاحظات أخرى أملتها عليه روح التعالى والغرور ولكن ليس من الضرورى ن أسجل هنا فى كتابى هذا تلك الملاحظات ·

وذهب الملك بنفسه الى صيدا بشأن هذا الموضوع ، فوجد رئيس الفرسان مع كثير من الاخوان وفيهم هذا المجرم ذاته ، فتشاور (عمورى) مع من جاءوا فى رفقته ، ورأى أن يأخذوا بالقوة ذلك الرجل المتهم بهذه الجريمة من المنزل حيـث يقيم ، فسـحبوه وأرسلوه مكبلا بالقيود الى صور حيث زج به فى الحبس ·

لقد كادت الجريمة التى اقترفت ضد رسول الحشاشين أن تؤدى بالمملكة كلها الى خراب حقيقى وصدع لايمكن رأبه ·

على أن الملك أصبح قادرا على الاحتفاظ بشرفه سليما بعد اعلان براءة ساحته عند شيخ الجبل الذى هلك مبعوثه على هذه الصورة الكريهة ، كما اتسم تعامله مع الداوية بالاهمال الكبير مما أدى الى بقاء الموضوع معلقا حتى وافاه أجله • ومع ذلك فانه يقال أن عمورى كان معتزما أن يبحث الموضوع مع ملوك الأرض وأمرائها بعد أن يبل من وعكته الأخيرة وذلك عن طريق ارسـالـه مبعوثين من جهته ذوى المراتب الرفيعة حتى يلقى الأمر الاهتمام الجدير به •

كذلك وقع فى الربيع التالى موت المستشار الملكى الأخ الموقر الطيب الذكر « رالف » أسقف بيت لحم ، وكان رجلا سمح الطباع ألمعيا ، ولما ووری التراب فى احتفال مهيب فى ساحة كنيسته برزت مشكلة اختيار خلف له ،وبينما كانت هذه المشكلة قيد البحث فى نفس الكنيسة شبت مفارقات جمة بسبب تصـــارع آراء الناخبين واختلاف بعضها عن بعض ، وهى اختلافات كان من الصعب حسمها ولم يمكن البت فيها باتا حاسما حتى الســـنة التالية من حـكم (بلدوين الرابع) ابن الملك عمورى وخليفته من بعده •

ولقد كلف هذا الاختلاف فى الآراء كنيسة بيت لحم أموالا طائلة •

ـ ٣١ ـ

وفى شهر مايو (أعنى بعد قرابة شهر واحد من ذلك الوقت) مات نورالدين المضطهد الكبير للاسم المسيحى وللملة المسيحية ، وقد وافاه الموت بعد حكم امتد ثلاثا وعشرين سنة ، وكان أميرا عادلا شجاعا فطنا، وهو من الاتقياء الورعين حســـب مفهوم بنى

جنسه . ولما علم الملك بوفاته استدعى جميع قوات المملكة وحاصر مدينة بانياس ، فماكان من أرملة نور الدين - وكانت أمرأه بزت معظم النساء فى عزيمتها الا أن أرسلت فى هذه اللحظة الى الملك عمورى كتابا تطالبه فيه برفع الحصار عن أهل بانياس ومنحهم هدنة مؤقتة على أن تدفع له ازاء ذلك قدرا كبيرا من المال ، غير أن الملك تظاهر فى بادىء الأمر بأنه رافض عرضها وأظهر عزمه على مواصلة حصار بانياس ، ولم يكن ذلك الا رغبة منه فى ابتزاز أكبر قدر من المال منها ، ولذلك ظل بعدئذ يتابع القتال قرابة خمسة عشر يوما ويحارب فى عنف وضراوة كبد فيها العدو خسائر فادحة بفضل ما تحت يده من آلات الحصار وغيرها ، لكنه أدرك أخيرا أن قدرة الأتراك على المقاومة كانت فى تزايد مستمر مما أيقن معه الا أمل له فى النصر .

على أن مبعوثى هذه السيدة المبجلة(٤٧) ظلوا فى هذا الوقت ذاته يتابعون الملك ويلاحقونه ملحين عليه بطلب السلام ،فاستجاب الملك لهم بعد لأى وقبل المال المعروض عليه ، كما أطلق الأعداء (المسلمون) من جانبهم عشرين من الفرسان الأسرى الصليبيين، وحينذاك رفع الحصار عن بانياس وان كان العزم مجمعا على القيام بمشروعات أكبر فيما بعد .

وبينما كان الملك عمورى فى طريق عودته الى دياره شكى لمن حوله مايحسه من المرض يدب فى أوصاله ، وأحس أنه أبعد مايكون عن العافية فسرح عسكره وواصل هو سيره مع خاصة أتباعه الى طبرية ، وقدشعر بالدوسنطاريا تفتك به فتكا ذريعا ، ولما كان يخشى تزايد العلة عليه فقد تابع طريقه من هنا على ظهر جواده اذ لا زال به من البأس ما يكفى لبذل بعض الجهد ، ومر فى طريقه بالناصرة ونابلس الى بيت المقدس حيث تزايدت عليه علته ، وتدهورت صحته ، ثم

اعترته حمى شديدة على الرغم من أن الدوسنطاريا استجابت لمهارة الطبيب فزايلته ،ولما رأى نفسه يشكو بضعة أيام من الحمى التى لا تحتمل فقد أمر باستدعاء المطببين من الاغريق والسريان وغيرهم من الجنسيات الأخرى المعروفين بحذقهم فى العلاج ، وأصر على أن يسقوه دواء ملينا ،فلما رفضوا طلبه هذا أمر أن يجيئوا له بالمعالجين من اللاتين ، وسألهم ما سأل الذين جاءوا قبلهم ، وأضاف الى ذلك أنه مهما كانت النتيجة فانه متحمل عاقبة ما يحدث ، فجهزوا له من الدواء ما يحقق سؤله فى يسر ، وسقوه بعض المسكنات ٠ لكن حدث قبل ان يستطيع أن يأكل ما يبعث القوة فى جسده الذى وهن من جراء العلاج العنيف أن عاودته الحمى التى اعتادت أن تنتابه واستسلم لقدره ولفظ أنفاسه الأخيرة يوم ١١ يوليو سنة ١١٧٤ م بعد حكم دام اثنى عشر عاما وخمسة أشهر(٤٨) ٠

وكان عمره يوم مات ثمانية وثلاثين عاما ٠وقد دفن الى جوار أخيه والى جانب أسلافه ٠ ويقع قبره أمام الجلجثة ٠

وكان عمورى رجلا حكيما حصيفا ، أهلا لادارة دفة أمور الحكومة فى المملكة ، ويرجع الفضل الى الحاجه علينا فى أن كتبنا هذا التاريخ عن أعماله هو ذاته وأعمال أسلافه ٠

هنا ينتهى الكتاب العشرون

حواشى الكتـاب العشرين

(١) Chalandon : Comnénes, II, P. 536.

(٢) كان « أندرونيكوس » هذا حاكما من قبل لمنطقة كيليكية ، ثم بلغ الامبراطور مانويل عنه من الأمور السيئة ما حمله على صرفه عن حكومة هذا الاقليم ، وكان من بين ما رمى به عند مانويل ــ وهو حق ــ صلته بالأميرة « فيليبا » اتصالا مستهجنا ، ثم جاء الى القدس فأعجب به عمورى فاقطعه مدينة بيروت لكنه لم يحفظ للملك يده ، فاتصل بالأميرة اتصالا أغضب الجميع وذهبت اليه فى بيروت وعاشرها بما لا يليق فكتب مانويل سرا الى عمورى فى شأنهما فوقف العاشقان على الكتاب وكانت أمور انتهت بما أساء اليه ففر الى بعض البلاد الاسلامية ، راجع تفصيل هذه الأحداث فى
Ch. Diehl : Figures Byzantines (2ème) Serie, PP. 86 — 134

(٣) راجع الحاشية السابقة ، وسيرد فى ثنايا هذه الترجمة كثير من الأمور المتعلقة به .

(٤) انظر الجزء الثانى من هذه الترجمة العربية ، ص ٢٨٢ وما بعدها .

(٥) كانت وفاته سنة ١١٦٨ فى عكا .

(٦) كان هذان المبعوثان من أهل « تورانتو » فى جنوب ايطاليا ، وقد يبدو عجيبا أن يستعين الامبراطور « البيزنطى » بغير أبناء بلده وبالايطاليين

فى مثل هذه الأمور الهامة الخطيرة ، لكن ميله الى اللاتين يبرر هذه الخطة منه ، وكان ايثاره الغربين من أكبر العوامل التى أثارت سخط البيزنطيين على حكومتهم ، ومما زاد الطين بلة زواجه من أخت « بوهيموند » مما أدى الى قيام « أندرونيكوس كومنين » فيما بعد بالثورة على الحاكم الشرعى الصغير « الكسيوس بن مانويل » وأمه الوصية مما ترتب عليه قيام فتنة داخلية صحبتها مذبحة مروعة راح اللاتين ضحيتها ، كما استغل الفرصة النرمونديون فتحركوا فى جنوب ايطاليا ٠

(٧) يتضح لنا من مطالعة ما كتبه شالاندون أنه بعد مراجعته النص اللاتينى الذى كتبه وليم أصبح يعتقد أن مانويل كان يسعى « لأخذ بعض مملكة القدس » ، لكنا نميل للقول بان المؤلف كان يقصد بكلمة المملكة « هنا مصر وليس بيت المقدس راجع Chalandon : Comnenes, II, P. 536.

(٨) المقصود بالمملكة « هنا بيت المقدس ٠

(٩) أى بين عمورى ملك بيتالمقدس ومانويل امبراطور بيزنطة ٠

(١٠) أى أنهم « عبيد » ٠

(١١) سماه وليم فى الأصل وكذلك الترجمة الانجليزية باسم Mahazl بن شاور وراجع ، ص ٨٨ ، حاشية رقم ٥٠ ٠

(١٢) يقصد بالمملكة هنا « مصر ٠

(١٣) أى الاستيلاء على القاهرة ٠

(١٤) المقصود بالمملكة هنا بيت المقدس ٠

(١٥) سبقت الاشارة الى ذلك ٠

(١٦) سرياقوس ـ بكسر السين من المدن المصرية القديمة ، ويرجح محمد رمزى ، شرحه ، ق ٢ ، ج ١ ، ص ٣٥ أنها كانت فى أول نشأتها عزبة أنشأها « سرياقوس » والى « أتريب » فسميت باسمه ٠

(١٧) قال بهاء الدين فى المحاسن اليوسفية أن الذى قام بهذا العمل هو صلاح الدين نفسه وقد أخذ بهذا الرأى المؤرخ الانجليزى ستانلى لين بول ٠
S. Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages
حيث يقول ان صلاح الدين وجرديك صمما على التخلص من شاور ، وذلك فى اللحظة اعتاد المضى فيها للسلام على « شيركوه » فلما حانت هذه اللحظة وثب عليه صلاح الدين ورجال كانوا معه وأنزلوه من فرق دابته وقيدوه وقتلوه ، وان الخليفة سر مما جرى ، وطلب أن يأتوه برأس « شاور » ٠ راجع فى ذلك كتاب الدولة الفاطمية فى مصر للدكتور أيمن فؤاد سيد ٠

(طبعة سنة ١٩٩٢) حيث يعرض لهذا الموضوع بناء على ما ورد فى التاريخ الباهر لابن الأثير ، ص ١٤٠ ، والكامل فى التاريخ ١١/٣٣٩ ـ ٣٤٠ والروضـــتين لأبى شامة ١/٣٩٦ ، ٤٣٠ ، وابن واصـــل : مفرج الكروب ١/١٦١ ـ ١٦٢ ٠

(١٨) أى مملكة بيت المقدس ٠

(١٩) مراثى ارميا ٤/١ ٠

(٢٠) أيوب ٣٠/٣١ ٠

(٢١) يستفاد مما ورد فى الأصل لوليم الصورى أنه يرى أن « شيركوه» قد « انتحر » ـ ولكن الواقع أنه مات فجأة يوم السبت ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ (مارس سنة ١١٦٩م) لأنه كان يكثر من الأكل الدسم ، راجع الروضتين لأبى شامة ١/٤٠٥ ، ٤٣٨ ، وابن الأثير : التاريخ الباهر ١٤١ ، والكامل ١١/٣٤١ ـ ٣٤٢ ، والمقريزى : اتعاظ الحنفا ٣/٣٠٤ ـ ٣٠٥ ٠

(٢٢) قد يفهم من النص أن الخليفة العاضد كان يعتزم قتل صلاح الدين، ومن ثم بادر الأخير فسبقه فقتله قبل أن يغدر هو به ، ولكن الصـــواب غير ذلك فقد ظل صلاح الدين وزيرا للعاضد من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ حتى مطلع ٥٦٧ ، عند ما قطع الصلاح الخطبة للفاطميين فى الســـابع من المحرم من هذه السنة ، ولم تمض على ذلك أيام قلائل الا ومات الخليفـــة العاضد كمدا ليلة عاشوراء من السنة ذاتها فأقام الصلاح الخطبة للخليفة العباسى المستضىء ٠ راجع ذلك بالتفصـــيل فى كتاب د٠ أيمن فؤاد سيد الدولة الفاطمية فى مصر » ص ٢٣٤ ـ ٢٤١ ، اعتمادا على المصادر التالية : التاريخ الباهر لابن الأثير ١٥٦ ، والكامل فى التاريخ ١١/٣٦٨ ، والروضتين لأبى شامة ١/٤٩٢ ـ ٤٩٣ ، ومفرج الكروب لابن واصل ١/٢٠٠ ـ ٢٠٢ ، واتعاظ الحنفا للمقريزى ٣/٣٢٥ ـ ٣٣٨ ٠

(٢٣) ليس بين أيدينا من المراجع ما يشير الى اثقال كاهل صلاح الدين بالديون الا أن يكون ذلك اشارة الى كثرة بذله الأموال على من معه من الجند مما تتطلبه الحرب ٠

(٢٤) هذه اشارة صريحة الى مكانة مؤلفنا وليم الصـــورى عند أكبر عاهل مسيحى فى ذلك الوقت وهو مانويل امبراطور الامبراطورية البيزنطية ٠

(٢٥) سبق التعريف بالـــدرامين ، وانظـــر درويش النخيلى الســـفن الاسلامية ، ٤٦ ـ ٤٨ ٠

(٢٦) فى الأصل « ١٦ أغسطس » ، والصحيح ما أوردناه فى المتن أعلاه، ويلاحظ أن الترجمة الانجليزية نصت على خطأ وليم وان أشارت اليه فى الحاشيه فقط ·

(٢٧) راجع محمد رمزى : القاموس الجغرافى تحت كلمة « الفرما » ·

(٢٨) المقصود بالناس هنا : الصليبيون والمسيحيون الذين يقومون بالحصار ·

(٢٩) علقت الترجمة الانجليزية « ج ٢ ، ص ٣٦٩ ، بالحاشية الى عدم تقديم وليم الصورى أى بيانات عن مصاعبه مع رئيس أساقفته ، وان رجحت أنه ربما كان بعض هذه المصاعب راجعا الى أن الملك عمورى طالب رئيس الأساقفة بزيادة راتب وليم كرئيس شمامسة حتى تعينه هذه الزيادة على القيام بالمهمة التى وكلها الملك اليه ، وهى الاسهام فى التأليف التاريخى وكتابة تاريخ لعمورى وعهده ·

(٣٠) عرف المقدسى « الداروم » التى تعرف عند الصليبيين باسم «Daroma» داروما بأنه لفظ يطلق على الاقليم الواقع حول « بيت جبرين » أو « جبريل » المعروف فى الحوليات الصليبية هو الآخر باسم **Eleutheropolis** على أن الداروم عند كل من ياقوت وابن عبد الحق قلعة يصادفها المسافر بعد مغادرته غزة فى طريقه الى مصر ، وهى تبعد مسافة فرسخ عن البحر كما يشير الكاتبان ذاتهما الى أن صلاح الدين خربها حين استيلائه على الناحية سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) ، ويفسر كل من وليم الصورى وجاك فيترى اسم الداروم بانه Domus Graecorum المشتق من « دار الروم » ، ولكن Le-Strange : Palestine Under The Moslems, P. 437. يذهب الى تخطئة هذين المؤرخين فيما يقولانه ، اذ يشير الى أن كلمة « الداروم » يقصد بها فى العبرية « الاقليم الجنوبى » ·

(٣١) أيدوميا أو ادوم Edom وقد يقال لها أيضا Idumaean هى موضع يشرف على طريق القوافل التجارية فى العصور الوسطى الواصلة بين مصر وبلاد العرب والشام ، وقد ذكر Le Strange : op. ct. P. 384 أنها هى المعروفة « بالشراة » وذلك فى عرض كلامه عن أذرع ، وكان لى ستراتج ينقل هذا عن اليعقوبى ·

(٣٢) راجع الجزء الثالث من هذه الترجمة العربية ، ك ١٧ ، ف ١٢ ص ٣٢٩ _ ٣٣٠ ·

(٣٣) هو توماس بيكيت Thomas Beckiet رئيس أساقفة كانتربرى الذى قتل يوم ٢٩ ديسمبر ١١٧٠ م وقد أعلنه البابا اسكندر الثالث شهيدا فى عيد فصح ١٠٧٢ م ٠

(٣٤) هذه زلة قلم من المؤلف اذا الصحيح أن يقال « السنة التاسعة » ٠

(٣٥) المقصود بالأمير الجليل هنا « الأمير حنا البروتوسيباستوس ابن أخى مانويل ٠

(٣٦) قارن ما ذكره وليم فى هذه الأسطر حول هذا الموضوع بما جاء فى
Chalandon : Comnénes II, PP. 547 — 149.

(٣٧) تطلق كلمة « بلاشيرناى » Blachernac على بناءين أحدهما هو القصر الامبراطورى بالقسطنطينية الواقع على القرن الذهبى ، وثانيهما على الكنيسة الملحقة به ، وكان من يستحوذ على القصر تكون له السيادة فى العاصمة ، لذلك نرى جستنيان يسعى اليه ابان نضاله من أجل الحكم ، كما أنه كان القصر الذى تقام فيه الاحتفالات الكبرى وما أكثرها كما نستدل على ذلك مما كتبه
Ch. Diehl : La Société Byzantine à l'epoque de Comnénes, PP. 13 — 25.

وقد انطفأ بريقه بقيام المملكة اللاتينية الصليبية وما تلى ذلك من أحداث دامية وقد لعب هذا القصر دورا كبيرا فى تاريخ بيزنطة حتى زمن متأخر من العصور الوسطى ٠ أما الكنيسة المعروفة بهذا الاسم أيضا فملحقة بالقصر وهى كبيرة الاتساع عظيمة القدر يدل على ذلك انه عقد بها مجمع أغسطس ٧٥٤م بشأن الخلاف حول عبادة الايقونات كما شهدت بعد ذلك بستة قرون تقريبا (أعنى سنة ١٣٥٤ م) الاحتفال بتسلم « ماتيو كانتا كوزينوس » التاج الامبراطورى ٠

(٣٨) الوارد فى الاخبار اليونانية القديمة انه كان هناك شابان أحدهما لياندور Leander من أبيدوس الذى عزم على زيارة صديقه هيرو Hero من اهل سينوس فركب البحر وهو مضيق البسفور الفاصل بينهما ، واشتد الموج شدة عنيفة فلم يعبأ لياندور وأبى الا اتمام رحلته وأخذ يصـــارع المياه الصاخبة حتى صرعه الموج فمات شهيد صداقته ٠

(٣٩) هذه هى السفرة التى قام بها فردريك رئيس أساقفة صور الى ملوك الغرب وأمرائه وكبار حكامه للاستنجاد بهم ضد المسلمين فلم تنفع ،

(٤٠) هو حفيد سميه ستيفن كونت دى بلوا الذى التقينا به فى كثير من المواقع فى هذه الترجمة فى الحرب الصليبية الأولى ، راجع فهرس الاعلام فى نهاية هذا الجزء ٠

(٤١) فى الأصل «الثامنة » وهو خطأ يصححه تسلسل أحداث عهد هذا الملك ، فقد جرى هذا الحادث فى سنة ١١٧٢ م ، وقد انتبهت الى هذا الخطأ النسخة الانجليزية فأشارت اليه فى الحاشية وان لم تصححه فى المتن ٠

(٤٢) المقصود بالناحية هنا منطقة البتراء والكرك ٠

(٤٣) Stevenson : Crusaders in the East, P. 35 et seq.

(٤٤) جاء وصفه فى صمويل أول ٢/٢٥ بأنه « كان قاسيا ورديء الافعال » ، وأما امرأته ــ واسمها أبيجابل « فكانت جيدة الفهم وجميلة الصورة » ٠ وانظر الملحق الذى وضعناه فى آخر هذا الجزء ٠

(٤٥) كان أسره فى حارم سنة ١١٦٤ م ، ثم أطلق سراحه فى الثامن عشر من اكتوبر سنة ١١٧٢ م وليس فى سبتمبر سنة ١١٧٣ م كما يستفاد من المتن أعلاه ، وهذا خطأ لم تتبينه الترجمة الانجليزية فأهملت الاشارة اليه ، أما عن حارم فراجع هذا الجزء ص ٨٣ ، حاشية رقم ١٦ ٠

(٤٦) الاشارة هنا الى ما جاء فى اشعيا ٢٢/٢ « كفو الانسان الذى فى أنفه نسمة » ٠

(٤٧) المقصود بها عند المؤلف أرملة نور الدين ٠

(٤٨) فيما يتعلق بهذه الأحداث والتعليق عليها راجع
Stevenson : Op Cit., P. 213 et seq.

فصول الكتاب الحادى والعشرين

ارغــام بلدوين الأجــذم على تولى حــكم القــدس

١ ـ أوليات حكم بلدوين الرابع سادس ملوك القدس وصـــفة حياته والاشارة الى عمره ومظهره ٠

٢ ـ تاريخ تدشينه وتتويجه ٠

٣ ـ النكبة الفادحة التى منى بها أمام الاسكندرية الأسطول الذى أرسله ملك صقلية فى السنة الأولى من حكم بلدوين الرابع ٠ كونت طرابلس يطالب بالوصاية على المملكة وعلى الملك باعتباره أقرب الناس اليه ٠

٤ ـ مقتل « ميلون دى بلانسى » فى عكا ووفاة فردريك رئيس أساقفة صور ٠

٥ ـ وصف كونت طرابلس وذكر أســلافه الذين انحدر منهم

بكيفية أخذه الوصـــاية على العرش · تعيين مؤلف هذا الكتاب مستشارا ملكيا ·

٦ ـ صلاح الدين يتولى شئون مدينة دمشق وبقية أقســامها استجابة لطلب أهلها · الكونت طرابلس ينهض لصده حتى يفسد عليه مخططاته ·

٧ ـ لماذا أصبح العدو أكثر جرأة على الصليبيين ·

٨ ـ صاحب الموصل يســرع لمساعدة ابن أخيه فيتغلب عليه صلاح الدين ويمتلك الاقليم كله · قيام كونت طرابلس بعقد اتفاقية معه وتسلمه الرهائن ·

٩ ـ موت « ميذارد » أسقف بيروت ورفع مؤلف هذا الكتــاب الى مرتبة مطران صور ·

١٠ ـ الملك (بلدوين الرابع) يغزو أرض الدماشقة ويخربها · موت «هيرنيسيوس » رئيس أساقفة قيصرية ·

١١ ـ الملك يعاود الهجوم على بلاد العدو ويعيث فسادا فى واد اسمه وادى البقاع ·

١٢ ـ هزيمة امبراطور القسطنطينية هزيمة نكراء فى قونية ·

١٣ ـ وليم الصغير مركيز مونتفرات يصل الى فلسطين ويقترن بأخت الملك ·

١٤ ـ وصول كونت فلاندرز الى المملكة وكان مجيؤه منتظرا منذ أمد بعيد ·

١٥ ـ أتباع الكونت يخدعونه ويغرونه على عدم الاذعــان لآراء أشراف المملكة ·

١٦ ـ قدوم سفراء امبراطور القسطنطينية ومطالبتهم الصليبيين بتنفيذ الاتفاقية التى كان الملك (عمورى) قد عقدها مع مولاهم ، ويلحون على تنفيذها فى الحال واعداد حملة على مصر .

١٧ ـ معارضة الكونت (فلاندرز) لهذا المشـروع العظيم مما أدى الى عدم تنفيذ الاتفاقية .

١٨ ـ رجـــوع مبعوثى الامبراطور الى ديارهم ومتـابعة كونت فلاندرز سيره الى أنطاكية . زواج « بليان » من أرملة الملك عمورى .

١٩ ـ أمير أنطاكية وكونت طرابلس يعاونان كونت فلاندرز فى حصار حصن حارم ، ولكن تفشل جهودهم .

٢٠ ـ صلاح الدين يصل من مصر على رأس قوات كثيفة ويهاجم المملكة ويضرب معسكره أمام عسقلان فيخرج بجميع قوات المملكة لصده وتنشب معركة هامة أمام المدينة .

٢١ ـ الترك يخـــربون كل النـــاحية ويحـــرقون المدن والنواحى القاصـــية .

٢٢ ـ الملك ينهض من عسقلان ليصد العدو . استعداد الجانبين للقتال وتأهبهما للمواجهة .

٢٣ ـ نشوب معركة تدور فيها الدائرة على صـــلاح الدين فيفر مدحورا مجللا بالعار .

٢٤ ـ الجو العاصف والبرودة غير المعتادة تنهكان طاقة الفاربين الذين فروا من المعركة وموت أعداد كبيرة منهم ، ووقوع غيرهم فى الأسر ثم عودة الملك الى بيت المقدس مظفرا .

٢٥ ـ القوات المحاصرة لقلعة حارم فى أنطاكية تتخلى عن مهمتها وتعود الى ديارها ٠

٢٦ ـ عقد مجمع كنسى عام فى رومة وقيام الملك ببناء حصن فيما وراء نهر الأردن فى ظروف غير ملائمة ٠ تسليمه هذا الحصن بعد الفراغ من بنائه الى الداوية ٠

٢٧ ـ قيام الملك بغزو أرض العدو ونكبته بخسارة فادحة ، وموت همفرى كونستابل الملك هناك ٠

٢٨ ـ صلاح الدين يقوم بمهاجمة بلدة صيدا وحينذاك يجمع الملك قوة المملكة الحربية ويخرج لصده ٠

٢٩ ـ وقوع معركة بين الجانبين وهزيمة الصليبيين وسقوط الكثيرين منهم فى الأسر ٠

٣٠ ـ صلاح الدين يحاصر الحصن الذى تم تشييده منذ قريب ويستولى عليه بالقوة ويخربه ، وحينذاك يصل الى سورية « هنرى كونت تروييه » وبطرس أخو ملك الفرنجة ٠

هنـــا يبدأ

الكتاب الحادى والعشرون

بلــدوين الرابــع الأجــذم
يتولى حــكم بيت المقــدس
رغم أنفـــه

ـ ١ ـ

كان بلدوين الرابع سادس(١) ملوك القدس اللاتين ، وهو ابن الملك عمورى الطيب الذكر الذى كنا نكتب عنه منذ قليل ، وأما أمه فهى الكونتسة « أجنس » ابنة جوسلين الصغير كونت الرها الذى كثيرا ما وردت الاشارة اليه فى الصفحات السالفة .

كان الملك عمورى حين استدعوه لاعتلاء عرش أسلافه بحق الوراثة قد قام بتطليق زوجته « أجنس » كما أشرنا من قبل انصياعا

للكنيسة وبضغط من « أمالريك » الطيب الذكر الذى كان اذ ذاك بطرك القدس والذى حذى حذو سلفه « فولشر » فى هذا الشأن ، وكانت الحجة ـ وهى حقيقة ثابتة ـ هى شـــدة قرابة الدم بين الاثنين(٢) • ولقد شرحت هذا الموضوع شرحا وافيا تحريت فيه الدقة حين فصلت(٣) عهد الملك عمورى •

وكان الملك (عمورى) شديد الحرص على تعليم ولده (بلدوين الرابع) ، وقد عهد الى (يوم كنت رئيسا لشمامسة صور) برعاية هذا الغلام الذى كان يقارب التاسعة من عمره يومذاك ، وكلفنى بالقيام بتعليمه الفنون والآداب ، وأن أكون مؤدبا له فقبلت هذه المهمة ، واستجبت لالحاح عمورى والى تعهده لى باضفاء عطفه على ، وقمت أنا من جانبى ببذل قصارى جهدى فى تكريس نفسى من أجل هذا التلميذ الملكى وهو تحت اشرافى ، وأوليته الرعـــاية التامة الجديرة بمن هو فى مثل مكانته الرفيعة ، ولم آل جهدا فى تثقيفه خلقيا وعلميا •

وحدث فى ذات يوم من الأيام وهو يلهو مع أترابه المماثلين له قدرا ومكانة ، وقد أخذ كل واحد منهم ـ كعادة من هم فى مثل عمره ـ يقرص الآخر ويخدشه بأظافره ، أن راحوا يصيحون من الألم الا هو رغم ان رفاقه لم يعفوه من القرص والخدش ، فقد تحمل ذلك فى صبر كأن لم يكن يشعر بشىء ما مطلقا ، وأخبرنى رفاقه أن هذا الأمر تكرر حدوثه منه مرارا عديدة ، فأرجعت ذلك الصبر منه الى قدرته الكبيرة على التحمل وليس الى انعدام الاحساس بما جرى له ، فلما ناديته وسألته عن جلية الخبر تكشف لى أن سند الظاهرة هى خـــدر تام يعتـــرى ذراعــه الأيمن ويده فلا يشعر معه مطلقا بالقرص أو الوخز والعض ، فساورنى القلق وتذكرت

حكمة الحكيم القائل « لاشك أن العضو الفاقد الاحساس يستنفد كثيرا من صحة البدن ،كما أن من لا يدرك أنه سقيم فهو فى خطر » ٠

وعلم والد الصبى بحالة ولده ، واستشير المطببون ، وتكرر استعمال الكمادات والتدليك بالزيت ، بل والأدوية السامة ولكنها لم تجد نفعا ولم تساعده ٠ ولقد عرفنا بمرور الوقت أن هذه كانت دلائل مرض من أخطر الأمراض ولا يرجى الشفاء منه ، وقد اتضح ذلك للعيان فيما بعد كل الوضوح ٠

ولا يستطيع الانسان أن يملك عينيه أن تسحا بالدمع وهو يتكلم عن فداحة هذا الخطب الكبير اذ ما كاد يقترب من سنوات نضجه حتى اتضح أنه يعانى من الجذام الخبيث وأخذت حالته تزداد سوءا وصحته تتدهور يوما بعد يوم ، وكانت أشد هجمات المرض تنتاب على وجه الخصوص أطرافه ووجهه حتى ان أتباعه الخلص كانوا يتألمون عطفا عليه حين ينظرونه ، لكنه رغم ما كان به كان يظهر تقدما فى الدراسة يبشر بمزيد من التفاؤل فى تعلمه ٠

كان بلدوين (الرابع) بهى الطلعة بالنسبة لعمره ، وقد بز أسلافه فى ركوب الخيل ومعاملتها ، الى جانب تمتعه بذاكرة واعية كل الوعى ، وميل للحديث ، ولم يكن ينسى أبدا الجميل الذى يسديه اليه أحد ما ولا الاساءة التى تلحقه من الغير ، هذا بالاضافة الى شـــدة الشبه بينه وبين أبيه لا فى طلعته فحسب بل أيضـــا فى سماته ،فكانت له نفس مشيته ، ونبرة صوته ، الى جانب ذكائه الحاد ، وان تلجلج لسانه فى بعض الأحيان ٠

كذلك شابه أباه فى شدة ميله لسماع التاريخ واتباعه المشورة الصادقة ٠

- ٢ -

كان بلدوين قد قارب الثلاثة عشرة عاما من عمره حين مات أبوه ، وكانت له أخت من أمه تكبره فى العمر اسمها «سيبيلا» نشأت فى دير « سنت لازار » فى بيثانى(٤) تحت رعاية السيدة « ايفيتا » خالة أبيها التى هى رئيسة راهبات هذا الدير .

ولما مات الملك عمورى اجتمع نبلاء المملكة من مدنين ودينيين فى مجلس اتفقت فيه آراؤهم اتفاقا كريما على تدشين ولده وتتويجه حسب العادة فى كنيسة القيامة فى اليوم الخامس عشر من يوليو ، أعنى بعد أربعة أيام من وفاة أبيه ، وقام باتمام مراسيم التتويج « أماليريك » بطرك القدس الطيب الذكر ، وعاونه فى اتمام هذه المراسيم رؤساء الأساقفة وغيرهم من اكبار رجال الكنيسة .

وكان على كرسى الكنيسة الرومانية المقدسة حينذاك البابا اسكندر الثالث ، كما كان « ايمرى » بطرك كنيسة أنطاكية الطاهرة وأماليريك بطرك القدس ، وفردريك رئيسا لأساقفة صور .

وكان بالقسطنطينية الامبراطور العظيم التقى مانويل ، وعلى الامبراطورية الرومانية فردريك ، وعلى الفرنجة الملك لويس . أما فى انجلترا فكان يحكمها « هنرى بن جوفرى » كونت أنجو ، كما كانت صقلية تحت حكم وليم الثانى بن وليم الكبير . أما أنطاكية فيحكمها بوهيموند بن الأمير بوهيموند بن روبرت جيسكارد ، وأما طرابلس فحكمها فى يد ريموند الصغير بن الكونت ريموند الكبير .

- ٣ -

ولما كانت السنة الأولى من حكم الملك (بلدون الرابع) وفى مستهل أغسطس قام وليم ملك صقلية بتجهيز أسطول مؤلف من

مائتى سفينة بعث به لغزو الاسكندرية . فأبحر الأسطول الى مصر بمن عليه من العسكر العظام من الفرسان والمشاة ، لكن حدث فى أثناء وجوده امام تلك المدينة لخمسة أو ستة أيام وبسبب الاهمال الذى بدى من جانب القادة الزعماء أن منى الخيالة والمشاة بخسائر فادحة قتلا وأسرا ، مما حملهم على الرجوع وقد ضربت الفوضى عليهم بأجرانها .

وكانت أمور مملكتنا فى هذه الأثناء فى يد « ميلون دى بلانسى » الذى شبت العداوة بينه وبين بعض بارونات المملكة الذين دبت الغيرة فى نفوسهم منه لما يتمتع به من السلطة واستئثاره بها من دونهم ، ولم يكونوا قادرين على التغاضى عن الحقيقة القائلة بأنه يتجاهلهم تجاهلا تاما ولا يستدعيهم أبدا للمشاورة بل ينفرد بالأمور وحده ، كما أنه كان يعامل بعضهم معاملة تنطوى على الاهانة والاستهانة بهم ، هذا الى جانب أنه حال بين البعض الآخر تماما وبين الاتصال الشخصى بالملك الى جانب تفرده بتدبير شئون المملكة فلا يسألهم الرأى ولا المشورة .

وحدث فى هذه الأثناء أن جاء كونت طرابلس الى الملك وطالبه (فى وجود البارونات الذين شاءت الصدفة أن يكونوا حاضرين) أن تكون له الوصاية على المملكة ، مؤكدا له أن وشيجة القربى المباشرة بينهما تجعله الوصى الشرعى على الملك الذى لا يزال صغيرا لم يبلغ سن الرشد ، وقال ان الوصاية عليه من حقه لأكثر من سبب لا لأنه فقط أقرب الناس الى بلدوين الرابع بل وأيضا لأنه كان أكثر وأقرب رعاياه المخلصين اليه ، وأضاف الى هذين السببين سببا ثالثا قويا مقنعا هو أنه لما أخذ أسيرا فانه أمر — وهو فى سجنه شعبه الوفى بما له من الطاعة فى أعناقهم — أن يسلموا كل أملاكه

وحصون وقلاعه الى الملك عمورى والد هذا الصـــبى (بلدوين الرابع) وأن يضعوا كل شيء رهن أمره وفى رعايته الملكية ،كما أنه كان قدأضاف توجيها ذاتا أنه اذا قضى القدر بأن يلقى منيته فى الأسر فانه يعتبر الملك المشار اليه (عمورى) وريثه الوحيد ولا وريث له سواه باعتباره أقرب الجميع اليه ٠

وطالب الكونـــت (الملك بلدوين والأمراء الحاضـــرين هذا الاجتماع) أنه بناء على أياديه الحسنة هذه فانه يسأل رد هذه الأفضال بحق الشرف أكثر من أى مطمع له فى نفع يجنيه فى قابل أيامه ٠

على أنه تأجل اجابة مطالب كونت طرابلس هذه بحجة أنه لم يكن حول الملك فى هذه اللحظة بالذات غير نفر ضئيل من بارونات المملكة ممن ينبغى التشاور معهم ، وأنه ستوجه اليهم الدعوة فى الوقت المناسب ليجتمعوا بأسرع ما يمكن للمشاورة واعطاء الجواب الملائم ــ بمعونة الرب ــ على كل هذه المسائل ٠

فلما علم الكونت بردهم هذا عاد الى امارته ٠

والواقع أن الجميع كانوا يزكون طلب الكونت ، وكان ممن وقفوا الى جانبه الكونستابل الملكى « همفرى » صاحب « تورون » وبلدوين وأخوه بليان وريني صاحب صيدا وجميع الأساقفة ٠

ــ ٤ ــ

كان « ميلون دى بلانسى » الذى تكلمنا عنه حالا من أكبر أشراف اقليم شمبانيا الواقع وراء الجبال ومن مملكة هنرى كونت « تروى » ، وكانت تربطه أحسن العلاقات بقريبه الملك عمورى الذى عينه « سنكالا » لمملكته . وحدث أنه لما مات همفرى الصغير ابــن

همفرى صاحب تورون فان عمورى زوج أرملته ستيفانى — وهى ابنة فيليب النابلسى — من « ميلون » الذى أصبح بفضل زوجته هذه هو المتصرف فى كل الأراضى الواقعة وراء الأردن وفيما يعرف بالشوبك(٥) • على أنه كان لستيفانى هذه من زوجها الراحل ولد وبنت صغيران . وكان « ميلون دى بلانسى » يعتمد اعتمادا كليا على الصداقة الوثيقة التى تربطه بوالد الملك الحالى ، ومن ثم لم يكف عن اظهار ازدرائه لبارونات المملكة حتى من يشأونه قدرا ، ولا يقيم لهم وزنا ،هذا الى جانب أنه كان رجلا متغطرسا ، يزدهيه الكبر ،فاذا تكلم تكلم بعبارات طنانة تفصح عن عنجهية فيه •

وقد أراد التغلب على غيرة الآخرين منه فعمد الى نكرة من غمار الناس ساقط الحياء اسمه « روهارد » حارس قلعة القدس ، وتظاهر بأنه يمتثل لتوجيهات هذا الرجل التافه وأنه تابع لما يشير به عليه ، منفذ لأوامره •

لكن الواقع كان عكس ذلك ،فكان لروهارد اللقب الرفيع لا الجوهر ، بينما مضى « ميلون دى بلانسى » تحت هذا القنـــاع يصرف شئون المملكة حسب هواه الشخصى مع تظاهره بأنه ترك فى يد « روهارد » كل شىء • وما كان كلامه هذا الا هراء لأنـــه جمع كل مقاليد أمور المملكة فى يده رغم ارادة الآخرين ، كما أنه ظل يوزع الانعامات حسب هواه مما أثار مزيدا من أسباب التمرد له والكراهية نحوه • ثم وصـــلت الأمور فى النهاية الى ذروتها المشئومة حين تآمرت طائفة من الناس سرا على قتله ، فلما علم بخبر هذا التآمر استخف بما علم واستمر فى غلوائه دون أن يتخذ من الحذر ما ينبغى عليه اتخاذه حتى جاء يوم كان فيه موجودا بعكا فاذا بواحد فى الطريق العام يطعنه فى غبش الظلام طعنة لفظ معها أنفاسه لكن بعد أن لقى من المعاملة أسوأها وأحقرها •

واختلفت آراء الناس فى مصرعه فقال بعضهم أنه اغتيل لشدة ولائه الملك ، وذهب غيرهم مذهبا يخالف هذا الرأى كل المخالفة فقالوا انه كان يرتب فى السر خطوات الاستيلاء على زمام السلطة الملوكية ، وقالوا أنه كان قد بعث بالرسل الى أصدقائه ومعارفه فى فرنسا يحثهم على المبادرة للحضور اليه حتى يكون قادرا بفضل مساعدتهم له على الاستيلاء على المملكة .

* * *

لكننى لم أستطع أن أعرف على وجه اليقين أى هذه الآراء كان هو الأصدق ، وان كان المعروف جيدا أنه أرسل «باليان» صاحب يافا (شقيق ذلك المدعو روهارد المشار اليه آنفا) الى البلاد الواقعة وراء البحر برسائل وهدايا ملوكية وأن القوم (فى المملكة) كانوا يترقبون كل يوم عودة باليان هذا .

وفى غضون هذا الوقت بالذات وفى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر ذاته (١١٧٤ م) مات سلفنا الطيب الذكر ، العالى القدر ، الكريم الأصل « فردريك » رئيس أساقفة صور ، وقد وافته منيته وهو فى نابلس حيث أمسكه بها المرض العضال حينا من الوقت فعاقه عن الحضور فحمل جسده بما يليق به من التوقير والاجلال الى القدس ودفن فى هيكل السيد الذى كان هو من قبل سادنا لكنيسته .

— ٥ —

كذلك حدث فى هذا الوقت أيضا أن اجتمع بالقدس بارونات المملكة وكبار رجال الكنيسة عند الملك (بلدوين الرابع) حين رجع (ريموند) كونت طرابلس ليقف على الجواب الذى وعده به ردا على التماسه الذى سبق له أن قدمه بشأن الوصاية(٦) ، وكرر نفس عروضه ملحا على وجوب الاستجابة الى ما طلبه ، وبعد نقاش

استمر يومين متتالين وافق الملك والجميع على سؤاله وجاءوا بالكونت (ريموند) الى كنيسة القبر المقدس وسط هتافات الجماهير المدوية وعهدوا اليه بكل شئون الحكومة وصلاحياتها وما يتعلق بالمملكة ، على أن يكون تاليا للملك ٠

ولما كان اسم الكونت (ريموند) سوف يتردد من الآن فصاعدا فى ثنايا الأحداث التى نعرض لها فى كتابنا هذا فاننا نرى انه من المناسب أن نسجل ـ لصالح الأجيال التالية ـ الأخبار الصادقة التى وصلت الينا ٠ ولسنا(٧) نهدف من وراء ذلك امتداحه ، ولكنا نوجز ماتسمح به الضرورة فنذكر من يكون هذا الكونت ومن تكون أسرته ٠

كان كونت ريموند ـ موضوع كلامنا هنا ابنا لريموند الكبير الذى شغل مركزا قياديا هاما فى جيش السيد المسيح ، كما يرجع الفضل الى ما بذله من جهد ومشقة فى عودة مملكة الشرق لخدمة المسيح ، وقد اسهبنا فى ذكر هذه الحقائق وفصلناها بدقة حينما تناولنا أخبار أولئك القادة الكبار الذين جاءوا مع الحملة الأولى ، وكان لهذا الكونت الكبير ريموند الطيب الذكر ولد اسمه « برترام » وهو الذى آل اليه حكم كونتية طرابلس بعد موت أبيه واغتيال ابن أخيه وليم جوردان ، ثم كان لبرترام هذا ولد اسمه « بونس » خلف أباه فى حكم الامارة شرعا ، وتزوج من « سيسيليا » أرملة تانكريد وابنة فيليب ملك فرنسا فانجبت له ابنهما ريموند الذى خلفه فى حكومة طرابلس ، وتزوج الابن ريموند من « هيديرنا » Hoderna ابنة بلدوين ثانى ملوك بيت المقدس وهى التى صارت أم ريموند الذى نتكلم عنه الآن ، والذى خلف أباه كونتا لطرابلس بعد اغتيال ريموند الكبير عند باب مدينة طرابلس اذ باغته نفر من الحشاشين وقتلوه غدرا(٨) ٠

ومن ثم كان هذا الكونت من ناحية أمه ابن خالة الملكين عموري وبلدوين (الرابع) الذين كانوا أولاد أختين شقيقتين .

أما من جهة الأب فكانت صلة القرابة أقل من هذا ، لأن جدته من ناحية أبيه وهى « سيسيليا » التى أشرنا اليها حالا كانت أخت الملك فولك والد الملكين بلدوين وعمورى اللذين كانا من أم واحدة ولكن لأن أمهما التى كانت أخت الملك تزوجت أول ما تزوجت من فولك الكبير كونت أنجو ، ثم هجرت زوجها بعد أن أنجبت منه فولك الصغير وفرت الى فيليب ملك الفرنجة ، فولدت فيمن ولدت « سيسيليا » هذه وعدة ذكور ، وكان فيليب الذى سحرته الكونتيسة (برترادا) بجمالها قد انفصل عن الملكة زوجته الشرعية التى كانت قد أنجبت له طفلين هما لويس وكونستانس ، وكان هذا الانفصال مخالفا لقانون الكنيسة ومن ثم كان الكونت والملكان اللذان ذكرناهما تربطهما ببعضهما وشيجة قربى متينة من كلا الجانبين .

كان الكونت (ريموند) رجلا نحيل البنية ، شديد النحافة ، ربعة القوام ، متوسط الطول غير مفرطه ولا حادره ، أسمر البشرة . وأما شعره فطويل مرسل أميل للسواد ، وله عينان نفاذتان ، وكفان عريضتان ، الى جانب ما كان يتمتع به من سرعة الحركة وعذوبة ، ورباطة الجأش وبعد النظر ، واقتصاد فى مأكله ومشربه أكثر من اى رجل عادى ، مع سخاء يده على الأغراب وقبضها بعض الشىء عن قومه ، وهذا بالاضافة الى حظه الوافر من التعليم الذى ناله أثناء وجوده أسيرا فى يد العدو بعد أن بذل فى ذلك جهدا كبيرا . وساعده على ذلك ما كان عليه من حضور البديهة والذكاء . وكان يشبه الملك عمورى فى سعيه الشديد للمعرفة يطلبها فى بطون الكتب

والمؤلفات • ولم يكن يكف عن القاء الأسئلة اذا ماحضر مجلسه أى شخص يتوسم فيه القدرة على الاجابة •

ولقد تزوج فى نفس السنة التى ساهم فيها فى حكومة المملكة من « اسكيفا » • Esckiva وهى امرأة ثرية كل الثراء وكانت أرملة « وولتر » أمير الجليل (طبرية) الذى أنجبت منه عدة أولاد ولكنها لسبب لا ندريه لم تنجب قط للكونت بعد زواجها منه وان قيل أنه كان يحب أولادنا كما لو كانوا أولاده هو ذاته •

والآن ـ وبعد هذا الخروج القليل عن موضوعنا ـ هيا بنا نعود الى ما كنا فيه فنقول انه فى أثناء الصيف المنصرم(٩) ودع هذه الدنيا الطيب الذكر « رالف » أسقف بيت لحم وصاحب ديوان مراسم المملكة ، ولما كان الملك حريصا على ضرورة وجود أحد يعهد اليه بالمراسلات الملكية فقد استجاب لنصيحة باروناته فعينني فى هذه السنة فى هذه الوظيفة وبوأنى مكانة المستشار •

ـ ٦ ـ

حدث فى أثناء هذه السنة ذاتها أن قام كبار رجالات دمشق واستدعوا سرا صلاح الدين بن نجم الدين (أيوب) الذى خلف عمه شيركوه فى مملكة مصر ، وكان حاكمهم الشرعى حينذاك هو الملك الصالح (اسماعيل) بن نور الدين الذى لم يكن قد بلغ سن الرشد وكان قد اتخذ من حلب مقرا له ، لذلك عهد صلاح الدين بأمر مصر الى أخ له اسمه « سيف الدين » وأسرع فاجتاز صحارى سورية الجرداء وبلغ دمشق ليأخذ الحكومة فى يده ،وبعد انقضاء أيام قلائل من تسليم الأهالى مدينة دمشق له تقدم نحو منطقة البقاع طمعا منه فى ضم جميع بلاد هذه الناحية الى سـلطانه من غير

قتال ، ولم يذهب رجاؤد هذا بد ما ان ما لبث سكان تلك النواحى أن خضعوا له وفتحوا له أبوابهم عن طيب خاطر منهم .

ولقد شذ صلاح الدين عما يفرضه عليه واجب الولاء والوفاء نحو مولاه فاستولى على جميع مدن الأقاليم وهى هليوبوليس المسماة بهذا الاسم فى اليونانية والمعروفة الآن باسم « مالبك » Malbec وفى العربية ببعلبك . كما استولى على مدينة حمص المعروفة باسم « كاميلا »، وضم اليه شيزر المعروفة بقيصرية الكبرى ، وكان يعتقد أن أخذه هذه المدن سوف يضمن له دخول حلب ووقوع الأمير الشاب(١٠) فى قبضته عن طريق بعض الخونة ، ولكن حدث حادث حال دون تنفيذ ذلك الأمر .

على تلك الصورة كان الوضع وقتئذ فى هذا الصقع من ذلك الاقليم .

* * *

فى هذه الأثناء أخذ الملك يلتمس النصيحة المجدية عما ينبغى عليه عمله فى هذه الأزمة الطارئة والتغييرات الهامة التى جرت على الساحة ، وراح يشاور نبلاءه مشاورات طويلة حتى انتهى القرار بهم بموافقة اجماعية على أن يبادر الكونت بالزحف على « البقاع » على رأس عسكر من عسكر المملكة وكونتية طرابلس ، وأن يبذل كل ما فى طاقته للحيلولة دون تقدم صلاح الدين ، وكانت هذه خطة حكيمة بسبب القلق الذى يثيره فى نفوسنا أى زيادة فى قوة صلاح الدين وسلطته لما تحمله من الخطر الكبير على صالح المملكة ، ذلك لأنه كان رجلا حكيم الرأى ، بطلا فى الحرب ، وكريما فوق حد الكرم ، وزيادة على ذلك فانه لهذا السبب(١١) ذاته لم يكن موضع ثقة من رجالنا النبلاء الذين كانوا أبعد منه نظرا لأنه من الثابت أنه ليس هناك - حتى يومنا هذا - من وسيلة أجدى على الأمراء فى اكتساب قلوب رعاياهم أو غيرهم من بسط اليد كل

البسط ، وأنه ما من شيء أدعى لاستجلاب مودة الأغراب وميلهم الى الرجل من هذا السخاء لاسيما أن جادت به أيدى الأمراء،لذلك كان كبار زعمائنا على حق فى التخوف من أن تؤدى مضاعفة أملاك صلاح الدين واتساع رقعة مملكته الى زيادة قوته فيتحرك ضد المملكة بقوات أكبر تزيد من مضـــايقة مملكتنـــا عن ذى قبل ، لكـــن ذهبـت أدراج الرياح كل الجهود التى بذلناها لكبح جماحه ·

•

وها نحن اليوم نرى بعيون مغرورقة بالدموع أن مخاوفنا قد تأكدت ، فقد تحرك ضدنا تحركا عنيفا برا وبحرا ، ولابد من أن نفقد كل أمل فى الصمود ما لم تتداركنا رحمة السماء وتعطف علينا · وانه لمن العقل والحكمة أن نساعد الملك الصبى الذى لم يشب بعد عن الطوق ، لا أن نكتفى باظهار العطف عليه ، بل علينا أن نشجعه ليكون ندا قويا لعدونا اللدود صلاح الدين لتفشل خططه ويقل خطر هجماته على المملكة ·

ـ ٧ ـ

أما وقد وصلت الى هذه النقطة فالواجب يقتضى أن أبعد قليلا عن سياق قصتى دون أن يكون هذا البعد عشوائيا ولكن لأقدم شيئا ذا قيمة ، ذلك أنه كثيرا ما ثار هذا السؤال ـ ومن الحق أن يثار ـ وهو لماذا استطاع أجدادنا وهـــم أقل منا عددا أن تتعدد مرات صمودهم البطولى فى ساحة القتال فى مواجهة قوات العدو الذى هو أكثر منهم عددا ، وكيف أن العناية الالهية مكنت فئة قليلة أن تغلب فئات العدو الكثيرة وتحطمها حتى يصبح اسم « المسيحى » مثار رهبة ورعب فى نفوس أمم لا تعرف الرب · وترتب على ذلك اعلاء مجد السيد بفضل أعمال آبائنا · أما رجال اليوم فتلحق بهم الهزائم وتتغلب عليهم ـ وهم الكثيرون ـ قوات ان قيست بهم كانت

دونهم عددا ، والحق أنهم بأعدادهم الفائقة قاموا ببعض هجمات على خصوم لهم كانوا أقل منهم بأسا لكنها لم تثمر شيئا بل غالبا ما اضطروا للاستسلام والخضوع .

ان أول سبب يظهر لنا (ونحن ندرس بتأن وروية ظروف أيامنا هذه ونتطلع الى عون الله مدبر كل شيء) هو أن أسلافنا كانوا أهل دين ، وقوما قد فاضت قلوبهم بخشية الرب ، أما اليوم فقد حل محلهم جيل شرير وأبناء خطاة ومتظاهرون باعتناق العقيدة المسيحية لكنهم يحلون كل حرام دون مراعاة للحق ، وأنهم في ذلك لكالذين قالوا(١٢) للسيد ان لم يكونوا أرذل منهم « أبعد عنا ، وبمعرفة طرقك لا تسر » .

فلا عجب اذن ولا مشاحة في أن يمسك الرب رحمته عن هؤلاء اظهارا لغضبه عليهم بسبب آثامهم ، وما أشبه هؤلاء الرجال برجال جيلنا الحالي لاسيما المقيمون منهم في الشرق ، فان حاول المرء أن يرسم صورة قلمية أمينة لأخلاقهم أو بلفظ أدق يرسم صورة تبرز رذائلهم الذميمة فانه واجد مادة عالية كالتلال ، وموجز القول انه سيجد لديه أخيرا كتاب هجو أكثر من أن يكون ما يكتبه تاريخا .

وهناك سبب آخر يلوح أمامنا ألا وهو أن حماسة الايمان كانت تسير الرجال الموقرين الأوائل الذين جاءوا الى بلاد الشرق في الأزمنة السالفة ، وكانت تؤجج في نفوسهم الانفعال الروحي لخدمة الدين ، هذا بالاضافة الى تمرسهم بفنون القتال ، فقد خبروا الحرب وتعودوا استعمال السلاح ، على حين كان أهل الشرق على النقيض منهم بسبب تقلبهم أمدا طويلا في احضان السلام المستمر مما أدى الى فتور عزيمتهم عن القتال ونسيانهم الحرب ، ولم يعودوا يألفون القتال واستكانوا الى ما هم فيه من الاسترخاء ، فلا عجب اذن أن

تمكنت قلة من أهل القتال من أن تتغلب بسهولة على الكثيرين ، وحق لها أن تفخر بأنها كانت صاحبة اليد العليا فى النصر الذى أوتوه ٠

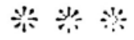
ولعل الذين هم أخبر منى بالقتال يدركون أحسن منى أنه اذا ما التحمت قوتان احداهما قادرة على استعمال السلاح بفضل ممارستها الطويلة له والأخرى غير مدربة عليه وتنقصها المثابرة كانت الغلبة للأولى على الثانية ٠

وهناك سبب ثالث لا يقل عن سابقيه أهمية وفعالية أراد يفرض نفسه على فرضا ، ذلك أنه فى الأزمنة الغابرة كان لكل مدينة حاكمها الخاص بها ، واذا أخذنا رأى أرسطوطاليس فان هذه المدن لم تكن تعتمد الواحدة منها على الأخرى ، كما لم يكن ثمت عوامل واحدة تحركها كلها ، بل كانت هناك فى الغالب أمور مخالفة تماما لكل واحدة تحركها ، فاذا نازعت خصوما يخالفونها تمام المخالفة وكانت لها مثلها العليا التى تتصارع مع مثلها هى ذاتها كان الخطر أقل ، وكان الذين يخشون حلفاءهم بما لا يقل عن خشيتهم المسيحيين يتحدون فيما بينهم لدفع الخطر المشترك أو يقومون بتسليح أنفسهم لتدميرنا ٠ أما الآن وقد شاء الله ما شاء فان جميع الممالك المجاورة لنا قد أصبحت تحت سيطرة رجل واحد ، فنرى منذ قريب أن (عماد الدين زنكى) ذلك الوحش الذى يبغض الاسم المسيحى بغضه للوباء والذى هو والد نور الدين المتوفى منذ قريب أقول اننا نرى أن زنكى هذا قام أولا بفتح كثير من الممالك الأخرى ، واستولى بالقوة على الرها التى كانت أزهى مدن الميديين الكبرى وأخذها بكل توابعها وقتل جميع من وجدهم فيها من مؤمنيها الصادقين ٠

ثم جاء ابنه نور الدين (محمود) فأخرج صاحب دمشق من أرضه بسبب خيانة أهلها أكثر من اخراجه بقوته ، وتلى ذلك

استحوانه على المملكة لنفسه وضمها الى أملاكه التى ورثها عن أبيه ، كما استطاع نور الدين أيضا وبفضل مســـاعدة ، بيركوه الكبيرة له أن يستولى على مملكة مصر القديمة الغنية وأن يجعلها ملكا خالصا له بنفس الطريقة التى فصلناها فى معرض حديثنا عن الملك عمورى .

وهكذا فان جميع الممالك التى حولنا صارت كما قلنا تدين بالطاعة لحاكم واحد بلا شريك له وتعمل وفق مشيئة رجل واحد فحسب وتأتمر بأمره هو دون سواه ، وتصبح مستعدة أن تحمل السلاح ضدنا ولو كانت كارهة لحمـــله ، ولم يكن ثم واحد من رجالنا يملك الحرية فى اظهار معارضته الشخصية أو تجاهل أوامر مولاه والا أضير ،وهاهو ذا صلاح الدين الذى تعددت الاشارة اليه كثيرا من قبل كان رجلا من عامةالناس وسوادهم ، ولكن ابتسم له الحظ فبوأه ذروة العلياء فاستطاع أن يأخذ من مصر ومما جاورها من الأمصار كميات كبيرة من أنقى الذهب الابريز(١٣) . كما أن هناك ولايات أخرى كانت تمده بأعداد لا يحصيها العد من الخيل والمحاربين الشرهين للذهب طالما أنه من أيسر الأمور لمن توفرت عنده هذه السلعة اجتذاب الرجال اليه .



لكن هيا نتابع موضوعنا .

ربما بدى من المقبـــول عند جميع الذين حضـــروا ذلك الاجتماع(١٤) أن يبذلوا كل محاولة ممكنة لمعارضـــة هذا الرجل الذى سبق أقرانه فى تقدمه الســـريع واســـتطاع أن يبلغ ذروة الانتصارات بلوغا يرضى طموحه ، وكان هناك شعور عام أنه كلما ازداد قوة وبأسا كلما دل ذلك على أنه أصبح عدوا خطيرا لنا ، ومن ثم قام الكونت(١٥) فحشد العسكر من كل ماحوله وخرج رثى

صحبته بارونات المملكة مغذين السير الى امارة طرابلس وهناك نزل فى ذلك القسم من الأقليم المعروف بأرض جالفا Galifa وضرب معسكره قرب مدينة عرقة ·

– ٨ –

بينما كانت هذه الأحداث تجرى عندنا اذا بعم(١٦) ابن نور الدين واسمه قطب الدين (وهو أمير شديد البأس ويعتبر واحدا من أقوى الشرقيين فى الجيش البارثى) قد جاءه الخبر بموت أخيه(١٧) وبكل الأحداث التى ترتبت على تلك الوفاة وحينئذ قام صـــلاح الدين غير عابىء بقوانين الانسانية فوقف فى وجه مولاه(١٨) الشـــرعى متناســـيا وضعه السيء وجاحدا أيادى أبيه البيضاء عليه وأفضال والد ذلك الملك الصبى ، لذلك جمع قطب الدين حوله قوة كبيرة من الفرسان الأقوياء ممن على شاكلته وعبر الفرات بهم زاحفا ضد الخونة ليكون عونا لابن أخيه ·

ولقد كان هذا الأمير العظيم حاكما على المدينة المعـــروفة بنينوى الموغلة فى القدم والتى يقال ان النبى يونس دعى عليها فأدرجت منذ زمن بعيد فى قماش من الخيش(١٩) والرماد · وقد شيدت على مسافة غير بعيدة عن نينوى القديمة مدينة جديدة عرفت بالموصل قامت على أنقاض نينوى القديمة ونزلها ذرارى سكان المدينة السابقة واحتفظت بالمنزلة الرفيعة الفريدة فى أن تكون عاصمة بلاد « أشور » ، فلما جاء الأمير (قطب الدين) ضرب معسكره فى السهل المحيط بحلب ·

لم يكن صلاح الدين فى هذه الأثناء ساكنا فقد فرض الحصار على بصرى التى هى أهم مدن بلاد العرب الأولى ، وكذلك ...

بعلبك ، وقد استسلم له سكان البلدين طواعية ولم يلق كيدا ، ثم مضى فحاصر بلدة حمص المعروفة باسم « كاميلا » .

لم يتأخر المواطنون عن تسليم الجزء الأسفل من المدينة ذلك لأن الذين ظلوا على ولائهم للملك الصغير كانوا قد ارتدوا الى القلعة الواقعة على تل مرتفع بعض الشيء والتى كانت قد حصنت من قبل تحصينا قويا وجهزت بالسلاح وزودت بالذخيرة أحسن تزويد .

كذلك تسلم صلاح الدين بعض المدن الأخرى الواقعة فى هذه الولاية وهى حماة وشيزر وسائر الناحية الممتدة من هنا حتى حلب ذاتها . وقام الأهالى بتسليمه هذه البلاد .

فى هذه الأثناء كان اللاجئون الى قلعة حمص قد أرسلوا الى كونت طرابلس والى قواتنا المعسكرة فى الموضع الذى ذكرناه من قبل مؤملين أن يؤدى الوضع المضطرب فى هذا الجانب أو ذاك للاستنجاد بهم وتقديم الشروط المرضية لهم، وكلفوا هؤلاء الرسل بأن يلتمسوا منهم المبادرة بالحضور من غير ابطاء ، وأن يقطعوا لهم العهد على أن كل مساعدة يقدمونها لمقارعة هذا الخصم المؤذى لا يمكن أن تقابل الا بما هى جديرة به من التقدير .

يضاف الى ذلك أنه كان محتجزا فى هذه القلعة ذاتها الرهائن الذين كان الكونت قد أسلمهم الى نور الدين والد الأمير الشاب (الصالح اسماعيل) نظير اطلاقه سراح الكونت وفك قيده ، وكان تسليمهم اليه تأكيدا لضمان دفعه فدية لا تقل عن ستين ألف قطعة ذهبية ، كما كان يوجد فى هذه القلعة ذاتها الرهائن الذين كان « رينو جارنييه » صاحب صيدا قد قدمهم مقابل فك أسر أخيه « استاس » .

ولما كان الصليبيون يبذلون غاية البذل سعيا للحصول من القائم على هذه القلعة على وعد باطلاق سراح من بها من الرهائن فانهم أسرعوا الى هناك بجميع عسكرهم بكل ما وسعتهم السرعة ، لكن تبين لهم عدم امكانيتهم الركون الى أى وعد يعدهم به الكفار الذين كانوا يطمعون أن يتم رفع الحصار بفضل جهود الأمير المشار اليه ، فلما أمعن المسيحيون التفكير فى الموضوع وقلبوه على شتى الوجوه وقتا طويلا رأوا العودة الى المعسكر الذى كانوا قد تركوه منذ قليل ٠

أدى ارتداد الصليبيين الغاضب بسبب زهو صــلاح الدين الى شروعه فى الاقتراب من حلب مشنا عليها سلسلة من الهجمات ضايق بها قوات الزعماء مضايقة شديدة فى محاولة منه لدفعهـــم الى القتال ، وأخيرا بعد كثيرمن أمثال هذه التحديات التقى الجانبان فى قتال عنيف انتهى بانتصار صلاح الدين انتصارا حمل المواصلة على الهروب ،ويقال أن ذلك كان من جراء خيانة بعض قومهم لهم اذ عملت الرشوة الكبيرة فيهم عملها ، واذ ذاك رجع صلاح الدين الى حمص واستولى على قلعتها بعد أن سبق له أخذ المدينة ذاتها ٠

ثم بعث (صــلاح الدين) من حمص رسالة الى الصليبيين يلتمس فيها من الكونت ألا يتدخل فى تقدمه وهو منتصر ، ويسأله أن يترد هو وشأنه مع ابن نور الدين وغيره ممن هبوا لمساعدته ، وحملته رغبته فى ألا يرفض الكونت هذا المطلب رفضا تكون فيه الاهانة له ومن غير أن يدفع له ثمنا الى أن يعرض على الكونت وعلى « رينو » أن يرد اليهما رهائنهما من غير أن يكلفهما مالا يطيقانه له ، فاستجاب الكونت لهذا الرجاء ، عادت الرهائن حسبما اتفق بشأنها فى المعاهدة ، كما أعاد صلاح الدين بقية النبلاء الذين كانوا قد شاركوا فى هذه الحملة ، فردهم وقد فاضت أيديهم بكرمه وبذلك انفض المعسكر وعاد الجميع الى ديارهم ٠

ويقال أن « همفرى دى تورون » كونستابل الملك كان الوسيط فى هذه المفاوضات ، ودارت حوله الشبهات بأنه كانت ترتبطه روابط صداقة متينة بصلاح الدين ، ولا شك أن عمله هذا كان ضارا بمصالحنا فان كسب مودتنا هذا الأمير(٢٠) الذى كان الواجب يقضى بمقاومته الى أقصى حدود المقاومة حتى لاتزداد عنجهيته ضدنا زيادة تلحق بنا الأذى ·

حينذاك عادت القوات التى كانت قد غادرت المملكة فى الأول من يناير سنة ١١٧٥ ورجعت الى بلادها فى الأول من مايو من نفس السنة ·

― ٩ ―

وفى الخامس والعشرين من ابريل من السنة (١١٧٥) مات « مينارد » Mainard الطيب الذكر أسقف بيروت ، وقد وافاه أجله فى صور بعد أن لازمه المرض طويلا ·

فلتقر وتسكن روحه فى هدوء ·

وكانت كنيسة صور قد ظلت سبعة أشهر متتالية خالية من رأس يدبر شئونها ، الا أنه فى هذا الشهر ذاته أجمعت رغبات كبار رجال الدين والشعب وكذلك الملك على استدعائى بفضل الله وليس بميزة خصصت بها لأن أقوم بالاشراف على تلك الكنيسة ، وبعد بضعة أيام أعنى يوم الثامن من يونيو (١١٧٥ م) وبمشيئة الرب تسلمت أنا الذى لا أستحق ـ هدية التكريس فى كنيسة القيامة على يد « أمالريك » بطرك بيت المقدس ·

وفى حوالى هذا الوقت بالذات وبينما كان صلاح الدين مستغرقاً كل الانشغال فى منطقة حلب جاء الخبر الى الملك بلدوين (الرابع) أن قد خلت أرض دمشق من الجيش وليس لها من صاحب ، وأنها عرضة للنهب والسلب ، وفريســـة هينة لأى تخريب ينزله بها من يقاتلها ، فلما علم الملك بلدوين بذلك جمع طائفة من الفرسان وعبر بهم الأردن ، ومر خلال الغابة القريبة من مدينة « بانياس » والتى سميت باسمها ، ودخل سهل دمشق جاعلا جبل لبنان على يساره وكان الوقت اذ ذاك زمن الحصاد فانتشرت جنودنا فى الســـهول والوديان وانطلقوا على هواهم الى كل ناحية يضرمون النيران فى الزروع النامية وفى الكيمان المجموعة فى الحقول وكذلك فيما حصده الفلاحون وخزنوه فى البيادر وكان الفـــلاحون حين علموا مقدما بقدومنا ارتدوا بنسائهم وصـــغارهم الى الأماكن التى هى أكثر تحصينا ، ومن ثم فقد أصبح كل الأقليم رهن مشيئة قواتنا التى اندفعت حتى بلغت « داريا »(٢١) وهى قرية فى الســـهل المجاور لمدينة دمشق ولا تبعد عنها أكثر من أربعة أميال ، وتقدمت قواتنا من هناك الى Bedegne الواقعة عند سفح جبل لبنان ، وكانت المياه الصافية المتدفقة من هذه المرتفعات قد خلعت على المكان اسم « بيت اللذة » فاستولى عليه رجالنا عنوة رغم استبسال أهله فى صدنا ، فلما فرغوا من هذا غادروه مثقلين بالغنيمة الوفيرة والأســـلاب الجمة ، وانطلقوا أمام عيون الدماشقة عائدين الى ديارهم سالمين فى أنفسهم ، آمنين على ما معهم ٠

•

وحدث فى هذه الأثناء ذاتها الطيب الذكر « [illegible] » [illegible] رئيس أساقفة القيصرية ، [illegible] « هرقل » رئيس شمامسة القدس وتم ترسيمه بما يلائم هذا الترسيم ٠

وفى السنة الثانية من عهد الملك بلدوين الرابع وفى اليوم الأول من شهر أغسطس (سنة ١١٧٥ م) وابان الوقت الذى كان فيه صلاح الدين لايزال مشغولا بدا هو فيه أمام حلب قام الملك باستدعاء كبار رجال المملكة ، كما جمع فرسانه وأغار ثانية على أرض العدو ،وبعد أن اجتاز منطقة صيدا ارتقى الجبال الواقعة بين أرضنا وأرض العدو فبلغ « المصارة » وهى موضع خصيب تتوافر به المياه الغزيرة الجارية ، ولا ينقصه شىء مما يرجـــوه المرء ، ثم نزل من هناك ثانية الى سهل يعرف بسهل «بكار» حيث وجد الناحية تفيض بالمن والسلوى حسبما نقرأ فى الكتب المقدسة ، ويظن البعض أن هذاهو الاقليم الذى كان يسمى فىالقديم باســـم « انطورية أو الجيدور »(٢٢) التى يخبرنا عنها انجيل لوقا أن فيليبس هيرود الكبير كان طرخانا بهـــا كما أنه هو ذاته كان من أرض الطراخونيين النجاة ، كذلك نجد فى الأزمنة البعيدة ـ وربما فى أيام ملوك اسرائيل ـ أنهذا الموضع كان يسمى بغابة لبنان لأن السهل يمتد حتى يبلغ سفح جبل لبنان ، وهو اقليم مستحب لخصب تربته ومائه الصحى وازدحام دساكره بالسكان وطيبمناخهأما الجزء الأدنى منهذا الوادى فتقوم فيه مدينة لاتزال حتى اليوم محاطة بالأسوار ، كما تشهد مبانيها التى تسمى حديثا باسم « أميجارا » على ما كانت تتمتع بهفى القديم من العظمة ٠

ويظن بعض دارسى الآثار أن هذه هى «بالميرا »(٢٣) أو تدمر التى كانت فى الغابر منأكبر مستعمرات فينيقيا ، وهى التى أشار اليها « أوليبان » الصورى فى مختصره الجديد فى فصله المعنون بالاحصـــاء ٠

لم يكد عسكرنا يصلون الى هذا الموضـــع حتى أخذوا فى الانسياح فى كافة أرجاء الاقليم دون أن يعترضـهم معترض ، فأضرموا النيران فى كل ما صادفوه ولم يتصد لهم أحد نظرا لفرار الأهالى الى الجبال التى كانت جميع الطرق المؤدية اليها مسدودة أمام هؤلاء العسكر ، ولما كان النذير قد وصـــل الى سكانها قبل وصولنا فقد اصطحبوا معهم الجانب الأكبر من قطعانهم وأغنامهم وساقوها الى مناطق المروج الفسيحة الواقعة فى وسط الوادى حيث يتوفر المرعى الخصيب ٠

حينذاك كان كونت طرابلس قد مر عبر سهل « جبيل » بالقرب من الحصن المعروف بحصن « المنيطرة » وذلك حسب ترتيب سابق ثم تقدم فجأة برجاله الى اقليم « بعلبك » فى نفس الوادى ، وجاء الخبر من هناك بأنه يحرق كل شىء يصادفه فى طريقه ، فما كاد قومنا يسمعون بخبر تقدمه حتى بادروا بالذهاب الى تلك الناحية ٠

ولما كان الكونت لايقل عنا تشوقا للقتال فقد التحمت القوتان فى موضع قريب من وسط الوادى ٠

٣

وكان شمس الدولة ــ اخو صلاح الدين ــ مقيما فى دمشق حاكما لها ،فما كادت تبلغه هذه الأخبار حتى جمع فى الحال عسكره وقام يعاونه أهل البلد بمحاولة ضد الكونت ، ورتب شمس الدولة صفوفه للقتال واســتعد للزحف علينا ٠ كذلك قامت قواتنا من ناحيتها بالاستعداد للقتال على أكمل وجه وجاءوا لصد شــمس الدولة بعزيمة نافذة ، وأبدى كل من الجانبين المتقاتلين همة بطولية، وهلك الكثيرون من هؤلاء وهؤلاء ، وجرح أكثر منهم ،ووقعت فى الأسر أعداد غفيرة من الطرفين ، وانتهى الأمر أخيرا ــ بفضل الله الى فرار العدو ، كما أن شمس الدولة هرب فى فئة قليلة من أتباعه الى الاقليم الجبلى المنحدر ٠ أما المسيحيون فقد عادوا محملين

بالأسلاب والغنيمة الوفيرة ويسوقون أمامهم قطعان الماشية ، ولكن فقد المنتصرون رهطا قليلا من رجالهم الذين وان كانوا لا يدرون المسالك الا أنهم جازفوا بأنفسهم مجازفة كريمة فاقتحموا المستنقعات للنهب ، ولم يأتهم خبر رجوع العسكر الصليبى المفاجىء ·

وهكذا عاد الملك بكل من معه بمشيئة الرب سالمين الى صور وجاءوا وقد فاضت أيديهم بشتى صنوف الغنائم ومن بينها قطعان الماشية والأغنام كدليل ساطع على ما أصابوه من نصر ·

كذلك عاد كونت طرابلس محملا بالغنائم الكثيرة ، وقد ملأت الغبطة نفسه ،وانطلق على رأس جنوده الى بلادهم سالكين نفس الطريق الذى جاءوا منه ·

وحدث فى نفس هذه السنة أن استرد « رينو دى شاتيون » حريته وهو الذى تولى امارة انطاكية بفضل زواجه من «كونستانس» أرملة أميرها السابق « ريموند » ، وكان « أرناط » هذا قد أقام فى الأسر المرير بحلب أعواما طويلة ، ثم جمع له اصدقاؤه فيما بينهم مبلغا كبيرا من المال افتدوه به فأطلق سراحه وسراح « جوسلين » بن جوسلين كونت الرها ونال الملك الذى يرجع الفضل فى اطلاقه من السجن ورده الى حريته الى المساعى الدائمة التى بذلتها كل من أخته الكونتسة « أجنس » زوجة « رينو » الصيداوى وأم الملك ·

وفى هذه السنة ذاتها وفى اليوم الثانى من شهر مايو رسم كل من « أودو » أسقف صيدا المنتخب الذى كان من قبل مرتل القداس فى كنيسة صور ،و « ريموند » أسقف بيروت المنتخب ·

وفى هذا الوقت أيضـــا لقى مانويل امبراطور القسطنطينية - ذو الذكرى العطرة - والمحب الصادق المســـيح والذى عمت أفضاله الناس جميعا ، أقول انه لقى نكبة فادحة فى قونية(٢٤) ، فقد كان مدفوعا بحبه الذى يستحق الثناء عليه لمحاولة نشر الاسم المسيحى وذلك بمجاهدته الجنس التركى الشرس ومحاربة كبيرهم الصعب المراس سلطان قونية ، غير أنه هزم أسوأ هزيمة بســـبب خطايانا ، ولم تقتصر هذه النكبة عليه هو وحده بل جاوزته الى القوات الامبراطورية التى كان يقودها بنفسه ، وكانت هذه القوات كثيفة العدد جدا كثافة تجاوز كل خيال،وقد منى (الامبراطور مانويل) فى هذه المعركة بخسارة فادحة فى الرجال الذين كان من بينهم رهط من أقاربه تنبغى الاشارة اليهم ، اذ كان منهم ابن أخيه « يوحنـــا البرتوسيباستيوس » وكان رجلا بالغ الكرم عظيم الأريحية وهو الذى تزوج(٢٥) الملك عمورى ابنته « مارية » . وبينما كان « يوحنا » هذا يقاتل العدو أروع قتال اذا به يسقط صريعا مثخنا بجراحه ، لكن الامبراطور نجح فى لم شتات معظم جيشه واستطاع الوصول به الى وطنه سالما فى بدنه ، ولكنه أصيب بخبل شديد فى ذهنه ، ويقال ان الســـبب فى هذه المأساة يرجع الى تهور الضـــباط الامبراطوريين الموكول اليهم قيادة الكتائب أكثر مما يرجع الى قوة خصمه وشدة بأسه ، ذلك أن (البيزنطيين) ساروا بالجيش دون أن يأخذوا الحيطة الكافية وسلكوا به دروبا خطيرة ضيقة كانت فى يد العدو ، مؤثرين ذلك على طرق فسيحة فى العراء كانت تصلح لزحف الجيش ونقل أمتعته الكثيرة وأثقاله المتنوعة التى يقال انها كانت فوق الوصف ، لذلك كان من المستحيل على الجيش فى هذه الظروف أن يقاوم العدو أو يضايقه ، ويقال أن الامبراطور حزن حزنا عميقا أثر على معنوياته من جراء ما وقع فى ذلك اليوم الذى

حمل أسوأ الذكريات له حتى أنه لم تعاوده قط بعد ذلك أبدا بشاشته ولا مرحه الذى كان سمة بارزة فيه ، ولم يعد أحد يراه بعدئذ ضاحك السن أو يبدو فرحا أمام شعبه ، كما لم يتأت له بقية أيامه أن يتمتع بالصحة التى كان يتمتع بها الى حد كبير قبل هذا الحادث ·

وموجز القول أن ذكرى هذه الهزيمة كانت تلاحقه على الدوام وتركت فى نفسه أثرها السىء عليه ، ففقد طمأنينة الروح وما كان يتمتع به من راحة الفكر وهدوء النفس ·

ولما كانت السنة الثالثة من حكم الملك بلدوين الرابع ، وفى أوائل أكتوبر وصل الى ميناء صيدا المركيز وليم الملقب بذى السيف الطويل (٢٦) وهو الابن الأكبر لوليم مركيز دى مونتفرات ، وكان حضوره استجابة لدعوة وجهها اليه الملك وجميع بارونات المملكة من دينيين وعلمانيين ، ولم تكد تمضى أربعون يوما على وصوله حتى كانت أخت الملك الكبرى قد زفت اليه ، وكان زواجا تمت ترتيباته والاستعدادات له فى العام الماضى حينما كان وليم مدعوا للمجىء من أجل هذا الموضوع نفسه الذى أكده الملك ذاته والبارونات بأيديهم ، وتسلم « وليم » مع زوجته مدينتى يافا وعسقلان البحريتين بكل ملحقاتهما والكونتية كلها أيضا حسبما اتفق عليه فى ذلك الوقت ·

غير أن هناك فريقا من الأمراء عارض أفراده هذا الاجراء ولم يحجموا عن المجاهرة برأيهم ، وان كانوا هم ذاتهم من بين الذين قد وافقوا على توجيه الدعوة الى وليم وان لم يعطوا الموضوع ما هو جدير به من الرعاية ، أما الآن فقد غيروا رأيهم كما هو الشأن فى تقلب الأهواء والطباع ·

كان المركيز (وليم) شابا أميل للطول ، بهى الطلعة ، أشقر الشعر ، وكان سريع الغضب مع شدة كرمه وصـــراحته وعظيم

اقدامه ، ولم يحدث قط أن أخفى أى غرض يسعى اليه بل كان يجاهــر بــه ويعلنه صــراحة ويبدى ما فى نفســه . وكان نهما فى مأكله مسرفا فى الشراب وان لم يبلغ ذلك به حدا يضـــيع معــه حداه . وقد تدرب على استعمال الأسلحة منذ مطلع شبابه ، واشتهر عنه أنه كان خبيرا بفن الحرب .

وكان وضعه الدنيوى رائعا كل الروعة وقل أن كان هناك من يساويه .

وكان أبوه قريبا للويس ملك فرنسا فهو خاله . وأما أمه فهى أخت امبراطور الرومان العظيم« كونراد » وعمه « فردريك » الذى هو الآن ــ منذ وفـــاة عمه الطيب الذكر ــ يحكم الامبراطورية الرومانية بحزم .وهكذا كانت تربط هذا المركيز بهذين الحاكمين الأمجدين درجة واحدة منصلة القربى .

لكن لم يكد يمضى على زواجه هذا ثلاثة أشهر حتى داهمه مرض عضال لازمه شهرين بلا انقطاع ، فلما كان شـــهر يونيو التالى ــ وكان الملك يقاسى المرض الشديد هو الآخر في عسقلان ــ مات المركيز (وليم) تاركا زوجته وهى حامل ، فنقلوا جثمانه الى بيت المقدس ودفن فى احتفال مهيب فى بهو كنيسة الفرســـان الاسبتارية ، وقام الكـــاتب الحـــالى (وليم الصـــورى) بأداء مراسيم الجنازة .

وتزوج فىهذا الوقت « همفرى » صاحب تورون كونستابل الملك بالليدى « فيليبا » Philippa ابنة « ريمرند » أمـــير أنطاكية وأخت « بوهيموند » الثالث الذى له الحكم الآن فى هذه الامـــارة ، كما أنها كانت أيضـــا أخت « ماريا » امبراطورة القسطنطينية .

وكانت « فيليبا » قد تزوجت من قبل باندرونيكوس(٢٧) أحد أقارب الامبراطور (البيزنطى) لكنه طلقها واقترن سرا وبصورة مزرية بتيودورا أرملة الملك بلدوين ، وكان هذا العمل من جانبه عملا مشينا فاضحا بعيدا عن العفة ، وما كاد همفرى الذى أشرنا اليه حالا يرجع بفيليبا الى بلده حتى اعتل علة لم يبرأ منها ، وما لبثت زوجته هى الأخرى أن مرضت مرضا خطيرا أفضى بها الى الموت بعده بأيام قلائل .

ـ ١٤ ـ

وفى الشهر الثانى من السنة الرابعة من حكم الملك بلدوين الرابع ، وفى أول أغسطس أرسى بميناء عكا « فيليب كونت فلاندرز » وكان القوم يترقبون وصوله منذ وقت بعيد ، وعلى الرغم من أن الملك كان لايزال طريح الفراش الا أنه أمر بان يحملوه فى محفة من عسقلان الى بيت المقدس حين سمع بوصول « فيليب كونت فلاندرز » وغمرته الفرحة حتى انه أرسل بعض باروناته وكبار رجاله الدينيين للترحيب به واستقباله الاستقبال اللائق به ، فلما وصل الكونت الى القدس حيث كان الملك لايزال طريح الفراش من جراء مرضه الخطير سلمه السلطة ووكل اليه تصريف كافة أمور المملكة من غير معارضة بتوجيه من البطرك المعظم والأساقفة ورؤسائهم والرهبان ورؤساء الأديرة ومقدمى الاسبتارية والداوية وجميع وجوه العلمانيين ، وأصبح من حق (فيليب كونت فلاندرز) شرعا ـ فى السلم والحرب وفى الداخل والخارج على السواء ـ

الاشراف الأعلى على كل صغيرة وكبيرة ، ويكون له حرية التصرف في أموال الخزانة وعائدات المملكة ٠

وبعد أن تشاور الكونت (فيليب دى فلاندرز) مع أتباعه أجاب القوم بانه لم يحضر الى المملكة بقصد امتلاك السلطة ، ولكنه جاء ليكرس نفسه لخدمة الرب التى هى هدف زيارته ٠ كما قال انه لم يكن من خطته ان يتحمل أية مسئولية ، بل العكس هو الصحيح فانه أراد أن يكون حرا حتى يعود الى بلده اذا تطلبت مصالحه هناك هذه العودة ، وليقم الملك اذذاك بتعيين أى شخص آخر يختاره كمدبر لمملكته ، أما هو (أى فيليب) فما عليه الا طاعة هذا الشخص سعيا لما فيه صالح المملكة ، شأنه فى تلك الطاعة كشأنه حيال مولاه ملك فرنسا ٠

فلما عرف الملك أن فيليب (الالزاسى كونت فلاندرز) رافض رفضا باتا ذلك الشرف الذى سقناه اليه قام عن طريق باروناته يسأله فى الحاح مرة أخرى أن يقبل تولى قيادة جميع القوات المسيحية فى الحملة التى نزمع(٢٨) القيام بها ، وهى الحملة التى كانت المملكة قد اتفقت عليها مع امبراطور القسطنطينية منذ وقت بعيد ، وها هو ذا الملك يرجوه أن ينهض بأمر معارك الرب ضد المصريين ، فلم يكن رد الكونت (فيليب دى فلاندرز) على هذا الرجاء الا كرده عما سلف ٠

حينذاك قام الملك فأقر « رينو دى شاتيون » (أرناط) أمير أنطاكية السابق قيما على المملكة وقائدا عاما للجيش كما كان الوضع قبل وصول (كونت فلاندرز) ، وكان « رينو » رجلا قد برهن عن صدق اخلاصه وحزمه الرائع ، ووكلوا اليه فى حالة عجز الملك عن مباشرة الأعمال شخصيا أن يقوم هو نفسه وفى علانية بتدبير

شئون المملكة ، وخولوه حق التصرف فى جميع الأمور ، على ان يعاونه الكونت فلاندرز •

فلما علم الكونت بما تم بشأنه قال انه لا يرى ثمت ضرورة لهذا الاجراء ، بل يحبذ عكس ما اتفقوا عليه ان يجب تعيين أحد ما يتولى أمر الحرب فيكون له فخارها أن انتصر ، وعليه عارها ان هزم لا قدر الله • فقلنا له ـ نحن الذين كان الملك قد بعثنا اليه ـ أن الملك لا يستطيع أن يعين شخصا تكون له نفس الصلاحيات ، دون أن يجعل هذا الشخص ذاته ملكا ، وهذا ما لم يفكر فيه الملك ولم نفكر فيه نحن أيضا •

هكذا كان الموقف حين أماط الكونت اللثام عن السر الذى يخفيه فى صدره ولم يحاول اخفاء ما كانت ترمى اليه خططه ، ذلك أنه لاحظ فى استغراب أن لم يفاتحه أحد ما فى موضوع الزواج من قريبة الملك « سيبيلا » • فلما سمعنا هذه الملاحظات عجبنا من دهاء هذا الرجل ومن خططه الخبيثة ، ذلك لأن هذا الكونت الذى طالما استقبله الملك أحسن استقبال يحاول الآن أن يتحدى قواعد الضيافة وقوانين القرابة فيخلف الملك •

ـ ١٥ ـ

وأرى أنه من الضرورى أن نتوقف قليلا عند هذه النقطة حتى يفهم قراؤنا فهما تاما الخطة الدنيئة التى كان الكونت يسعى لتحقيقها ، والواقع أن ما نسوقه عن هذا الموضوع لم يقتصر على ما جمعناه من روايات الأشخاص الكثيرين بل وأيضا من اعترافه هو ذاته •

وكان يصحب الكونت فيحجا هذا رجل واسع النفوذ هو المحامـى « بيثون Bethune الذى كان قد اصطحب معه ولديه اللذين كانا قد بلغا مبلغ الرجال ، ويقال أن هذا المحامى راح يحمل الكونت على الاعتقاد بأنه يستطيع أن يستغل الموقف فى المملكة أكبر استغلال لصالحه الخاص ، وكان يساعده فى هذا الاتجاه كونت « وليم دى ماندفيل » الذى كان يصحبه فى نفس الرحلة ،وقد ادعى « بيثون » هذا أنه صاحب اقطاعات كثيرة فسيحة ورثها فى بلاد الكونت (فيليب كونت فلاندرز) ووعد بالتخلى عنها للكونت لتكون ملك يمينه الى الأبد بحق الوراثة اذا استطاع الكونت فيليب دى فلاندرز أن يرتب زواج ولدى المحامى من قريبتى الملك عمورى الذى كان قد خلف ابنتين احداهما هى أرملة المركيز (دى مونتفرات) والأخرى التى كانت تعيش مع أمها الملكة فىنابلس والتى كانت قد بلغت سن الزواج ،فوافق الكونت على هذا العرض وشرع يبذل جهده لاتمام ذلك القران(٢٩) ٠

لكن لنرجع الى ما كنا فيه ٠

لقد عرفنا الغاية التى كانت تستهدفها مطامع الكونت ، ولذلك فقد كان ردنا عليه هو وجوب رفع المسألة أولا الى الملك ، ثم موافاة الكونت فى اليوم التالى بالجواب الذى يراه جلالته وذلك بعد أن يشاور من حوله ،فلما كان الصباح وعقد أول اجتماع بصدد هذه المسألة رجعنا الى الكونت بالجواب التالى :

« لقد جرت عادتنا التى تتفق وعرفنا الذى دأبنا عليه منذ زمن بعيد أن لايعقد قـران أرملـة (أى سـيـدة) لاسيما النبلاء قبل انقضاء عام واحد على وفاة زوجها ، لأن هذا لن يكون حزنا صادقا عليه ، وان الأمر فيما يتعلق بهذه السيدة هو أنه لم ينقض أكثر من ثلاثة أشهر على وفاة

(زوجوا) المركيز (دى سونتفرات) ، ومن ثم فانه لا يجوز أن يذهب الظن بالكونت مذهب السوء ان لم نستطع عقد قرانها لمخالفة هذا الزواج حينذاك لعادات هذا الزمن وتقاليد بلادنا . على أنه سوف يلقى عطف وتأييد الجميع اذا ما قدم هذا الطلب المشار اليه من جاء منه هذاالرجاء ،اذ مما لا مشاحة فيه هو أن الملك فى هذه الحال – كما فى جميع الأمور الأخرى – يجب أن تحكم أعماله نصيحة الكونت ، ويتطلع لأن يحقق مطالبه بما يتفق وشرفه ، ومن ثم فعلى الكونت أن يأخذ المبادرة ويسمى لنا شخصا يكون جديرا بهذه المصاهرة ، وسنكون مستعدين أن نعمل – فى هذا الموضوع الحالى – وفق الرغبة العامة » .

رأى الكونت فى هذا الرد جرحا وامتهانا لكرامته ، وأجاب بأن العقل يقتضيه ألا يستجيب الى ما طلب منه الا اذا أقسم جميع البارونات أولا بالالتزام باقتراحه من غير جدال ولا نقاش ، لأن أى نبيل عالى القدر سيرى نفسه قد أهين ان هو قوبل بالرفض بعد أن يكون قد كشف النقاب عن اسمه .

فكان ردنا على هذا القول أنه مما يجرح كرامة الملك وكرامتنا نحن أيضا أن نقبل زواج أخته من نكرة عندنا نجهل كل شىء عنه حتى اسمه .

فلم يكن من كونت فلاندرز الا التراجع عن خطته ، مع اظهار شدة حنقه وكبير غضبه حين اتضحت له نية الملك ونية جميع البارونات .

كانت توجد فى هذه الأثناء ببيت المقدس سفارة أمبراطورية (بيزنطية) تتألف من أبرز الرجال وأعلمهم شأنا ، هم : المبجل « أندرونيكوس » الملقب بأجيلوس ابن أخت الامبراطور ، والمعظم يوحنا ، وكان رجلا من علية القوم وأرفعهم مكانة ، ثم « اسكندر كونت كونفرسانا » فى أبوليا وهو من النبلاء السراة ، و « جيورجيوس السينائى» من رجال البلاط الامبراطورى وقد أرسلهم الامبراطور (مانويل) سفارة (٣٠) من لدنه الى الملك بعد أن رأى أن الوقت قد حان لتنفيذ الاتفاقية (٣١) التى كانت قد عقدت بينه هو ذاته وبين عمورى ، ثم تجددت بالتالى بنفس الشروط مع الملك بلدوين الحالى (الرابع) الذى كان هو الآخر يعقد آمالا كبيرة بفضل معونة الرب على مجىء (فيليب الالزاسى) كونت فلاندرز . ومن ثم عقد مجلس عام فى مدينة قدس الأقداس الطاهرة لبحث هذا الموضوع حضره جميع بارونات المملكة ، فرحب الجميع أفرادا وجماعات أعظم الترحيب بما تتمخض عنه مشورة الكونت ومعاونته هو ومن معه للمملكة حبيبة الله من نفع تتسع به رقعتها الاتساع المنشود حتى يتم القضاء المبرم على خصوم المسيح ، غير أن الكونت فيليب انصرف عنا - كما ذكرنا من قبل - من غير سابق انذار ، وكرس نفسه لمشاريع أخرى ، فانهارت آمالنا وتبددت هباء .

وعلى الرغم من تراجع الكونت الا أن السفراء (البيزنطيين) أصروا على وجوب تنفيذ الاتفاقية وقالوا انه من المحتمل أن يؤدى التراخى فى تنفيذ الاتفاقية الى طريق محفوف بالخطر وأن قومهم الاغريق لا يرون من ناحيتهم أى سبب لعدم المضى قدما فى تنفيذ

الاتفاقية واخراجها الى حيز الوجود وأبدوا استعدادهم للوفاء الصادق بجميع شروط الاتفاق ٠

وبعد ان استمعنا الى كلام السفراء وناقشنا الموضوع معهم قررنا أن نضع المسألة برمتها بين يدى الكونت (فلاندرز) ، فبعثنا اذذاك فى طلبه ،فلما جاء بسطنا أمامه الاتفاق المعقود بيننا وبين الامبراطور ، وعرضناه مكتوبا ومختوما بخاتم الامبراطور الذهبى ٠

فلما تفحص الكونت الوثيقة فحصا دقيقا وفهم محتواهـا فهما تاما ـ سألناه رأيه فأجاب انه غريب عن هذه الديار ، غير عارف بنواحيها لاسيما بنواحى مصر التى يقال انها تقع على مسافة بعيدة جدا من جميع الأقطار الأخرى ، ولها ظروفها المغايرة كفيضان المياه على شواطئها فى موسم معين من السنة فتغمر الأرض تماما ٠ وأما نحن فأعرف منه بطبيعة ذلك القطر وبأنسب الأوقات لدخولها ، وأضاف الى ذلك أنه سمع من الكثيرين ممن زاروا مصر أن الفصل الحالى من السنة ليس بالوقت المشجع على غزوها لاسيما والشتاء على الأبواب ، وأرض مصر مغطاة بمياه فيضان النيل ، هذا بالاضافة الى ماسمعه من أن جموعا حاشدة من الترك قد مضت الى مصر ، ثم أن هناك مايشغل باله أكثر من سواه ويخيفه أشد الخوف ألا وهو أنه سيكون هناك ندرة وشح فى التموين أثناء زحفهم على مصر ، بل وحتى بعد وصولهم اليها ، الأمر الذى سوف يترتب عليه أن تضرب المجاعة الجيش ٠

وأدركنا من هذه الاعتراضات أنه كان يتلمس الأعذار القوية التى تبرر احجامه عن النهوض بالحملة ٠

ورغبة منا فى التغلب على هذه العلل فقد عرضنا عليه أن نقدم له ستمائة جمل لنقل المؤونة والسلاح وغير ذلك من المتاع عن

طريق البر ، كما وعدناه بامداده بما هو فى حاجة اليه من السفن لحمل الذخائر والآلات الحربية وكل مستلزمات القتال ، ولكنه رفض كل هذه العروض رفضا باتا ، وزاد على ذلك فصرح بأنه لن يمضى الى مصر معنا تحت أى الظروف مخافة أن تنزل المجاعة به هو وعسكره على غير توقع . ثم أضاف الى ذلك أنه اعتاد أن يقود عسكره فى بلاد غنية وأنه لا يمكن حرمانهم من هذا الأمر ، لكن اذا تسنى لنا أن نختار بلدا آخر يكون زحف الجيش فيه أكثر يســـرا والجهد المبذول فيه مؤديا الى انتصار الاسم المسيحى وقهر أعداء المسيح فانه هو ورجاله يرحبون باتخاذ الاستعدادات للسفر .

- ١٧ -

على أنه لم يكن من الأسلم ولا الأشرف لنا أن ننسلخ من هذه الاتفاقية ، وكان المبعوثون الامبراطوريون - وهم رجال من الطبقة العليا المتميزة - قد قدموا الى القدس ومعهم مبالغ نقدية ضخمة ، وأعلنوا كما قلنا انهم صادقو النية فى تنفيذ شروط الاتفاق المبرم بيننا وبين الامبراطور ، وأخبرونا بأنه ترسو الآن فى ميناء عكا سبعون شونية هى رهن اشارتهم . هذا الى جانب غيرها من السفن الأخرى الكافية للرحلة (الى مصر) والاغارة (عليها) حسبما اتفق عليه من قبل .

كان عدم وفائنا بالاتفاق الذى ربطنا أنفسنا به يبدو أحط ما يزرى بالشرف ، الى جانب ما ينطوى عليه من الخطر الحقيقى ، ورأينا أنه حتى لو قبل المبعوثون الامبراطوريون تأجيل الحملة الى وقت آخر فانه يكون عملا يجافى العقل ، ومن الخســـارة أن نفقد مساعدة الامبراطور الذى استعد لمعاونتنا الآن . وزيادة على ذلك فقد خشينا غضبته التى قد تسفر عن عواقب وخيمة تحيق بالمملكة ،

لذلك عزمنا ـ برضاء من الطرفين ـ أن ننهض بالحملة طبقا لشروط الاتفاق والاجراءات التى اتخذت من قبل ، وأن نمضى قدما فى الاستعدادات التى اتفق عليها منذ وقت بعيد مع الامبراطور .

فلما علم كونت فلاندرز بقرارنا اشتد غضبه وأعلن أن الأمر كله مدبر لاهانته ، وبعد نقاش طويل حول وجوب رضـــوخنا لرغباته بعض الشىء تأجل سفر الحملة مرة ثانية حتى ينتهى شهر ابريل ووافق الاغريق ورجالنا على هذا التأجيل .

واستقرت الأمور على هذه الصورة .

* * *

ظل الكونت ما يقرب من خمسة عشر يوما مقيما بالقدس أتم فيها عباداته ثم ظهر حاملا ســـعف النخيل الذى هو رمز لاتمامه شعائر حجه ومضى الى نابلس معلنا عزمه على الرجوع نهائيا ، لكنه بقى هناك بضعة أيام أرسل لنا بعدها فى القدس بالمحامى بيثون مع آخرين من زمرته وكانوا مكلفين بأن يذكروا لنا ـ نيابة عن الكونت ـ ما انتهى اليه من استعداده لمتابعتنا متى شئنا ، سواء أكنا نقصد مصر أم غيرها من البلاد ، وقد بدى لنا أن كثرة تغييره لآرائه أمر يدعو للسخرية وساورنا الاحساس بأن الكونت لابد وأن يكون مصابا بانفصام الشخصية ، لأنه لم يتمسك قط بمشــــروع محدد ، لكن ما كدنا نتسلم الرسالة المتضمنة لقراره هذا حتى شرعنا فى تداول الرأى مع الاغريق فى غير اكتراث به ، وتبين لنا أنه لم يكن فعله يطابق قوله ، بل كان على العكس من ذلك يبذل قصارى جهده ليضعنا موضع المخطىء حتى يكون قادرا لأن يكتب لأمراء البلاد التى وراء الجبال أن تبعة تأجيل الحملة انما تقع على أكتافنا وكان قد أرسل الى هؤلاء الأمراء الرسل المذكورين من قبل أملا فى أن ينصرف الاغريق عن رجائنا ، وإذ ذاك تقع على رؤوسنا جريرته التى اقترفها فنحمل عنه وزر خطيئته هو نفسه .

حينذاك توجهنا بالخطاب الى الاغريق طالبين منهم أن يؤكدوا لنا عما اذا كانوا لايزالون حريصين على اتفاقهم الأصلى ، مؤيدين لمرافقتنا فى الزحف على مصر شرط أن يصحبنا الكونت فكان ردهم علينا أنه على الرغم من أن الوقت قصير جدا للقيام بالتجهيزات اللازمة لجيوشهم الا أنهم سوف يرافقوننا فى الخروج اذا ما أقسم الكونت (فلاندرز) قسما يؤكد بيده أنه ماض معنا ، وأنه مرسل عسكره حتى ولو أصابه مرض هنا أو فى أثناء زحفه ،أما هم (أعنى البيزنطيين) فسوف يخرجون معنا اذا قطع الكونت على نفسه العهد بالعمل بكلما من شأنه أن تؤدى هذه الحملة الى نشر المسيحية دون غش أواضمار سوء ، واذا ضمن الكونت لهم عدم الاخلال بأى شرط من شروط الاتفاقية بالمشورة أوالمساعدة ،واذا حمل بنى جلدته على أن يقسموا نفس اليمين باحترام الاتفاق .

وقال (البيزنطيون) أنهم سوف يذهبون معنا رغم ما يرون فى تقلب الكونت من أمور تنطوى على الشذوذ وتدل على ما طبع عليه صاحبها من مناقضة للخلق القويم ، وستكون مصاحبته لنا من أجل اعلاء شأن المملكة الغالية عند الرب وللعمل على زيادة مجد الامبراطور (البيزنطى) .

حينذاك تقدم المحامى (بيثون) ومن جاءوا معه واعلنوا يقسمون على الشروط كما وردت أعلاه ، ومع ذلك فانهم كانوا غير راغبين فى أن يشمل ذلك القسم كل الشروط . كما أنهم لايقتنعون بأن يقسم الكونت اليمين ، ولما أصبحنا غير مكترثين لاستمرار الحوار من غير الوصول الى هدف فقد فضضنا الاجتماع وأجلنا

الموضوع الذى طال النقاش حوله الى وقت آخر يكون أكثر سلامة واذ ذاك استأذننا مندوبو الامبراطور فى السفر وعادوا الى ديارهم ٠

* * *

بعد أن رحل السفراء الامبراطوريون شرع رسل الكونت (فيليب الالزاسى) يتساءلون عن السبب الذى أدى الى عدم قيام الحملة المتفق عليها فى الحال وقالوا : « ترى أى مشروع يمكن أن ينهض به الكونت بمعونة المملكة له حتى لايبدو فى عيون الناس متراخيا كل التراخى ؟ أو ممضيا وقته بلا عمل ؟ » وأخيرا عزم الذين بينهم القرار الأخير على أن يتحركوا ويزحفوا الى أنطاكية أو نابلس ، فقد يمكن انجاز شيء ماهناك يرد عليهم كرامتهم ويؤدى الى تقدم المسيحية ٠ وألقى البعض تبعة معارضة الكونت (دى فلاندرز) لارسال الحملة الى مصر على كاهل كل من أمير أنطاكية الذى كان موجودا فى هذه اللحظة وعلى كاهل كونت طرابلس الذى كان عازفا كل العزوف عن الحملة على مصر ، ذلك أن الاثنين كانا يسعيان سعيا حثيثا الى استمالة كونت فلاندرز اليهما يوجهانه كيفما أرادا ، ويستطيعان بمعاونته المساهمة فى بعض الخطط المؤدية الى اتساع رقعة أراضيهما ، لكن حبط مسعاهما وخاب أملهما لأن الرب لم يشأ أن يتيح للكونت فرصة القيام بأى عمل يستحق التدوين وصرف عنه تأييده لأنه قيل(٣٢) « تسربلوا بالتواضع لأن الله يقاوم بطر المستكبرين وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة » ٠

ورغم هذا كله فقد قطع الملك على نفسه العهد أن يتعاون مع فيليب (دى فلاندرز) ويمده بمساعدته ،فأمده عند رحيله بمائة من خاصة فرسانه وبقوة قوامها ألفان من العسكر المشاة ٠

على هذه الصورة كان وضعنا حوالى مستهل أكتوبر (١١٧٧ م) حين نهض الكونت (فيليب دى فلاندرز) على رأس

قواته الى طرابلس وفى صحبة كونتها ورئيس الفرسان الاسبتارية ورهط كبير من فرســـان الداوية ميممين وجههم شـــطر امارة طرابلس ٠

فى هذا الوقت نفسه أيضا تزوج بموافقة الملك « بليان » دى ابلين أخو بلدوين صاحب الرملة من الملكة « مارية » أرملة الملك عمورى وهى ابنة جون البروتوسيباستوس الذى ترددت الاشـــارة اليه كثيرا من قبل ، وتسلم « بليان » مع مارية مدينة نابلس التى أدت الى أن يطلق عليها حين الزواج اسم « بائنة الزواج » والتى كان لبليان حرية التصرف فيها طيلة حياة امرأته ٠

ـ ١٩ ـ

قام فيليب كونت فلاندرز بدخول أرض العـــدو على رأس عسكره بعد وصوله الى طـــرابلس مع كونتها وبعد اتخـــاد كل الاستعدادات اللازمة لهذا العمل ، وأقاموا بعض الوقت قرب مدينتى حمص وحماة مما أسفر عنتكبيد الأعداء بعض الخسارة ، ذلك لأنصلاح الدين كان قد رحل الى مصر بعد أن أنجز غرضه فى تلك الناحية وبعد عقده الصلح مع ابن نورالدين ، وهو صلح تم حسب شروطه التى وضعها ، وكانت الاستعدادات التى أشرت اليها من قبل بدت فى نظره مثيرة الى وشك قيام الحملة التى كانت تبدو منذ زمن طويل وما صحبها منالترتيبات التى تمت منذ وقت بعيد لذلك فانه أخذ معه كل القوات التى تسنى له جمعها من أى ناحية وركز قوته الكبيرة من الفرسان فى النواحى الاستراتيجية التى خيل اليه أن ربما تشهد أحداثا هامة ، وترتب على ذلك أن وجد الكونت وقواته الاقليم خاليا من المدافعين عنه ، مما ساعده على اجتياح الناحية والعيث فيها كيف شاء من غير أن يلقى مقاومة،الا أنالبلدان

الحصينة وقلاع المدن كانت مزودة أحسن تزويد بالذخيرة والميرة ومجهزة بالرصاص والسلاح الكافى للدفاع عنها .

ولما علم أمير أنطاكية أن الكونتين(٢٣) قد دخلا أرض العدو أسرع للانضمام اليهما سالكا طريقا آخر حسبما اتفق عليه بينهم من قبل ، وكانت القوات التى انضم بعضها الى بعض متفقة هى الأخرى فى الهدف ورأوا أن أحسن خطة تمليها عليهم ظروف الموقف المحيط بهم انما تكون فى قيامهم بحصار حصن حارم الواقع فى خالسيس(٢٤) التى تسمى الآن بأرتاح ، وكانت تلك الناحية من قبل مدينة عظيمة لكنها تدهورت الآن حتى أصبحت مجرد حصن صغير كل الصغر ،وتقع المدينة والحصن على بعد اثنى عشر ميلا من أنطاكية .

فلما صاروا أمام «حارم » نصبوا معسكرهم حولها وأحدقوا بها من كل ناحية ،وحالوا بين من بها وبين الخروج ،كما سدوا كل الطرق فى وجه من يريد الاقتراب منهاأن أراد مساعدة أهلها ، وبنيت فى الحال الآلات الحربية مدببة الرؤوس وجميع ما هو ضرورى لفرض الحصار ،واذ توقع المسيحيون استمرار هذه العمليات حتى النهاية فقد قاموا هم أيضا ببناء أكواخ من خشب الصفصاف ، ولما كان الشتاء على الأبواب فقد سوروا معسكرهم بأسياخ من الخنازير القوية للمحافظة على أمتعتهم حتى لا تتلفها مياه الأمطار المتدفقة ، كما قام فى الوقت ذاته سكان النواحى المجاورة والجماعات المسيحية فبذلوا غاية همتهم فى جلب الأطعمة الضرورية من أنطاكية ومن الأماكن الأخرى الموجودة فيما جاورها .

كان حصن حارم من أملاك ابن نور الدين ، وكان هو الحصن

الوحيد فى تلك الناحية الذى اذن صلاح الدين لابن نور الدين بالاحتفاظ به • وبعد استكمال سد جميع المنافذ المؤدية الى الحصن من شتى الجهات قام الصليبيون كعادتهم بتقسيم أنفسهم الى جماعات راحت تتناوب مهاجمة الحصن وترمى الأسوار رميا موصولا من الآلات والعدد ، دون أن يتركوا للمحصورين لحظة واحدة يلتقطون فيها أنفاسهم •

ـ ٢٠ ـ

على هذه الصورة كان الوضع فى أنطاكية •

وعلم صــــلاح الدين فى هذه الأثناء أن الكونت (فيليب دى فلاندرز) وجميع الجيش المســيحى قد تقدموا فى أرض أنطاكية أما هو فكان فى هم مقيم فى انتظار زحفهم عليه فى مصر ، واذ ذاك خيل اليه ـ وكان محقا فيما تخيله ـ أنه سيكون آمنا على نفسه وعلى من معه أن هو قام بمهاجمة بلد خلا من عسكره اذ لابد أن يحدث حينئذ أن يؤدى الهجوم الى ارغــام الأعــــداء علــى رفـــع حصارهم عن حارم فان أصروا على متابعتهم حصار الحصن استطاع هو احراز النصر على من تركوهم وحدهم فى المملكة •

لذلك قام بحشد الحشود الكثيفة من العسكر من كل ناحية وأمر بتجهيزهم أحسن جهاز جرت به العادة ، وزودهـم بالســلاح وبشتى ما يستعمل عادة فى القتال ، ثم زحف بجيشه هذا من مصر . وتسنى له بعد اجتيازه التيه الكبير فى مشقة أن يبلغ مدينة العريش القديمة التى أصبحت الآن مهجورة من الناس فترك بها بعض أمتعته الثقيلة وطائفة من العسكر ، غير مستصحب معه سوى الجند المسلح تسليحا خفيفا كما اقتصر على أخذ أعظــم المقاتلين المدربين على

الحرب ، ومر بهم على قلعتينا : الداوية و غزة ، وكانت الأخيرة مدينة عظيمة الشهرة ، فأرسل كشافته ربيئة أمامه ثم ظهر هو فجأة أمام عسقلان ٠

* * *

كان النذير قد جاء الى الملك قبل بضعة أيام بخبر تقدم صلاح الدين ، فأسرع الملك بلدوين بحشد ماكان لايزال موجودا بالمملكة من قواته وعسكر بهم أمام المدينة قبل أن يبلغها العدو ٠ وكان كونت طرابلس - كما قلنا - قد غـــادرها على رأس مائة من فرســـاننا اصطفاهم من بين الكثيرين،كما كان قد تركها أيضا رئيس الاسبتارية مع رفاقه ورهط كبير من فرسان الداوية ، وكان بقية هؤلاء الأخيرين قد مضوا الى غزة تحسبا منهم لقيام صلاح الدين بمحاصــــرتها باعتبارها أول مدينة يبلغها من المدن التى فى أيدينا ٠

ولما كان الكونستابل الملكى « همفرى » قد داهمه المرض الشديد كما قلنا فانه لم يكن تحت يد الملك الا القليل من العسكر ، فلما علم أن العدو يمرح كيف شاء فى صورة عدوانية وأن قواته قد انتشرت فى السهول المجاورة لأرضنا فقد خرج مستعينا بالله على رأس جنده استعدادا للقتال بعد انترك طائفة قليلة لحراسة المدينة ٠

وكان صلاح الدين قد حشد حشوده كلها فى مجموعة واحدة قرب المدينة ، فلما تقدم الجيش الصليبى وشاهد كثافة أعداد عسكر خصمه أشار كبار أهل الخبرة بشئون الحرب بوجوب بقاء القوات فى مواضعها الحالية فذلك خير لها وأجدى عليها من المخاطرة فى قتال لا تؤمن عواقبه ٠ لذلك ظل الصليبيون بمنأى من هجمات العدو حتى دخل الليل وان لم يخل الأمر من وقوع مناوشات فردية على فترات متقطعة ، وذلك لقرب كل من الجيشين من الآخر ٠

ولما انصرم النهار عاد الصليبيون بسلام الى المدينة مرة ثانية ذلك لأنهم وجدوا أنه نظرا لزيادة أعداد جيوش الخصم فقد بدى لهم أن قضاء قواتهم الضئيلة ليلتها في المعسكر أمر لا يخلو من الخطر ولا تحمد عقباه ، فكان هذا الفعل من جانبهم باعثا الخيلاء والزهو في نفس صلاح الدين وجماعته حتى انهم لم يطيقوا صبرا على البقاء على ما هم عليه من التنظيم بل تفرقوا هنا وهناك معجبين بسطوتهم ومتباهين بيأسهم ، وشرع صلاح الدين في اقطاع بعض الأراضي المفتوحة لمن معه من الجند الذين بدوا وكأنما قد تم لصاحبهم النصر وكأنهم قد حققوا كل ما خرجوا من أجله ، فعربدوا ما شاءوا أن يعربدوا غير آخذين الحيطة لأنفسهم وتفرقوا شراذم صغيرة يعيشون في كل نواحي الاقليم ·

– ٢١ –

وذهب بنا الظن الى أن الأعداء لابد وأن يقضوا الليل في نصب معسكرهم أمام المدينة حيث كانوا في أمسهم أو يعملوا على الاقتراب منها رغبة في استكشاف نواحيها ، لكن جرى الأمر على عكس ماكنا نظن ، اذ لم يمنحوا أنفسهم ولا جيادهم قسطا من الراحة بل انطلقوا في جماعات راحت كل منها تفتش ضاحية من الضواحي حسبمايتراءى لهم ، وكان من قوادهم رجل اسمه « جاولى »(٣٥) وهو محارب باسل لا يحجم عن اقتحام المهالك، وكان هذا الرجل أرمني الأصل والمولد وانخرط في سلك « الأمم » ، ولم يكن يتورع عن سلوك أي طريق مهما كان معوجا ·

وتقدم هذا الرجل بالعسكر الذين كان يقودهم الى مدينة « الرملة » الواقعة في السهل ، فوجدها خالية من سكانها فأضرم فيها النار ، اذ كان أهلها قد هجروها بسبب ما استولى عليهم من اليأس لعدم تحصينها ، كما كان بعضهم قد انضموا الى حملة بلدوين

الذاهبة الى عسقلان ، كذلك مضى آخرون منهم ـ وفيهم الضعفاء والنساء والاطفال الى « يافا »، وانطلق غير هؤلاء وهؤلاء الى حصن منيع بين الجبال يسمونه « كفر سلام »(٣٦) ٠

فلما فرغ « جاولى » من حرق الرملة زحف بكل عسكره الى مدينة « اللد » المجاورة التى سرعان ما استولى عليها جيشه بعد تقسيمه اياها أقساما ، ثم راح بعد ذلك يهاجم الأهالى ويرميهم بوابل هتان من شتى أنواع السهام والنبال والسلاح ، واستمر على مضايقتهم مما حملهم جميعا على الفرار الى كنيسة الشهيد المبارك القديس جورج ٠

حينذاك استولى الفزع القاتل على المسيحيين حتى رأوا ألا أمل لهم الا فى الفرار ولم يقتصر الخوف الذى تملك النفوس على من كانوا فى السهل حين كان العدو ينطلق معربدا من غير أن يلقى أى مقاومة ، بل جاوزهم الى سكان الجبال ، حتى ان أهل بيت المقدس أنفسهم استعدوا للهجرة من المدينة الطاهرة يأسا منهم من مناعة تحصيناتها ، ثم مالبثوا أن لاذوا بأذيال الفرار بأسرع ما يمكن الى البرج المسمى ببرج داود وخلفوا وراءهم المدينة بأكملها ، وكان بعض قطاع الطرق قد تقدموا حتى بلغوا الموضع المسمى بكالكاليا ، وانتشروا فى كافة أرجاء السهل ، ثم أصبحوا الآن على وشك ترك هذه الأرض المنبسطة والصعود الى الجبال ٠

بدى هذا الاقليم الآن مهجورا موحشا كيوم أن غضب الرب « فغطى ابنة صهيون بالظلام »(٣٧) ، الا أنه « حتى ذى غضبه لم يمسك رحمته ، ولم ينس حنانه »(٣٨) لكنه تعطف وساعدنا(٣٩) ، و « عند كثرة الهموم فى داخل الانســـان فان تعـــزيته تلذذ نفس الانسان»(٤٠)

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى تلك الناحية من البـــلاد جاءت الأخبار الى الملك أن طائفة من رجال العدو المهـــاربين قد انتشروا هنا وهناك فى أرضه واستولوا على ما انتشروا فيه ، فما كان من بلدوين الا أن خلف مدينة عسقلان واستعد للخروج لصـــد العدو لادراكه أن مجابهة مايسفر عنه القتال مع الخصم مهما يلغ من الخطورة المجهولة أهون من تعريض شـــعبه لشتى صـــنوف الاغتصاب والحرق والمذابح ، واستقر رأيه على أن يزحف على طول الشاطىء عساه يبلغ ناحية السهل التى يعسكر فيها صلاح الدين فيباغته مباغتة لا يتوقعها · ومن ثم خرج الملك فى الحال بكل جنده من الفرسان والمشاة وهو على أتم الاستعداد لمحاربته ، وانضم اليه فرسان المعبد الذين كانوا متخلفين فى غزة ورتبوا صفوفهم وتهيأوا لصد العدو ، ثم تقدموا لا يشغلهم سوى الثأر لما نزل بهم من الأهوال كما أن منظر الحرائق التى طالعتهم فى كل ناحية والمذابح التى لقيها اخوانهم أمدتهم بحماسة الاهية فأسرعوا وكأنهم رجل واحد فاذا بكتائب العدو أمامهم وعلى مقربة منهم ، وكانت الساعة اذ ذاك حوالى الثامنة نهارا ·

على أن صلاح الدين علم فى أثناء هذه الفترة أن المسيحيين آخذون فى التقدم يحدوهم الأمل فى محاربته فخاف من الاشتباك معهم فى القتال الذى كان يبدو من قبل أنه كان يتطلع اليه ، لذلك أنفذ رسله لاستدعاء عسكره الذين كانوا مبعثرين فى جهات شتى ، وحاول بواسطة دق الطبول والنفخ فى الأبواق وبالعظات كما هو الحال فى مثل تلك الأوقات أقول حاول بواسطة ذلك كله تشـــجيع رجاله على القتال واثارة حميتهم بكلامه اليهم ·

وكان مع الملك (بلدوين الرابع) كل من « أيود » Fudes دى سانت أماند رئيس الفرسان الداوية وثمانون من اخوانه ، والأمير « رينو » وبلدوين صاحب الرملة ، وأخيه «بليان» و «رينو» الصيداوى وكونت « جوسلين » خال الملك وسنكاله ، وكان مجموعهم بما فيهم أصحاب الرتب الحربية ثلاثمائة وخمسا وسبعين ، وكانوا جميعهم مسترشدين بالصليب الحى العظيم الذى كان يحمله « البرت » أسقف بيت لحم ، ويعتمدون قبل كل شىء على العون تأتيهم به السماء ·

وتقدمت جموعهم هذه كلها فى صفوف حربية تتحرق شوقا لمصادمة العدو الذى أخذت قواته تتوافد فى هذه الأثناء على صلاح الدين من مختلف النواحى التى كانت تذرع الأرجاء وأقدمت تنشد الغنائم وتشعل النيران ، فكان رجوعها عاملا على زيادة قوته زيادة ضخمة ، والحق أنه لولا الرب(٤١) الذى لايتخلى قط عمن أسلموا أنفسهم له ثقة منهم به لحاق اليأس بالصليبيين ولهلكوا ولم يؤتهم النصـــر ولم ينعموا بالحريـــة والأمـــان ، فأعدوا صـــفوفهم للقتال ورتبوا القوات التى ستأخذ المبادرة بشن الهجمة الأولى وكذلك الذين سوف يأتون لمعونتهم·

— ٦٣ —

أخذت صفوف المقاتلين فى الاقتراب بعضها من بعض ، وشبت معركة لم تكن فى البداية معركة فاصلة ، غير أن رحمة السماء المنهلة على المسيحيين شددت من عزائمهم فضاعفوا ضغطهم فى عنف أخذ يتزايد شيئا فشيئا حتى أفضى فى النهاية الى انكسار عسكر صلاح الدين بعد أن جرت عليهم مذبحة فظيعة لم تجد قواته ازاءهـــا بدا من الفـــرار ·

ولقد أردت أن أتأكد من صحة هذه الأقوال الخاصـــــة بهذا الموضوع فقمت باستقصاء دقيق عن عدد عسكر العدو ، ووجدت بناء على ما بلغنى من الثقات الكثيرين أن الذين اقتحموا أرضنا كانوا ستة وعشرين ألف فارس من حملة السلاح الخفيف ، بالاضافة الى راكبى الابل ودواب الحمل ، وكان من هؤلاء ثمانية آلاف من الجند العظام الذين يسمونهم فى لغتهم بالطواشية(٤٢) ، أما الثمانى عشرة آلاف الآخرون فكانوا من الفرســـان العاديين المعروفين باســـم « القراغلامية » . وكان هناك ألف من أبسل الفرسان يعملون حرسا خاصا لصلاح الدين ويلبسون الحرير الأصفر ،ويضعون الزرديات على صدورهم من نفس اللون الذى يلبسه صلاح الدين ، وقد جرت عادة ولاة الترك وكبار الزعماء المسمون فى العربية بالأمراء أن يعنوا بتربية جماعات من الصغار تربية فائقة ، ومن بينهم رقيق أسروا فى الحرب ، وآخرون مشترون أو ربما ولدوا من اماء . ويتعلم هؤلاء الفتيان فن القتال ، حتى اذا شبوا عن الطوق وبلغوا سن الرشد أجريت عليهم الرواتب (الجامكيات) بل وأقطعوا الاقطاعات الواسعة التى تختلف من واحد الى آخر باختلاف ميزة كل منهم . ويسمى هؤلاء الرجال بلسانهم « بالمماليك » وتوكل اليهم حماية مولاهم فى ساحات القتال وتنعقد الآمال الكبار عليهم فى احراز النصر . ولما كانوا على الدوام محيطين بمولاهم فقد كانت تربطهم بعضهم ببعض رابطـــة الحفاظ عليه من أى مضرة ، ويدافعون عنه حتى الموت كأنهم جميعا رجل واحد ،وكانوا يستمرون فى الحرب حتى يفر ،واذا التمس البعض النجاة فى الهروب ظل هؤلاء المماليك يقاتلون حتى يسقطوا عن بكرة أبيهم .

أخذ الصليبيون فى مطاردة خصمهم المغلوب من الموضع المسمى « مونس جيسار » حتى المستنقع المعروف باســـم « قناة ايتيرنو » Cannaie des Etorurneaux حتى انصرم النهار وغشاهم الليل

بظلامه ، واعملوا الفتك الذريع لمسافة اثنى عشر ميلا أو اكثر فى الدرين الذين يرجع الفضل فى بقائهم أحياء الى سرعة دخول الليل ، اذ كف عنهم مطارديهم وانقذهم منهم ، كما تخفف أقواهم بأســـا وأصحاب الخيل السريعة من أسلحتهم وهربوا بكل ما فى طاقتهم من قوة ، وكان الفضل فى بقاء هؤلاء أحياء راجعا الى دخول الليل أما سواهم فقد صادفوا أتعس مصير ، اذ راحوا ما بين أسير وقتيل بحد السيف ٠

ولقد هلك منا فى مستهل القتال أربعة فرسان أو خمسة وبعض المشاة ، وان لم يكن العدد الحقيقى معروفا على وجه التأكيد ٠

فلما نجح الفارون فى الوصول الى المستنقع الذى ذكرناه حالا قذفوا الى المزاليج والى الماء ما تبقى معهم من أحمال ، وكان الذى تبقى معهم هو صداريهم وأحذيتهم الحديدية للخلاص منهـــا عساهم يستطيعون التقدم خفافا ، ولم يكتفوا بذلك فحسب بل رموا أيضا فى الماء أسلحتهم حتى لا يستعملها الصليبيون أو يأخذوها فتكون رمزا لانتصارهم ٠ لكن سرعان ما استرد قومنا كل هذه الأشياء لأنهم فى اقتفائهم الجاد للعدو الهارب فى تلك الليلة ذاتها ، وفى اليوم التالى بأكمله راحوا يمشطون مســـتنقعات الغاب المذكورة آنفا ، ويستعملون العصى الطويلة والخطاطيف فى تفتيشهم ، وسرعان ما عثروا على كل ماكان العدو قد أخفاه هناك

ولقد سمعنا من رجال ثقات أنهم رأوا فى يوم واحد مائة درع من الحديد عثروا عليها فى هذا المكان ، ناهيك بما وجدوه من الخوذات وما يقى السيقان وغير هذا من أدوات دونها قيمة ولكنها كانت لاتزال مجدية وصالحة للاستعمال ٠

ولقد كلأتنا العناية الالهية بهذه النعمة الكبرى التى لا تنسى

أبدا يوم الخامس والعشرين من نوفمبر (سنة ١١٧٧ م) من السنة الرابعة من حكم الملك بلدوين الرابع ، أعنى يوم الاحتفـــال بعيد الشهيدين الطاهرين بطرس الاسكندرى والعذراء كاترين ·

ثم عادالملك بعدئذ الى عسقلان فى انتظار القوات التى كان قد بثها فى كلناحية لمطاردة الفارين ، وتكامل وصولها فى مدى أربعة أيام ، وعادت محملة بما غنمته من الخيام ، وساقت أمامها العبيد وقطرا من الابل والجياد ·

لقد عادوا وصدق عليهم قول النبى(٤٣) « أكثرت الأمة ، عظمت لها الفرح ·· كالذين يبتهجون عندما يقتسمون غنيمة »

ـ ٢٤ ـ

كذلك حدث أمر دل دلالة صريحة على أن الرحمة الالهية كانت تكلؤنا بعينها حين أخذت الأمطار فى اليوم التالى وعلى مدى عشرة أيام متتالية تهطل بغزارة مصحوبة ببرد لم يعهد من قبل ، وبصورة كان يخيل معها أن نفس هذه العوامل كانت تتآمر ضد العدو الذى كان قد فقد جميع جياده لانعدام الماء الذى تشربه ، كما أنها لم تعرف الراحة طوال الأيام الثلاثة التى ظلت أرضنا خلالها فى يد العدو الذى قام رجاله من تلقاء أنفسهم بإلقاء أمتعتهم ومختلف أنواع الثياب ، كما تبينا ، وزاد من تعاستهم أنه لم يكن لديهم ما يقتاتون به ، فصرعهم البرد وأهلكهم السغب [illegible] ، وأضلتهم [illegible] المناطق التى لم يألفوها ، فكانت ترى فى ناحية ما قليلا من هؤلاء الهاربين وتجد الكثيرين غيرهم فى ناحية أخرى لم يسلموا من غضب الرب حتى الضعفاء ومن لا حول لهم ولا قوة ، فكانوا يصبون عليهم ما شاءوا من غضبهم · ولما كان الكثيرون منهم يجهلون تلك النواحى فقد ضلوا الطريق وهم يحسبون أنهم يسلكون الدروب الموصلة الى

ديارهم ، لكنهم ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم فىقرانا وعرضة للوقوع فى أيدى المسافرين الذين كانوا يطاردونهم ويتصيدونهم ٠

فلما رأى الاعراب الكافرون النكبة التى حاقت بالترك أسرعوا الى الذين كان الأخيرون خلفوهم وراءهم لحراسة أمتعتهم بمدينة العريش كما ذكرنا من قبل وقصـــوا عليهم نبأ الكارثة التى حلت بأصحابهم وجلت نفوسهم عند سماع هذا الخبر وانطلقوا فى فزعهم يهيمون على وجوههم لا يدرون أين يذهبون ٠

كذلك أصر هؤلاء الأعراب اصرارا عنيدا على مطاردة من شاءت الصدفة أن ينجو من الوقوع فى قبضتنا ، وبذلك فان الذين ظنوا أنهم نجوا وجدوا أنفسهم قد وقعوا فريسة سهلة فى براثن هؤلاء الأعراب وبذلك تمت النبوءة القائلة(٤٤) « فضـــلة القمص أكلها الزحاف ، وفضلة الزحاف أكلها الغوغاء ، وفضلة الغوغاء أكلها الطيار » ٠

وكان من عادة هذه الطائفة(٤٥) اللئيمة أنهم كانوا يتحاشون دائما القتال فلا يخوضون معركة ما من المعارك أيا كان القائد بل يقفون على بعد من ساحة الحرب طالما لم تتضح نتيجتها ، فاذا حسمت انضموا الى الغالب وتعقبوا المغلوب وملأوا أيديهم بالأسلاب والغنائم ٠

وظل قومنا يحـ ـثون لبضعة أيام بالأسرى من الغابات والجبال بل ومن الصحارى وكان بعض هؤلاء الأسرى ممن جاءوا الينا من تلقاء أنفسهم مؤثرين تقييدهم بالأغلال وحبســـهم على أن يظلوا هائمين على وجوههم يلهبهم البرد بسوطه ويقرصهم الجوع بأنيابه ٠

بعد أن فرغ الملك من توزيع الأسلاب والغنائم وفق قواعد الحرب بادر بالرحيل الى بيت المقدس شاكرا للرب ما أنعم به عليه من آلائه، وليقدم القرابين على ما آتاه من النعمة ، أما صلاح الدين الذى كان قد نهض بروح ملؤها الكبرياء اعتدادا بكثرة من تحت يده من الفرسان فقد ردته المشيئة الالهية مغلوبا على أمره ولم يبق معه غير مائة محارب تقريبا ، حتى ليقال انه هو ذاته عاد ممتطيا بعيرا .

فلنتأمل الآن ولنتمعن هذه النعمة الالهية !! ولنتبصر مدى الفيض الذى رزقناه !! .. ولنتذكر كيف أن الرحمة القدسية أرادت أن يكون المجد كل المجد للرب وحده ، اذ لو كان (فيليب) كونت فلاندرز وأمير أنطاكية وكونت طرابلس وغيرهم من كبار الفرسان(٤٦) ساهموا الى جانبنا فى هذه المعركة ، وشاركونا النصر الذى أسبغته علينا يد الرحمة الربانية لما ترددوا فى أن يقولوا - وان لم يقدر لهم أن يقولوا - مع القائلين(٤٧) « يدنا ارتفعت وليس الرب فعل كل هذه » ، ذلك لأن الذين لا يكترثون بشىء والقليلى التبصر يقصر فهمهم عن ادراك وجودهم حيث تعم النعمة تحقيقا لكلمته(٤٨) «ومجدى لاأعطيه لآخر » ، لذلك احتفظ الرب بكل المجد والسلطان لنفسه وأعان الفئة القليلة وحجب عونه عن الفئة الكثيرة ، وأعاد برحمته من جديد وبحدبه معجزة « جدعون »(٤٩) ،وفرق شمل الجموع الكثيفة وبذلك تجلى للعيان أن الشخص الواحد يستطيع بعون الرب وحده(٥٠) أن يطرد ألفا ، ويهزم اثنان ربوة » .

فعلينا أن نعزو كل خير ونعمة اليه هو وحده الذى هو نبع كل خير ونعمة(٥١) ، لأنه فى هذا الظرف الحالى لا يوجد قط شىء يستطيع الانسان أن ينسبه الى نفسه ، بل هى منحة جادت بها الرحمة الربانية وجاءت الى من لا يستحقها « تمد يمينك فتبتلعهم الأرض »(٥٢) « يمينك يارب تحطم العدو ، وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك »(٥٣)

بينما كانت هذه الأحداث تجرى بيننا استمر الكونت(٥٤) ومن معه فى حصار الحصن(٥٥) المشار اليه آنفا ولكن بلا جدوى لأخذهم أنفسهم بالتبذل ، وانكبابهم على ألعاب الحظ وغيرها من امور الفساد ، فقد كانوا منصرفين اليها أكثر من انصرافهم الى العناية بأمر الحرب وقواعد عمليات الحصار المفروضة عليهم ، فكانوا على الدوام ما بين ذهاب الى أنطاكية واياب منها حيث يقضون أوقاتهم فى غشيان الحمامات والتردد على الولائم ، والانغماس فى مفاسد الشراب وغيرها من الملذات الجسدية ، وأهملوا القيام بمتطلبات الحصار ، مستعيضين عن ذلك بملذات العبث ٠

بل ان الذين كانوا يظهرون الجد فى الحصار مالبثوا أن تراخوا كسلا واهمالا ، ولم ينجزوا شيئا هاما ،اذ كانوا هم أيضا يقضون أوقاتهم فى دعة ، ويحيون حياة دنسة ، حتى ان الكونت ذاته كان يعلن كل يوم بوجوب عودته الى بلاده ، ويصرح أن بقاءه فى حارم ان هو الا أمر يتم رغم أنفه ، ولم يقتصر هذا الاتجاه على اعاقة من كانوا فى الخارج وهم يحاولون الاستمرار فى الحصار بل زاد فشد من ساعد أهل البلد على زيادة المقاومة ، اذ قويت عزائمهم وازداد أملهم أن يتم رفع الحصار عنهم عن قريب ، فضاعفوا من تحملهم لكل مشقة ادراكا منهم أنها لن تطول كثيرا ، وعرفوا انه اذا كان وقع المتاعب عليهم قاسيا الا أنه أحسن من أن يسلموا القلعة(٥٦) التى استولوا عليها الى هذا الجنس البغيض ، لأنهم ان فعلوا ذلك باؤوا بما يبوء به الخونة من الخزى والعار يلاحقانهم الى ابد الآبدين ٠

ويحتل حصن حارم(٥٦) موقعا هاما على تل يبدو وكأنه من صنع الانسان ولا يمكن اقتحامه الا من جانب واحد ، أما سواد

من الجوانب فمسدودة فى وجوه المغيرين، ومع ذلك فقد كان فى استطاعة آلات الرمى أن تصيبه من كل ناحية من غير عائق يعوقها •

وقد جرت محاولات عدة لاقتحامه واختلفت نتائج بعضها عن بعض ، حتى أصبح واضحا للعيان أن الاستيلاء على هذا الحصن لا يمكن أن يتم الا بهجمة ضارية تؤيدها العناية الالهية ، لكن الأمر عندنا كان قد تحول الى عدم اكتراث ، وأفضت خطايانا واندثار فطنتنا الى تلاشى كل ما قد يكون من الحماسة عندنا •

أخذ الصليبيون يعدون عدتهم للعودة من حيث جاءوا لرفع الحصار عن حصن حارم رغم أن من أغلقت عليهم أبوابه كانوا قد وصلوا الى منتهى درجات اليأس ،ولسنا نستطيع أن نملك أنفسنا من أن نعجب مما هو جار ، اذ يبدو وكأنه أمر فوق ادراك البشر ، كما لانملك الا أن نقول أن الرب فى سورة غضبه على أولئك الأمراء الكبار ضرب على عقولهم غشاوة كثيفة من الظلمة وأعمى بصائرهم فقد قاموا من تلقاء أنفسهم وبدافع من ايثارهم الراحة بالتخلى عن حصن حارم للعدو رغم أنه كان على وشك السقوط فى أيديهم •

ولما رأى أمير أنطاكية اصـــرار (فيليب الالزاسى) كونت فلاندرز على مسلكه وتصميمه على عزمه (٥٧) لم يجد مناصا من أن يقبل رفع الحصار عن الحصن لقاء قدر من المال لاندرى مقداره قدمه اليه من هم تحت الحصار •

ثم عاد كونت فلاندرز بعدئذ الى القدس حيث أحيى أيام عيد الفصح المبارك وراح يعد العدة للرجوع ، وما كادت الشـــوانى ووسائل النقل الأخرى يتم تجهيزها حتى أبحر (٥٨) من اللاذقية فى الشام قاصدا العودة الى وطنه معرجا على امبراطور القسطنطينية •

هكذا رحل الكونت تاركا وراءه أسوأ ذكرى ٠

ولقد عقدفردريك امبراطور الرومان فيهذا الوقت بالذات وفي مدينة البندقية الصلح مع البابا اسكندر بعد قطيعة دامت عشـــرين عاما ٠

كذلك حدث أيضا أن انهارت بعض جدران بيت المقدس لقدمها ، وحينذاك تعاون الأمراء من علمانيين ودينيين وخصصوا قدرا معينا من المـــال يدفع كل عـام حتى يقضى الـرب بترميم الأسوار فيكون هذا مصداقا لقول القائل(٥٩) « أحسن برضاك الى صهيون ٠ ابن أسوار أورشليم » ٠

ـ ٢٦ ـ

ولما كان شهر اكتوبر من العام الخـــامس من حكـــم الملك بلدوين الرابع من سنة ١١٧٨ م غادر رهط معين من الرجال شرقنا استجابة لدعوى وجهت اليهم لحضور مجمع عام فى رومة كان قد أعلن عنه فى العام الماضى فى كافة أرجاء العالم اللاتينى ، وكان المدعوون الى هذا المجمع هم : أنا وليم رئيس أساقفة صور ، وهرقل رئيس أساقفة قيصرية ، وألبرت أسقف بيت لحم ، ورالف أسقف « سبسطية » ، وجوشيوس أسقف عكا ، ورومانوس أسقف طرابلس وبطرس رئيس المرتلين بالقبر المقدس ، ورينالد رئيس دير جبـــل صهيون ٠

ولم يقتصر أمر « جوشيوس » على مشاركتنا حضور هذا المجمع بل انه ذهب أيضا كمبعوث الى هنرى دوق رجنديا مكلفا بدعوته للحضور الى المملكة ، لأننا كنا قد أزمعنا تزويجه من أخت الملك بنفس الشروط التى اتفق عليها حين اقترنت بالمركيز ، فتسلم

هنرى الدعوة من يد « جوشيوس » مغتبطا بها ، ويقال انه أقسم (مؤكدا القسم بيمينه) أنه سوف يحضر الا أنه نكث فلم يبر بقسمه ولم يوف بالعهد الذى قطعه على نفسه ، ولسنا ندرى السبب الذى حمله على النكث .

وفى أثناء هذا الشهر ذاته (أعنى شهر أكتوبر ١١٧٨ م) الذى بدأنا فيه رحلتنا لحضور المجمع الكنسى المقدس شرع الملك مع كل قوة المملكة فى تشييد قلعة وراء الأردن فى الموضع الذى يعرف عادة بمخاضة يعقوب .

وتقول الأخبار القديمة ان هذا الموضع هوالموضع الذى قسم فيه يعقوب قومه الى طائفتين أثناء رجوعه من أرض ميسيبوتيميا ، وأرسل من هناك رسلا الى أخيه يقول له(٦٠) : « انى بعصاى عبرت هذا الأردن ، والآن قد صرت جيشين » .

أما هذا المكان فيقع فى اقليم قادس النبطية بين نفتاليم (نبطية) ودان ، وتعرف الأخيرة منهما ببانياس وقيصرية فيلبس ، وكلتاهما من فينيقية ومن مدن صور الكبرى ، ويقع هذا المكان على بعد عشرةأميال من بانياس .

هنا فى هذا الموضع وعلى تل متوسط الارتفاع وضع (الملك) ومن معه الأساس على عمق مسيم لحصن من الحجر الأصم ، رباعى الشكل فى سمك عجيب وارتفاع معقول ، وتم بناؤه فى ستة أشهر .

وبينما كان القوم منصرفين لعمليات البناء اذا باللصوص يغيرون من أرض دمشق ويقطعون الطرق العامة على السابلة حتى لم يعد أحد يستطيع الذهاب الى الجيش أو مغادرته الا والخطر يهدده ، وبذلك سدت جميع المسالك أمام المسافرين واستحال عليهم السفر ، وقد جاء هؤلاء اللصوص من موضع فى الجبل القريبة من عكا

والمسماة بجبال « باكاديس » أو باللســـان الدارج « بوكائل » ٠ وهذا الموضع من أنزه المواضع فى ناحية « زبولون » ٠

وعلى الرغم من وقوع هذا الحصن على قمة أحد الجبال الا أن مياهه كانت غير مقطوعة ولاممنوعة ، كما أن بساتينه كانت غاصة بأشجار الفاكهة ٠

واهل الناحية قوم سفهاء ، ومحاربون أجلاف غلاظ ، قد غرتهم كثرتهم التى حكنتهم من السيطرة على جميع المزارع والقرى المجاورة كما أنهم يؤوون بين ظهرانيهم المجـــرمين الهـــاربين من العدالة واللصوص ، ويبســـطون حمايتهم على قطاع الطرق الذين يجدون الملجأ الأمين عندهم ٠ وقد أدى هذا السلوك البغيض الى أن يكونوا موضع كراهية كل من حولهم : مسيحيين كانوا أو مسلمين ٠

وقد بذلت محاولات متعددة لاستئصال شأفتهم ولكنها لم تفلح مما ترتب عليه ازدياد بأسهم كل يوم عن الذى قبله ، حتى وجد الملك نفسه فى النهاية غير قادر على تحمل سفههم الممقوت ، ولا ما يرتكبونه من السرقات أو يقترفونه من الجرائم ، لذلك استولى على الموضع على غرة منهم بقوة السلاح وفتك بجميع من أمكن القبض عليه منهم ، ومع ذلك فان أغلب الذين علموا بما يبيته الملك لهم فروا بنسائهم وصغارهم الى أرض دمشق ، حيث تابعوا أسلوب حياتهم القديم ، وكثيرا ما كانوا يتسللون خلسة الى أرضنا ٠

وقد تحالفوا فى هذا الوقت مع أقوام على شاكلتهم فكانوا يغيرون معا على حدودنا كما قلنا ، ثم استشرى غضب المسيحيين حين علموا أن رهطا من هؤلاء القوم يهددون الطرق العامة أخطر تهيد ، فنصبوا لهم الكمائن فى أماكن استراتيجية ، وكرسوا كل جهدهم للقضاء على هؤلاء الأوغاد ٠ وحدث فى ذات ليلة من الليالى

أن كان هؤلاء المتحرمون عائدين بعد غزوة قاموا بها وجاءوا من ناحية جبال « زبولون » على نية الرجوع الى المكان الذى قدموا منه فاذا هم يسقطون فى الكمائن التى نصبها لهم المسيحيون فحددوا ما بذرته أيديهم اذ ألقى القبض على تسعة منهم ، وقتل أكثر من سبعة غيرهم ٠

وقد جرت هذه الحادثة فى الحادى والعشرين من شهر مارس (سنة ١١٧٩ م) ٠

***

شهدت كنيسة قسطنطين المسماة باللاتيران بروما فى الخامس من مارس عقد مجمع دينى ضم ثلاثمائة أسقف ، وكان هذا فى السنة العشرين من بابوية اسكندر الثالث ٠

واذا أراد أحد الوقوف على القرارات التى اتخذت فى هذا المجمع ومعرفة أسماء الأساقفة الذين اشتركوا فيه وعددهم ووظائفهم فليقرأ ما دونته بأمانة وبالتماس كريم من الآباء الطاهرين الذين ساهموا فى هذا المجمع ، وطلبت أن يوضع ما كتبته فى سجلات الكنيسة الطاهرة فى صور بين الكتب الأخرى التى جمعناها(٦١) من أجل هذه الكنيسة التى صارت الينا الرياسة فيها منذ ست سنوات ٠

حين تم تشييد الحصن وكمل من كل النواحى جاءت الأخبار الى الملك بأن العدو ـ سعيا منه للعثور على الربيع لترعى فيه ماشيته ـ خرج بقطعانه دون أن يتخذ حذره واقتحم الغابة القريبة من بانياس ، ولم يكن معه مقاتلون يمكنه الاعتماد عليهم فى صد أى هجوم نشنه عليه ، ومن ثم ظن قومنا أن سيكون من اليسير عليهم القضاء على خصمهم وهو بلا عسكر يحمونه ٠ وحينذاك تسلل رجالنا

تحت جنح الظلام ليفاجئوا التركمان ويأخذوهم على غرة منهم ، فلما طلع الصباح كان المسيحيون قد أذ ـزوا عنقهم •

وبينما كان بعض العسكر منطلقين هنا وهناك بحثا عن الغنيمة، والبعض الآخر يسيرون ببطء خلفهم وعلى بعد منهم اذا بالرهط الذين كان الملك يرافقهم فى الركوب ينطلقون فى أهمال بالغ مما أدى بهم الى التردى فى مأزق صعب فقد بلغوا موضعا ضيقا بين الصخور كان العدو مختبئا فيه ايثارا منه للسلامة وتحاشيا لهجومنا عليه بعد أن بلغه خبر تقدمنا ، لكنهم ماكادوا يرون الصليبين يكرون عليهم من غير حيطة اتخذوها من جانبهم حتى أخذتهم الحماسة رغم ماهم عليه من احجام بل ويأس من الحياة ، فلما أدركوا شدة الحرج الذى فيه رجالنا وثبوا عليهم فجأة واستماتوا فى الهجوم عليهم رغم أن رغبتهم الوحيدة حتى هذه اللحظة كانت تتلخص فى أن يختفوا عن أنظار عدوهم تجنبا للقائه ، أما الآن فقد راحوا يمطرونه من مسافة بعيدة بوابل هتان من السهام فقتلوا جيادنا وزادوا من ضـــغطهم على قواتنا •

ولما أدرك الكونستابل المعظم أن الأعداء كانوا قد جاءوا من حيث لا يحتسب فقد رمى بنفسه عليهم رميا عنيفا وحمل عليهم بشدة وحاربهم كعادته حربا ضارية ، وجاهد صادقا بكل قوته لحماية الملك ودفعا لهم حتى لا ينقضوا على بلدوين (الرابع) فيهلك وتزهق روحه فى هذا الموقف البالغ التأزم •

وبينما كان همفرى يقاتل على هذه الصورة كان العدو يمطره بين آن وآخر بضربات وحشية فأثخنته جراحا ، ولم يستطع رجاله أن ينقذوه الا بمشقة فأخرجوه بعد لأى من هذا الوضع الأليم الحرج وحملوه بعيدا على ظهر جواده (٦٢) •

ولقد هلك فى هذه المعركة رجال بارزون يستحقون الذكر الطيب كان من بينهم « ابراهام الناصرى » الذى كان له من شبابه وحسن طلعته ورفيع خلقه وكريم محتده وعظيم ثرائه ما يبشر بالأمل الزاهى فى مستقبل طيب · كما قتل أيضا « جورديشو دى تيروت » بعد ان خلف ذكرى عاطرة ·

كذلك شهد هذا الموضع أيضا مصرع كثيرين غيرهما وان كانوا دون هذين مركزا ·

هذا هو الوضع الذى كانت عليه الأمور حين قدرت النجـاة للملك على يد أتباعه من خطر جسيم عاد بعده الى المعسكر الذى كان قد غادره من قبل ، واستدعى عسكره الذين دبت الفوضى فى صفوفهم فتشتتوا وتشردوا هنا وهناك ·

أما حالة الكونسـتابل الملكى همفرى فقد ازدادت خطورة ، فحملوه يوم الحادى عشر من ابريل الى الحصن الجديد الذى كان العمل لايزال جاريا فى بنائه ، وبقى هنا ما يقرب من عشرة أيام ظل خلالها يصارع الموت صراعا عنيفا من أجل الحياة ، ودلت وصيته الأخيرة على عقل راجح وبعد نظر ، ثم فاضت روح هذا الرجل الذى عاش حياة مثالية يوم الحادى والعشرين من ابريل وسوف يظل بلده يبكيه بحرقة بعد أن خلف فى القلوب [illegible] رة ، ودفن فى احتفال مهيب يليق به فى قاعدته العظيمة الشهيرة قلعة تورون (٦٣) ففى كنيسة الأم المباركة والعذراء البتول ·

وفى أعقاب وفاة همفرى مباشرة وفى اليوم السابع والعشرين من شهر مايو (سنة ١١٧٩) أخذ صلاح الدين فى محاصرة الحصن الذى شيده (الصليبيون) منذ قريب ،وأمطره بوابل لاينقطع من السهام، وظل يراوح المحصورين ويغاديهم بهجماته عليهم ، لكن حدث أن

واحدا من المحاصرين قيل أنه كان يدعى « رينيه دى ماروم » راش سهما أصمى به قلب واحد من أثرى وأبرز أمراء صلاح الدين فأرداه قتيلا ، فتبلبل الكفار لهلاكه بلبلة جسيمة حملتهم على الاقلاع عما كانوا بصدده فرفعوا الحصار ورحلوا ٠

ـ ٢٨ ـ

كان صلاح الدين قدفرغ حالا من غاراته بالسـلاح على اقليم صيدا وتعددت هذه الغارات مرتين أو أكثر ، وهى الغارات التى لم تجد من يتصدى لها مما شجعه على أن يعيث فسادا وتخريبا ، فراح يحرق كل ما صادفه ويفتك فى الناس فتكا ذريعا ، فلما كان الشهر التالى صمم على شن غارة جديدة نصب من أجلها معسكره بين مدينة بانياس ونهر « دان » ،وأرسل أعدادا كبيرة من المناوشين للاستيلاء على الغنائم واضرام النار ٠ واذ كان هو مستعدا من جانبه للمساعدة ان دعت الحاجة فقد ظل مقيما فى المعسكر فى انتظار عودة مناوشيه هؤلاء ومعرفة ما تمخض عنه عدوانهم ٠

ولما جاءت الأخبار الى الملك فى هذه الأثناء بخبر ما قام به صلاح الدين من أعمال التخريب فى أرضنا أسرع الى مدينة طبرية بجميع القوات التى تسنى له أن يجمعها من كل ناحية ، وحمل معه صليب المسيح واجتاز بلدة « صفد » ومدينة « ناسون » القديمة حتى وصل الى « تورون » مع قواته ، وهذا جاءته الأخبار الدقيقة من رسله الذين كانوا يغدون اليه ويروحون من عنده على الدوام بأن صلاح الدين لايزال بجيشه فى نفس الموضع بعد أن أرسـل أمامه فرسانه المسلحين تسليحا خفيفا لتخريب حقول صيدا ، وأنهم لما جاؤوها لم تسلم من النهب والحرق والقتل فى أهلها ، فتشاور الملك مع رجاله مشاورة انتهت بوجوب التقدم ضد العدو . ومن ثم حرك

الصليبيون بجيشهم من « تورون » الى نحو «بانياس » حتى جاءوا قرية أسمها « مسافر » واقعة على قمة أحد الجبال ويمكن منها رؤية كل الاقليم الرابض تحته حتى أسفل جبل لبنان ، كذلك كان معسكر العدو واضحا للعيان وان كان على بعد ، كما كان ظاهرا للعيان كل ما ارتكبه رجاله من افساد وتدمير أثناء انسياحهم فى هذا الاقليم ٠

أما قوات المشاة التى كان السير الطويل قد أنهكها فلم تستطع مجاراة الفرسان فى سرعة التقدم وهم منطلقون فى خفة عبر الناحية الجبلية ٠

أما الخيالة الذين لم يصطحبوا غير قليل من المشاة النشيطين فقد نزلوا الى مكان يعرف بمرج عيون(٦٤) ٠ فى السهل الموجود مباشرة تحت الجبل ، فتريثوا هناك بضع ساعات للتشاور فى خطتهم التالية ٠

حينذاك ساور القلق صلاح الدين بعض الشيء اذ سمع بنبأ وصول الملك المباغت ، وكان فزعه شديدا من أن يؤدى الحال الى قطع الاتصال بين عسكر طليعته وبين من معه من بقية جيشه ، كما خشى أيضا من الهجوم على معسكره ، ولذلك أصدر أمره بوضع الأمتعة والأثقال والذخيرة فى مكان بين بانياس(٦٥) المدينة المجاورة وبين السور حتى يكون العثور عليها ميسرا ، أيا كانت الخاتمة التى تنتهى اليها المعركة ٠ وهكذا وقف يرقب ما تسفر عنه الأحداث واستعد لما قد يقع ، ولكنه كان متخوفا كل التخوف من العاقبة ٠

وان علم الغوغاء الذين كانوا قد خرجوا للنهب بخبر تقدمنا فقد تملكهم الخوف الشديد مما جرى فلم يعد يشغل بالهم الا الوصول الى صفوفهم ان أمكن ، ضـــاربين عرض الحائط بكل الاعتبارات الأخرى ، لكن اعترضتهم قواتنا كما ذكرت بعد عبورهم النهر فيما

بين أرض صيدا والسهل الذى كان جيشنا مرابطا فيه ، وسرعان ما جرت بين الجانبين مناوشات أسفرت بعون الله عن انتصـــار المسيحيين ، ودارت الدائرة على الأعداء الذين لاذوا بالفرار باذلين أقصى جهدهم للوصول الى معسكر صلاح الدين بعد مصرع الكثيرين منهم ، مجندلين على الأرض ٠

ـ ٢٩ ـ

بينما كانت الأمور على هذه الصورة قام « ايود » رئيس الفرسان الداوية وفى صـــحبته كونت طرابلس وآخرون ممن كانوا خلفهما فارتقوا التل المواجه لهم ، فصار النهر على يسارهم والسهل الفسيح وخيام العدو على يمينهم ٠

ولما علم صلاح الدين بالمأزق الكريه الذى فيه رجاله بتعرضهم حيث هم لخطر قد يصل الى حد الهلاك وضياع أرواحهم تأهب للذهاب لينقذهم ، وكان قد وصل الى هذا القرار حين طالع بعض عسكره المهزومين وهم يفرون على وجوههم ، فركب جواده قاصدا لقاءهم ، فلما وقف على جلية الأمر عطف عليهم وشجعهم بكلامه اليهم وردهم الى كتائبهم ، ثم أغار فجأة على المسيحيين الذين كانوا يطاردون الهاربين دون أن يتخذوا لأنفسهم الحيطة الواجبة ٠ حينذاك كان مشاتنا الذين امتلأت أيديهم بأسلاب القتلى معسكرين على امتداد شاطىء النهر وقد استقاموا الراحة التامة اعتقادا منهم أن الغلبة كاملة غير منقوصة كانت من نصيبهم ٠

اما الفرسان فقد رأوا العدو ــ الذى كانوا يظنون قد انتهى أمره نهائيا ــ يعود فيكر عليهم ويهاجمهم هجوما عنيفا ، فاضطروا الى مصادمته رغم اضطراب صفوفهم اضطرابا لم يجدوا معه لحظة لاعادة تنظيم أنفسهم والدفع بقواتهم الى القتال حسب قواعده المرعية

ولكنهم ظلوا يقاومون مقاومة باسلة وصمدوا أمام هجمات العدو الا أن قوتهم لم تكن تعادل قوة خصمهم ، ولاكان بأسهم كبأسه فتبددوا فى شراذم عمتها الفوضى ، ولم يعد أحد منهم قادرا على معاونة غيره ، وانتهى الأمر بهم الى أن لاذوا بأذيال الفرار المشين • ولربما كان من السهل عليهم تجنب ملاحقة العدو لهم وانقاذ أنفسهم لو أنهم اتجهوا اتجاها آخر ، ولكنهم بسبب خطايانا نهجوا أســوأ نهج فأوقعوا أنفسهم فى شعب ضيق تحوطه المنحدرات العميقة ، وهذا لم يكن أمامهم الا التقدم أو الارتداد وسط صفوف العدو معرضين أنفسهم للهلاك ، وحينذاك قام بعضهم بعبور النهر وحملهم أملهم فى انقاذ أنفسهم على الارتداد الى أقرب موضع حصين اسمه « شــقيف أرنون »(٦٦) • أما البعض الآخر منهم فانهم بعد اجتيازهم النهر ساروا مصاقبين للساحل حتى بلغوا صيدا وبذلك تحاشوا وطأة القتال الثقيلة ، ولقيهم فى مسيرتهم « رينو الصيداوى » ورجاله الذين كانوا مســرعين للحاق بالجيش ، فحدثوه بالنكبة فأصـــاخ « رينو » لتحذيرهم وأخذه مأخذ الجد وعاد الى صيدا •

والمعتقد أن هذا العمل من جانبه أدى الى كثير من المصائب التى نزلت بهم فى ذلك اليوم اذ لم يكن من المستبعد لو أنه تابع زحفه الى قلعة « شقيف أرنون » أن يتمكن من انقاذ الكثيرين من بطش العدو بفضل المساعدة التى كان لابد له أن يلقاها من أهل المدينة والاقليم فقد كان أهلوه يعرفون الناحية تمام المعرفة ،وحدث أن استخفى الفارون فى هذه الليلة فى الكهوف التى بين الصخور ، لكن ما أن طلع الصباح حتى عثر عليهم العدو الذى كان يمشط كل ناحية ويفتش كل ركن فأمسكهم وزج بهم فى الحبس •

لكن قدرت النجاة للملك بفضل المعونة التى تلقاها من جانب جنده الملكى ، كما استطاع كونت طرابلس الوصول الى صور فى شرذمة قليلين من أصحابه(٦٧) •

ولقد كان من الصليبيين الذين أسروا فى ذلك اليوم « ايود دى سنت أماند » رئيس الفرســـان الداوية ، وكان « ايود » هذا رجلا دنيئا متعاظما متكبرا مغرورا قد ملأ الشـــر منخاريه(٦٨) ، فهو لا يخاف الله ولايراعى انسانا ، وينسب اليه الكثيرون الخسارة التى نزلت بالمسيحيين فى ذلك اليوم ، ووسموه بميســـم الخزى والعار الأبدى بسبب هذه الكارثة ، ويقال أنه مات(٦٩) خلال هذه الســـنة أسيرا فى سجن قذر فلم يحزن أحد لموته ·

وكان ممن أسر فى هذا اليوم أيضا « هيج » صاحب طبرية ابن زوجة كونت طرابلس ، وكان شابا فى ريق العمر وله غد مأمول ، هذا الى ماكان يحظى به من محبة الجميع ·

كذلك وقع فى الأسر كثيرون غير هؤلاء لا أعرف اسماءهم ·

ـ ٣٠ ـ

على هذه الصورة كانت الأمور فى المملكة يومذاك ·

وكنا نحن فى أسوأ حالات النكد وسوء الطالع حين أرسى فى عكا « هنرى كونت تروى » الجليـــل القدر وابن كونت « تيوبولد الكبير » الذى خلفناه فى مدينة « برنديزى » بأبوليا أثناء رجوعنا من مجمع اللاتيران ، وكان فى صحبة هنرى فى رسوه بعكا عدد كبير من سراة القوم ·

وكان كثير من علية الناس قد وفدوا فى ذلك العبور نفسه ، كما قلنا من قبل ، وكان فيهم « بطرس دى كورتنوى » شقيق لويس ملك الفرنجة ، كما جاء فيليب أسقف « بوفيه » المنتخب بن كونت روبرت وأخو الملك لويس · وكانت قلوب قومنا تتفطر حزنا من جراء

المصائب التى حاقت بنا مؤخرا ، لكن قدوم هؤلاء الكبار أنعش نفوسنا كما شد من عزائم أهلنا وأحيى آمالهم فى أن يستطيعوا بمساعدة هؤلاء الأمجاد أن يتجنبوا الكوارث التى قد يأتى بها الغد ، وربما يتمكنون أيضا بواسطتهم أن يثأروا للدواهى التى داهمتهم ، ولكن ذهب هذا الأمل أدراج الرياح لأن الله كان غير راض عنهم فعجزوا عن التغلب على عواقب الشرور السالفة بل انهم وقعوا فيما هو أشد منها ضراوة ، ويرجع السبب فى ذلك الى أن صلاح الدين - وهو ألد أعدائنا والذى تسنم ذروة السطوة بفضل انتصاراته الكثيرة - قد أسعفه الحظ الحسن ففاجأنا قبل أن نلتقط أنفاسنا وضرب الحصار على الحصن الذى كمل تشييده فى ابريل الماضى . فلما تم بناء هذاالحصن الذى كثرت الاشارة اليه عهد به (الملك) الى فرسان المعبد الذين كانوا قد استولوا لأنفسهم على كل الناحية بسبب تنازل الملوك لهم عنه .

فلما علم الملك أن صلاح الدين محاصر ذلك الموضع حشد كل قوى المملكة وجميع قواتها القتالية ، كما أنه استدعى كونت هنرى (دى تروى) وغيره من النبلاء الذين كانوا قد وصلوا منذ قريب ومضى بهم الى طبرية حيث دعا جميع من بيدهم الحول والقوة من رجال المملكة الى الذهاب لمساعدة المحاصرين وارغام العدو على فك الحصار .

لكن بينما كان بلدوين الرابع واقفا هناك فى الانتظار وقد أجل الاستعدادات ليوم واحد فقط وافاه النبأ الصادق بأن العدو قد استولى على المكان وهدمه حتى سواه بالأرض وصيره أنقاضا .

أما رجال الحامية الذين كانوا هناك لحراسة القلعة(٧٠) فقد راحوا ما بين أسير وقتيل ، وبذلك أضيفت نكبة فادحة جديدة الى سلسلة النكبات السابقة ، حتى ليمكن أن يقال بصدق فى حقها(٧١) : « ان

الرب الاههم انصرف عنهم » وحق القول : « ان احكامك لجة عظيمة »، و « ما أشدك فى أعمالك » :

ان الرب الذى أغدق خلال السنة المنصرمة النعم الجليلة على أبنائه المخلصين حكم عليهم أن يلبسهم لباس الهون الشـــديد وأن تسودهم الفوضى ، ولكن من ذا الذى يعرف ما الذى يريده الرب ·

ومن ذا الذى يشاركه فى قضائه ·

ولأجل ذلك فانك قد حجبت عطفك عن الجموع الكثيرة والنبلاء المشاركين حتى لا ينسبوا لأنفسهم ما هم فيه من نصر لم يحرزوه بكفاءتهم بل بفضلك أنت ، ولأنهم لم يردوا عليك الرد الجميل · أنت أيها المحسن عليهم بما منحتهم من صنعك العظيم ولأن « الذى يحبه الرب يؤدبه ويجلد كل ابن يقبله »(٧٢) ·

لقد لطخت يارب وجوهنا بالعار حتى نسعى الى اسمك المبارك الى الأبد ، واننا لنعرف ونعـــترف يا ربنا أنك لا تتغير لأنك أنت القائل(٧٣) : « أنا الرب لا أتغير » ، ولكن أيا كان السبب فاننا نعرف أنك الحق يارب ، وأن أحكامك عادلة ·

فى هذا الوقت كانت المفاوضـــات التى جرت العام المنصـرم بخصوص دوق برجنديا قد تجـــددت على يد عمه الكونت هنرى ، وانعقد الأمل على وصوله فى الرحلة التالية ، لكن ظهر بعدئذ بكل جلاء ولأسباب لانعرفها أنه لازال مصرا على عدم المجىء ·

هنا ينتهى الكتاب الحادى والعشرون

حواشى الكتاب الحادى والعشرين

(١) يلاحظ قارىء هذا القسم من تاريخ الحروب الصليبية تردد مؤلفه فى النعت العددى لملوك بيت المقدس اللاتين ومن هنا كان نعته بلدوين الأجذم حينا بالسادس وحينا بالسابع وهو اذ ينعته بالسادس فانه يكون من الفريق من المؤرخين الذين لا يعدون « جود فروى دى بويون » بين ملوك المقدس اللاتين ، لأنه هو نفسه لم يسم نفسه بالملك وانما أختار أن يلقب بحامى القبر المقدس ٠

(٢) راجع ماسبق ، ص ٢٢ ـ ٢٤ ٠

(٣) راجع الحاشية السابقة رقم ٢ ٠

(٤) بيثانى Bithany هى «العيزارية» أو العازارية«كما يقرر لى سترانج زى قرية قرب القدس تتمتع باهمية روحية خاصة اذ بها قبر لعازر Saint Lazarus ومن ثم فهى منسوبة اليه ، وفى الاخبار المسيحية الاولى أن المسيح رد عليه الحياة بعد موته ، ويذكر ذلك ياقوت فى معجمه انظر الملحق الوارد فى آخر هذا الجزء تحت لعازر ، ونظرا لاهمية المكان من الناحيه الدينية فان « مليزند » ملكة بيت المقدس قامت سنة ١١٤٣ م بشراء هذا الموضع وشيدت فيه ديرا باسم لعازار واختيه : مارثا ومارى ٠

ويخطىء من يخلط بين بيثانى Bithany وبين بيثينيا Bithinia التى هى ولاية فى آسيا الصغرى ، انظر فى هذا الصدد ماورد فى كتاب

« ديشامب » عن القلاع الصليبية فى الأراضى المقدسة وانظر الملحق الذى اضفنا، فى ختام هذا الجزء ·

Deschamps : Les Chateaux des Croisés en terre Sainte
Défense du Royaume de Jérusalem [illegible]

(٥) وهى التى تعرف بمونتريال عند الصليبيين ، وهى قلعة شديدة الحصانة على الحدود السورية قرب الكرك ، أو كما قال ياقوت « بين عمان وايلة على البحر الأحمر » ، انظر عنها ماجمعه الاستاذ لى سترانج ·
Le-Strange : Palestine under the Moslems, P. 536.

(٦) راجع ما سبق ص ٧٩ ، س ٣ وما بعده ·

(٧) يبدو فى هذه السطور خوف وليم الصورى من أن يتهمه قارؤه بالانحياز والتحزب لريموند كونت طرابلس ، ومن ثم فانه يحاول أن ينفى هذا الظن،ولكن بالرجوع الى ماسبق لوليم أن قاله فى هذا الصدد يتبين لنا أنه برر موقفه مقدما حين قال إن الجميع بما فيهم الأساقفة كانوا يزكون طلب ريموند ويؤيدونه فى أن يكون وصيا على الملك ·

(٨) راجع ما سبق عن مصرع ريموند على أيدى الحشاشين ·

(٩) أشارت الترجمة الانجليزية لكتاب الحروب الصليبية جـ ٣ ، ص ٤٠٤ حاشية رقم ١٠ الى أن آخر توقيع موجود لدينا لرالف كمستشار للملك ورد فى وثيقة مؤرخة بالثامن عشر من ابريل سنة ١١٧٤ م ، وذلك بناء على ما جاء فى R. Röhricht : Regista Regni Hierosolymitani, No. 514.

أما أول توقيع لوليم فكان على وثيقة مؤرخة بالثالث والعشرين من ديسمبر من نفس السنة Rohricht, op. cit. No. 518. وقد سبق لوليم أن أشار فى الكتاب العشرين ، الى أن وفاة « رالف » كانت فى ابريل ، أى قبل وفاة نور الدين بشهرين ·

(١٠) المقصود بالأمير الشاب هنا الأمير ابن نور الدين ·

(١١) يقصد بسبب هذا الكرم المفرط ·

(١٢) سفر أيوب ١٢/٢١ ·

(١٣) استعمل وليم فى الأصل كلمة Obryzum وعلقت الترجمة الانجليزية على هذه الكلمة فقالت انها من الألفاظ اللاتينية القليلة المتأخرة ، ونضيف الى هذا [illegible] فى المعاجم اللاتينية فهو كلمة [illegible] Obrussa

أى المعدن الخالص الذى عولج بالنار فخرج صافيا من كل شائبة ، وقد جاء فى المعاجم العربية ان الابريز هو الذهب الخالص ، وقالت انه لفظ [redacted]

(١٤) المقصود بذلك الاجتماع الذى أشار اليه وليم من قبل فى هذا الجزء الرابع من الترجمة العربية ، ص ٨٢ ، س - وما بعده ·

(١٥) المقصود بذلك ريموند كونت طرابلس الذى أصبح وصيا على الملك والمملكة ·

(١٦) المقصود بذلك قطب الدين مودود بن زنكى أصغر اخوة نور الدين انظر فى هذا Cahen : La Syrie du Nord, P. 393.

(١٧) المقصود بذلك موت نور الدين محمود بن زنكى ·

(١٨) المقصود بمولاه الشرعى هنا ابن نور الدين ·

(١٩) الاشارة هنا الى قصة النبى يونس فى دعائه على مدينة نينوى · وانظر ما أوردناه عنه فى الملحق الذى وضعناه فى ختام هذا الجـــزء من الترجمة العربية ·

(٢٠) يقصد بذلك صلاح الدين ·

(٢١) داريا - كما وصفها ياقوت - قرية كبيرة من قرى دمشـــق فى اقليم الغوطة ، راجع : Le- Strange, op. cit. P. 436.

(٢٢) هذا هو الاسم العربى لكلمة Trachonites وقد اورده بهذه الصورة ياقوت فى معجمه وقال هو « الحرة السوداء » الموجودة فى اقليم صلخد بالشام ، وهو اقليم حافل بالقرى مزدحم بالسكان ، انظر كتاب : Le Strange op. cit.: PP. 425, 492.

وانظر ما كتبناه فى الملحق الوارد فى ختام هذا الجزء تحت كلمة تراخونيتس·

(٢٣) تدمر أو بالميرا من المدن الرائعة فى العصور القديمة ، ويذكر اليعقوبى عنها أن أطلال بعض مبانيها الباقية حتى وقته تشير الى انها من بناء سليمان بن داود ، كما يشير المقدسى الى انها تقع فى جند حمص، ويذكر ياقوت أنها سميت باسم تدمر بن حسان من نسل نوح وقد وردت الاشارة اليها فى العهد القديم · ونظرا لما كانت عليه من عظمة فقد نسجت حولها كثير من

= الاخبار التى تدخل أكثر ما تدخل فى باب الاساطير ، كما انها أول بلد استولى عليه خالد بن الوليد وهو فى طريقه من العراق الى الشام ، راجع
Le-Strange : op. cit. PP. 541 — 542.
[illegible]

(٢٤) ألمت الهزيمة الساحقة بالامبراطور البيزنطى مانويل فى الوقعة التى عرفت بوقعة « ميروكيفاليون » Myrokephalion يوم ١٧ سبتمبر ١١٧٦ م ، وقد أنزلها به قلج أرسلان سلطان قونية على الرغم مما كان بين العاهلين قبل ذلك بقليل من العلاقات الودية التى تشير اليها زيارة قلج أرسلان للبلاط البيزنطى وما قوبل به من الاحتفاء النادر ، وما أغدقه عليه مانويل من الهدايا السنية · انظر وصف ذلك فى :

Michel Le Syrien (Chronique de..) trans. by Chabot, III, P. 319.

وقدافرزت هذه الزيارة اتفاقية صداقة بين الطرفين لكن مالبث قلج أرسلان أن طمع فى ثراء بيزنطة كما ان فردريك بربروسة حرض بيزنطة ضد السلاجقة فخرج الامبراطور مهاجما السلاجقة ولكن قوات قلج أرسلان تصدت له وأنزلت به هزيمة ساحقة فى العتاد والرجال ، حتى لقد كانت نجاة الامبراطور نفسه شبه معجزة كما يقول مؤرخنا وليم الصورى على أن قلج أرسلان مالبث أن عاد يسعى للصلح الذى أسفر عن تدمير بعض الحصون البيزنطية بآسيا الصغرى ، وعلى أية حال فان هزيمة مانويل فى « ميروكيفاليون » قضت على كل تفكير بيزنطى فى تحجيم القوة السلجوقية واخراج أصحابها من آسيا الصغرى ، ونضيف فى هذه الحاشية الى ما جاء فى المتن عن الاحباط الذى أصاب ما نويل أن فردريك بربروسة كتب الى الامبراطور البيزنطى للاعتراف بسلطانه على بيزنطة والخضوع لبابا روما ، وكان ذلك يعنى الرغبة فى توحيد العالم المسيحى تحت راية الامبراطورية الرومانية ، راجع :

Vasiliev : Hist. of the Byzantine Empire, II, P. 426 — 428.
Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State, PP. 391 — 393.

(٢٥) راجع الجزء الثالث من هذه الترجمة العربية عن زواج عمورى من مارية كومنين قريبة مانويل ·

(٢٦) لاحظت الترجمة الانجليزية أنه لم يلقب أبدا بالطويل السيف ولا بذى السيف الطويل ، وانما هذا هو لقب أبيه [illegible]

(٢٧) فيما يتعلق بمجريات أحداث هذه العلاقات الغرامية الوضيعة من ناحية « أندرونيكوس » الذى ظل يغرى فيليبا حتى « أدار رأسها ولم تعد قادرة أبدا على رفض أى طلب له » راجع ماورد فى كتاب .
Runciman : op. cit. II, PP. 377 — 378.

(٢٨) المقصود بذلك الحملة التى كان الامبراطور البيزنطى مانويل قد عرض على مملكة بيت المقدس المشاركة فى شنها على مصر وغزوها .

(٢٩) اشار رنسمان الى أن كونت فلاندرز صرح أخيرا بان غرضه الوحيد من الحضور الى فلسطين كان يتلخص فى أن يزوج الأميرة « سيبيلا » والأميرة « ابزابيلا » الى ولدى فصله روبرت أوف بيثون ، انظر :
Runciman : op. cit., II, P. 415.

(٣٠) Chalandon : Comnénes, II, P. 551.

(٣١) المقصود بذلك الاتفاق على ارسال حملة مشتركة من بيزنطة ومملكة بيت المقدس لغزو مصر .

(٣٢) بطرس الأول ٥/٥ .

(٣٣) المقصود بهما كونت طرابلس وكونت فلاندرز .

(٣٤) هكذا فى الترجمة الانجليزية . فان صح النقل فلسنا ندرى سر هذا الخلط فى ذكر الأماكن عند وليم فى هذين السطرين . فخالسيس هى المرادفة لكلمة « قنسرين » كما أوضح ذلك
Le-Strange : op. cit. 486 — 7.
ومن ثم فانه لا رابطة بينها وبين قنسرين .

(٣٥) [illegible] رقم ٢٨) اسم Jarnah او اسم Javelino ويسميه بهاء الدين فى المحاسن اليوسفية ص ٨٩ باسم « الملوك » .

(٣٦) فى الأصل Mirable Castle وقد ترجمناها الى [illegible]

سلام » بناء على التحقيقات والابحاث التى قام بها سير ويلسون Sir C. Willson منذ قرن وأثبت فيها أن هذا الاسم مرادف لكلمة « رأس العين » التى هى « انتيباترس » الواردة فى الاعمال ٣١/٢٣ فى ما جاء هناك « فالعسكر أخذوا بولس كما أمروا ، وذهبوا به ليلا الى « انتيباترس » التى هى رأس العين » ، ويشير لى سترانج op. cit. P. 472. الى ان رأس العين هى الواردة باسم Castle of Dirable فى الحوليات الصليبية ٠

(٣٧) مراثى أرميا ١/٢ ٠

(٣٨) مزامير ٢/٧ ، ١٠ ٠

(٣٩) مزامير ٨/٧٦ حيث قال : « الأرض فزعت وسكنت عند قيام الله » ٠

(٤٠) مزامير ١٩/٩٤ ٠

(٤١) أشارت الترجمة الانجليزية (ج ٢ ، ص ٤٣٠ ، حاشية رقم ٤١) الى أن هذا الكلام منظور فيه الى ما جاء فى المزامير ٢٣/٣٣ ، وهذا خطأ فآيات هذا المزمور اثنتان وعشرون آية فقط ٠

(٤٢) أوردت الترجمة الانجليزية (ج ٢ ، ص ٤٣١ ، حاشية رقم ٤٣) تفسيرا ترجمناه بالطواشية وذكره وليم بلفظ Tawasin أو Toas in بانهم طائفة من الجند لهم أهمية دينية ٠ كما أن كلمة Carageles او Caragholam التى ترجمناها بالقراغلامية والتى يعنى بها حرفيا «الخدم السود » و « المماليك » وذلك نقلا عن نلدكه بناء على ما جاء فى :
[illegible] Koniu[illegible]eichs Jerusalem 1100 —
[illegible]

[illegible]
[illegible] t. [illegible]

(٤٣) [illegible]

(٤٤) [illegible] ٤/١ ٠

(٤٥) [illegible] بهذه العبارات جماعة الاعراب

(٤٦) المقصود بذلك الفرسان الاسبتارية ٠

(٤٧) تثنية ٣٢/٢٧ ·

(٤٨) اشعيا ٤٢/٨ ·

(٤٩) فيما يتعلق بقصة جدعون التى يشير اليها وليم فى المتن أعلاه ، راجع ما أوردناه فى الملحق فى ختام هذا الجزء تحت كلمة « جدعون » ·

(٥٠) تثنية ٣٢/٣٠ ·

(٥١) فى هذا التعبير الذى يستعمله وليم الصورى اشارة الى رسالة يعقوب ١٧/١ ، فى قوله : كل عطية صالحة ،وكل موهبة تامة هى من فوق نازلة من عند أبى الأنوار الذى ليس عنده تغيير ولا ظل دوران » ·

(٥٢) خروج ١٥/١٢ ·

(٥٣) خروج ١٥/٧ ·

(٥٤) المقصود بذلك كونت فلاندرز ·

(٥٥) يقصد بالقلعة هنا حصن حارم ، انظر الحاشية التالية ·

(٥٦) راجع ما ذكره ياقوت وابن عبد الحق وأبو الفدا عن حصن حارم ، وانظر : Le-Strange, : op. cit. P. 449.

(٥٧) يعنى عزمه على الرجوع الى بلاده ومغادرة الأراضى الشامية ·

(٥٨) حددت الترجمة الانجليزية عودته الى بلاده بانها كانت فى خريف ١١٧٨ م ·

(٥٩) مزامير ٥١/١٨ ·

(٦٠) تكوين ٣٢/١٠ ·

(٦١) هذه اشارة صريحة عن مدى اهتمام المؤلف بالكتب وعنايته بأن تكون كنيسة صور ـ بجانب كونها بيعة دينية ـ دارا للكتب التى أشرف هو نفسه على تزويدها بها وبالوثائق التى كان شديد الولع بها ، ولا نستبعد أن تكون هذه المكتبة قد ضمت بعض الكتب العربية ·

(٦٢) ترك لنا أبو شامة فى الروضتين وصفا دقيقا للحظات همفرى القتالية الأخيرة فقال : « وقعت فيه (أى فى همفرى) جراحات احداهـــا بشابة فجدعته ونفذت الى فيه ومرت بضرسه فقلعته وخرجت من تحت فكه ٠ ووقعت أخرى فى مشط رجله فنفذت الى أخمصه ، وأخرى فى ركبته ، وضرب ىلت فى جنبه فكسر له ضلعين » ٠

(٦٣) هى قلعة تبنين الصليبية المعروفة فى الحوليات الصليبية باســـم Le Toron كانت من أقوى الحصون التى فى يد الفرنجة وقد مر بها الرحالة المسلم ابن جبير فى رحلته سنة ١١٨٥ م فذكر أنه كان يحكمها وقتذاك امرأة يسمونها « الخنزيرة » أو « الملكة » وهى والدة صاحب عكا ٠ وقد أطال هذا الرحالة فى وصفها ٠ ولكن ياقوت يقول عنها « وتبنين بلد فى جبل بنى عامر، أما الحصن فيطل على بانياس ، وهو واقع بين دمشق وصور » ٠ انظر :
Le Strange : op. cit. PP. 545 — 6.

(٦٤) رجحنـــا أن تكون « مرجعيـــون » هى المرادف للفظ اللاتينى Mergum الذى استعمله وليم فى الأصل ، وقد ذكرت المراجـــع الجغرافية فى العصر الوسيط « مرج عيون » وعرفته بأنه مرج فى الاراضى الشامية الساحلية ، وربما كان هذا هو المكان الوارد فى سفر الملوك ١٥/٢٠ باسم « عيون » فقط فى قوله « ٠٠٠ وضرب عيون ، ودان ، وآبل » ٠

(٦٥) لفظ « الباشورة » من مصطلحات الحصار الاسلامية فى العصور الوسطى ٠

(٦٦) [illegible] معروف عند الصليبيين باسم [illegible]
وصفه ياقوت بأنه قلعة حصينة [illegible] على قمة جبل مجاور لبانياس [illegible]
اقليم دمشق [illegible] قال ان [illegible] اسم رجل روسى أو افرنجى ، [illegible]
لى سترانج [illegible] op. cit. [illegible] تفسير كلمة شقيف بأنها سريانية معناها
« الصخر [illegible] أرنون [illegible] القلعة ان ترجمها الى العربية [illegible]
« أرنون »

(٦٧) جرت هذه الحادثة يوم العاشر من شهر يونيو ١١٧٩ م ، وذلك حسبما يورد
Stevenson : Crusaders in the East, P. [illegible].

(٦٨) سفر أيوب ٣/٢٧ ٠

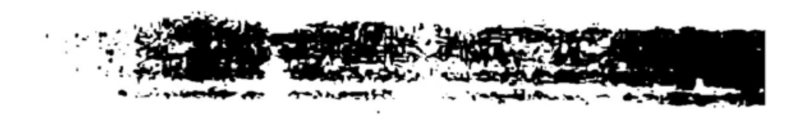
(٦٩) ليس من المؤكد تماما أن يكون « ايود » قد مات فى هذه السنة ويثير الشك فى تحديد هذه السنة المؤرخ الفرنسى « دالبون » ، راجع :
d'Aibon : La Mort d'Odon de st. Amané (in) Fol., XII, PP. 279.

(٧٠) يتكلم المؤلف هنا عن قيام صلاح الدين بحصار القلعة المعروفة بقلعة بلدوين عند مخاضة يعقوب ، وهو حصار استمر ستة أيام من ٢٤ اغسطس حتى ٢٩ منه وانتهى بهدم أسوارها وتسويتها بالأرض ، ولم يكن أحد يتوقع قيام صلاح الدين بمهاجمة تلك القلعة فى هذه اللحظة بالذات بل كان المتوقع أن يتابع تقدمه الذى وردت الاشارة اليه فى الصفحات السابقة ، لكن أزعجه مجيء حملة فرنسية من كبار فرسان فرنسا وعظمائها ، وعلى رأسهم أخو الملك وكونت شمبانيا هنرى الثانى وفيليب أسقف بوفيه ، وقد حاول صلاح الدين ان يتجنب الاصطدام بهذه الحملة فبدل خطته واتجه الى قلعة بلدوين ، كما أن الحملة الفرنسية تجنبت التعرض لقوات صلاح الدين بل عادت على أعقابها الى فرنسا ولم تحقق كسبا من خروجها هذا ٠ وقد وردت الاشارة الى ذلك عند بعض المؤرخين المسلمين أمثال أبى شامة وابن الأثير ثم المقريزى ٠

(٧١) مزامير ٦/٣٦ ، ٣/٦٦ ٠

(٧٢) عبرانيين ٦/١٢ ٠

(٧٣) ملاخى ٦/٣٠ ٠



فصول الكتاب الثانى والعشرين

صراع المصالح الشخصية

١ ـ الملك يزوج أخته ـ أرملة المركيز ـ من شاب اسمه جى دى لوزنيان . الملك يبرم هدنة مع صلاح الدين على شروط متكافئة وهو أمر لم يسبق له مثيل من قبل .

٢ ـ صلاح الدين يغير على امارة طرابلس ويحرق المحاصيل وغيرها مما فى حوزة الصليبيين فى تلك الناحية .

٣ ـ وصول أسطول مصرى الى جزيرة أرواد . كونت طرابلس يعقد هدنة مع صلاح الدين .

٤ ـ عودة رئيس أساقفة صور من القسطنطينية ووفاة لويس ملك الفرنجة .

٥ ـ الملك يزوج أخته الصغرى من همفرى الثالث ، وفاة امبراطور القسطنطينية .

٦ ـ صدور قرار الحرمان الكنسى ضد أمير أنطاكية بسبب العشيقة التى اصطفاها رغم أن زوجته لاتزال على قيد الحياة ٠

٧ ـ ارسال بطرك القدس الى أنطاكية للبحث عن علاج لهذه الأمور الخطيرة ٠ وفاة البابا اسكندر (الثالث) ٠

٨ ـ وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وانتقال ميراثه الى قريب له ٠

٩ ـ التنافر الخطير بين كونت طرابلس والملك وسرعان ما يتحول هذا النفور الى خصومة صريحة ٠

١٠ ـ حدوث فتنة فى القسطنطينية تجعل لأندرونيكوس اليد العليا فى تصريف أمور الدولة ٠ الأضرار الجسيمة التى لحقت باللاتين من جراء هذه الفتنة ٠

١١ ـ ذكر أسباب الثورة والاضطرابات ٠

١٢ ـ أندرونيكوس يفتك بالنبلاء ويستولى على القصر والمدينة ٠ ويستعمل الغلظة فى قمع الأهالى فى حكمه اياهم ٠

١٣ ـ اللاتين الذين كانوا قد نجوا من الموت فى السفن يعيشون فى الجزر والأماكن الأخرى الموجودة على طول الشاطىء [illegible] عدوانية

١٤ ـ صلاح الدين [illegible] الاتفاقية التى عقدها مع الملك الذى يزحف الى [illegible]
ويأسرون السكان ويأخذون منهم ٠

١٥ ـ صلاح الدين يستولى على أحد معاقلنا وهو حصن شديد الحصانة فى منطقة السواد ٠

١٦ ـ صلاح الدين يهاجم أرضنا بقوة مسلحة فتنشب معركة لكنها غير فاصلة عند حصن فوربيليه ٠

١٧ ـ صلاح الدين يستدعى أسطولا من مصر ويفرض الحصار على مدينة بيروت ٠

١٨ ـ الملك يصل الى صور فى طريقه لانقاذ بيروت وصلاح الدين يرفع الحصار ٠

١٩ ـ صلاح الدين يعبر الفرات ويدخل أرض الجزيرة ٠

٢٠ ـ الملك يخرب اقليم الدماشقة تخريبا كريها .

٢١ ـ الصليبيون يحاصرون القلعة التى استولى عليها صلاح الدين أخيرا ، ويتملكونها ويعيدونها الى حظيرة المسيحية ٠

٢٢ ـ الملك يهاجم بعسكره أرض الدماشقة مرة ثانية ٠

٢٣ ـ اجراء احصاء عن المملكة كوقاية ضد كوارث المستقبل ٠

٢٤ ـ صلاح الدين يحاصر حلب ويأخذها باتفاق خاص ٠ أمير انطاكية يعقد الشروط المتبادلة مع روبرت الثالث [illegible] أوربيليه

٢٥ ـ اصابة الملك بمرض عضال فى الناصرة [illegible]

٢٦ ـ صلاح الدين يغير على بلادنا بقوات هائلة ويضرب معسكره بجوار « بيسان » فيخرج المسيحيون لصده ٠

٢٨ ـ صلاح الدين يفرض الحصار على مدينة البتراء (ادمر)
الواقعة وراء الأردن ويستولى عليها بالقوة .

٢٩ ـ الملك بلدوين يخلع كونت يافا من الادارة العـامة للمملكة
ريلبس ابن عمه العصابة .

ـ الملك يحشد قواته ويسرع عبر الأردن لمساعدة المحصورين
ليرفع صلاح الدين الحصار .

هنــا يبــدأ

الكتاب الثانى والعشــرون

صــراع المصــالح الشخصــية

وصل الى المملكة فى هذه الأثناء أيضا « بوهيموند » أمير أنطاكية و « ريموند » كونت طرابلس ومعهما كوكبة من الخيــالة لحراستهما ، وقد انزعج خاطرالملك كل الانزعاج مخافة أن يؤدى قدومهما الى احداث ثورة يجدانها ذريعة لاقصــائه عن العــرش وسبيلا لاستيلائهما على المملكة ، وكانت وطأة المرض قد زادت عليه زيادة ضاعفت قلقه عن ذى قبل ، ناهيك بتفاقم ظهور أعراض الجذام يوما بعد يوم عليه ٠

أما أخته أرملة المركيز « دى مونتفرات » فكانت ـ كما قلنا ـ فى انتظار وصول الدوق ٠

كان الملك يعرف هذين الكبيرين(١) معرفة تامة ، لكنه ارتاب فى الدوافع الكامنة وراء حضورهما رغم وشيجة القرابة التى تربطه

[illegible]

[illegible]

مملكته بل وبين الأجانب والمواطنين رجالا اعظم أهمية من (هذا الزوج) وأحكم منه وأكثر ثراء ممن لو صاهر أحدهم لعادت هذه المصاهرة بالنفع الأكيد على المملكة لكنه لم يتدبر قول القائل : « فى العجلة الندامة » ، اذ بادر فعقد قرانها على شاب ليس بذى جاه ولا جاه وما هو فى العير ولا النفير ذلك هو « جى دى لوزنيان » ابن هيج الأسمر ، الذى كان من منطقة « بواتييه » ، واحتفل بهذا الزواج فى اسبوع عيد فصح (١١٨٠) فخرج الملك بذلك العمل على العرف الجارى اتباعه ، ولكنه عقده لأسباب خاصة عنده(٢) ٠

لم يفت ذهن النبيلين اللذين أشرنا اليهما حالا نظرة الملك وباروناته الى قدومهما بعين الشك والارتياب وعدم الارتياح ، لذلك كرا راجعين الى ديارهما بعد فراغهما مباشرة من أداء مراسيم الحج المعتادة ، وظلا مقيمين بضعة أيام فى طبرية دون أن يشعر بوجودهما صلاح الدين الذى هاجم المدينة هجوما لم يسفر عن أى ضرر بالأهالى ثم انسحب مرة ثانية الى الاقليم المحيط « ببانياس » وظل مقيما به مع عسكره ـ كما عرف فيما بعد ـ فى انتظار وصول أسطول مؤلف من خمسين شونية كان قد أمر فى الشتاء المنصرم باعدادها ، فكان هذا التأخر من جانبه مدعاة لتسرب شىء من القلق الى نفس الملك مما حمله على ايفاد الرسل اليه لعقد هدنة فيما بينهما ، فلقى عرض الملك قبولا حسنا من جانب صلاح الدين ولم يكن ذلك راجعا ـ كما زعم البعض ـ الى عدم اطمئنانه الى قوته أو لخـــوفه من قواتنا التى طالما هزمته أكثر من مرة خلال السنوات الماضية ، لكن بســـبب ما ضربت به المنطقة المحيطة بدمشق على مدى سنوات متتالية من جدب فظيع وعدم سقوط المطر مما أدى الى ندرة فى الطعام من أى نوع كان للانســـان والحيوان على السواء ، ومن ثم عقدت هدنة بين

الطرق في البر والبحر كما شملت الأجانب والمقيمين على
[illegible]
[illegible] التي تضمنها الاتفاق حرية لنا بعض الشيء اذ كانت بلا تحفظات من ناحيتنا بحجة أن هذا كان أمرا ـ كما قيل ـ لم يسبق حدوثه من قبل •

ـ ١٢ ـ

لكن حدث فى السنة ذاتها وخلال الصيف التالى مباشرة أن قام صلاح الدين فاتخذ الاجراءات الكفيلة بضمان سلامة اقليمى دمشق وبصرى ، ثم زحف بكل خيالته على طرابلس فأقام عندها معسكره ، وأنفذ الفصائل من عنده تجوب النواحى المحيطة بها ، وكان الكونت قد ارتد الى مدينة « عرقة » فى انتظار الفرصة المواتية للاشتباك مع العدو دون أن يقحم نفسه فى مخاطرة تعرضه لخسارة جسيمة •

أما فرسان المعبد الذين يعيشون فى تلك الناحية ذاتها فقد ظلوا مقيمين فى معاقلهم معتصمين بها ، يتوقعون أن يفرض الحصار عليهم بين آونة وأخرى ، فكانوا بذلك لايريدون المخاطرة بالالتحام بالترك ، وفعل الفرسان الاسبتارية فعلهم فارتدوا خائفين الى الكرك وهو حصنهم المنيع وأغلقوا أبوابه عليهم ، وشعروا أنهم قد أدوا واجبهم الملقى على كواهلهم اذ استطاعوا وسط هذه الأهوال الحفاظ على الحصن المشار اليه سليما من كل أذى يسعى العدو لالحاقه به ، ولكن الجيش التركى احتل ناحية واقعة بين هؤلاء الفرسان وبين قوات الكونت فلم يستطع الصليبيون مساعدة بعضهم البعض أو ارسال الرسل من جيش الى آخر للوقوف على أحوال كل واحد منهما •

السهلية طولا وعرضا لاسيما الأراضى التى نضجت محاصيلها دون أن يلقى كيدا ، وراح يضرم النار فى كل محاصيلها التى جمعت فى الشون والأجران ، وأحرق الحنطة التى لازالت عيدانها خضراء ، وكذلك الغلة التى نمت على سوقها ، كما ساق الماشية غنيمة باردة وسار فى الاقليم كله سيرة مدمرة ٠

- ٣ -

على هذه الصورة كان الوضع فى أرض طرابلس حين ظهرت فجأة أمام بيروت فى أوائل يونيو قوات صلاح الدين البحرية ، لكن ما أن تأكد قادة هذه القوات بعقد صلاح الدين الهدنة مع الملك حتى التزموا بالصلح الذى اتفق عليه الجانبان ، وخافوا أن يصدر منهم فى نواحى بيروت أو داخل أى صقع من المملكة ما ينقض اى شرط من هذه الشروط ٠ ولما علموا أن سيدهم موجود على رأس جيشه فى امارة طرابلس يمموا وجوههم شطرها واستولوا على جزيرة «أرواد» المواجهة لمدينة « انطرسوس » والتى تبعد عن طرابلس ثلاثة أميال ، فوجدوا مرساها ملائما لسفنهم ٠

ويقال أن أول من سكن هذه الجزيرة وأقام بها مدينة حصينة هو «أراديوس» بن كنعان حفيد نوح فاشتق اسمها من اسمه ٠

وكان يوجد على مقربة منها من الجهة الشرقية مدينة رائعة تعرف بانترادوس التى سميت بهذا الاســـم كما قلنا لوقوعها فى مواجهة « أرادوس » ، وقد حرف هذا الاسم الآن الى طرطوســـة Tortosa التى يقال ان الرسول بطرس شيد بها كنيسة صغيرة تمجيدا للسيدة مريم ام عيسى المســـيح وذلك حين قيامه

بالتبشير في فينيقية ، ولا تزال هذه الكنيسة [illegible] الى [illegible]
[illegible] من [illegible] للزيارة والتبرك . كما أنعمت عليها السماء
بالنعم الجزيلة استجابة لصلوات المؤمنين ودعواتهم ·

ويلاحظ أن هاتين المدينتين تابعتان لمدينة صور العظمى ، كما يوجد على مقربة منها موضع يعرف بمرقية(٣) وهى من البلاد التابعة لفينيقية ·

ولقد أدى رسو هذه القوات على جزيرة « أرواد » الى بث الفزع فى جميع أرجاء الاقليم ، ففى الوقت الذى كان القواد ينتظرون فيه مولاهم اذا بالعسكر يوقدون النار فى بيت فوق ميناء طرطوسة ويبذلون غاية جهدهم فى انزال الأذى بالأهالى ، لكن لم تفلح محاولاتهم وكان صلاح الدين قد عاث فى الاقليم بالتخريب حسب هواه ، فلما فرغ من ذلك أمر أسطوله بالعودة ثم جمع عسكره وانكفأ راجعا الى بلده ، ولم تنقض سوى أيام قلائل الا وقد أمضى اتفاقية سلام مع الكونت وارتد الى ناحية قاصية من نواحى دمشق ·

ـ ٤ ـ

كنا فى هذه الأثناء وعلى مدى سبعة أشهر موصولة مقيمين عند امبراطور القسطنطينية (مانويل) العظيم الخالد الذكر اقامة أسفرت عن فوائد جمة عادت بالنفع علينا وعلى الكنيسة ، حتى اذا كان اليوم الرابع بعد عيد الفصح وبعد مفاوضات جدية شاقة طويلة أذن لنا أن نعود الى ديارنا ، وبينما نحن نهم بمغادرته اذا به يأمر أن يرافقنا رجال من لدنه وأشراف من علية رجاله ، فركبنا أربع سفن جهزها الامبراطور جهازا رائعا أفصح عن سخائه الامبراطورى ، وكان خط ابحارنا هو المرور بجـزر « تندوس »

جاعلين ولاية « فريجيا » وآسيا الصغرى و « ليكيا » و « ليكونيا » و « بامفيليا » و « ايسوريا » و « كيليكية » على يسارنا · فلما كان يوم ١٢ مايو وصلنا بفضل الله معافين ناعمى البال الى مدخل نهر العاص وميناء السويدية ·

على أن هناك أمرا ليس بالتافة فنتجاهله فى تاريخنا هذا ، الا وهو أنه فى أثناء اقامتنا فى المدينة الامبراطورية بسبب عدم ملاءمة فصل الشتاء للرحيل واستجابة لأمر أعظم حكام الأرض قاطبة ذى النظر الأبوى السديد الذى توقع أن يكون رحيله عن هذا العالم سريعا ·· أقول انه فى أثناء اقامتنا هذه أقام الامبراطور (مانويل) مراسيم عقد قران ولده ، وابنته ، فأما الولد فهو ألكسيوس(٤) (الثانى) المسمى باسم جده ، حيث شرفه أبوه بأجنس ابنة لويس ملك الفرنجة العظيم ، ولم يكن ألكسيوس (الابن) هذا قد بلغ الحلم بعد اذ لم يجاوز الثالثة عشرة من عمره ، وأما العروس فهى «أجنس» وكانت فى الثامنة ، وخلع (منويل) عليهما التشريف الامبراطورى وذلك فى قصر قسطنطين الكبير وفى الجناح المعروف باسم «ترولوس» ويقال انه كان قد التأم فى هذا المكان المجمع المقدس السادس زمن قسطنطين بن قسطنطين بن هرقل ·

ثم زوج الامبراطور ابنته من شاب اسمه « رينيه » ابن وليم الكبير مركيز دى مونتفرات وشقيق وليم الذى كنا قد زوجناه من أخت ملكنا ، وكان الامبراطور قد بعث فى طلب هذا الشاب وعمره يومذاك قرابة سبعة عشر عاما وارسل فى ذلك رسله الامبراطوريين لاستدعائه فبلغ المدينة الملوكية قبل وصولنا اليها بخمسة عشر يوما تقريبا فأقام بها فترة من الوقت زار خلالها الجيش فى صحبة الامبراطور المبجل

[illegible]
[illegible]
عظيم الأبهة فى القصر الجديد المسمى بقصر « بلاشيرناى » حيث قام « تيودوســـــيوس » بطرك القســــطنطينية بعقد القران ، وزوج (مانويل) ابنته مارية من « رينيه » الذى سماه باسم أبيه وهو « يوحنا » ولقبه بقيصر ٠

كانت « مارية » ابنة للامبراطور من زوجته الأولى الامبراطورة « ايرين »(٥) الطيبة الذكر التى كانت قد جاءت من مملكة التيوتون لتكون عروسا له ٠

كما أنه لم ينجب من زوجته الثانية مارية (الانطاكية) سوى ابنه الوحيد « ألكسيوس » امبراطور القسطنطينية حاليا (٦) ٠

* * *

ان أية محاولة لتصوير جميع عجائب تلك الأيام انما هى محاولة عقيمة حتى ولو كرسنا لهامؤلفا خاصا ، لكن حسبنا أن نشير الى ألعاب السيرك التى يسميها سكان القسطنطينية بالمسارح ، كما يكفى أن نذكر المناظر الرائعة المختلفة التى عرضت على الشعب فى أبهة عظيمة طوال أيام الاحتفالات وما ظهر من روعة الملابس الامبراطورية والأردية الملوكية المحلاة بكثيرمن الأحجار الكريمة والجواهر الثقيلة الوزن ،والأثاث المطعم بالذهب والفضة فى القصر مما لا يستطيع أحد تقدير ثمنه ٠ وان اللسان ليعجز عن وصف السجوف والأقمشة الغالية التى كانت تزين المخدع الملكى ، كما يقصــــر اللسان عن الافاضة فى الاشارة الى كثرة الخدم ورجال البلاط وأبهة الاحتفال بالزواج ، وكثرة الهدايا التى أغدقها الامبراطور على رجال من بنى قومه وعلى الأجانب لكن لنعد الى ما كنا فيه فنقول انه لما صرنا فى أنطاكية نقلنا أوامر الامبراطور الى الأمير المبجل بطرك الامارة ،

ووجدنا ببيروت الملك (بلدوين الرابع) ومن في طريقه الى صور ،
[illegible] رحلتنا وعدنا الى [illegible] الحرب
يوم ٦ يوليو بعد غيبة عام وعشرة أشـــهر منذ رحيلنا الى المجمع الكنسى ٠

* * *

ولما كان الثامن عشر من سبتمبر (سنة ١١٨٠ م) وفى العام السابع من عهد الملك بلدوين الرابع مات أتقى الناس (لويس السابع) ملك الفرنجة وتخلص من عبء الجسد الفانى وصعدت روحه الى عليين لتنعم بالجزاء الكريم الذى لا يفنى فى صحبة العظام الأبرار ، ولم يخلف لويس سوى ولد واحد يرثه من بعده هو « فيليب » الذى رزقه من الملكة « أليكس » ابنة ثيوبولد الكبير وأخت كل من كونت تروى وثيوبولد كونت شارترز وستيفن كونت سانسير ، ووليم رئيس أســـاقفة ريمز ،وكانت وفاة لويس الســـابع بعد حكم طال ثلاثا وأربعين(٧) عاما ، فكان عمره يوم وافته منيته ستين عاما ٠

وفى السادس من اكتوبر التالى مات الطيب الذكر « أمالريك » بطرك بيت المقدس بعد أن ظل فى كرسى البطركية عشرين سنة تقريبا، وكان رجلا لين العريكة ليس بذى خطر « فلما مضت عشرة أيام على رحيله انتخب هرقل رئيس أساقفة قيسارية ليحل مكانه ٠

ـ ٥ ـ

وفى هذا الشهر ذاته خطب الملك لأخته التى لم تكن قد بلغت الثامنة من عمرها ـ شابا حدثا اسمه « همفرى » ويعرف بالثالث اذ هو ابن همفرى الثانى ٠ أما أمه فهى « ستيفانى » ابنة فيليب صاحب نابلس ، وكان همفرى الثانى ابنا لهمفرى الأول صـــاحب شقيف تورون ولكونستابل الملك الذى تعددت الاشارة اليه كثيرا ٠ وأما فيليب

النابلسى فهو جد همفرى الثالث من ناحية الأم ، وهو صاحب المنطقة الوعرة [illegible] التى [illegible] الآن بالكرك ، كما كان ايضا صاحب اقليم البقاع المعروف الآن باسم « مونتريال » • وهذان الاقليمان واقعان الآن فى ما وراء الأردن •

ولقد انصرف همفرى هذا فيما بعد الى الحياة الدينية وأصبح رئيس فرسان المعبد••

كان أشد المتحمسين لهذا الزواج الأمير « رينو » ثالث أزواج أم همفرى الصغير الذى كان قد بلغ الآن سن الرشد ، فقد عقد قران همفرى على أخت الملك فى القدس •

ولقد ورث همفرى عند موت جده الأراضى الواقعة فى اقليم صور وهو شقيف تورون وهونين Chastel Neuf ومدينة بانياس بكل ملحقاتها ، وأجرى تبادلا على هذه الملكية مع الملك تحت شروط معينة قمت(٨) أنا باملاء نصوصها وفق الصلاحيات التى يخولها لى منصبى الرسمى ، وقد أودع هذا النص فى ديوان المحفوظات الملكية •

***

وفى اليوم الثالث(٩) من هذا الشهر ذاته تخلص مانويل ـ امبراطور القسطنطينية ـ الجليل وصاحب الذكر الخالد وأعظم ملوك الأرض قاطبة منأوزار الجسد ، وصعدت روحه الى السماء ، وستظل ذكراه حية يدعو لها القديسون لما قدم من الصدقات والمنح السخية • وكانت وفاته بعد حكم دام أربعين سنة ، وقد بلغ من العمر واحدا وستين عاما على حسب ماوصل الى علمنا على وجه التحقيق •

كذلك حدث فى هذا الوقت ذاته أنترك « بوهيموند » الثالث زوجته « تيودورا » ابنة أخى الامبراطور ، ثم أقدم فتحدى قوانين

الك[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من امرأة تدعى « سيبيلا » وكان قد ذاع [illegible]
بممارستها أعمال السحر الشريرة(١٠) ٠

كان جوسلين خال الملك وسنكاله موجودا اذ ذاك بالقسطنطينية حيث كان بلدوين قد بعث فى استدعائه اليه لبعض شئون الدولة ، كما كان بلدوين صاحب الرملة موجودا هو الآخر هناك ملتمسا من الامبراطور عونه فى موضوع سداد فديته لكن حدث فى أثناء اقامة هذين الاثنين(١١) فى العاصمة الملوكية أن مات طيب الذكر الامبراطور مانويل ، وتكشف الأمر يوم أول مارس عن أن بعض كبار الشخصيات من رجال الدولة قد دبروا مؤامرة لاحداث ثورة ضد الامبراطور الكسيوس (الثانى) بن مانويل الذى كانت أمه الامبراطورة (مارية الأنطاكية) وصية عليه تبعا لوصية أبيه ، وألقى القبض على هؤلاء الرجال بتهمة الخيانة العظمى ، وأمر الامبراطور (الصغير) بتقييدهم وزجهم فى الحبس على الرغم من وشيجة القرابة التى كانت تربطه ببعضهم ٠

كان من زعماء هذه المؤامرة مانويل بن أندرونيكوس الكبير الذى أشرنا اليه فيما سبق ، وكذلك «البروتو سيباستوس الكسيوس»، وتيودورا كالوسينا ابنة أخى الامبراطور (الكبير) ، وأخو أمين الخزانة الذى كان يشغل احدى الوظائف بالقصر ٠ هذا الى جانب اثنى عشر آخرين من أبرز رجال الدولة ذوى المكانة المرموقة ، كما أن المبجلة مارية أخت الامبراطور كانت ضالعة هى الأخرى فى المؤامرة(١٢) ، وان كان دورها ثانويا ، وقد اغتنمت فرصة ظلام الليل ففرت مع زوجها الذى أشرنا اليه حالا الى كنيسة سنت صوفيا ولاذت بها مترقبة فى قلق مصيرها ، ولكنها استظلت بحماية الكنيسة وان اتخذت هى وزوجها من هذا الملجأ مكانا لتجميع الأسلحة والرجال المسلحين من أنصارهما وممن زلوا زلتها فساهموا فى هذه المؤامرة

[illegible]
بطرك المدينة فيما احتزسته ٠

أما رهط الامبراطور الذى كان يعتمد على وجه الخصوص على اللاتين فقد أخذ يعمل على زيادة قوته مما أفزع مارية التى اضطرت أخيرا ـ بسبب تضعضع قواتها وبدافع من يأسها من الحياة ـ لأن تتلمس الوسطاء متذللة الى الامبراطور بواسطتهم لالتماس رحمته، فاستجاب لها أخوها وتعطف عليها فعفى عنها ٠

ـ ٦ ـ

كان وضع اللاتين فى هذا الوقت بالمشـرق لاسيما فى امارة أنطاكية شديد الاضطراب بسبب ما قام به أميرها بوهيموند (الثالث) من تنحية زوجته الشرعية (تيودورا) واتخاذه (سيبيلا) خليلة له يعاشرها معاشرة الأزواج ، وطالما نبهه الكثيرون الى وجوب الكف عن حياة الدعارة الخسيسة التى يحياها جهرا وأن يعيد زوجته الشرعية (تيودورا) اليه ، لكن صـــح ما جاء فى الأمثال(١٣) « اذا جاء الشرير جاء الاحتقار أيضا ، ومع الهوان عار » فظل يطوى وجهه كشحا ويصم أذنيه كأن فيهما وقرا عن أولئك الناصحين ، غير ملق بالا الى ما يقولون ، ولم ينصت الا الى « صوت الحواة الراقين رقى حكيم »(١٤) ٠

وترتب على ذلك استمراؤه حياة الخطيئة فلازمها جالبا على نفسه ما يستحقه وما هو أهل له ، فقد صدر ضده قرار الحرمان وحقت عليه اللعنة ، فلم يكترث بهذا الأمر ولم يعـــره اهتماما بل تمادى فى غيه وأسرف فى ممارسة حياته النجسة أكثر من ذى قبل ، وعامل البطرك والأساقفة وغيرهم من كبار الشخصيات الكنسية فى تلك الامارة كما لو كانوا أعداء له وأفحش فى ايذائهم فدنس حرمة

الأماكن الطاهرة : كنائس كانت أو أديرة ، ونهب ما حوته من الأشياء المقدسة ، واغتصب الممتلكات الخاصة فى وقاحة لا تصدر الا من روح شريرة فاجرة حتى ليقال انه حاصر البطرك ومن لاذوا به من رجال الدين والكهنوت ، مما ألجأهم الى قلعة تابعة للكنيسة فرارا من بطشه واتقاء لشره ، وكانت تلك القلعة مجهزة أحسن تجهيز بالأسحلة والعسكر ومزودة بكميات وفيرة من الطعام ، ثم جاءت الأخبار بأنه شن عليها بضع هجمات ضارية كما لو كانت قلعة من قلاع العدو •

وبلغ السيل الزبى ،وضاقت طائفة منكبار الشخصيات ذرعا بما اتسم به مسلك هذا الأمير من الجنون ، ونفد معين صبرهم ولم يعودوا قادرين على احتماله ، ولما كانوا يدركون أن واجبهم هو خدمة الله أكثر من أنيكونوا فى خدمة أى كائن منالناس فقد انفضوا من حول (بوهيموند الثالث) جسما وروحا ، اشمئزازا من فعاله القبيحة الشائنة ، وكان من بين هؤلاء المنفضين عنه رجل سرى أمجد قوى البأس هو « رينيه ماسوبيه » فقد كان له حصن(١٥) أمنع من عقاب الجو فاعتصم به ، ثم جاء الى ملأ من الناس فاضت قلوبهم بالخير وتمثلوا الله فى السر والعلانية وخافوه فدعاهم للانضمام اليه حيث يقيم ، وقدم الملجأ الأمين لهؤلاء النبلاء الذين خرجوا من بلادهم ، كما قدمه الى سواهم ـ أيا كانوا ـ ممن فروا لهذا السبب ذاته •

أدى مسلك بوهيموند الى أن البلاد أصبحت تواجه مأزقا شديد الخطورة ، وتأزمت الأمور ورأى رجال من اصحاب الخبرة الطويلة أنه ان لم تتداركنا سريعا رحمة الله ويسعفنا بنجدته فلا مفر من أن يفتح باب الشر على مصراعيه فيدخل منه العدو ويدمرنا تدميرا ، وتلحق بالصالح المسيحى نكسة لا يبرأ منها الى الأبد ، وتقع الامارة كلها مرة أخرى فى أيدى الترك بعد أن استطاع القادة المخلصون

بدون الحرب أن ينتزعوها منهم بعد أن بذل شـــعب المسيح فى سبيل الاسترداد ما بذل من الجهود وتحمل من المشاق ما يقصر اللسان عن روايته ، لأن كلمة الحق ثابتة لا تتغير ولا مبدل لها ،كما أنه لا مشاحة فى صحة القول القائل بأن « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب ، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت »(١٦) .

حينذاك اجتمع ملك بيت المقدس والبطرك المبجل وكبار رجال الكنيسة والأمراء العلمانيون ليتشاوروا تشاورا جديا فيما ينبغى عليهم اتخاذه من السبل فى هذا الحدث الطارىء الخطير . وعلى الرغم مما اتسم به مسلك هذا الأمير الطائش الفاسق (بوهيموند الثالث) من جرم كان يستوجب اتخاذ أصرم الاجراءات ضده الا أنهم ترددوا طويلا فى اللجوء الى القوة حتى لا يندفع فى معاداتهم فيستنجد بقوات العدو ، لأنه ان يفعل ذلك يفتح أبواب البلد على مصاريعها أمـــام التـــرك لاخـــراجهم منها يدخلوها فتضـــيع هبـــاء كـــل الجهود التى قد تبذل بعدئذ كذلك لم يكن الوقت حينذاك وقت مفاوضات أوتحذيرات واسداء العظات ورأوا ألا جدوى وراء ارسالهم رجالا من ذوى الفطنة الى رجل فدم كهذا الرجل مندفع فى طريـــق الشـــر اندفاعا جنونيا لأن ذلك يكون كشأن من يحكى قصة « لحمار أصم » فيذهب الكلام فى الخواء ، ومن ثم رأوا أن يتحملوا هذا الشر حتى لا يقعوا فى أمور أشد منه خطرا ، ولم يمنعهم ذلك الرأى فى الوقت ذاته من التماس العون من الرب الذى اعتاد أن ينقذ حتى الذين فى أعماق البحر لأنه هو الرب الذى(١٧) « يعطى الثلج كالصـــوف ، ويذرى الصقيع كالرماد » .

وكان أملهم معقودا على أن تواتى الرحمة الالهية الأمير فيعود الى رشده ويرجع الى صوابه ، وأن يسبغ العلى عليه ما أسبغه على بقية القادة العظام من الفضائل عساه يجاهد ليحيى حياة أفضل .

سرعان ما اتضح للجميع أن الشر آخذ فى التفاقم ، وانه لا أمل فى علاج سريع ، وأن اللعنة لم تحق بالأمير (بوهيموند الثالث) وحده بل حلت أيضا بسائر البلاد نتيجة ما وقع من نهب الممتلكات الطاهرة وتخريبها وحرقها ، وانه لولا تعميد الأطفال لحرم الناس من كافة الطقوس التى تقدمها لهم الكنيسة • وأدرك المسيحيون فى جزع أن الظروف الحالية أن طالت حل الدمار بالجميع ، لذلك تقرر بالاجماع أن يذهب البطرك المبجل الى انطاكية في محاولة منه ان أمكن - بعون الرب - لالتماس أى علاج سواء أكان هذا العـــلاج مؤقتا أم دائميا يمكن به دفع هذه الخطوب المدلهمة •

وصحب البطرك فى سفره هذا كل من أمير انطاكية السابق « ارناط » زوج أم بوهيموند الصغير ، كما صحبه أيضا الأخ « ارنولد دى تورج » رئيس فرسان الهيكل ، والأخ « روجر دى مولان » رئيس الفرسان الاسبتارية •

كان الداعى لنا على اتخاذ هذه الخطوة هو الخوف من أننا اذا لم نظهر أى مواساة من جانبنا لجيراننا فى محنتهم هذه ولم نحاول التماس حل لما هم فيه من الوضع السىء فقد يرمينا البابا والأمراء الذين وراء البحر بالاهمال ، بل وربما اتهمونا بسوء النية ولؤم القصد •

كما صاحب البطرك أيضا بعض كبار رجال الكنيسة من العقلاء ومن بينهم « موناكوس » رئيس أساقفة قيصرية المنتخب « وألبرت » أسقف بيت لحم ، و « رينالد » رئيس دير صهيون ، و« بطرس »

حارس كنيسة القيامة · وحينذاك انطلق البطرك بهم وبرفاقه الآخرين ميممين وجوههم شطر انطاكية ·

كما استصحب معه كونت طرابلس الذى كان أشد الناس مودة للأمير وأحب أصدقائه الى قلبه ، وكان الأمل معقودا بأن يتمكن الكونت بحديثه اليه ، وما سيقوله رجالنا من أن ينجزوا المهمة التى جاءوا من أجلها على أكمل وجه ·

وعندما بلغوا اللاذقية تباحث الرسل مع البطرك والأمير على حدة ، واتفقوا على يوم يجىء فيه كل من الطرفين الى أنطاكية التى ما أن تم الاجتماع بها وتبادل وجهات النظر المختلفة حتى اتفق الطرفان على هدنة مؤقتة بالشروط التالية ، ألا وهى جب قرار اللعنة وعودة الأهالى الى جميع ماكانوا يتمتعون به من تناول القربان المقدس ، على أن يتم ذلك كله بعد رد جميع الممتلكات المسلوبة الطاهرة الى البطرك والأساقفة ·

أما فيما يتعلق بالأمير (بوهيموند الثالث) ذاته فيكون هو الشخص الوحيد ـ دون الناس جميعا ـ الذى يظّل تحت وطأة قرار اللعنة وهو القرار الذى كان الأساقفة قد أصدروه ضده ، فان أراد شجبه وجعله كأن لم يكن كان عليه أن يطرد خليلته (سيبيلا) ويرد امرأته الشرعية اليه ·

بعد أن تم التصديق والموافقة على هذا البيان عاد أولئك الأشخاص الكبار من حيث جاءوا وهم يعتقدون أنهم أطفئوا الى حد ما شر الخروج على الشرعية القانونية فى امارة أنطاكية ، الا أن الأمير (بوهموند الثالث) عاد الى المكابرة فأوغل فى عناده ولج فى متابعة مسلكه الشائن ، اذ نهج نهجا يجعل المملكة(١٨) محفوفة بالمخاطر ، وذلك حين نفى من المدينة ـ بل ومن جميع اراضيه ـ أخلص

نبلائه من أصحاب المكانة السامية ، لا لسبب الا ما قيل عنهم من انهم يستبدون بسيرته ، وكان من هؤلاء النبلين كونستابله وداجبه « جيسكارد دى ليل » و « برتراند » بن كونت « جيسـيلبيرت » و « جارنيوس جينارد » فما كان منهم وقد ارغمهم على الخروج الا اللجوء الى الأمير « روبين »(١٩) أحد كبار أشراف الأرمن النبلاء الذى تلقاهم لقاء حسنا ورحب بهم أعظم الترحيب ، وأجرى عليهم العطايا والصلات الرائعة وخصص لهم مئونة عظيمة يعيشون بها ٠

* * *

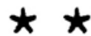
ولما كان يوم ٢٧ أغسطس من السنة ذاتها مات البابا اسكندر الثالث بعد تسنمه كرسى البابوية ثلاثا وعشرين سنة ، ودفن فى كنيسة اللاتيران ، وخلفه «لوكياس » Locius الثالث الذى كان يعرف من قبل باسم « هوبالد أسقف أو سنيا » وهو من أهل «تسكانيا» فى اقليم « لوكا » ، وكان هذا البابا الجديد شيخا مسنا ، لم ينل غير حظ قليل من التعليم ٠

كذلك حدث فى نفس الوقت فى شهر سبتمبر ان رحل عن هذا العالم لينعم بالحياة الأبدية اخونا فى المسيح الطيب الذكر « ريموند» أسقف كنيسة بيروت ، وخلفه المبجل « أودو » رئيس شمامسة كنيستنا(٢٠) ، وكان رجلا شريفا قد ضرب بسهم وافر فى دراسة الآداب ، فلما كانت أيام الاحتفال فى شهر ديسمبر خلعنا عليه بمشيئة الرب رتبة الكهنوت ومنحناه الصلاحية البطركية ٠

ومات فى هذا الوقت(٢١) الملك الصالح (اسماعيل) بن نور الدين وكان فتى لايزال فى ريق العمر وميعة الشباب ، ولم يكن قد بقى فى يده من كل ما ورثه عن أبيه سوى حلب وبعض القلاع ، ويقال

انه ترسمى بها وبكل مما يملك الى واحد من أقاربه هو قطب الدين (مسعود) فآل اليه ذلك كله حسب وصية (الملك الصالح اسماعيل) الأخيرة التى أوصى بها وهو على فراش الموت ٠

كان هذا الوريث أميرا للموصل وابن أخى أبيه « عز الدين » فلما لفظ الملك الصالح نفسه الأخير أرسل كبار رجال مملكته الى قطب الدين أمير الموصل الذى كان واليا تركيا عظيما يطلبون منه الاسراع فى القدوم عليهم ، فلما تسلم قطب الدين (مسعود) هذا الكتاب بادر بالذهاب الى هناك ، واسترد أملاكه القديمة وكل ما هو حق له شرعا ، وكان يخشى أن يجيء صلاح الدين من مصر مرة ثانية بعد أن اغتصب من ابن عمه معظم أملاكه فيستولى على المدينة قهرا رغم مشيئة السكان ، لاسيما وأن بعضا من كبار الشخصيات البارزة كانوا يؤيدونه فى السر ٠



على أية حال فان صلاح الدين بعد أن كان قد وقع معنا هدنة لمدة عامين عاد بعد توقيعه الى مصر للنظر فى شئونها ، وكان قد ترامى الى سمعه وأقلق باله خبر أقض مضجعه ألا وهو أن أسطول ملك صقلية قد تجهز جهازا عظيما بالمئونة والعسكر ، وأنه قد أبحر الى مصر قاصدا غزوها ، والواقع أنه لم يكن هناك ما يبرر هذا الجزع فقد كان الأسطول الصقلى متخذا طريقه رأسا الى الغرب نحو جزائر البليار التى تعرف احداها بميورقة والأخرى بمنورقة قرب اسبانيا ، وكانت الرحلة مدمرة فقد عصفت بالأسطول ريح عاتية أدت الى جنوحه عن آخره وتحطيمه تحطيما يكاد أن يكون تاما عند مدن ساؤن وسافونا والبنجا وفنتيميليا الساحلية حيث ألقت الريح والأمواج بالسفن الى الشاطيء ٠

فى هذا الوقت الذى كانت المملكة تتمتع ابانه كما قلنا بسلام مؤقت طرأ تغير عجيب على قلب شعب سورى من أهل ولاية فينيقية قرب سلسلة جبال لبنان (فى اقليم طرابلس) ، وكان هذا الشعب يعيش قرب مدينة « جبيل » ، وقد ظل قرابة نصف قرن من الزمان يعتنق هرطقة رجل اسمه « مارو » فسمى أتباعه بالمارونيين نسبة اليه ، وكانوا قد انفصلوا عن كنيسة المؤمنين الصادقين ومارسوا طقوسا ابتدعوها لأنفسهم لا يشاركهم فيها غيرهم ، غير أن العناية الالهية شاءت لهم الهداية فردتهم الى حظيرة العقل فنبذوا ما هم فيه من هرطقة ، والتمسوا من « ايمرى » ثالث بطاركة أنطاكية اللاتين أن يرأس كنيستهم ، وأعلنوا توبتهم عن البدعة التى كانوا قد قيدوا بها أنفسهم زمنا طويلا وعادوا الى حضن الكنيسة الكاثوليكية واعتنقوا مذهبها القويم ،واستعدوا لاتباع تقاليد الكنيسة الرومانية بكل توقير ٠

لم يكن عدد هؤلاء المارون قليلا بأى حال من الأحوال بل الواقع أنهم كانوا يجاوزون أربعين ألف نسمة يعيشون فى نواحى أسقفية «جبيل» و « البطرون » وطرابلس عند سفح جبال لبنان وهم شعب محارب قوى الشكيمة ومقاتلون أشداء أدوا للنصارى خدمات جليلة فى المعارك العدة التى طالما خاضوها فى محاربة العدو ، ولذلك كانت هدايتهم للايمان الحق مبعث فرحة كبيرة لنا ٠

وكانت هرطقة « مارون » وأتباعه تتلخص فى أن هناك ارادة واحدة ومشيئة واحدة تتواجدان منذ البداية فى سيدنا عيسى المسيح ، ويرجع علمنا بهذه الهرطقة الى المجمع المسكونى السادس الذى انعقد للتنديد بهم والذى قضى بادانتهم وأصدر ضدهم قرار اللعنة والحرمان ٠ وقد أضاف هؤلاء المارون الى هذه الفقرة من ايمانهم الذى سفهته الكنيسة الأرثوذكسية كثيرا من المبادىء الوبيلة

بعد خروجهم من عداد المؤمنين · أما الآن فقد تابوا عما كانوا عليه من كفر وهرطقة وعادوا الى حضن الكنيسة الكاثوليكية برياسة بطركهم والعديد من أساقفتهم الذين كانوا من قبل قد أضلوهم ضلالا كبيرا مما أدى بهم الى تنكبهم الطريق القويم ، وساروا بهم فى درب الضلالة ، ثم تابوا وأظهروا حماسة شديدة فى ارشادهم دينيا حين عادوا الى طريق الحق القويم ·

- ٩ -

كانت المملكة تنعم فى هذه الآونة بقسط كبير من الاطمئنان كما قلنا وذلك بفضل السلام المؤقت المبرم بين الملك وصلاح الدين ، بيد أنه كانت هناك نفوس شريرة من أبناء طرابلس نمت فى حضن الاثم ورضعت لبان الشر وكانت تتربص الدوائر لبث الشقاق فى المملكة مما ينجم عنه قيام الفتن الأهلية · فقد كانت هناك مشاكل متعددة عاقت كونت طرابلس وأبقته فى كونتيته عامين متتالين مما حال بينه وبين زيارة المملكة(٢٢) ، ثم زارها بسبب المسئولية الملقاة على عاتقه تجاه مدينة طبرية التى هى من أملاك زوجته وراح يعد العدة للرحلة حتى اذا وصل الى « جبيل » قام أولئك الرجال الأوغاد بما جبلوا عليه من الفحش فجاءوا بتهم ملفقة وضيعة أوهموا بها الملك الشديد السذاجة أن الكونت لا ينوى القدوم الى مملكته الا وهو عازم عزما أكيدا ، لحمته الشر وسداه المضرة به ، وأعنى به العمل سرا على خلعه عن العرش ليجلس هو مكانه ·

وأصغى الملك الى هؤلاء الناس بأذن واعية ، وأنصت الى كلامهم المضلل ، وبادر فأرسل فى الحال الى الكونت (ريموند الثالث) رسالة لا يقبل محتواها النقض ولا المراجعة ، اذ يرفض السماح له بدخول المملكة ·

وأغضبت هذه الرسالة الكونت وعدها اهانة له وجرحا لكبريائه وأحس بالعار والسخط ، وحق له أن يسخط ، وكف ـ وهو كاره ـ عن مجاوزة هذا المكان الذى وصله ، وعاد أدراجه الى طرابلس بعد أن صرف من المال والجهد ما صرف من غير طائل .

لقد رأى هؤلاء المشاغبون فى حضور الكونت (وهو الرجل المستقيم والذى لا يعرف الكلل اليه سبيلا) مايحول بينهم وبين التصرف فى شئون المملكة بما تسوله لهم أهواؤهم ، وأرادوا أن يستغلوا مرض الملك لتحقيق مصلحتهم الذاتية وكان من بين الذين أخذوا فى التأثير على الملك دون خجل مما يفعلون أمه (الملكة) تلك المرأة الجشعة المكروهة من الله أشد الكره ، وأخوها سنكال الملك ورهط قليل من الرجال اللئام من أتباعهم الضالين .

أما البارونات العظام من أصحاب التجربة الكبيرة وبعد النظر فقدانزعجوا أشد الانزعاج حين علموا بهذا الخبر خوفا من أن يؤدى حرمانهم من حماية هذا الكونت الجليل لهم الى سقوط المملكة من مكانتها الرفيعة فيحق عليها ما قاله(٢٣) السيد : « كل مملكة منقسمة علىذاتها تخرب » ، لاسيما وقد اتضح أن مرض الملك أخذ يتضاعف يوما بعد يوم ، كما أنه هو نفسه أصبح أشد ضعفا عن ذى قبل وأقل كفاءة فى القدرة على تصريف شئون البلد ، والحق أنه لم يكن قادرا على التماسك بل غدى أشبه برجل مشلول تماما .

فلما رأى البارونات الذين يشأون هؤلاء فى الأهمية مدى الخطر الذى لابد وأن يصيب المملكة بسبب الوضع المشار اليه قاموا فركزوا كل جهودهم لمعاودة استقدام الكونت وازالة ثورة غضبه ، وبعد مناقشات طويلة بين الملك وباروناته فى هذا الصدد وبعد استعراضهم الاقتراحات الجمة التى عرضت وافق الملك على كره

منه على الاذن لهم باستدعاء الكونت والسماح له بدخول المملكة ، وحينذاك أملت الحكمة على هذا الرجل العظيم(٢٤) أن يتجاوز عن الاهانات التى لحقته ، ومن ثم عاد السلام يرفرف من جديد بينه وبين الملك ٠

- ١٠ -

بينما كانت هذه الأمور تجرى فى ناحيتنا هذه من الشرق اذا بتطور خطير يحدث فى امبراطورية القسطنطينية أدى الى أوخم العواقب على اللاتين كافة وجلب عليهم مصائب لم تسمع الأذن بمثلها من قبل ،وأنزل بهم هذا الحدث الخطير خسائر فادحة ذلك لأن الشرور التى كانت تنطوى عليها نفوس أهل اليونان المخادعين الخونة طفت على السطح وبرزت للعيان « وحملت تعبا وولدت كذبا »(٢٥) ٠ اذ أنه لما مات مانويل الامبراطور الطيب الذكر خلفه على العرش ابنه الكسيوس (الثانى كومنين)(٢٦) الذى لم يكن قد أتم الثالثة عشرة من عمره ، وقد تم هذا الاستخلاف بناء على حقه الشرعى فى ارثه وتنفيذا لرغبة والده ، فقامت بالوصاية عليه أمه (مارية الأنطاكية) ولكنها ألقت بكل شئون الامبراطورية فى يد « البروسيباستوس ألكسيوس » وهو ابن أخت الامبراطور الراحل ، وحينذاك أحس كبار الشخصيات وأهل العاصمة أن قد واتتهم فرصتهم لتنفيذ مآربهم الشريرة التى كانوا قد كتموها فى صدورهم ضد شعبنا وبنى جنسنا من اللاتين الذين ظلوا ينعمون طول أيام حكم مانويل حبيب الرب بعطفه الكبير جزاء وفاقا على اخلاصهم وتقديرا منه لشجاعتهم ، وكان هذا الامبراطور العظيم الذى لايجاريه أحد فى شجاعته قد اعتمد على ولاء اللاتين وكفاءتهم اعتمادا كبيرا حمله عليه ما طبع عليه اليونان من الضعف

والتكاسل ، ومن ثم كان يكل كل الأمور الهامة الى اللاتين وحدهم فى كلأنحاء البلاد ٠

ولما كان مانويل ينزل هذا الشعب (اللاتينى) المنزلة السامية فقد عده رجال هذا الجنس القادمون من كل أنحاء العالم المنعم العظيم عليهم ، وقد استوى فى هذه النظرة اليه أشرافهم وعامتهم ، وراحوا يتزاحمون على بلاطه فى لهفة ، مما زاد من عطفه عليهم ولم يقصر فى بذل جهده فى تحسين وضعهم ، ولقد ترتب على هذه الرعاية الكبيرة من جانبه للاتين أن توغرت ضدنا صدور أشراف اليونان لاسيما أقارب الامبراطور الأدنون ، كما عششت البغضاء فى نفوس غيرهم فامتلأت القلوب كلها بالحقد الأسود الذى لا تنحل عقدته ، كما زاد من كراهيتهم لنا الاختلاف الموجود بين طقوسنا وطقوسهم الكنسية : الأمر الذى زاد من غيرتهم منا اشتعالا ٠

ولما كانوا قد خرجوا علىكنيسة رومة خروجا مشـــينا فقد أغواهم غرورهم فاعتبروا من لا يتبع مذاهبهم الباطل هرطيقـــا ، والحق أنهم هم ذاتهم كانوا الجديرين بأن ينعتوا بالهراطقة ، وذلك لابتداعهم أو اتباعهم عقائد مستحدثة فاسدة مضادة للكنيســـة الرومانية ومناقضة لعقيدة الرسولين بطرس وبولص التى «لن تقوى عليها أبواب الجحيم »(٢٧) ٠

ولقد أدت هذه الأسباب وغيرها الى تفاقم الكراهية فى قلوب الاغريق وراحوا يتصيدون الفرصة لاســـيما بعد وفاة الامبراطور (مانويل) ليقضـــوا القضـــاء المبرم فىالمدينة وفى كافة أرجـــاء الامبراطورية على اللاتين الذين يكرهونهم ويضمرون لهم البغضاء ، وبهذه الطريقة كانوا يرضون ما فى نفوسهم من عداء يكنونه لهم ، وهو عداء لاتلين حدته ولا تهدأ فورته ٠

حين ودع الامبراطور مانويل شئون هذاالعالم ، وبينما كان « البروستاسيوس ألكسيوس » يدير دفة أمور المملكة لم تكن هناك أية فرصة لتنفيذ هذه المشاريع الشريرة ، اذ كان ألكسيوس نفسه قد نهج نهج سلفه فى اعتماده على ما ينصحه به اللاتين وما يقدمونه اليه من مساعدة،وبذل هو من جانبه كل ما فى قدرته ليجعلهمأصدقاء له ومع ذلك فقد استوت قلوب اللاتين والاغريق فى الكراهية نحوه ، وكان شأنه شأن بقية اليونان شديد التسيب ، مسـلما زمامه تمام التسليم لشهوات الجسد التى لا انتهاء لها ، كما كان شديد الشح ممسكا كل الامساك لا يحب أن يصرف شيئا من الخزانة الامبراطورية كما لو كان هو نفسه هو الذى جمع كل ما بها من المال أو كأنه اكتسبه كله من كده وعرق جبينه ٠

كذلك سرت الشائعة بأنه كان على علاقة دنسة بالامبراطورة (الوصية مارية الأنطاكية) رغم أنها كانت قد وهبت نفسها للحياة الدينية(٢٨) وقت أن كان زوجها مسجى على سرير موته ٠

يضاف الى ذلك أن « البروستاسيوس الكسيوس » هذا كان يتسم بأقصى التشامخ ، فلم يكن يرى أحدا يبلغ قدره مما حمله على أن يتصرف فى كل شىء حسب رغباته الخاصة دون أن يستشير كائنا من كان من علية القوم الآخرين ولميكترث بغيرهم رغم أنهم كانوا مساوين له فى المكانة تمام المسـاواة ، فلا عجب ان امتلأت قلوبهم بالكراهية ضد «ألكسيوس البروستاسيوس » هذا وفاضـت نفوس أمراء القصر بالحقد عليه فاتخذوا اجراء فعالا ضده حين استدعوا « اندرونيكوس » (كومنين) الكبير أحد أبناء عمومة

الامبراطور الراحل وكان واليا على « بونتس » Pontus ، وكان غرضهم من هذا الاستدعاء أن يعاونهم أندرونيكوس فى حضهم الدنيئة لطرد ألكسيوس البروستاسيوس » ومنعه من تصريف أمور المملكة(٢٩) .

وكانت تربط أندرونيكوس هذا بالامبراطور الراحل (مانويل) وشيجة القربى ولكنه كان رجلا تافها شريرا يضمر الغدر بالامبراطورية ولا يخلص لها ، ويسعى السعى الحثيث لتدبير المؤامرات ، وحدث فى أيام الامبراطور (مانويل) أن ألقى القبض عليه وزج به فى السجن لاتهامه بارتكاب الكثير من الجرائم ، ولقى أقبح معاملة تكافىء سوء أعماله ، وحق عليه النفى وأصبح شريدا طريدا ، وجاب كل أرجاء الشرق لكنه لم يقلع - حتى وهو فى منفاه - عن اقتراف الأعمال المرذولة التى تستأهل اللعنة ، غير أن الامبراطور مانويل عفا عنه قبل موته بثلاثة أشهر وأرسله الى « بونتس » واليا عليها ، وما كان ذلك العمل من جانب الامبراطور الا لكى يمنعه من اثارة الفتنة فى مدينة القسطنطينية كدأبه ، ولكى يحول بينه وبين تحريك الاضطرابات التى يسعى من ورائها الى الاستحواذ على المملكة .

هذا هو الرجل الذى استدعاه فى السر أقرب الناس الى الامبراطور والى البروتوسيباستوس ممن كانوا يثقون به ثقة عمياء، فأرسلوا الى « أندرونيكوس » رسلهم يستدعونه ليحارب الرجل الذى كان قد ألقى بأبنائه وسواهم من البارزين فى الحبس القاء مخزيا ، اذ كان « البروتوسيباستوس » - كما قلنا - قد زج فى السجن برهط من سراة القوم الذين اتهموا بالاشتراك فى احدى المؤامرات ، فأثار ذلك العمل مزيدا من الكراهية فى قلوبهم ضده .

واستجاب « أندرونيكوس » لدعوتهم اياه وجاء الى المدينة

على رأس قوات كبيرة من الجند المتبربرين ، ونصب معسكره على طول شاطىء البسفور وعلى مرأى واضح من العاصمة ، واستولى على « بيثينيا »(٣٠) ، فأرسل المسئولون نفرا معينا من النبـــلاء الأقوياء لافساد محاولاته ، الا انهم خانوا الأمانة فانضموا الى جانبه وكان أولهم وأعظمهم خطرا « أندرونيكوس انجيلوس » قائد القوات التى كانت قد أرسلت ضده ، كما انضم الى صفه ألكسيوس ميجالد الذى كان هو القائد العـــام للبحرية ، وكانت تربط كلاً من هذين بالامبراطور رابطة القرابـــة ، ولقد ترتب على فـــرار هؤلاء الى أندرونيكوس أن ضعف أمرنا(٣١) ضعفا بينا وأصبح وضعنا مهددا بالخطر ، كما ساعد على ذلك أيضا اظهار كثير من الشخصيات البارزة والأهالى ولاءهم لأندرونيكوس ومجـــاهرتهم على رؤوس الاشهاد بهذا الولاء ، وتمنوا أن يروه يدخل المدينة ، وكانوا قد بذلوا من أجل هذه الأمنية كل ما فى وسعهم وامتلأت نفوسهم بالرجاء فى أن يعبر البسفور على وجه السرعة .

ـ ١٢ ـ

واستمرت المؤامرة تزداد قوة يوما بعد يوم ، فألقى القبض على « البروتوسيباستوس » وسملت عيناه وشوه وجهه أقبح تشويه وترتب على تغير الأوضاع انتشار الفزع بين اللاتين خوفا من أن يباغتهم الأهالى (الاغريق) بالهجوم عليهم ، اذ كانوا فى الواقع قد تلقوا تحذيرا بهذا العـــزم من بعض أشـــخاص كانوا على علم بالمؤامرة ، ففر من اللاتين حينذاك من وجدوا الى الفرار سبيلا فنجوا من الوقوع فى حبائل مكر اليونان ولم يلحقهم الموت الذى كان للناس بالمرصاد ، وهرب البعض منهم على ظهور أربع وأربعين سفينة شاء الحظ إن تكون راسية بالميناء ، ووضـــع غيرهم كل متعلقاتهم على بعض السفن الأخرى الكثيرة الراسية هناك .

اما الشيوخ والعجزة الذين لم يسعفهم الفرار فقد ظلوا في منازلهم ، فكانوا فريسة الغضب المجنون الذى سلم منه الآخرون ، ذلك لأن « أندرونيكوس » الذى كان قد أمر فى السر باعداد الشواني دخل المدينة(٣٢) على رأس كل عسكره • الذين ما كادوا يعبرون أبواب المدينة مستعينين بالأهالى حتى اندفعوا الى الحى الذى يسكنه اللاتين وأعملوا السيف فى رقاب القلة الذين صادفوهم ممن كانوا قد تخلفوا عن مصاحبة الفارين ، اما عجزا منهم عن مصاحبتهم أو لعدم رغبتهم فى ترك دورهم ، ومع ذلك فقد قاوموا طويلا ، ولم يحرز العدو النصر عليهم الا بعد سفك كثير من الدماء •

لم يعبأ الاغريق بالاتفاقات المبرمة بينهم وبين اللاتين ، ولم يكترثوا بالخدمات الجليلة التى كان قومنا قد أدوها للامبراطورية ، بل امسكوا بجميع من ظنوا فيهم القدرة على المقاومة وأضرموا النيران فى بيوتهم ، ثم مالبثوا أن أحاطوا بالحى كله وأحالوه هشيما ورمادا وهلك فى هذا الحريق كثير من النساء والأطفال والشيوخ والمرضى ، ولم يكتف الاغريق بصب جام نقمتهم الخســيسة على البيوت ولم يطفىء ما اقترفوه فورة مراجل غضبهم بل كالوا بنفس الكيل للكنائس وكل الأماكن الموقرة ، وأحرقوا مع هذه المبانى الطاهرة جميع من هربوا اليها واعتصموا بها طلبا للأمان ، ولم يفرق الاغريق بين رجال الدين والعلمانيين ، وصبوا انتقامهم على من دلت ملابسهم الفخمة على أنهم من كبار المدنيين والروحانيين على السواء ، وكان الرهبان والقساوسة الضحية الكبرى لجنونهم الطاغى ، فعذبوهم العذاب المنكر ثم ثنوا فقتلوهم •

كان من بين هؤلاء الأخيرين رجل موقر اسمه « يوحنا » وهو مساعد شماس فى الكنيسة الرومانية المطهرة كان البابا قد أوفده الى القسطنطينية فى مهمة خاصة تتعلق بالكنيسة فامسكوه وقطعوا

رأسه وربطوها الى ذيل كلب مبالغة فى اهانة الكنيسة (الرومانية) كما لم يسلم من نقمتهم حتى الموتى الذين يرفض الكل ـ حتى الكفار ـ التمثيل بهم فنالهم من الدنس ما نال الحرمات ، وانتقموا منهم أبلغ انتقام ولم يدعوهم فى راحتهم بل نبشوا قبورهم وأخرجوا جثثهم وسحلوهم فى الشوارع والميادين كما لو كانت هذه الرمم البالية تحس بما ينزله بها هؤلاء الناس من المهانة ٠

ثم مضى هؤلاء الهمج و معهم الذين كان واجبهم الدينى يفرض عليهم اغاثة الملهوف ومضوا الى البيمارستان المعروف ببيمارستان القديس يوحنا فأعملوا السيف فى رقاب جميع من به من المرضى واستعانوا باللصـــوص ورجال العصابات ووعدوهم بالمال الكثير ان هم واصلوا الفتك والذبح،ثم صحبوا هؤلاء السَفلة وراحوا يفتشون الأماكن والدور حتى القاصى منها كى لا ينجو من بطشهم أحد يكون قد اختفى فيها فرارا من الهلاك ،وكانوا اذا عثروا على أحد منهم جروه بعنف وأسلموه الى الجلاد حتى لا يظل هؤلاء الجلادون بلا عمل وحتى لا يتقاضوا رواتب من غير عمل يؤدونه ، وبذلك أصبحوا يأخذون مايأخذون أجرا يستحقونه على ما يسفكون من دم هؤلاء الضحايا التعساء ٠

ثم باعوا الى الترك وغيرهم من الكفار من توسموا فيهم المكانة الرفيعة ممن لجئوا اليهم بعد أن منوهم بالسلامة ووعدوهم بالابقاء على أرواحهم ، ويقال انهم باعوا الى الشعوب المتبربرة أكثر من أربعة آلاف من اللاتين من مختلف الأعمار والأوضاع ما بين ذكور واناث ٠

على هذه الصورة الذميمة جازت ذرية الأفاعى أمة الإغريق الغادرين التى هى أشبه ما تكون بالحية الرقطاء تكمن فى الصدر

او بالفار فى صـــيوان الملابس ، اقول جارت هذه الأمة من كانوا ضيوفهم وكانوا لا يستحقون منهم ابدا هذا الجزاء ، ومن لم يكونوا يتوقعون شيئا مما حاق بهم ، وهم الذين زوجوهم بناتهم وبنـــات اخواتهم واخوتهم ، والذين اصبحوا لطول المعاشرة أصدقاء لهم

على أن هذا الفحش الأثيم الذى لاشبيه له فى جميع العصور لم يذهب بلا عقاب ، اذ تروى الأخبار أن اللاتين الذين فروا على ظهور السفن (كذلك الأعداد الكبيرة من الناس الذين تبعوهم بعد قليل فى اسطول أصـــغر حجما) تجمعوا قرب القسطنطينية فى انتظار ما تسفر عنه الأحداث ، وهنا جاءهم الخبر اليقين بأن الذين اوقدوا ضرام الفتنة بالمدينة أحرقوا الحى اللاتينى بأكمله وأهلكوا نساء الحى وصغاره وجميع أهل بيوته ، وأنهم لاقوا مصارعهم اما قتلا أو حرقا ، فأجج هذا الخبر نار الغضب الصادق والســـخط العنيف فى قلوب الجميع ، وبث فيهم رغبة حادة عارمة للثأر لدم رفاقهم ، ومن ثم أبحروا على طول شواطىء البسفور من عند مدخل البحر الأسود الذى يبعد عن القسطنطينية مسافة قدرها ثلاثون ميلا وساروا الى مدخل البحر الأبيض المتوسط وهى مسافة تقدر بثمانين ميلا وأخذوا جميع المدن والحصون الواقعة على الجانبين بالعنف والقهر وحكموا السيف فى رقاب سكانها ، كما اتخذوا طريقهم الى الأديرة ســـواء منها الواقعة على الضـــفتين أو فى الجزائـــر الصغيرة المتناثرة هنا وهناك فى ذلك البحر ، وانتقموا لدم اخوانهم المسفوك وذبحوا جميع الرهبان الكذبة والقسس المدنسين ، وأشعلوا النيران فى الأديرة وبمن فر اليها معتصما بها ، ويقال انهم حملوا معهم من هذه الأماكن لكميات ضخمة من الذهب والفضة والجواهر وأثقالا كبيرة من الأقمشة الحريرية ، وبهذا أقتصوا لأنفسهم مما

وقع عليهم من الأضرار ، واستعاضوا أضعاف اضعاف مافقدوه من ممتلكاتهم وما خسروه من بضائعهم ، ذلك أن أهل القسطنطينية كانوا قد أودعوا هذه الأحرام الطاهرة كميات ضخمة من الذهب وغيره من المقتنيات حفاظا عليها وصونا لها من أن تمتد اليها الأيدى ، وكان بهذه الأديرة الى جانب هذا كله كنوز وأموال لا يحصيها الحد قد تراكمت بها على مدى أزمنة طويلة ٠

ثم سافر اللاتين بعد ذلك الى مضايق هذا البحر محملين بكل هذه الأسلاب والغنائم وركبوا البحر الأبيض المتوسط بين المدينتين الساحليتين القديمتين « سستوس » Sestos « وأبيدوس » ٠

وكان اللاتين أثناء ابحارهم على شواطىء « تساليا » يفتشون جميع المدن والبلدان القريبة من البحر تفتيشا دقيقا ، فلم يدعوا شيئا صادفوه الا أحرقوه أو سلبوه ، كما فتكوا بأناس يعجز العد عن حصرهم ، ويقال انهم صادفوا قرب « خريسوبوليس » احدى مدن مقدونية ـ عشرة أغربة أخرى ، كما وجدوا أكثر منها فى أماكن اخرى غيرها متفرقة ، ضموا بعضها الى بعض وجعلوا منها كلها أسطولا يعتد به فقد برهن على أنه آلة جيدة لتدمير الارغيق ٠

على أن هناك بعضا من اللاتين تقززوا من أعمال السفك والنهب فتجمعوا على سطح كثير من السفن الراسية فى الميناء وانفصلوا عن الجيش هم ونساؤهم وأطفالهم وكل ما بقى من أمتعتهم وجاءوا الينا فى سورية ٠

* * *

على أن الأمر كان قد استتب فى هذه الأثناء لأندرونيكوس ، اذ دانت له المدينة كما يحب ويهوى ، ولكن لما لم يكن هناك من أحد يعارضه أو يعصى له أمرا فقد عمد الى تتويج الامبراطور (الصغير) وزوجته المقبلة ابنة ملك الفرنجة فى احتفال فخم يوم عيد العنصرة،

واحاطه بكل آيات التشـــريف والاجلال ، كما أحســـن معاملة أم الامبراطور واخته وزوجها وكانوا لايزالون موجودين داخل القصر .

على أن « أندرونيكوس » ســـاس بنفســـه جميع شـــئون الامبراطورية سواء منها ما كان فى المدينة أو خارجها ،ورتب كل شىء وفق هواه .

وقد خيف أن يكون قد أظهر هذه المجاملة تجاه هؤلاء الأشخاص لالشىء الا لاخفاء مرماه الغادر فى الاستيلاء على العرش فى اللحظة التى تناسبه بعد أن يكون قد سار قدما فى اعداد كل شىء لتحقيق هدفه ، واقصد أنه اذا ما تمت الأمور كما يهوى ويشتهى أماط اللثام عن مقاصده الحقيقية .

وقد تم هذا الأمر بالفعل فى شهر ابريل من ميلاد المسيح عام ١١٨٢م .

ـ ١٤ ـ

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى بلاد الاغريق اذا بريح عاتية تهب على سفينة حجاج كانت تحمل على ظهرها ألفا وخمسمائة حاج ، ثم ألقت بها الى دمياط فى مملكة مصر ، فتحطمت على الساحل ومع ذلك فقد شعر ركاب هذه السفينة الجانحة بالطمأنينة معتقدين النجاة ركونا منهم الى هدنة كان صلاح الدين قد أبرمها ووثوقا منهم بصلح مؤقت عقده مع المسيحيين يشمل من كان منهم فى البر والبحر على السواء .

ولكن القدر المخبأ لركاب هذه السفينة كان يختلف تماما عما تقتضيه الموادعة ، اذ ماكان لصـــلاح الدين ـ وقد تملكته شـــهوة الاستحواذ على الغنائم ـ أن يقبل لمثل هذا العـــدد الكـــبير من المسيحيين ان يرحلوا عن أرضه أحرارا كما تقضى شروط الهدنة ،

فلا جرم ان هو القى بهم جميعا فى الحبس وصـــار كل ما معهم ملكا خالصا له ، ثم بعث بعدئذ رسولا الى الملك (بلدوين الرابع) يطالبه (متحديا لبنود الاتفاقية) بمطالب كان من المستحيل عمليا الوفاء بها ، وانذره انذارا لارجعة فيه أنه سوف يستبقى لنفسه المركب المشار اليه ان يستجب بلدوين لكل هذه المطالب ، ثم زاد على ذلك فهدده بأنه سوف يشجب الاتفاق المبرم بينهما ٠

لكن لم يقدر لرسول صلاح الدين أن يحصل من الملك (بلدوين) على رد مقنع بشأن مطالب مولاه الذى شرع يقدم حججا يخجل المرء منها ويتذرع بذرائع تبرر حجزه السفينة بدلا من أن يقدم أسبابا معقولة لدعم شكواه ، ثم مالبث أن نقض الهدنة وأظهر مكنون صدره من عداء كان يضمره منذوقت بعيد ، وأخذ يدبر السبيل الى مضايقة المملكة بأسلوبه المألوف ، اذ حشد حشدا كثيفا من العسكر المشاة والفرسان ، وأضاف اليهم كثيرين غيرهم ممن كانوا قد غادروا دمشق وما جاورها فى أوقات سالفة وذهبوا الى مصر هربا من المجاعة ، وصمم أن يعود بهؤلاء جميعا الى دمشق حتى يتخذها قاعدة لعلمياته التى تلحق بنا أضرار كبيرة ٠

كذلك عزم أثناء زحفه على دمشق أنينزل أكبر قدرمن الضرر بأملاكنا الواقعة وراء الأردن ، ولما كانت المزروعات اذ ذاك قد نضجت وحان وقت حصادها فقد رأى أن يحرقها وأن يستولى على واحد أو أكثر من معاقلنا هناك ليعم الأذى الصليبيين جميعا ٠

ويقال ان الحامل الحقيقى له على هذا العمل هو رغبته فى الانتقام من الأمير « أرناط » صاحب تلك النواحى لما جرى منه من خروج على الاتفاقية حيث قبض على طائفة من العرب أثناء سريان هذه الاتفاقية ثم تمادى فرفض أطلاق سراحهم حين طلب اليه اخلا سبيلهم

وجاءت الى الملك عيونه تحمل اليه خبر تقدم صلاح الدين وخططه فعقد فى الحال مع رجاله اجتماعا عاما بالقدس للنظر فى شروط الأمير التركى ، فتدارسوها بدقة ، واذ ذاك أخذ برأى بعض مستشاريه فقاد جميع قواته عبر وادى موسى(٣٣) الذى يقع فيه البحر الميت حتى وصل الى الموضع الذى اقترحوه عليه كى يواجه صلاح الدين ويوقف زحفه ويحول بينه وبين تخريب تلك النواحى ٠

على أن صلاح الدين لقى فى أثناء تقدمه عبر الصحراء صعابا كثيرة وان اجتازها فى مدى عشرين يوما حيث وقف هو وعسكره عند ناحية آهلة بالسكان فى أرضنا ، وعلى بعد عشرة أميال من حصن الكرك الصليبى ٠ وكان الحامل له على التوقف هنا هو انتظاره وصول تقرير مفصل عن وضع المكان وعن تحركات الملك (بلدوين الرابع) وجيشه ٠

كان الملك بلدوين قد نصب معسكره قرب مدينة قديمة تسمى تدمر الصحراوية فى اقليم البتراء على بعد ستة وثلاثين ميلا من معسكر صلاح الدين ، وكان معه كل جيشه،كما عسكر كونت طرابلس هو الآخر هناك أيضا ، رغم ان ذلك كان على غير ارادته ، بسبب ان الملك كان قد زحف الى هذه الناحية ضاربا بنصيحة الكونت عرض الحائط ، لما يحمله خروجه الى هذا الموضع من تركة أجزاء كبيرة من مملكته مكشوفة ومجردة تقريبا من الجند الذى يحميها ، وكانت طائفة من البارونات قد أشارت على الملك أن يسلك هذا السبيل دون أن يقيموا وزنا لما قد يحدث للمملكة التى صارت بلا مدافع يصد عنها العدو ، وكان هؤلاء البارونات صادرين فيما أشاروا به على مراعاة صالح الأمير أرناط أكثر من مراعاتهم للصالح العام ٠

سرعان ما برهنت الأحداث التالية على أن هذا الأمر الذى فعله الملك كان أبعد ما يكون عن الصواب ، اذ قام فى السر ولاة

دمشق وبعلبك وبصرى وحمص وجمعوا قواتهم سرا وفى صمت حين أدركوا غياب زهرة عسكر المملكة ، وأدركوا أن الاقليم كله أصبح عجوزا من قواته ،فعبر هؤلاء الغزاة الأردن قرب بحر الجليل على مقربة من طبرية واقتحموا أرضنا دون أن يعلم بهم أحد ، وجاءوا بعد اجتياحهم منطقة الجليل الى موضع عند سفح جبل تابور اسمه « دبورية »(٣٤) Buria قرب مدينة « تابين » القديمة . ولم يكن عندأهل تلك النواحى خبر بشجب المعاهدة التى اعتمدوا عليها حينذاك اعتمادا كليا ، فلم يتخذوا من الوسائل ما يدفع عنهم الخطر ويكفل لهم الحماية ، فلم يشعروا الا وقد انقض العدو عليهم فجأة تحت جنح الظلام وأحدق بالموضع من كافة نواحيه احداقا لميستطيعوا معه النجاة الى الجبال المطلة عليهم .

فلما أهلت تباشير الفجر رأى الأهالى أنفسهم وقد أحاط بهم العدو من كل جانب ، فلم يجدوا بدا من سرعة الارتداد الى برج يشرف على القرية ، لكن مالبث الترك أن التفوا حول هذا البرج وبذلوا جهودا مكثفة جبارة لتقويضه ، ولم تكد تمضى عليهم فى ذلك العمل أربع ساعات حتى كانوا قد نجحوا فى مسعاهم ، وانهار البناء على الأرض .

غير أن الأهالى الذين كانوا قد اعتصموا بهذا البرج كانوا قد استسلموا قبل وقوع الطامة الكبرى وذلك حين بدأت الشروخ تظهر للعيان ، وأوشك الحصن على الانهيار .

حينذاك جمع الأعداء كل مانهبوه من « دبورية » وغيرها من الأماكن الدانية منها دون أن يعترضهم أحد وساقوا مايقرب من خمسمائة أسير بعدأن خلفوا فى ساحة المعركة من لاقوا حتفهم ، ولما كان المكان مليئا بالحقول المثمرة رقد حان وقت الحصاد فقد

جاءت الى هناك جموع غفيرة من الناس للمساعدة فى جنى الغلة ، لكن العدو أخذهم جميعا دون أن يلقى من يصده ،فلما تم للترك ما أرادوه عبروا الأردن ورجعوا آمنين سالمين الى حيث يقيمون ٠

ـ ١٥ ـ

على أنه ابان الوقت الذى كان فيه الملك والجيش المسـيحى مشغولين فى ناحية لبقاع جرى خطب تهون أمامه كل الخطوب ، حمل فى طياته خطرا جديدا سيظل قومنا يذكرونه بالأسى العميق ما عاشوا ، اذ كان للمسيحيين وراء الأردن فى أرض السواد وعلى بعد ستة عشر ميلا من طبرية مكان شديد الحصانة والمنعة لا يفكر أحد فى اقتحامه ، وكان فى الوقت ذاته كبير الجدوى عظيم الفائدة لرجالنا ، وكانت هذه الناحية أقرب ما تكون لأرض العدو منهـا لملكتنا مما أتاح للخصم أن يفعل ما يريد فى يسر وسهولة ويفرض على السكان ما شاء فلا يملكون الا طاعته ٠ ولما كان هذا الحصن يحمى الناحية فقد جرت العادة لسنوات طويلة ولاتزال سارية حتى تلك اللحظة على تقسيم السلطة بالتساوى بين المسيحيين والمسلمين كما يتناصفان دفع الضرائب والمكوس بينهما ٠

كان الحصن الذى أشرنا اليه حالا يقع عند كهف على منحدر جبل من الجبال ويشرف على هاوية سحيقة ، ولم يكن فى الاستطاعة أبدا الاقتراب منه بأى حال من الأحوال الا من جانبه العلوى ، أما من الجانب الآخر فكان ثم درب شديد الضيق لا يستطيع المرء ــ مهما تخفف من الأحمال ــ أن يجتازه الا فى مشقة بالغة ،وقد وكلت حراسة هذا الموضع الى « فولك » صاحب طبرية وهو رجل شريف سرى يقظ بالغ الثراء ٠

كان قادة العسكر الترك قد استولوا على « دبورية » وجعلوا

من قومنا اسرى هناك كما ذكرنا ، أما الآن فقدبرزوا أمام هذا المكان واستولوا عليه أسرا فى مدى خمسة أيام ٠

وقد تضاربت الآراء حول الاستيلاء على هذا الحصن فقال البعض ان الحامية التى كانت بالقلعة أسلمته من تلقاء ذاتها لقاء مبلغ معين من المال ٠ على حين راح آخرون يؤكدون أن العدو شـــق طريقه الى الحصن بتقويض أحد جوانبه بالألغام ، وهو أمر كان من اليسير عمله لأن طبيعة الصخور هنا كانت جيرية واستولوا على الحصن فنقب نقب فى الطابق الأول منه فلما تم لهم أخذه أرغموا من فى الطابقين الأوسط والأعلى على الاستسلام ، اذ يقال ان الحصن كان مؤلفا من ثلاثة أدوار ٠

علىأنه قد ثبت فيما بعد ثبوتا لاشبهة فيه أن الاستيلاء على الحصن كان نتيجة خيانة من جانب القوامين على حراسته وبتدبير من أصحاب الأمر والنهى فيه الذين عارضوا ماكانت البقية تريده من الاستمساك بالمقاومة كما منعوا هذه البقية من الرجـــال من الدفاع عنه بأى شكل من الأشكال ثم أســــلموه الى العدو وفروا هـــم اليه ٠

ويقال ان القادة المسئولين عن الحصن كانوا سريانا(٣٥) ، وهم أناس نعتبرهم ضعافا متراخين ، ومن ثم فان اللائمة الكبرى تنصب على كاهل فولك صاحب طبرية لأنه هو المسئول الأول عن حراسة الحصن والمحافظة عليه ، لكنه أسلمه الى رعاية قوم كهؤلاء القوم ٠

كان هذا هوالقول الذى شاع شرقا وغربا وعن أرجاء المملكة حتى بلغ سمع مسيحيى ماوراء الأردن الذين كانـــوا يحـــاولون

منع صلاح الدين من العبور الى فلسطين وهو فى طريقه الى دمشق من مصر · وقد فاضت القلوب حزنا لسماع هذا الخبر ، وفزع الناس لاسيما كونت طرابلس الذى كان يعتبر المســئول عن هذا الحصن وعن الحفاظ عليه ·

وهكذا حدث أن أولئك الذين غادروا المملكة قد أخطأوا خطأ جسيما اذ سلكوا هذا السبيل فعجزوا عن انجاز أى شىء يرضى الرب أو يكون فيه نفع للمملكة ، فبعد أن كان واجبهم يقتضـــيهم التصدى لصلاح الدين وهو لايزال عند مشارف مملكتنا والحيلولة بينه وبين اقتحامه أرضنا اذا بهم فى تهورهم وغفلتهم يتركونه يزحف حتى يبلغ الناحية المسماة « جربة » فيجد فيها الماء الوفير الذى كان جيشه الظامىء فى حاجة ملحة اليه ، ولما وصل الى « جربة » بعث بجزء من عسكره الى حيث يوجد حصننا المسمى بحصن الكرك ، فقطعوا الأعناب وألحقوا الخسائر الجمة بمن يعيشون هناك ، ولو كان المسيحيون أسرعوا الى ذلك الموضع لماكان ثم شك فى أن يضطر صلاح الدين للتراجع الى مصر لأنه كان يقود جيشــــا فيه أناس كثيرون ممن ليسوا من أهل الحرب ، وقد اكتشفوا أن ما فى رواياهم من الماء على وشك النضوب ، وأن ما لديهم من الخبز قد قل ، فكان لابد لهذه الجموع الزاخرة من الموت جوعا فى الصحراء ، فقد كان من المستحيل عليهم التقدم أكثر من ذلك ، كما أن اشتباكهم فى قتال مع قواتنا كان لابد وأن يعرضهم لخطر فادح ·

حين علم الصليبيون أن الأمير(٣٦) وصل الى المكان المذكور أعلاه عزموا مرة أخرى على قتاله فى موضع يعرف برأس الرشيد ، ولو تسنى لهم تنفيذ عزمهم هذا لاضطر صلاح الدين للزحف عبر الصحراء البعيدة وكان لابد لهذا العبور من أن يكلفه خسارة كبيرة فى الرجال ودواب الحقل · لكن لما كان المسيحيون قد رجعوا عما

كانوا قد اعتزموه فقد أتيح لصلاح الدين أن يبلغ الماء بلا مشقة ، ثم دخل بعد ذلك أرضنا دون أن يلقى كيدا ، وسار منها الى دمشق سالما تمام السلامة ·

ولما علم الصليبيون برحيله عادوا هم أيضا الى ديارهم سالكين نفس الطريق الذى قدموا منه ، وان كان الخوف قد تملكهم من أن يعمد صلاح الدين الى حيلة يحتالها فتعود بالمضرة على مملكتنا فيغير علينا من دمشق التى كان قد مضى اليها بكل عسكره ، لذلك أصدر أوامره بأن يتجمع أهل البلاد كافة عند نبع « صفورية » فى الناحية الواقعة بينها وبين « الناصرة » ، وصحبهم فى هذا التجمع الملك والبطرك وجميع الأمراء الروحانيين والعلمانيين ، ومعهم صليب السيد وظلوا يترقبون العدو يوما بعد يوم ·

ـ ١٦ ـ

كان صلاح الدن فى هذه الأثناء قد جمع عسكرا من كل نواحى أراضيه ليشد أزر الجيش الذى كان قد جاء به من مصر ، واجمع العزم على غزو بلادنا ، فتقدم حتى صار عند موضع يسمونه بلسانهم براس العين ونسميه نحن فى لغتنا Raseline الذى يقال انه يبعد عن ناحيتنا مسافة قصيرة ، وهو قريب كل القرب من مدينة طبرية ، وبعد أن بقى صلاح الدين بضعة أيام فى هذا المكان اذا به يدخل فجأة بلادنا وينصب معسكره بين رافدين فى موضع يعرف « بكافان » Cavan الذى يبعد عن طبرية أربعة أميال ·

سرعان ما جاء الكشافة بهذا النبأ الى قوادنا الذين ألوا الا أن يشنوا هجومهم فى الحال ، ثم مالبثوا أن أسرعوا بارسال القوات الى طبرية لتنضم الى العسكر الموجودين فيها لحمايتها هى وغيرها من الأماكن الهامة هناك ، ونعنى بهذا « صفد ، وكوكب »(٣٧) ·

وحدث اذ ذاك أن كان كونت طرابلس وهو المحارب القدير الأمجد ومسعر الحرب - يرقد فى الفراش يقاسى مرضا خطيرا من أمراض الحمى الثلاثية مما زاد فى متاعب الصليبيين لأنهم حرموا فى وقت حاجتهم القصوى من مساعدة هذا السرى العظيم الذى كانوا يعولون كثيرا على رأيه وفطنته • لكنهم رغم ذلك استدعوا اليهم قوات اضافية من النواحى المجاورة ، وزحفوا لصد العدو رافعين راياتهم ، فما كاد صلاح الدين يسمع أنهم شارعون فى التقدم حتى بادر فعبر الأردن بمن معه من العسكر وانسحب الى ضواحى «بيسان» التى كانت ذات مرة عاصمة فلسطين الثالثة • وهى تقع فى سهل غنى بالحقول التى ترويها المياه بلا انقطاع بين جبال «جلعاد» ونهر الأردن ، وقد آلت الامتيازات التى كانت تتمتع بها فى وقت من الأوقات الى كنيسة الناصرة فى نفس الأسقفية ، ذلك لأن «بيسان» لم يعد يسكنها الآن سوى قلة من الناس ، كما أنها أضحت لا تزيد عن بلدة صغيرة •

وقد زحفت كتائب العدو الى هناك وشنت غارة شعواء لم يكن أحد يتوقعها ، وهاجمت قلعة صغيرة واقعة فى أرض كلها مستنقعات لكن أهل البلد أبدوا من المقاومة الباسلة ما جعل العدو يدرك ألا أمل له فى أن تكون له الغلبة ، واذ ذاك رأى الأعداء أن يتقدموا ضد المسيحيين ، فوجهوا قواتهم نحو القلعة الأخرى المسماة «بكوكب» والواقعة بين التلال التى بين بيسان وطبرية •

أما المسيحيون فقد سلكوا درب الأردن حتى بلغوا الناحية التى ذكرناها حالا ، ثم غادروا الوادى وصعدوا فى الجبال وقد بلغ الارهاق منهم مبلغه بسبب الحرارة الشديدة التى لم يعودوا يطيقونها فى سيرهم ، وانقضى الليل كله وهم أيقاظ لم تغمض لهم عين حذرا من أن يكون العدو على مقربة منهم ، فلما طلع النهار نزلوا الى

السهل الواقع بين القلعة المشار اليها حالا وبين قرية صـــغيرة يسمونها « كفر بلية » Forebelet وسنى لهم من هنا أن يطالعوا قوات صلاح الدين وقد امتدت جموعها النفيرة التى تشأو كل ما اعتادوه من قبل فغطت كل ما حولها ، حتى لقد قال الشيوخ من أصحاب السن المتقدمة من أمراء المملكة انهم لم يروا فى أى وقت من الأوقات ـ منذ دخول اللاتين الشام لأول مرة ـ مثل هذا العدد الضخم من عسكر العدو ، وحتى ليقال ان الفرسان المجهزين للقتال قاربوا عشرين ألف فارس ، على حين أن عـــدد فرســـاننا قارب السبعمائة ، ولم يكن عند صـــلاح الدين وكباره ســـوى غرض واحد يسيطر عليهم جميعا هو أن يحدقوا برجالنا احداقا تاما حتى لا يفر أحد منهم • واذ كان الأعداء معتمدين على كثافة أعدادهم فقد كانوا يسخرون من ضآلة عدد عسكرنا ، وكان الظن عندهم أن لن يكون المسيحيون قادرين على الصمود أمامهم •

ولكن الرب أخلف ظنهم ، لأنه هو القادر فى غير عسر أن يمكن فئة قليلة من أن تتغلب باذنه على طائفة كبيرة ، فكان ماشاءه الرب لا ما شاءه سواه لأن أعدادنا كانت لا تعد شيئا ان هى قيســـت بأعدادهم الكبيرة ، وقد أخذ المسيحيون يرتبون صفوفهم بعناية الله حسب أصول فن الحرب وتقدموا نحو عدوهم بما طبعوا عليه من الشجاعة وصمدوا صمودا باسلا فى وجه غاراته التى شنها عليهم ، غير أن كثيرا من المسيحيين ممن نتجنب ذكر أسمائهم فروا يجللهم العار الذى لا يمحى شناره لعدم احتمالهم وطأة القتال ، الا أننا اثبتنا فى هذه المعركة أننا نشاو أعداءنا ، فقد أظهر بلدوين صاحب الرملة وأخوه بليان فى ذلك اليوم بطولة عالية ، وحاربا حرب الشجعان المغاوير ، كما استحق ربيب كونت طرابلس وهو هيج الصغير ، الذى صحب الكتيبة الطرابلسية أن تبقى ذكراه على الدوام حية فى الأذهان مقرونة بالفضل ، اذ على الرغم من انه كان أصغر

الجميع سناً الا انه حارب بشجاعة لم تكن منتظرة ممن فى مثل عمره وغضارة سنه ، فقد استطاع بمن تحت قيادته من العسكر أن يظهر على ثلاث جماعات تركية ظهوراً لم تجد هذه القوات حياله بداً من الفرار ، ثم عاد (هيج الصغير هذا) بمشيئة الله الى رفاقه لم يصبه جرح ولم يلحقه أذى ٠

ولم يهلك من فرساننا فى هذه المعركة سوى نفر قليل صعدت أرواحهم الى السماء لتنعم بصحبة القديسين ، على حين استحر القتل فى عامة الناس ، وان كانت خسارة العدو أعظم من خسارتنا ، كما هلك بعض من كبار قواده مما أدى الى استيلاء الفزع على الكفار وفرارهم من ساحة الوغى ٠

على أن الحقيقة التى لاينبغى الصمت عنها أو السكوت عن الاشارة اليها هى أن الحرارة كانت فى تلك الأيام أشد مما تكون عليه فى العادة حتى لقد هلك من الجانبين من ضربة الشمس مثل من قتلوا بحد السيف ٠

ولسنا نعرف على وجه اليقين كم كان عدد القتلى من العدو الذى كانت تدفعه الرغبة فى اخفاء خسائره الى أن يحمل جثث من سقطوا من رجاله فى ساحة القتال ويدفنها خلسة فى المعسكر فى الليلة التالية خوفا من أن تقوى معنويات رجالنا ان هم عرفوا كم كان عدد قتلى خصمهم ، ومع ذلك فاننا نستطيع أن نجزم بأن هلكاهم ـ بناء على السببين اللذين ذكرناهما ـ كانوا أزيد من ألف قتيل ٠

ولما لم تكن الأمور قد أسفرت عما كان يرجوه صلاح الدين ويطمع فيه فقد قام هذا دليلا على أن المسيحيين برهنوا على أنهم أقوى مما كان الظن بهم ، ومن ثم ارتد الخصم كاسف البال وعاد فاجتاز الأردن ورجع الى بلده حيث مضى مرة أخرى الى الموضع الذى كان قد خرج منه ٠

واستدعى الصليبيون من ناحيتهم عسكرهم وعادوا الى نبع الصفورية الذى كانوا قد انطلقوا من عنده ، وحدث فى أثناء هذا الزحف أن أصابت ضربة شمس شديدة بلدوين قيم القبر المقدس ومخازن كنيسته ، وكانت اصابة بالغة اضطرت من معه لـ مله فى محفة الى سفح جبل الطور قرب تلال كيسون حيث أسلم الروح .

كذلك مات الأخ « جود فروى فيلينيف » الذى كان شماسا لتلك الكنيسة ، وكان خروجه فى هذه الحملة لمساعدة بلدوين ولقضاء بعض مصالحه الشخصية ،لكن أصابه سهم غرب أودى به، وكان حقا ما قاله السيد اذ قال : « ان كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون »(٣٨) .

ـ ١٧ ـ

عاد الملك بقواته الى الموضع المذكور آنفا ، أما صلاح الدين فقد استشرى غضبه اذ باءت حملته بالفشل الذريع ، فحشد للمرة الثانية عساكره واستعرض فى ذهنه كل الخطط،وتداول مع مستشاريه أحسن الطرق لتجديد أعماله العدوانية ضد المسيحيين ، ثم انتهى رأيه الى أن أنجع الوسائل لانزال المضرة بنا هى أنْ يهاجمنا فى أماكن متعددة مختلفة المواقع فى آن واحد ولذلك أرسل تعليماته الصارمة الى أخيه الذى تركه وراءه فى مصر ليرعى شئونها ، وتقضى هذه التعليمات بجمع أسطول من مصر والاسكندرية ثم يرسله الى سورية على وجه السرعة لعزمه على محاصرة بيروت برا وبحرا حال وصول هذه السفن ، وقال انه رغبة منه فى منع الملك وشعبه من الاسراع لنجدة بيروت فأنه يشير عليه بجمع قوات الفرسان الذين تركهم فى مصر ويقتحم بهم أرضنا من الناحية الجنوبية ويخرب كل ما حول غزة وعسقلان والداروم التى هى آخر المدن الموجودة فى يد الملك على هذا الجانب من أرض مصر .

كان هدف صلاح الدين من اصدار هذه التعليمات هى ألا يجد عائقا يقف أمامه فى مهاجمة المدينة هجوما ضاريا ، فى الوقت الذى يكون فيه جزء من القوات الصليبية ـ التى تضاءلت بأسا وقلت عددا ـ مشغولا بمواجهة المغيرين القادمين من مصر ·

ونفذت تعليمات صلاح الدين التى أشار بها بحذافيرها تنفيذا دقيقا ، فلم تنقض أيام قلائل حتى جاء أسطول مؤلف من ثلاثين سفينة مدببة ، كما جاء الى الداروم أخوه على رأس القوات التى جمعها من كافة أنحاء مصر ·

ورغبة من صلاح الدين فى أن يكون كل شىء على أتم استعداد للحرب عند وصول الأسطول فقد قاد بنفسه قوة اقتحم بها الناحية التى تعرف عادة بوادى «بكار» ، ووضع الكشافة على التلال المطلة على البحر فى المنطقة الواقعة فيما بين الناحية المشار اليها حالا وبين سهول بيروت ، وعهد الى هؤلاء الكشافة بأن يوافوه بخبر قدوم الأسطول حين تهل طلائعه وتظهر للعيان ، كما انصرف هو فى هذه الأثناء الى جمع قوات اضافية من الخيالة من الاقليم المجاور ، ورتب كل شىء على أكمل وجه يراه ضروريا كى ينجح الحصار ·

ووصل الأسطول فى أول أغسطس على وجه الدقة الى بيروت فبادر الكشافة المكلفون بمراقبته فأخبروا صلاح الدين بوصوله ، فلم يكن منه الآن بادر فى الحال بعبور الجبال التى تعترضه ، ونزل بعسكره الى السهل ،وسرعان ما أحدق تماما بمدينة بيروت حسب الخطة الموضوعة منذ وقت بعيد ·

وجاءت الى قواتنا المعسكرة فى « صفورية » الأنباء وقد تضارب بعضها مع بعض بشأن مقاصد صلاح الدين ، فقال بعضها انه يعتزم حصار مدينة بيروت ، وهو قول ثبتت صحته فى النهاية ؛

وقال البعض الآخر انه لايقصد الاستيلاء على حلب ،في حين أكدت أقوال غير هذه وتلك بأنه كان يهدف الى محاربة صاحب الموصل الذى جاءه الخبر عنه ـ وهو الوالى التركى القوى ـ أنه محاصر لبعض مدن صلاح الدين الموجودة فى بعض نواحى الفرات .

لكن بينما كانت هذه الأخبار المتضاربة تسرى فى أرجاء المعسكر اذا برسول يأتى فيكون وصوله قطعا لدابر كل تضارب ، اذ يعلن أن بيروت محاصرة تماما ، كما جاء رسول آخر من الجنوب بخبر مؤكد يقول ان صلاح الدين قد أغار على أرضنا فى الداروم واقتحمها بقوات ضخمة وأن القتلى فى هذه الواقعة بلغوا ستة وثلاثين من الفرسان المسلحين بالأسلحة الخفيفة المعروفين بالتركوبولية ، كما أنه أحرق بعض القرى التى توجد على الأطراف البعيدة .

فلما سمع الملك هذا الخبر تشاور مع باروناته ثم تقرر أن يبدأوا بمهاجمة الناحية التى هى أخطر ما تكون علينا ، وتخليص المدينة من الخطر الذى يهددها ، وذلك لأن بلدوين الرابع لم يعتبر قواته قادرة قدرة تامة على صد الأعداء فى الوقت ذاته فى داخل الأرض .

لذلك استدعى الملك قواته وزحف على رأس جميع عسكره وتوجه الى صور حيث أصدر أمره للأسطول الراسى فى مينائى عكا وصور بالاستعداد للعمل ، فتم ذلك فى مدى سبعة أيام فقط ، وهو أمر لم يدور بخلد أحد ما قط أن يتم بهذه الصورة السريعة وفى هذا الوقت القصير ، وكان الأسطول يتألف من ثلاث وثلاثين قطعة بحرية .

بينما كان المسيحيون يقومون بهذه الأعمال وهم أشد ما يكونون تحمسا كان صلاح الدين يحاصر مدينة بيروت كما ذكرنا ، وكان

جيشا (البرى والبحرى) يبذلان غاية الجهد لايقاع أفدح اضطراب ومضرة بالأهالى ... المحيطة بالمدينة تهاجمها لمدة ثلاثة أيام على التوالى وتشدد الضغط عليها ولم تكن تترك لمن تحاصرهم فرصة يلتقطون فيها أنفاسهم أو يتناولون خلالها ما يقيم أودهم .

ولم يكن صلاح الدين قد أحضر معه آلات الرمى أو أى نوع من العدد الحربية التى تستعمل عادة فى ضرب المعقل ، ولعله كان يتوقع أن يتمكن من الاستيلاء على المدينة من غير الاستعانة بمثل هذه الآلات ان هو شن عليها غارة فجائية ، ولكنه استطاع بمجهوداته النشيطة الدقيقة أن ينجز كل ما يمكن انجازه دون الحاجة للاستعانة بالآلات الحربية ، لأنه وضع ـ كما قلنا ـ كل جيشه حول المدينة فى صفوف يتلو بعضها بعضا ، وينجد الواحد منها الآخر ان هو احتاج الى نجدة ، وأخذت هذه الصفوف ترمى من أقواسها بوابل هتان من السهام أولئك المدافعين الذين كانوا يقاتلون من فوق الأسوار ومن داخل الأبراج .

لكن لم تكن هذه الطريقة هى الوحيدة التى حاول بها صلاح الدين منع السكان من الدفاع عن المدينة ، بل زاد فجاء الى هناك بالعمال الذين عهد اليهم ببث الألغام لهدم الأسوار ، عاقدا العزم على أن يؤدى هدم المتاريس والأسوار بهذه الطريقة الى فتح ثغرات ومنافذ تدخل منها القوات المسلحة رغم جهود المحصورين . ولقد ظل بقية العسكر مستمرين فى رمى السهام والمنجنيق حتى يستطيع واضعو الألغام الانصراف كلية الى عملهم دون أى عائق يعوقهم عما هم شارعون فى العمل فيه ، وظل العمل سائرا على هذا المنوال من غير انقطاع بصورة أصبح شبح الموت معها ماثلا أمام عيون الأهالى الموجودين خلف الأسوار ، دون أن يجـــرؤوا على الاتيان بأى حركة

أما المدافعون (المسيحيون) الذين كانوا قلة بالغة فقد أخلصوا اخلاصا تاما فى تنفيذ أوامر الحاكم وتوصياته لاسيما توجيهات الأسقف الذى أظهر من المهارة والثبات فى هذا الموقف ما استحق من أجله الثناء العاطر ، وقام المسيحيون بافساد جميع تدابير العدو باجراءات مضادة ،فلم يدعوا سبيلا من سبل المقاومة الا سلكوه ، وراحت النبال والسهام تتساقط على الرماة الموجودين فى الخارج فى مهارة وحماسة تعادلان مهارة المغيرين وحماستهم ، وترتب على ذلك أن منى الترك بخسارة فادحة ، كما أن الذين كانوا أجرأ من سواهم فى التقدم بالهجوم فقدقتلوا على بكرة أبيهم ووردوا حياض الردى واحدا اثر واحد ٠

اما واضعو الألغام الذين كانوا يبذلون أقصى الجهد فى نسف الأسوار وهدمها فقد صادفوا جهدا مثل الذى يبذلونه ، مما أدى الى مصرع الكثيرين منهم وهلاكهم وضياع أدواتهم ٠

لم تكن النكبات والأضرار الجسـام التى لحقت بالمحصورين قاصرة على ما أنزلته بها القرات التى وصلت برا وحدها بل نافستها أيضا الجماعات التى جاءت عن طريق البحر ، والتى ماثلتها فى ضراوة غضبها وشراسة بطشها ، ووقف صلاح الدين ذاته على أحد التلال القريبة من المعركة وراح يحمس رجاله على الاستبسال فى القتال ويشجعهم عليه ، ونجح فى عمله هذا غاية النجاح حتى ان أحد كبار رجاله واسمه عز الدين « فرخشاه » اقترح عليه أن يسندوا السلالم الى الأسوار ثم يدخلون الى ماوراءها قسرا ، وكان يعز على فرخشاه ويشينه أن يكون عند هذه الطائفة القليلة العدد من الشجاعة أو القوة ما تستطيع به الصمود فى وجه مثل هذا الجيش الكبير ، وكان هذا الرجل (عز الدين) مصرا كل الاصرار على تنفيذ هذه الخطة وضرب المثل للباقين فى تنفيذها ٠

ظلت المدينة محاصرة على الصورة التى وصفناها ثلاثة أيام سويا ، حتى اذا فقد صلاح الدين فى النهاية كل أمل له فى النجاح أمر قواته البحرية بالانسحاب الى السفن ، فلما كان مساء اليوم الثالث تسللوا على غير توقع من أحد واتسم تسللهم بالصمت والهدوء ٠

كذلك استدعى صلاح الدين قواته البرية وابتعد بهم قليلا عن المدينة ، ثم قسم خيالته الى فرق وأمرهم بالانطلاق فى السهول التى حول المدينة وتمشيطها وتسوية كل برج بالأرض حتى تلك الأبراج الموجودة فى النواحى النائية وأن يجعلوها أثرا بعد عين ، كما أعمل رجاله - انصياعا لأمره - فؤوسهم وبلطهم فى الحقول والبساتين ، والأعناب الكثيرة الموجودة بأطراف المدينة ٠

ورغبة من صلاح الدين فى أن تسير أعمال الحصار سيرا آمنا بلا عائق فقد كلف بعض خيالته باحتلال مسالك ضيقة معينة وعرة واقعة بين بيروت وصيدا ، وكان من الضرورى لعسكرنا أن يمروا عبرها وهم فى طريقهم الى المدينة ، كذلك أمر باقامة متاريس دفاعية من الحجر على شاطىء البحر ، وكان يطمع عن طريق هاتين الوسيلتين أن يمنع كتائبنا من التقدم ، وان يستمر فى الوقت ذاته فى مهاجمة بيروت دون أن يعوق هجومه عائق ما ٠

ثم جاءت الأخبار بأنه(٣٩) كان مجمعا العزم على ألا يتخلى عن الحصار حتى تدين له المدينة بالقوة ، لكن بدى له أن يرجع عما كان قد اعتزمه وأن يعود الى دياره ، ولقد قيل ان السبب فى هذا التراجع عائدا لمايلى : هو أن المعهود اليهم بدراسة الدروب اعترضوا سبيل رسول صليبى كان يحمل الى أهالى بيروت رسائل من بعض المؤمنين تشد من عزائمهم ، فلما جىء بهذا الرجل بين

يدى صلاح الدين اذاقه ابشـــع صور التعذيب ، وانتزع منه ومن مضمون كتابه الذى يحمله أن جيشنا على اتم استعداد للعمل ، وأنه على وشك الوصول فى مدى ثلاثة أيام ، لذلك بدل صلاح الدين رأيه ورفع الحصار عن البلد كما قلنا ٠

على أن أسطولنا بلغ مقصده سالما ، لكنه وجد المدينة قد تحررت فلم يضع وقتا فى العودة الى الموانى التى كان قد أبحـــر منه ، فلما سمع الملك برفع الحصار عن المدينة ورحيل صلاح الدين عنها ظل هو وكل جيشه مقيمين فى صور بضعة أيام عاد بعدها للم شتات قواته ورجع سالما الى الصفورية ٠

ـ ١٩ ـ

تميز صلاح الدين على الدوام بالنشاط واليقظة وقد رغب من كل قلبه أن يزداد اسمه تألقا ، وأن يجاوز ملكه حدود مملكته ٠ ولما كان شديد التطلع الى أن يحوز من الانتصارات فوق ما أحرزه ، ولما كان يزدرى بأس المسيحيين ولا يعدهم شيئا مذكورا فقد صمم على أن يتقدم صوب المشرق ٠ وليس من الواضح تماما حتى الآن أكان صادرا فى عمله هذا عن ذاتية تلقائية وبعظمة النفس التى هى طبيعة ركبت فيه ، أم أنه كان مدفوعا للقيام بهذه المهمة الشاقة التى ربما كانت فوق طاقته بالحاح أمراء تلك الناحية عليه ٠ ومهما يكن الأمر فانه حشد للمرة الثانية طائفة كبيرة من الفرسان شاءت الظروف أن يكونوا موجودين اذ ذاك هناك ، كما أمر باعداد ما تسمح به ظروف الزمان والمكان من تجهيزات وأثقال استعدادا لزحف طويل المدى ، ثم سار بقواته هذه ميمما وجهه شطر الفرات ، وقد رجح الصليبيون أنه قاصد مدينة حلب فى محاولة منه للاستيلاء عليها ، اذ لم يكن قد بقى سواها وسوى حصون قليلة مجاورة لها مما خلفه نور الدين

وكلها لم تقع بعد في يد صلاح الدين · وكلنها آلت بعد موت ابن نور الدين الى أخيه قطب الدين مودود(٤٠) صاحب الموصل بالموراثة بعد موت الشاب المشار اليه ، وكان الاعتقاد السائد حينذاك – وهو أمر محتمل – أن صلاح الدين زاحف الى هناك ليستولي على المدينة ، ولكن الخواتيم برهنت على أنه كان يضمر خطة أبعد منهذه الخطة ، اذ ما كاد يترك حلب وراءه حتى عبر الفرات ،وما انقضت أيام قلائل حتى استولى بالقوة على مدينتى الرها وحران وهما من أعظم مدن اقليم الجزيرة ، الى جانب كثير من المدن الأخرى والبلدان الملحقة بها ، والواقع أنه ضم اليهجميع مدن الاقليم اما بالسيف أو بالمال يرشى به حكامها ، وكانت هذه المدن جميعها تابعة منقبل لصاحب الموصل الذى ذكرناه حالا ، وقد استطاع صلاح الدين بسخائه العميم أن يفسد ذمم ولاة النواحى ويغيرهم على مولاهم الذى كانوا يدينون له بالطاعة والولاء ، ثم انه بعد أن تسلم قلاعهم نجح مرة أخرى فى كسب تأييدهم له هو ذاته ، وهكذا استطاع أن يحرم صـــاحب الموصل العظيم حرمانا تاما من معونة رجاله له مما جعله عاجزا عنقتال صلاح الدين أومقاومته ، وأصبح الناس يتحدثون فيما بينهم أن صلاح الدين قد أفسد موالى هذا الأميروأصدقاءهعليه،وأنهأوصاهم أن يسقوه جرعة سامة أضرت به أسوأ الضـــرر وكادت أن تودى بحياته ، واعتقد الجميع من هذه الأخبار أن صلاح الدين وصل الى الموصل بقواته دون أى تعب · كذلك دارت بيننا روايات شتى حول هذا الموضوع يقول بعضها ان زحفه كان ناجحا ،وأن كل شىء كان يسير وفق هواه · وتقول روايات أخرى عكس هذا القول اذ تشير الى أنسادة هذهالنواحى الكبار قداتحدوا جميعا فيما بينهم وصاروا يداواحدة لدحر محاولاته الجريئة ، مما ترتب عليه قيام المتاعب الشديدة فى وجه عسكره

هكذا بدى للعيان أن بلاد العدو قد أصبحت من غير مدافع يحمى ذمارها ، ومن ثم فان الملك وبارونات مملكتنا ظنوا .. وليس لهم من سند يؤيد ظنهم - أن قد حانت اللحظة التى كانوا يتطلعون اليها منذ حين للاضرار بالعدو ، وكان الغضب من صلاح الدين قد تزايدت حدته لما أبداه من ازدراء لقوة المملكة الحربية واستخفاف بها ، وكان دافعه الى ذلك الاستخفاف ما انطوت عليه نفسه من الشموخ والكبرياء والتعالى ، فخرج ليضم اليه أقطارا أخرى دون أن يعبأ بعقد هدنة أو اتفاق مع الملك الذى راح يتشاور مع باروناته وانتهت المشاورات بينه وبينهم الى حشدهم هم أيضا قواتهم وخروجهم بها وفى صحبتهم البطرك حاملا الصليب الغالى ودخلوا أرض الكفار وعاثوا فى أرجائها تخريبا وتدميرا بقدر ما تسمح لهم به قوتهم .

ومروا فى طريقهم باللجا(٤١) التى كانت تؤلف جزءا كبيرا من أرض بصرى ودخلوا سورية الصغرى التى عاصمتها دمشق ثم وجهوا زحفهم شطر القسم الشرقى من تلك البلاد بعد أن لجأوا الى العسف فى اجتيازهم مدينة « زورو » الآهلة بالسكان والتى لا تبعد كثيرا عن دمشق وانساحوا فى الناحية وخربوا قسما كبيرا من المواضع القاصية المعروفة باسم المزارع Casalia ، وكان تخريبهم اياها بالنار يضرمونها فيها وبشتى الوسائل الأخرى الممكنة ، وكان سكان هذا الاقليم قد جاءهم الخبر من قبل باقترابنا من ناحيتهم ففروا الى الجهات التى هى أمنع تحصينا مستصحبين نساءهم وأولادهم ودوابهم ومواشيهم مما أدى بالمسيحيين لأن يعودوا صفر الأيدى لم يحصلوا على شىء من الغنائم والأموال ، أما ما عجز الأهالى عن أخذه معهم فى فرارهم كالغلة وغيرها من ضرورات

العيش فلم تسلم من حرق الصليبيين لها أو افسادهم اياها بأى صورة من الصور .

وبعد أن فرغوا من العيث فسادا فى كل ما وقعت عليه عيونهم كان لابد لهم من العودة من حيث جاءوا فمروا فى طريق عودتهم باحدى مدن تلك النواحى الرائعة وتعرف عادة باسم «بصرى» وهنا تناقش رجالنا فى مدى النفع العائد عليهم من امتلاك ماعلى أطرافها فلما أدركوا أن ذلك العمل يستغرق منهم وقتا ليس بالقصير وأنه يتطلب منهم أن يطيلوا مكثهم زمنا لا تسمح به قلة ما بين أيديهم من الماء رأوا أن الأجدى عليهم هو أن يرجعوا حتى لايهلكهم الظمأ هم ومواشيهم ،ناهيك بما عليه هذا الأقليم من شـــدة الجفاف وغلبة الصحراء عليه ، وخلوه خلوا تاما أو شبه تام من العيون والجداول والأنهار ، حتى لقد جرت عادة أهله فى شهور الشتاء أن يحرصوا على جمع المياه فى الخزانات وحفظها لسد حاجاتهم الضرورية على مدار السنة ، على الرغم مما يعترى هذا الماء المخزون من تغير الطعم بسبب حرارة الشمس والقاذورات المتراكمة على سطوح هذه الخزانات ، كما أن الأهالى حين تناهى اليهم قرب قدومنا عمدوا الى كسر هذه الصـــهاريج حتى تتسرب منها المياه كما حـــاولوا افسادها بالأوساخ يلقونها فيها ، وقد فعلوا ذلك حتى لا نطيل بقاءنا هناك .

على أن هذا الوقت من السنة لم يسمح للمسيحيين بتحقيق ما يشتهون من الحاق الخسائر الكثيرة بالعدو لأن الأهالى كانوا قد حصدوا الحبوب والغلال ثم كوموها فى الأجران التى جرت العادة فى هذه الناحية على بنائها فى مغارات تحت سطح الأرض ،ولما كانت هذه الأجران مغطاة بالتراب ومخفية عن العيون بمهارة فائقة فقد كان العثور عليها أمرا عسيرا أما ما بقى من الغلة على الأرض

لدرسه فقد انتزعت منه قشوره فاصبح حبوبا لا تمسك فيها النار ولا تحترق بسهولة ، ولميكن من المستطاع الحاق الأذى بأراضى الدريس الا ما يكون من بعثرة الحبوب وحمل مايستطيعون لتكون علفا لجيادهم ٠

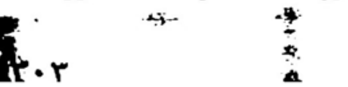
على أن كثيرا من الجند الذين لا يكفون عن ارتكاب ما فيه الضرر بالناس خلطوا هذه القشور وهذا القش المبعثر هنا وهناك بالغلة التى درست فأمسكت بهاالنار بسهولة ٠

على أن العسكر القلائل الذين تركهم صلاح الدين وراءه فى هذه الناحية بعد رحيله هو عنها لم يكونوا على درجة كافية من القوة تدفعهم للمخاطرة بالاشتباك فى مقاتلة الصليبيين أو تمكنهم من الاصطدام بهم فى النواحى المتاخمة لهم ، لكنهم راحوا يقسمون أنفسهم الى جماعات شرعت تتعقب على مسافة ما مؤخرة العدو المغادر ، وتحاول أن تلحق به ما تستطيع من الأذى بيد أنهم لم يستطيعوا ـ حتى بهذه الطريقة ـ أن يعيقوا المسيحيين أو ينزلوا الضرر بالجيش سواء أكان هذا الضرر جزئيا ام كليا ٠

— ٢١ —

بعد أن اجتاز رجالنا الاقليم بأجمعه وأفسدوا ما استطاعوا افساده توقفوا فى طريق عودتهم فى ذلك القسم نفسه من الناحية المسماة بالسواد التى تقع فيها القلعة التى قلنا ان العدو كان قد احتال على الصليبيين فانتزعها من أيدى عسكرهم غدرا قبل ذلك بقليل حين كانوا لايزالون موجودين فى اقليم البقاع ٠

وتشتهر « السواد » بمنتجاتها من الخمور والحبوب والزيتون ، كما تشتهر أيضا بجوها الصحى وبحسن موقعها ، ويقال ان



« بلده »(٤٢) صديق أيوب المكنى بالشوحى نسبة الى الناحية فقد ولد هنــا ٠

ولما بلغ المسيحيون تلك الناحية استحسنوا محاصرة القلعة ومن ثم قرروا الاستيلاء عليها حتى ترجع الى العدو الأضرار التى انزلها بهم حين احتال فأخذها بالخديعة ، ومن ثم ضربوا معسكرهم أمام القلعة التى أشرنا اليها حالا ،وبذلوا جهودا جبارة لارغام من فيها على الاستسلام ،وكانت القلعة شديدة المناعة يستحيل اقتحامها الا من الناحية العلوية ، بل ان ذلك يكاد أن يكون مستحيلا الا اذا تم قطع الأحجار وقذفها الى الداخل ، لذلك قرروا أن يبدأ قاطعو الأحجار عملهم فى القسم العلوى من القلعة ، وجهزوهم بكل ما يعينهم على أداء ما نيط بهم عمله دون خوف من الهجوم عليهم ، كما أمدوهم بالمساعدين والحراس ليكونوا آمنين من مخاطر القتال ٠

كانت القلعة واقعة على جانب جبل شاهق الارتفاع ، وكان الاقتراب منها أمرا بالغ المشقة ولايتأتى الا بالسير عبر ممر ضيق لايكاد يسمح الا بصعوبة لمرور جندى واحد يكون مترجلا ومتخففا من كل مايثقله ٠

وكان عرض الممر من هذا الجانب لايكاد يبلغ قدما واحدا ، توجد تحته هوة عميقة مفزعة تمتد الى قاع الوادى ، وكان هذا الحصن مؤلفا من ثلاثة طوابق ، يصل بين كل منها والآخر سلم خشبى ضيق الفتحات ٠

ولما كانت هذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكن بها مهاجمــة الحصن فقد حاول المسيحيون الوصول اليه من الناحية العلوية كما قلنا أملا منهم فى أن يتمكنوا بهذه الطريقة من التسلل الى داخل الطابق الأول والأعلى من تلك القلعة ، ولما كان هذا هو غاية مرامهم

فقد بذلوا كل محاولة من جانبهم لتحقيقه فوضعوا جميع العمال الذين يحتاجهم العمل في مواضعهم ، وأمدوهم بالمساعدين الذين ما كادت بقايا حطام الصخور والحجارة تزاح حتى طوحوا بهذا الحطام الى الوادى تحتهم ·

ورغبته من الصليبيين فى أن يستمر العمل بلا انقطاع فقد رتبوا دوريات تتناوب العمل فيما بينها آناء الليل وأطراف النهار ، وكان التعب اذا بلغ غايته من رجال احدى الفرق حل محلهم غيرهم ممن لديهم القدرة على الاستمرار فى العمل الذى راح يتقدم بخطا سراع بسبب كثرة العمال وحماستهم ، وبسبب سهولة قطع الأحجار ذاتها بفضل تكوينها الجيرى الذى يسمح للآلات الحديدية بالنفاذ فيها ، الا أن تعترضها عروق من الحجر الصلب تؤذى هذه الآلات وتكسرها فتعطل عمل العمال وتفسد عليهم نشاطهم ، وهم الذين كانوا يقذفون بالحطام الى أسفل الوادى لتنظيف المكان كما شرحنا ، وكانت كل هذه الأحداث تجرى أمام عيون من فى داخل الحصن فتضاعف من فزعهم اذ كانوا يتوقعون بين لحظة وأخرى أن يقتحم العدو المكان عليهم حين يتم انجاز هذا العمل ·

انقسم جيشنا الى مجموعتين ، قامت احداهما بنهب المعسكر القائم – كما قلنا – على قمة التل الذى توجد به القلعة التى يستطيع رجالها من موقعهم هذا حماية القائمين بالعمل من أن تلحقهم الأضرار التى يريد العدو انزالها بهم ·

أما القسم الآخر من الجيش فقد بقى رجاله فى السهل الواقع فى الناحية الدنيا ، وكان القصد من وضع هذه المجموعة هناك هو أن يمنع رجالها أى أحد من الدخول أو الخروج · على أنه كان يحدث فى بعض الأحيان أن يقترب بعض العسكر

الآخرين من الحصن عبر الطريق الضيق الذى أشرنا اليه ويحاولون الهجوم على من داخله ، ولكن ذهبت هذه المحاولات أدراج الرياح ولم تجد نفعا ، فكان بالداخل قوة تقارب سبعين رجلا من الرجال الأشداء الأقوياء ، وعندهم المزيد من الميرة والسلاح ، وكان صلاح الدين قد انتقى هؤلاء الرجال وهو على أهبة الرحيل ، وعهد اليهم بالحفاظ على الحصن اعتمادا منه على يقظتهم وبراعتهم ووفائهم له ٠

ثم وصل العمل الى نقطة لم تسمح فيه طرقات المطارق المستمرة بشىء من الراحة للحامية الموجودة فى الحصن ، ولما ازدادت الطرقات بدى البناء وكأنه يهتز ويضطرب فخيف أن يؤدى هذا الأمر الى اقتحام الحصن الذى فزع من به ان يتأثر بالطرقات المتوالية فينهار فجأة ويسحق جميع من بداخله ٠ وانقطع الأمل من وصول نجدة اليهم لأن صلاح الدين كان قد رحل بكل من عنده الى جهات قصية ليس من اليسير عليه أن يعود منها مما حمل أهل القلعة فى النهاية بعد حصار دام ثلاثة أسابيع أو أكثر قليلا على ارسال سفارة الى الملك (الصليبى) واستطاعوا بفضل تدخل كونت طرابلس أن يحصلوا على الاذن لهم بالخروج أحرارا الى بصرى ، وكان شرط اطلاقهم أن يسلموه القلعة وما معهم من السلاح وكل ما لديهم من متاع ٠ ثم أخلوا المكان فى الحال ورحلوا من ساعتهم ، وهكذا تخلصنا برحمة الرب الواسعة من الوضع الخطير الذى كان يهددنا ٠

حين تم تسليم القلعة رأى الملك والقادة الآخرون أنها كانت مجهزة أحسن تجهيز بالسلاح والذخيرة ، واذ ذاك عهد بها الى رجال أوفياء لا يشك أحد فى ولائهم ، ولا يستطيع أحد الطعن فى كفاءتهم ، ولما فرغوا من تسليم لكل شىء الى العسكر عادوا الى

ديارهم . وقد وقع هذا الحادث فى سنة ١٨٨٢م من مولد المسيح وفى اليوم .... (٤٣) .... من شهر ......

وبعد فترة قصيرة من الزمن أى فى ديسمبر التالى لاحظ قوادنا أن صلاح الدين قد عوقته فى الناحية الغربية من الموصل بعض الأمور التى كانت أكثر خطورة فحالت بينه وبين العودة حتى الآن ، فكره الصليبيون أن تفوتهم فرصة غيابه فاجتمعوا مرة ثانية وتبادلوا الرأى فيما ينبغى اتخاذه من عمل يكون فيه صالح المملكة ، فاتفقوا على أن يكون تلاقيهم فى قيسرية الساحلية ، وانعقد اجماعهم على حشد قوات المملكة وتجهيز كلما تحتاجه حملة جديدة من الرجال والعتاد يحملون بها على بلاد العدو وتستغرق أسبوعين ، وقرروا أن لا تضيع من أيديهم هذه الفرصة التى أتيحت لهم ، وكان أول ما فعلوه هو الاقتصار على حملة سرية قوامها الفرسان دون غيرهم، وهاجموا الناحية القريبة من « بصرى » حسبما تم الاتفاق عليه من قبل ، ثمعادوا سالمين محملين بكثير من الغنائم والأسلاب على شكل قطعان من الماشية والأغنام وجملة من الرقيق ،ولما كانت هذه الحملة قد خرجت منطبرية وعادت اليها فقد كانت قيادتها موكولة الى كونت طرابلس .

ولما كان اليوم الخامس عشر شهد أحد الأماكن الواقعة على بحر الجليل ويسمى كاستللوم Gastellum قرب طبرية حشدا كثيفا من الفرسان والمشاة كانوا كل من أمكن جمعه حينئذ من شتى نواحى المملكة وعلى رأسهم الملك وباروناته ومعهم الصليب الأعظم ثم عبروا النهر من هناك عند مخاضة يعقوب فصاروا فى أرض العدو فزحف الجيش جاعلا لبنان على يساره ، واجتاز السهل حتى بلغ

موضعا يسمونه « بيت جن » Bettegene أعملوا فيه وفى الدساكر الملحقة به المعاول وأضرموا فيه النيران وسووه بالأرض ، وهكذا دمروا كل شىء وجدوه هناك تدميرا تاما ، ثم تقدموا حتى بلغوا «داريا » التى تبعد عن دمشق أربعة أميال أو خمسة فخربوها هى والقرى الواقعة على الأطراف بنفس الطريقة التى خربوا بها سابقتها ٠

وكان بعض الأهالى الذين يعيشون فى هذه الجهة قد فروا الى جبال لبنان والبعض الآخر الى دمشق مما ترتب عليه عدم وقوع أى أسير من تلك النواحى كلها فى أيدى الصليبيين ٠

غير أننا فقدنا نفرا من رجالنا بسبب مسلكهم الأرعن أثناء بحثهم عن الكلأ لدوابهم فقد استغل بعض الفرسان الأتراك سرعة جيادهم وانطلقوا من دمشق وراحوا يحومون حول رجالنا فكنت تراهم تارة يتقدموننا وتارة خلفنا ، ولكنهم فى كلتا الحالتين يترقبون الفرصة لايذائنا ، فلما أتيحت لهم هذه الفرصة أغاروا على الباحثين عن الكلأ الذين أشرنا اليهم والذين لم يأخذوا حذرهم وأعملوا فيهم القتل فأفنوهم عن آخرهم ، وكانت مذبحة مروعة ٠

كذلك خرج الدماشـــقة من مدينتهم فى زرافات تجمعت فى البساتين والحقول التى حول البلد ، وراحوا من موقعهم هذا يراقبون قواتنا بطرف لا يكل وان لم يجرؤوا على التقدم ، ولم توات الجرأة الصليبيين على مهاجمتهم ، كما أن هؤلاء لم يحاولوا القيام بأى عمل ضدنا ، ثم انهم ما أن رأوا رجالنا يرحلون حتى انسحبوا عائدين الى المدينة ٠

ورجع الجيش الصليبى كما قلنا الى دياره دون أن يلقى صعوبة أو يصادف أى عقبة ، وذلك بعد اجتياحه هذه الناحية من

البلد وانزاله الكثير من الدمار الفادح بها • وأما الملك (بلدوين الرابع) فقد أسرع الى صور حيث احتفل معنا بعيد ميلاد المسيح •

- ٢٣ -

سرت فى هذا الوقت شائعات عن نشاط صلاح الدين قال بعضها انه يلقى كثيرا من النجاح فى منطقة الجزيرة بالموصل حيث أخضع الناحية كلها لسلطانه ، وقال البعض الآخر عكس هذا القول تماما اذ زعموا أن جميع أمراء المشرق قد اتحدوا وأصبحوا يدا واحدة للعمل على اخراجه من البلاد بقوة السلاح عساهم يستردون الاقليم الذى كان قد اغتصبه منهم بالحيلة والرشوة •

على أن تقدم صلاح الدين أحدث عند الصليبيين قلقا بالغا اذ راحوا ينظرون اليه والى تزايد قوته بفزع شديد مخافة أن يكر عليهم بامدادات كبيرة ، ومن ثم عقد اجتماع عام فى بيت المقدس فى فبراير التالى (سنة ١١٨٣ م) شهده جميع بارونات المملكة لتبادل الرأى حول الموقف ، وسيطرت عليهم روح من الفزع خوفا من عودة صلاح الدين كما ذكرنا ، ولذلك قرروا أن يصطنعوا جميع الوسائل الممكنة لصده •

وبعد أن طال الجدل بينهم وتبادلوا مختلف وجهات النظر تقرر بالاجماع عمل احصاء لجميع أراضى المملكة ، فان تم ذلك أمكن فى حال الضرورة الطارئة الحصول على قوات من المشاة والفرسان حتى اذا عاد العدو وجدنا على أتم أهبة لمقـــاومته ، ورأى الملك والبارونات ما هم فيه من وضع يبعث على اليأس لأن جميع موارد المملكة لم تكن كافية لسد النفقات الضرورية واتفقوا على اصدار قرار فى هذا الصدد يعلن على الناس قاطبة ، يوضح تمام الوضوح الطريقة التى تجبى بها هذه الضرائب وتكون كالتالى :

« هذه هى الطريقـــة لجمع الضريبة التى وافق عليها كبار الشخصيات من روحانيين وعلمانيين ، وارتضاها شعب مملكة بيت المقدس لمواجهة الحاجات الضرورية التى لا مفر منها والتى تجبى بمقتضاها هذه الضريبة من أجل الصالح العام .

« لذلك تقرر بأمر الدولة أن يتم اختيار أربعة رجال من كل مدينة من مدن المملكة يكونون من أهل الفطنة وموضـــع الثقة ، ويقسمون قسما غير حانثين فيه أن يعملوا بايمان صادق فى هذا الموضوع الحالى ،فيقومون هم أولا : ثم يحملون غيرهم على أن يعملوا مثل ما عملوا هم أن يدفع كل شخص بيزنتا واحدا عن كل مائة بيزنت يملكها الفرد ، أو يدفع ما يعادلها على الأشياء التى هى ملك يمينه ، ويدفعها عن كل ما هو مؤجل له » .

«كذلك يقوم الحاكم بحمل كل فرد على دفع بيزنتين عن كل مائة بيزنت من دخله ، كما يكون لهذا الحاكم أن يفرض على كل مواطن ـ سواء أكان من سكان احدى المدن أو غيرها من الأماكن التى تدخل فى نطاق حكومته أن يدفع عن رأس المال ما يتناســـب ويعتبر مكافئا لما يملك ، ثم يقدرون هذا على كل واحد على حدة تبعا لمقدرته على الدفع .

« لكن اذا حدث وذكر أحدهم (حين يخبرونه بالقدر الذى يجب عليه دفعه) أنه انما كلف بما فوق طاقته ، وانه قد فرض عليه من الضرائب مالا تتحمله موارده فعليه أن يبين حســـبما يمليه عليه ضميره ما يوازى قيمة متاعه طبقا لما يراه عدلا ، وعليهم أن يتركوه يذهب الى حال سبيله فى أمان حسب الشروط المذكورة .

« وعلى الأربعة المختارين أن يقسموا اليمين البرة بأن يحفظوا ما يدلى به كل مواطن سرا لا يفشونه لأحد من الناس ، سواء أكان

ما ادلى به قليلا أو كثيرا ، لأنهم ملزمون باليمين الا يعلنوا ما عليه كل أحد من الناس من الغنى أو الفقر ، وعليهم مراعاة تطبيق هذه القواعد بالنسبة لكل من يملك شيئا يقدر بثلاثمائة بيزنت ، مهما كانت لغة هذا الشخص أو جنسيته أو دينه ، ومن غير نظر الى جنسه : ذكرا كان أو أنثى ، اذ الجميع على قدم المساواة بالنسبة لهذه القاعدة .

« فاذا قدر لهؤلاء الأربعة المختارين والمعينين لأداء هذه المهمة أن يعرفوا معرفة أكيدة أنما يملكه شخص من الأشخاص لا يساوى مائة بيزنت فانهم يتسلمون منه نقودا حسب المواقد ، أى يأخذون بيزنتا واحدا عن كل فرن ، فان لم يستطيعوا الحصول على البيزنت كاملا اكتفوا بنصف بيزنت ، فان أعجزتهم جباية هذا النصف أخذوا « رابوانا » واحدا ان تراءى لهم أنه حق كل الحق ، فمن كانت بضائعهم لا تساوى مائة بيزنت فانهم يخضعون لهذا الشرط مهما كان لسانهم أو جنسهم أو دينهم ، وسواء أكانوا ذكورا أم اناثا .

« كذلك تقرر على كل كنيسة وكل دير وعلى جميع البارونات - مهما كثر عددهم - وكذلك الأفصال وغير هؤلاء ممن لهم دخولات فى المملكة اخراج بينزنتين عن كل مائة بيزنت تدخل لهم كايجارات كما أن العمال بالأجر يدفع الواحد منهم بيزنتا عن كل مائة بيزنت من أجره » .

« أما الذين يمتلكون المقاطعات فعليهم حسب اليمين أن يدفعوا عن كل مدفأة أو فرن يملكونه فى القرى أو المقاطعات بيزنتا واحدا بالاضافة الى ما أوصى به أعلاه ، فاذا كان بالمزرعة مثلا مائة فرن التزم الفلاحون بدفع مائة بيزنت ، ثم يصير بعد ذلك من واجب مالك



المزرعة أن يفرض على كل فلاحيها المشـــاركة فى دفع البيزنتات الواجب دفعها بعد تقسيمها عليهم بالتساوى ، أى أن كل واحد منهم يلتزم بدفع الضريبة المشار اليها أعلاه بما يتناسب وأمواله ، وبذلك لا يستطيع الغنى أن يتهرب من الدفع ، ولا يثقل كاهل الفقير بما ليس فى طاقته احتماله ، وبهذا تكون النسبة واحدة سواء أكان بالمزرعة كثير من الأفران أو القليل منها ·

«وكذلك فان الأموال التى تجمع من كل مدينة من حيفا حتى القدس سوف يحملها الى القدس أولئك الذين قلنا عنهم من قبل انهم أصبحوا رؤساء لكل مدينة ومزرعة ، أى أنهم يلتزمون بدفع قدر معين من المال ووزن ثابت ، ويكون ذلك بحضور البطرك أو نائبه وبحضور قيم القبر المقدس وأمين بيت مال بيت المقدس ، ويدفعون ذلك الى المكلفين بهذا العمل فى القدس ، ويضعون هذه النقود مختومة فى صرر وعلى حدة كما تسلموها من كل مدينة أو أى مكان ، ثم توضع هذه الصرر كلها فى صندوق بخزينة الصليب الطاهر ، ويكون لهذا الصندوق ثلاثة أقفال وثلاثة مفاتيح ،يحتفظ البطرك بأحدها ، ويعهد بالثانى الى قيم القبر المقدس ، وأما الثالث فيكون فى عهدة كل من أمين القصر والأربعة المختارين الذين أشرنا اليهم من قبل وهم الذين عينوا لجمع المال ·

« أما المسئولون عن المدن الواقعة فيما بين حيفا وبيروت فسوف يحملون الأموال المجباة على هذه الصورة الى مدينة عكا ، بعد أن يحدد قدرها ووزنها حسبما جاءت من كل مدينة ومن كل قلعة ، ثم تسلم لهؤلاء الأربعة فى اكل مدينة ، وهم الذين وكل اليهم جمع الأموال ثم يوضع ذلك كله فى صرر مختومة ممهورة ، ثم توضع هذه الصرر فى صندوق له ثلاثة مفاتيح وثلاثة أقفال ، يأخذ أولها رئيس أساقفة صور ، ويأخذ ثانيها جوسلين سنكال الملك ،أما الثالث فيحتفظ به

الأشخاص الذين ذكرناهم آنفا ، وهم المسئولون عن هذا الأمر ، على أن يقوم من بيدهم المفاتيح بتسلم الأموال المذكورة فى حضور السادة المذكورين ٠

« ولا يجوز صرف هذه الأموال المجموعة على شئون المملكة العادية ، ولكنها توقف للصرف على الدفاع عن البلاد ؛ على أنه طالما ظلت هذه الأموال باقية فان الضريبة المسماة بضريبة التاى Taille سوف لا تجبى من الكنائس ولا الأهالى ٠

« وسوف يعمل بهذه الضريبة مرة واحدة فقط ، ولن تعتبر سابقة يعتد بها فيعمل مثلها فى المستقبل » ٠

ـ ٢٤ ـ

فى هذه الأثناء كان صلاح الدين ـ وهو الرجل الذى لا يكل أبدا والذى يمثل على الدوام القائد المحنك فى كل شىء ـ أقول انه كان قد استولى على الأراضى السورية فى بلاد الجزيرة ، وأخذ بالقوة المدن ذات الشهرة المدوية ، والى جانب ذلك فانه حاصر « آمد » العاصمة الشهيرة التى كانت مدينة لا يمكن اقتحامها لكثرة سكانها وضخامة أسوارها المحيطة بها ولطبيعة موقعها ، فلما تم استيلاؤه عليها أسلمها ـ بناء على اتفاق سابق ـ الى شريف تركى اسمه نور الدين بن قرا أرسلان الذى كان لمساعدته الصادقة له الفضل فى قدرته على اطالة بقائه فى هذه النواحى حتى تسنى له أن يتم اخضاع تلك الناحية ٠

فلما كان الربيع التالى استدعى قواته مرة ثانية وعهد بالناحية كلها الى رعاية بعض أتباعه المخلصين ، أما هو فقد عبر الفرات



عائدا الى البقاع ، حيث وضع جيشه حول حلب ولم يدع وسيلة لمضايقتها الا اتبعها ٠

كان صاحب حلب مدركا تمام الادراك أن أخاه صاحب الموصل ـ وهو أقوى منه بأسا ـ لم يستطع أن يدفع صلاح الدين عن أراضيه رغم كل ما بذل من الجهود ، بل لقد حدث ما هو عكس ذلك اذ كان هذا الأمير الكبير قد أخضع جميع الأراضي الواقعة وراء نهر الفرات ، ولما كان يخشى أن يصيبه ما أصاب غيره فقد بعث الى صلاح الدين في السر رسلا من ناحيته لم يعلم أحد من الحلبيين بخبرهم وذلك سعيا منه لعقد الصلح بينهما ، وأخبره أنه مسلم له مدينة حلب ان هو أعاد اليه سنجار وقلاعا أخرى سماها له ، ولكنى نسيت أسماءها ٠

ولقد تلقى صلاح الدين السفارة أحسن لقاء واغتبط بها أيما اغتباط ، فقد كان من أغلى أمانيه منذ اللحظة الأولى من حكمه الحصول على حلب التى يعدها حصن المملكة كلها ويسعى ليملكها بأى وسيلة من الوسائل ، لذلك قبل عن طيب خاطر هذه الشروط وسلمه المدينة المذكورة حالا وما حولها من القلاع والحصون ، وكان تسلمه هو مدينة حلب فى شهر يونيو (سنة ١١٣٨) ٠

حين سمع قومنا بهذا الخبر تملكهم الفزع فقد وقع ما كانوا يخشونه أشد الخشية وكان المسيحيون يدركون بوضوح أن لو قدر لصلاح الدين النجاح فى اضافة حلب الى ممتلكاته فان بلادنا سوف تكون محاطة بقواته فيهددها بأسه من كل جانب فتصبح وكأنها فى حالة حصار ، لذلك حاول قومنا تدعيم تحصينات مدنهم وبلدانهم بكل وسيلة ممكنة ، لاسيما تلك النواحى الواقعة قرب تخوم العدو ، وفوق ذلك فانهم ضاعفوا من وسائل الدفاع عن بيروت التى اتضح أنها ضعيفة تماما ٠

انزعج أمير أنطاكية أشد الانزعاج اذ علم بقرب خصمه العنيد منه ، وهو العدو القوى الشكيمة ، ذلك لأنه عرف أنه يواجه فى صلاح الدين خصما شديد المراس ذا مرة ، فمضى ومعه كونت طرابلس الى الملك وكان مقيما اذ ذاك فى مدينة عكا ، ولم يستصحب معه حرسا فى هذا الذهاب سوى نفر قليل من الجند حتى لا يترك البلد وراءه خاليا ممن يدافع عنه ويرد عادية المغير ؛ فلما صار (الكونت ريموند) فى حضرة أمراء المملكة التمس النجدة ضد صلاح الدين ، فتم الاتفاق على استجابة رجائه وأمدوه بثلاثمائة فارس من فرسان المملكة من مختلف الرتب ساروا وراءه الى أنطاكية للمحاربة تحت لوائه ، لكنهم مالبثوا أن عادوا على أعقابهم مستأذنين الأمير فى هذا الرجوع بعد أن عقد معاهدة مؤقتة مع صلاح الدين ، مما تأكد لهم معها أن الأمور قد هدأت ٠

وأراد الأمير أن يفرغ باله ليطمئن خاطره ويكون أقدر على الالتفات لشئون أمارته أنطاكية ، اذ قبل مبلغا كبيرا من المال لقاء تنازله عن مدينة « طرسوس » عاصمة كيليكية التى كان قد تسلمها من البيزنطيين فأسلمها هو بدوره الى الوالى الأرمنى القوى « روبين » الذى كان يسيطر على كثير من المدن فى هذه الناحية ، والحق أن أمير أنطاكية كان حكيما كل الحاكمة فيما فعل اذ كانت « طرسوس » بعيدة كل البعد عن أرضه ، وتفصلها عن أنطاكية بلاد الأرمن وأرض روبين ، ومن ثم كانت تشكل صعوبة له ، كما يكلفه الحفاظ عليها من أمره رهقا لما تتطلبه العناية بها من الصرف عليها ، ولكن هذا كله كان أمرا ميسورا على روبين ان صارت طرسوس ملك يمينه ٠

بعد أن رتب صلاح الدين جميع أمور تلك الناحية حسبما تهوى نفسه غادرها الى دمشق مع كتائبه ، وكانت هذه الحركة من جانبه

تبعث فزع كبير لقومنا خصوصا وقد استحال عليهم الحصول على اية معلومات مؤكدة من الكشافة عن حقيقة نواياه ، فظن لبعض أنه بعد استدعائه القوات البحرية لابد وأن يحاصر بيروت كما فعل فى السنة الماضية ، وقال آخرون انه يعتزم مهاجمة حصن شقيف تورون وهونين ، وهما من أمنع المعاقل الموجودة فى تلك النواحى الجبلية المطلة على صور ٠

على أن هناك رجالا غير هؤلاء وهؤلاء كانوا يجزمون أنه يعتزم تخريب اقليم البقاع الواقع فيما وراء الأردن ، وأنه ينوى كذلك تدمير الأماكن المنيعة الموجودة فى تلك الأطراف ٠

على أن هناك رهطا غير هؤلاء جميعا حاولوا أن يؤكدوا أن صلاح الدين كان قد مل الحملات الطويلة المستمرة فى البلاد البعيدة فالتمس فترة الهدنة القائمة ليذهب الى مصر ليجدد نشاط جيشه المرهق ويجمع الأموال اللازمة للحملات التى يزمع القيام بها ٠

أدت هذه الأقوال المتضاربة والمحيرة الى استيلاء الفزع الدائم والقلق الذى لا انتهاء له على الملك والبارونات ، وتركزت أخيرا قوات المملكة التى أمكن جمعها عند نبع « الصفورية » الذى اعتادت الجيوش التجمع عنده منذ أوقات بعيدة ، ووقف الجميع هناك يرقبون ما تسفر عنه الأحداث ، وبعثوا بالكتب الى أمير أنطاكية وكونت طرابلس ، فقبلا بعد الحاح أن يضما قواتهما الى قواتهم ويبذلا لهم النصيحة ، وعلى هذا فقد راحوا يترقبون من يوم الى آخر أن يباغتهم صلاح الدين ، فيهاجم ناحية من نواحى المملكة بعساكر تزيد فى قوتها عما جرت العادة به ٠

بينما كان الجيش على هذه الصـــورة من الترقب عند نبع « الصفورية » كان الملك فى الناصرة يعانى اشتداد الحمى شدة قاسية يضاف الى ذلك أن النقرس الذى كان قد بدأ يضايقه فى مستهل حكمه بل وفى حداثته أصبح الآن أشد ضراوة عما كان عليه من قبل ، فضعف بصره حتى أشفى على العمى ، وصارت أطرافه هامدة كل الهمود حتى عجزت يداه وقدماه عن أداء وظائفها ، وكان هو حتى هذه اللحظة يرفض الانصات الى ما أشار به عليه بعضهم من وجوب تخليه عن العرش وترك أمور المملكة الى ســـواه يتولى تصريفها ، على أن يتناول هو مرتبا مجزيا من الخزانة الملكية لمواجهة احتياجاته ، وحتى ينصرف هو الى حياة الهدوء فى أثناء تقاعده ٠

وعلى الرغم من ضعفه الجثمانى وما عليه بدنه من العجز الا أنه كان حاضر العقل بصورة لاتتفق أبدا وما هو فيه ، وكان يجاهد فى اخفاء مرضه ، ودأب على تدبير أمور المملكة ، الا أنه فقد الأمل فى الحياة حين هاجمته الحمى ، فاستدعى اليه كبار باروناته ، واشـــترك فى هذا الاجتمـــاع أم الملك والبطرك ، ثم قـــام هـــو فأعلن فى حضرتهم جميعا أنه قد عين « جى دى لوزنيان » كونت يافا وعسقلان وزوج أخته وصيا على المملكة ٠

وهذا الأمير « جى دى لوزنيان » هو الذى كثرت اشاراتنا اليه فى الصفحات السالفة ، أما (الملك بلدوين الرابع) نفسه فقد احتفظ بمنصبه الملوكى ، واستبقى بيت المقدس وحدها اقطاعا خاصا له مع دخل سنوى يقدر بعشرة آلاف قطعة ذهبية ٠

وعهد الملك الى « جى » بادارة جميع ما بقى من المملكة دون اى قيد ، وأمر رعاياه المخلصين وجميع البارونات باعتبار أنفسهم اتصالا لجى دى لوزنيان ، وأن يقسموا له يمين الطاعة والولاء ٠

وتم كل شىء وفق ما رأى ٠

* * *

كان أول شىء فعله « جى دى لوزنيان » امتثالا لأمر بلدوين (الرابع) هو أنه أقسم ألا يتطلع للتاج طالما بلدوين على قيد الحياة ، وألا يقطع أحداً ما أيا من المدن والقلاع التى كانت حتى ذلك الوقت ملكا للملك ، ولا يمسك الصرف عليها من الخزانة ٠ والمعتقد أن « جى» قد التزم بهذا الأمر وأكده بيمين قطعها على نفسه أمام جميع البارونات ، وأعلن أنه سوف يراعى هذا الشرط مراعاة أمينة ، وذلك لأنه كان قد وعد معظم كبار رجالات الدولة ـ كلا على انفراد ـ بانصبة من المملكة ليست قليلة وكان ذلك منه سعيا لضمان وقوفهم الى جانبه ٠ كذلك يشاع أنه كان قد أعطى يمينا كهذه اليمين لهؤلاء اللوردات التزم فيها بالوفاء لهم بما وعدهم به ٠ ولا يمكن لنا أن نأخذ بهذا القول كحقيقة ثابتة اذ ليس بين أيدينا بينة قاطعة بصدق هذا الأمر ، لكن لم تنقطع حول هذا الموضوع الشائعات التى كانت تلوكها جميع الألسن ٠

على أن هناك أشخاصا لم يقع هذا التغيير عندهم موقع القبول فمالوا الى معارضته معارضة تذكيها مصالحهم الذاتية ودوافعهم الشخصية ٠

ثم كان الى جانب هؤلاء نفر كانوا يتذرعون بالصالح العام ويجاهرون بخوفهم على وضع المملكة وراحوا يصرحون علانية بأن الكونت (جى دى لوزنيان) ليس بالرجل الكفء لتحمل المسئولية،وأنه أعجز من أن يتولى دفة قارب المملكة ، على أن هناك رهطا منهم كانوا

يطمعون فى أن تؤدى وعود « جى » لهم الى تحسين أوضاعهم ، فزعموا أن الخير كل الخير فيما تم ٠

وترتب على هذا كله أن سرى بين الناس تذمر كبير ، وتفرقوا فى آرائهم شيعا متباينة وصدق المثل القائل : « تتعدد وجهات النظر كلما تزايد الرجال كثرة » ٠

على أن الكونت (جى) لم ينعم طويلا بما أوتيه من أمنية كان شديد التلهف عليها ، وهاهى ذى قد تمت وفق هواه ، وراح فى بادىء الأمر يتباهى بها جهرا وفى طيش ٠

ولقد قلنا انه كان عجولا فى قبول هذه المهمة للسبب التالى : ألا وهو أنه لم يتدبر تماما مدى كفاءته بالنسبة للمسئولية التى ألقيت على عاتقه ، فلم يكن عنده من التبصر ولا الفطنة ما يؤهله لمثل هذا العبء حين رضى بقبول ما لا قبل له بتحمله ، فهو لم يتعظ بالمثل الوارد فى الانجيل حيث يسدى النصح بأن « من يريد أن يبنى برجا فعليه أولا أن يجلس ويقدر هل عنده من المال ما يكفيه للنفقة عليه حتى يتم بناؤه ، لئلا يضع الأساس ثم يجد نفسه بعدئذ عاجزا عن اتمامه فيكون موضع سخرية جميع مشاهديه فيهزأون به ويقولون هذا الانسان ابتدأ يبنى ولم يقدر أن يكمل » ٠

ـ ٢٦ ـ

على هذه الصورة كانت الأمور تجرى فى المملكة حينذاك ، وكان القسم الأكبر من الجيش لايزال متمركزا فى « الصفورية » ، وقد أخذ صلاح الدين فى هذه الأثناء يتدبر فى ترو كبير هذا الأمر وانتهى به التروى الى استدعائه لقواته من الأراضى الواقعة فيما وراء الفرات ومعها جميع كتائب الفرسان التى استطاع حشدها من كل ناحية ، وهاجم أطراف المملكة بجيشه الكبير المدجج بالسلاح من



رأسه الى أخمص قدميه وبعدأن خلف وراءه أرض حوران على طول بحيرة طبرية وبرز فجأة بكتائبه في أقسام مختلفة بموضع يعرف بكافاف ويقع هذا المكان في سهل الأردن ، ثم سار من هناك مع النهر متقدما نحو « سكيثوبوليس » المسماة الآن كما ذكرنا كثيرا « ببيسان » والتى كانت فى زمن من الأزمنة السالفة عاصمة منطقة الجليل بأجمعها ، ولاتزال مظاهر عظمتها السالفة ترى حتى اليوم فى مبانيها التى أضحت أطلالا ، وفى كميات الرخام الضخمة المتناثرة بين هذه المبانى ، لكنها اندثرت ولم يعد يقطنها سوى نفر ضئيل من الناس مبعثرين فى الأكواخ التى تقع فى ناحية كلها مستنقعات ٠

وعلى الرغم من أن الأهالى القاطنين هنا كانوا مزودين جيدا بالأسلحة ومجهزين بكميات من الأطعمة تتكافأ مع عددهم ومع حجم المكان الا أنهم كانوا غير مطمئنين الى قدرتهم فى الدفاع عن قلعتهم، ومن ثم فانهم غادروا الحصن قبيل وصول جيش العدو ، تاركين وراءهم كل ما يملكون ، وعادوا الى طبرية ٠ فلما وصل العدو الى « سكيثوبوليس » (أى بيسان) وجدها خالية من أهلها ، وأنه قادر على التصرف فيها كيفما يشاء فحمل معه منها جميع الأسلحة والمئونة وكل ذى جدوى أو نفع ، ثم انطلق رجاله من « سكيثوبوليس » زمرا زمرا – فأما احدى تلك الزمر فقد عسكرت حيث وجدت الماء متوفرا الى جانب نبع يدعونه« توبانيا » Tubania الذى ينبع من أسفل جبل جلبوع Galboa فى رحاب كانت ذات مرة موضعا لمدينة شهيرة عرفت فى السابق باسم « جزرائيل » ، أما الآن فتعرف بجرين الصغيرة ٠

كان الصليبيون لايزالون معسكرين قرب نبع « الصفورية » الذى كثيرا ماوردت الاشارة اليه فى تاريخنا هذا ، وقد شغل بالهم التفكير فى معرفة الجهة التى سوف تهاجم منها القوات المعادية أرضنا ، فلما رأوا أن الترك موجودون فى سهول« بيسان » رأى

كتائبهم بفرقها المتعددة قد غزت تلك الناحية أجمعوا أمرهم على حمل السلاح فحماه وساروا رافعين أمامهم الصليب واهب الحياة ونشروا الرايات الملكية ، وعبروا الجبال التى تقع فيها « الناصرة » بلد سيدنا ونزلوا الى السهل الفسيح الذى كان يسمى فى القديم باسم « ايزدريلون » Esdrelon وهيئوا صفوفهم للقتال تهيئة حسنة حسبما تفرضه قواعد الحرب وزحفوا نحو مياه « توبانيا » Tubania حيث يعسكر صلاح الدين على مقربة منها بقوة عظيمة من نخبة الفرسان الذين ذاع صيتهم واشتهروا بباسهم ٠

وانصبت همة المسيحيين على طرد العدو والاستئثار بالمياه لأنفسهم دون غيرهم ، الا أنهم تبينوا بعد وصولهم الى هناك استحالة الاستيلاء على المكان الا بعد بذل جهد شاق وخوض معارك دامية مع العدو ، لكن سرعان ما قوض صلاح الدين خيامه وترك ينابيع المياه مما لم يكن يخطر على البال أبدا ، وشرع فى السير فى اتجاه المجرى حيث نصب معسكره مرة ثانية فى الناحية السفلى فى مواجهة « بيسان » وعلى بعد نصف ميل فقط منها ٠

غيرأنه قبل وصول المسيحيين الى ذلك الموضع كان العدو قد قسم جيشه الى جماعات صغيرة انطلقت تمشط الاقليم تمشيطا دقيقا بروح عدوانية ، وتعيث فيه فسادا ، ومضت احدى هذه الفرق فهاجمت قرية « جرين الصغرى » التىذكرناها من قبل ، ودمرت كل ما فيها تدميرا تاما ، ولكنها لم تجد أحدا منسكانها اذ كانوا قد علموا منقبل بمقدم العدو فأخذوا حذرهم وفروا الى الأماكن التى هى أكثر مناعة وأشد حصانة ٠

وبلغت جماعات أخرى موضعا يعرف عادة باسم « فوربيليه » Forbelet واستولت عليه عنوة ودمرت كل ما صادفته تدميرا ٠

اما الجماعات الأخرى فقد سارت فى الطرق الرئيسية فكان فى ا.ومها خطر على كل من الفرسان والعسكر المشاة ، ولم يصل الينا من كانوا مسرعين للانضمام الينا الا بشق النفس ومواجهة أخطار كبيرة كانت تهدد أرواحهم ، فقد تسلق البعض من هؤلاء الأعداء جبل « تابور » فى مهارة لم يسبق لها مثيل ، وهناك أنزلوا بدير القديس « الياس » اليونانى ما شاؤوا أن ينزلوه به ، حتى لقد حاولوا اقتحام قلايته الكبرى لكن اعتصم بداخل الدير رهبانه ومن لاذوا به من أهالى شتى القرى المجاورة ، وكان هذا الدير قد أحسن تحصينه بسور ذى أبراج ، وهنا قام هؤلاء جميعا بالدفاع المجيد عنه وأخرجوا العدو الذى كان قد تسلق الجبل من كل جوانبه المحاطة بالمتاريس .

على أن رجالا من نفس هذه الجماعات لم يكونوا يخشون قط شيئا صعدوا المرتفعات الواقعة وراء «الناصرة» حيث استطاعوا من هذه التلال العالية أن يروا المدينة بأكملها تحتهم ، فأثار ظهورهم الفزع الأكبر فى قلوب النساء والأطفال ، بالاضافة الى الشيوخ العجزة والمرضى الذين خلفهم أهلوهم وراءهم ، ويقال ان الكثيرين منهم لاقوا حتفهم فماتوا خنقا فى الزحام أثناء مجاهدتهم للهرب الى الكنيسة العظمى التماسا لملجأ يجدونه لهم فيها . اما أغلب الأهالى من القادرين على حمل السلاح فكانوا واحدا من اثنين ، اما واحد تابع السير مع الحملة العامة أو آخر قد رحل مع أهل بيته وما ملكت يداه الى احدى المدن الساحلية لاسيما عكا .

انطلقت هذه الجماعات من جيش صلاح الدين تذرع أرجاء الاقليم كله : قاصيه ودانيه ، ملحقة الضرر الجسيم بمن أزالوا

الوصول الى جيشنا . وأدى استيلاء الفزع عليهم الى فقدهم الجرأة على الاقتراب من المعسكر المسيحى ، سواء أكان ذلك لمساعدتنا أو للمتاجرة مما أدى الى سرعة انتشار المجاعة فى صفوف العسكر الذين دفعتهم الرغبة فى الزحف على العدو الى أن يتقدموا من غير متاع يحملونه أو أثقال يأخذونها معهم ، مؤملين أن تنجلى الأمور فى مدى يومين أو ثلاثة على الأكثر ، وقاسى السائرون على أقدامهم أمر العذاب لاسيما من كان منهم من أهل الساحل الذين بعثوا فى استدعائهم فى لحظتهم هذه وهم البيازنة والجنوية والبنادقة واللمبارديون ، فقد بارح هؤلاء سفنهم ، وتخلوا عما كانوا آخذين أنفسهم به من الاعداد للابحار (اذ كان الوقت اذ ذاك منتصف أكتوبر وقد أصبح ابحارهم قاب قوسين أو أدنى) ومن ثم فقد انضموا الى قواتنا هم والحجاج الذين كانوا قد تعاقدوا معهم على العودة بهم الى أوطانهم ، ولم يكونوا قد استبضعوا شيئا من الطعام أيا كان هذا الطعام ، وكانوا أعجز ما يكونون عن أن يحملوا معهم أسلحتهم لأن المعسكر كان يبعد عن البحر قرابة عشرين ميلا .

لذلك أرسلوا المبعوثين الى المدن المجاورة يلتمسون من المسئولين فيها أن يزودوهم بالمئونة على جناح السرعة ، فاستجاب القوم فى الحال للأوامر الملكية وانصاعوا لها مظهرين الحماسة والاهتمام ، وبعثوا الى المعسكر من غير توان كل ما أمكنهم جمعه من الأطعمة ، وقد وصل الجانب الأكبر من هذه الأشياء سليما الى نهاية الشوط ، ووجد القوم بين أيديهم امدادات كافية لمواجهة هذا الحادث الطارىء ، غير أن فريقا من هؤلاء الذين كانوا يحملون كميات كبيرة من المأكل لم يأخذوا ما يجب عليهم من الحذر فسقطوا فى يد العدو لأن الترك كانوا هم أيضا خماصا جياعا . ولقد نهض بعض فرساننا اذ أرسلناهم لحراسة الجماعات التى كانت تقوم باحضار الامدادات من الطعام ، فأما الذين قابلوهم فلم يجدوا عونا

وسقطوا فى يد الأعداء وراحوا ما بين قتيل جندله السيف ، أو أسير عاش عبدا فى خدمة لعدو ما شاء الله له أن يعيش ٠

اذا كانت خطايانا فى هذا الوقت قد أغضبت الرب حتى جازانا بما نحن أهل له فقد كان من الممكن أن يتحول بأس الترك بسهولة الى ما فيه دمارهم ، فقد جعلتهم عجرفتهم التى لا تغفر مثار السخرية ، ولم يحدث قط فى أى مكان من الأمكنة أن احتشدت مثل هذه الأعداد الكبيرة من الفرسان والمشاة من جميع أنحاء المشرق ، ولا يذكر الشيوخ أصحاب السن الذين تقدم بهم العمر كثيرا أن انضم مثل هذه القوات بعضها الى بعض وكانوا على مثل هذه الصورة من التجهيزات وكلهم من صـــقع واحد فقد بلغ عدد الصليبيين ألفا وثلاثمائة فارس، كما قيل ان مشاتهم المجهزين أحسن جهاز كانوا يزيدون على عشرة آلاف جندى ، يضاف الى ذلك أن هذا الجيش كان بقيادة جماعة من أكبر القواد وألمعهم ممن تميزوا عن سواهم بكفاءتهم الحربية العالية ، منهم ريموند كونت طرابلس ، وهنرى دوق اللوفان وهو قائد ذو مرتبة عالية من مملكة التيوتون ، ورالف دى موليون » وكان من مقاتلى اكويتانيا المشهورين ٠ هذا بالاضافة الى أنه كان فى سلك هذا الجيش من بارونات المملكة « جى كونت يافا » و « أرناط » صاحب المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن وكان من قبل أميرا لأنطاكية ، وبلدوين صـــاحب الرملة ، وأخوه بليان النابلسى ، ورينو الصيداوى ، وولتر صاحب قيصرية ، وجوسلين سنكال الملك ٠

ولقد عرف هؤلاء من الأخبار التى وصلتهم أن أعداءنا ركبوا متن الشطط والغرور اذ عبروا الأردن واحتلوا أراضينا ، غير أننا جوزينا على آثامنا اذ تنازع نبلاؤنا أمرهم فيما بينهم ، مما ترتب عليه اهمالهم الشديد وتراخيهم البالغ فى أمور الدولة التى كانت

تتطلب أقصى درجات الالتفات والرعاية ، كما أنهم عالجوا هذه الأمور معالجة تنطوى على مافيه الضرر بها، اذ أن الذين كانوا معتبرين أنهم أقدر الجميع على معالجة الموقف الحرج علاجا مرضيا رفضوا المشاركة فى العمل بسبب كراهيتهم لكونت يافا (جى دى لوزنيان) الذى كان الملك (بلدوين الرابع) قد عهد اليه قبل يومين فقط من هذه الأحداث بادارة دفة أمور المملكة ، وكان من أسباب سلبيتهم أنهم اعتقدوا اعتقادا جازما أن أعظم الأمور أهمية قد وضعت فى هذا الوقت العصيب فى يد رجل ساقط الجاه ،وانسان تافه حقير الشأن ، مما أفضى الى نفاد صبرهم فأسلمهم هذا الى التراخى مما ساعدالعدو على البقاء ثمانية أيام سويا نصب خلالها خيامه فى احدى النواحى القريبة من معسكرنا ، مما أتاح له الفرصة للعيث بالافساد فى المنطقة كلها دون أن يجد رادعا يردعه أو مقاوما يصده ٠

أما البسطاء من العامة الذين كانوا فى الجيش والذين لم يسهموا مع القادة المسيحيين فى نذالتهم فقد استولت الدهشة عليهم اذ عجبوا كيف يحجم الجيش (الصليبى) – وزمام الفرصة فى يده عن قتال الخصم ولم يستعد ما لأى معركة ٠ فلما تناقشوا علانية فى الأمر كانت الحجة التى احتج بها القادة عندهم فى هذا التأخير هى أن صلاح الدين قائد قوات العدو كان قد اتخذ له موقعا حصينا تحوطه الصخور ،وأنه كان من المستحيل على عسكرنا أن يقترب منه دون التعرض للخطر الفادح ٠ أضف الى ذلك أنه حشد جموعا كثيفة قوية من الجند وجعلهم على شكل دائرة وأمرهم بالاغارة على قواتنا من كل ناحية اذا ما حاولنا محاربة جيشه ٠

وقال البعض ان هذا كان هو الواقع الحق ، وأن القادة كانوا على صواب فيما فعلوا فى موقفهم هذا، على حين عارضهم غيرهم مؤكدين أن كل ما قيل ان هو الا زعم خاطىء وحيلة ابتدعوها لتجنب

الاشتباك فى القتال حتى لا ينسب انتصار جيوشنا ـ ان هى احرزت النصر ـ الى الكونت (جى دى وزنيان) الذى لابد وأن تدور المعركة تحت قيادته فيجنى هو ثمار النصر ·

ولقد رأيت أن أورد هذه الحجج المختلفة فى تفسيراتها والتى صرح بها الناس ، ولكنى غير واثق تمام الثقة من أى منها ، اذ لم يتضح عندى الخبر اليقين ، لكن الذى لا مشاحة فيه هو أن العدو ظل فى أرضنا فى ضواحى الأردن سبعة أيام أو ثمانية ملحقا كل يوم خطرا كبيرا بجيشنا دون أن يردعه أحد ·

فلما كان اليوم الثامن ـ أو على الأصح التاسع ـ استدعى صلاح الدين قواته وعاد بهم الى ديارهم سالمين لم يصبهم أدنى أذى ولما تأكد المسيحيون تأكدا لايرقى اليه الشك أنه غير عائد ارتدوا هم أيضا الى نبع « الصفورية » ·

على أن حادثا معينا يستحق التسجيل وقع أثناء الوقت الذى كان جيشنا خلاله واقفا عند نبع « توبانيا » فقد كان الظن حتى هذه اللحظة أن هذه المياه والروافد الخارجة منها لا تحتوى على شىء قط من السمك ، أو على الأقل الا القليل جدا منه ، لكن يقال أن الصليبيين جاءوا بكميات وفيرة منه تكفى الجيش بأجمعه ، وذلك أثناء وجودهم فى تلك النواحى ·

على أن الأمور جرت كما توقع المسيحيون تماما فما انصرم شهر واحد على تلك الأحداث حتى كان صلاح الدين قد أعد قواته واستعد للحرب ، واستدعى ثانية عسكره وحشد كتائبه ، وحرك آلاته، واعد أجهزته المألوفة التى يستعملها فى عمليات الحصار اعدادا دقيقا ، فلما فرغ من ذلك كله على احسن وجه عبر [illegible] باسلان [illegible] جلعاد

[illegible]

واجتاز أرض العموريين والمؤابيين الواقعة وراء الأردن ، وتأهب لحصار المدينة التى كانت تسمى قديما بالبتراء الصحراوية ولكنها تعرف الآن بالكرك ٠

ماكاد كشافة « أرناط » (رينو دى شاتيون) يوافونه بهذا الخبر حتى بادر فخرج الى هناك بطائفة من الفرسان كانوا من الكثرة بالقدر الذى يضمن حماية السكان ، فقد كان (رينو) قائما وقتذاك بحراسة هذه النواحى باعتبارها ملكا لزوجته بالوراثة شرعا ٠

كذلك كانت له الى جانب ذلك مصالح فى الكرك فقد كان همفرى الثالث بن همفرى الثانى وحفيد همفرى الكبير صاحب « شقيف تورون » وكونستابل الملك وربيب أرناط ٠ أقول ان همفرى (الثالث) هذا كان على وشك الاقتران بأخت الملك الصغرى التى كانت مخطوبة له قبل ذلك بأربع سنوات ٠

وحدث بعد وصول « رينو دى شاتيون » الى الكرك عقب انتهاء أيام الاحتفال بالزواج ، أو فى الواقع فى آخر يوم منها ، أقول حدث أن ظهر صلاح الدين أمام ذلك المكان على رأس جيش كبير جدا ومعه أثقال ضخمة من العدد وآلات الرمى التى نستعملها عادة فى الاغارة على المدن المحاصرة ٠ وسرعان ما نصب صلاح الدين معسكره على شكل دائرة أحدقت بالقلعة وبدأ الحصار ٠

كانت مدينة البتراء تقع قديما هنا على قمة جبل شاهق الارتفاع تحوطه الوديان العميقة ، ولقد بقيت أجيالا طويلة وهى أطلال مهجورة ثم جاء فولك ثالث ملوك اللاتين فى الشرق فشيد فى هذه البقعة قلعة على يد واحد اسمه «باجانوس » الساقى كان صاحب أرض واقعة وراء الأردن ، وقد بناها على نفس الجبل الذى كانت تقوم عليه من قبل مدينةالبتراء ، ولكن على سفح أقل انحدارا ، وان كان ينتهى

فى انحداره حتى يبلغ الوادى الممتد تحته ، فلما جـــاء خليفتـــا « باجانوس » وهما « موريس » ابن أخيه وفيليب النابلسى حفرا خندقا حولها ، وأقاما عددا من الأبراج ليجعلا من هذه القلعة مكانا آمنا من عقاب الجو على من يبتغى اقتحامه ، ثم تمت على أطرافها وفى موضع المدينة المندرسة قرية نزلها الناس وأقاموا بها مساكن لهم باعتبار الناحية مكانا حصينا أمينا الى حد ما ، وكنت القلعة قائمة فى الناحية الشرقية • أما فى النواحى الأخرى فثم الجبل تحوطه وديان سحيقة ، وهكذا فان السكان كانوا لا يحسون خوفا طالما أن للقرية سورا ذا ارتفاع مناسب ، ولم يكن فى الامكان الوصول الى قمة الجبل الا من جهتين فقط • كما كان الدفاع عنهـــا أمرا ميسورا حتى ولوكان المدافعون عنها قلة والمهاجمون كثرة ، كما كان من المفروض أن النواحى الأخرى يستحيل اقتحامها •

ولما عرف الأمير « أرناط » أن العدو قد جاء اندفع اندفاعا رآه من لهم خبرة بأصول الدفاع أنه ينطوى على الطيش فقد نهى الناس الذين يريدون حمل بضائعهم الى داخل الحصن والتماس السلامة لأنفسهم به عن أن يهجروا دورهم أو يفكروا فى نقل أى شىء مما يملكون ولو كان تافها •

فى هذه الأثناء كانت فصائل الفرسان والمشاة تجاهد جهادا عنيفا فى محاولة يائسة منها لسد الطريق فى وجه العدو الى ما فوق الجبل ، ولكن كثرة عسكر الخصم كانت أقوى منهم بصورة ألزمت الذين يحاولون قطع الطريق عليه أن يلوذوا بأذيال الفرار ، وبهذا تمكنت قوات صلاح الدين من الاستيلاء على الجبل كما استطاعت أن تشق طريقا لنفسها بحد السيف ، وهكذا نجح العدو نجاحا كبيرا فى أن يجد سبيله قدما الى القلعة ، ولقد كان من اليسير جدا على أولئك الأتراك الذين كانوا أقرب ما يكونون الى القلعة أن يهيئوا

لرفاقهم مدخلا فوق الجسر وعبر الباب المجاور له لولا الحزم الصادق الذى أبداه فارس اسمه « ايفين » ، ولقد خسر الأهالى التعساء بضائعهم ومتاعهم بسبب خطط مولاهم (أرناط) الطائشة مما أدى الى استيلاء العدو على كل ممتلكاتهم المنزلية وأثاثهم وأمتعتهم التى كانت من كل صنف • ومما زاد فى شقوتهم أن الذين فروا الى القلعة فزعا من غائلة صلاح الدين حطموا الجسر بسبب تهورهم وتزاحمهم ، وكان هذا الجسر هو المعبر الوحيد عبر الخندق ، فلما انهار بسببهم لم يعد فى استطاعة من بداخل القلعة الخروج منها كما استحال دخول أحد اليهم •

واحتشدت فى القلعة جموع غفيرة ممن لا حول لهم ولا قوة وكانوا من كل جنس : ذكورا واناثا ،فكانوا عبئا ثقيلا على المحصورين فيها أكثر من أن يكونوا عونا لهم • وكان هناك كثير من الممثلين والنافخين فى المزامير والعازفين على السناطير الذين توافدت جموعهم الى هناك من شتى أنحاء البلاد للمشاركة فى احتفالات الزواج ، ولكن خابت آمالهم جميعا خيبة محزنة ، اذ بدلا مما كانوا يتوقعونه من الربح والمرح البهيج اذا بهم يصادفون معارك تسيل فيها الدماء وهى أبعد ما تكون عن حرفهم التى ألفوها واعتادوا عليها •

وبالاضافة الى هؤلاء فقد كانت هناك جماعات كبيرة من السريان الذين يسكنون الاقليم المجاور وفدوا بنسائهم وأطفالهم ، فغص المكان بهم وضاق على سعته حتى لم يعد فيه موضع لقدم ، ولم يعد أحد يستطيع التقدم أو التأخر بسبب الجموع الكثيفة ، وهكذا أصبح هؤلاء القوم عقبة وصاروا سدا فى وجه كل ذى نشاط يبتغى الدفاع عن المكان •

وكانت القلعة زاخرة بالأطعمة رغم أن تزويدها بالسلاح لم يكن بالوفرة التى يستلزمها الدفاع عن الناحية •

اتفق الملك (بلدوين الرابع) من سير الأمور على هذه الصورة عند مياه « بوبانيا » أن كونت يافا (الذى قلنا من قبل ان مقاليد الأمور قد صارت فى يده) (وهو جى دى لوزنيان) قد كشف اللثام عن أنه رجل أبعد ما يكون عن الفطنة والسداد ، فقد تدهورت حال البلد الى درك مهين بسبب ما طبع عليه من الحمق وعدم الكفاءة ، فاشار أهل الحكمة على الملك حينذاك أن يسترد من الأمور ما كان قد عهد به اليه فاسترده ·

ويقال ان هناك دواعى خاصة أخرى حملته على اتخاذ هذا الاجراء ، منها ما ذكرناه حالا · من أن الملك ـ حين ألقى أزمة الحكم الى جى ـ كان قد استبقى لمصاريفه الخاصة مدينة القدس مع دخل سنوى له يقدر بعشرة آلاف قطعة ذهبية ، الا أنه رجع عما كان منه بناء على نصيحة مستشاريه الصادقين ، ورغب أن يستبدل القدس بصور على نفس الشروط لأن الثانية كانت أحصن مدن المملكة ، كما رآها أنسب لمقتضيات حاجاته ، فلما تبين له أن الكونت غير راض عن هذا الطلب تغير خاطره عليه تغيرا كليا ·

لقد كان من الحق حرمان هذا الرجل « جى دى لوزنيان » من التصرف في الشئون العليا بعد أن أقام الدليل على أنه يأبى أن يكون أريحيا فى أمر تافه كهذا الأمر يطلبه منه الرجل الذى هو صاحب الفضل عليه والذى كان سمحا معه حتى خوله التصرف فى كل شىء وهكذا أضاع « جى دى لوزنيان » من يده ما يتمتع به وحده من حق تصريف أمور المملكة ، كما أنه قضى على نفسه بأن يحرم من شرف ادارة المملكة ، بل لقد ضاع رجاؤه فى ارتقاء العرش ولم يعد له [illegible] ، ومن ثم اتفق رأى كل الأمراء والبارونات ـ وعلى

رأسهم بوهيموند أمير أنطاكية ، وريموند كونت طرابلس ، ورينو الصيداوى وبلدوين صاحب الرملة وأخيه بليان ـ على أن يسوق العرش الى بلدوين (الصغير ابن أخت الملك) ، وزكت هذا الاقتراح الملكة الأم تزكية قوية ، وكان الصغير بلدوين طفلا فى الخامسة من عمره فمسحوه بالزيت المقدس وتوج فى كنيسة القيامة ، وصادق الناس كلهم على هذا القرار ، وتمت الموافقة عليه بحضور رجال الدين ، كما كان كونت يافا (جى دى لوزنيان) حاضـــرا هو الآخر هذا الاجتماع ، لكنه لاذ بالصمت ولم يجرؤ على أن ينبس ببنت شفة ضـــده ٠

وبادر الكونتات فى الحال من غير ابطاء فأقسموا يمين الولاء للصبى بالصورة المألوفة ، مبدين له مظاهر الاجلال والتعظيم اللائقة بصاحب الجلالة الملكية ، وكان كونت يافا هو الشخص الوحيد الذى لم يطلب أحد منه أن يأخذ يمين التبعية والولاء ،وكانت هذه الحقيقة فى نظر أصحاب الخبرة الطويلة برهانا قاطعا على عداوة عميقة ، أو بلفظ أدق تشير الى كراهية صريحة مما سيتضح أكثر فأكثر ، وستكشف عنه الأيام القادمة ٠

٣

ولقد تعددت آراء أصحاب العقل الراجح فى شأن ما طرأ من تغيير جسيم فى الدولة وتضاربت هذه الآراء ، فقال بعضها أن ليس من جدوى تعود على المملكة بالخير من رفع صبى كهذا الصبى الى مرتبة العرش ، وليس فى ذلك من فائدة تعود على الصالح العام ، فقدكان الملكان (بلدوين الرابع وبلدوين الخامس) عاجزين تماما ، فاما أحدهما (وهو بلدوين الرابع) فطريح الفراش يعانى المرض الذى يقعده ، وأما الآخر (وهو بلدوين ابن أخته) فطفل غض الحداثة ، ومن ثم فلا جدوى ترتجى من الاثنين معا ، وقالوا أنه من الخير اتباع نصيحة أصحاب الحجا من رجال المملكة ، التى

تنادى بأن يعهد بالمهمة الملكية وادارة دفة شئون الدولة الى رجل يكون قادرا على الحرب ان كان ثمت حرب ، وترتجي مشورته ان احتاج الوقف الى المشورة الناجعة ٠

وشعر آخرون أنه حتى اذا كان القرار الذى اتخذ حيال الطفل قليل الجدوى الا أنه قد يكون مفيدا للدولة من ناحية أخرى ، لأنه قرار يبدد كل ما قد يكون عند كونت يافا (جى دى لوزنيان) من أمل يراوده فى أن يؤول التاج اليه ٠ ولما كان جميع الأمراء قد أجمعوا الرأى على أن كونت يافا هذا رجل قاعد الهمة غير أهل لتصريف الأمور ، الى جانب تطلعه الشره الى الحكم فانه قد يصبح مصدر منازعات فى المستقبل ومثار فتنة طخياء يخشى استفحالها بعد موت الموت ، وأن الخير كل الخير انما يكون فى استئصال ذلك كله الآن ٠

ولقد سيطرت على نفوس الجميع فكرة واحـــدة هى وجوب تعيين وصى يوكل اليه تسيير دفة أعمال الدولة لاسيما قيادة الجيوش لقتال العدو الذى أصـــبح الآن يهدد المملكة أكثر من ذى قبل ، واتفقت المشاعر كلها على أن كونت طرابلس ـ ولا أحد سواه ـ هو أقدر الجميع على تحمل هذه المسئولية والنهوض بها نهوضا يضمن لها النجاح ٠

وقد تمهذا فى اليوم العشرين من نوفمبر سنة ١١٨٣ من ميلاد المسيح ٠

ـ ٣٠ ـ

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى بيت المقدس كان صلاح الدين يشدد الخناق على المدينة المحاصرة تشديدا يتسم بالعنف والاصرار اللذين لا يعرفان التراخى ، ذلك أن مثابرته الملحة

التضييق عليها ومضايقتها لم تدع للمحصورين فى داخلها لحظة يلتقطون فيها أنفاسهم ، فقد أمر ببناء ثمانى آلات للرمى : ننصب ست منها فى الداخل حيث تقوم المدينة القديمة ، أما الاثنتان الباقيتان فتنصبان خارجها فى المكان المعروف عادة باسم فوربيليه واستمر الهجوم عليها موصولا بالليل والنهار من غير أى كلل ، كذلك لم ينقطع الرمى بالأحجار الكبيرة الحجم ، حتى لم يعد أحد من الذين فى داخل المدينة بقادر على أن يرفع يده أو يطل من نافذة بيته أو يحاول المقاومة بأى شكل من الأشكال ، واستولى الذعر واليأس على الأهالى التعساء استيلاء بلغ بهم حدا لم يعودوا معه يجرؤون على الظهور حتى لحظة أن أخذ الأعداء يتدلون بالحبال ويقتلون بلا رادع الحيوانات التى كان اللاجئون قدجاءوا بها معهم ووضعوها فى الخندق المحيط بالقلعة ٠ ولما لم يجد الترك من يصدهم أو يدفع خطرهم فقد شرعوا فى تقطيع الذبائح أوصالا كبيرة واعدادها للطعام ٠

أما من كانوا فى جيش العدو من الطباخين والخبازين والذين يمدون الأسواق بشتى السلع فقد اتخذوا من بيوت الأهالى أماكن يمارسون فيها حرفهم وهم آمنون مطمئنون ، وكانت هذه الدور عامرة بالحنطة والشعير والنبيذ والزيت وغيرها مما اغتصبه العدو عنوة رغم أنف أصحابها ثم مضى يتصرف فيها كيف شاء ٠

وحدث فى احدى المرات أن حاول المحصورون فى القلعة نصب آلة حربية لهم يصيبون بها خصمهم ، فلم يكن من خصمهم هذا الا أن كلف رجاله القائمين فى الخارج على حراسة الآلات بتسديد القذائف الحجرية فقذفوها بمهارة فائقة حملت المسيحيين على الكف عن محاولتهم هذه فقد توالت القذائف عليهم تصيبهم من شتى النواحى حتى باتوا مهددين من كل جانب فى كل حجر يقذفون به ، وحينذاك لم يعد أمامهم الا التمسك بحبال الصبر حيال ما يرميهم به القدر ، فالصبر أجدى عليهم من أن يعرضوا أنفسهم للهلاك ، وأنفع لهم من أن يلقوا بأنفسهم

وبأيديهم الى التهلكة ان هم حاولوا الدفاع عن أنفسهم بأى وسيلة من الوسائل :

لم تقتصر هذه الأخطار التى ملأت النفوس رعبا على من انسلوا من مخابئهم الخفية بل تعداهم الى من كانوا قد لاذوا بالدور القاصية المنعزلة ، فقد اضطربوا هم ايضا هلعا أمام أصوات القذائف التى كان صداها يبدو وكأنه الرعد القاصف ، وخشوا أن تسقط عليهم الدور التى هم فيها فيهلكون تحت انقاضها ، فقد كانوا يتوقعون الموت بين لحظة وأخرى وربما من رمية تصيبهم فترديهم ٠

فى هذا الوقت بالذات كان الملك (بلدوين الرابع) يبذل أقصى جهده لتدبير أى وسيلة لمساعدتهم ويحاول ارسال الغوث المنشود اليهم بأسرع ما يمكن ، لذلك استدعى اليه جميع قوات المملكة من شتى الأرجاء ، وأخذ الصليب الحى وزحف بنفسه ، حتى اذا بلغ بحر الملح الذى يسمى الآن ببحيرة الاسفلت أخذ يتشاور مع رجاله مشاورات طويلة أفضت به الى أن يعهد الى كونت طرابلس بقيادة الجيش العامة وجعل فى يده لواءه ٠

فلما جاءت عيون صلاح الدين اليه يخبرونه بأن الجيش المسيحى أصبح قريبا منه كل القرب ، وأن قيادة الكتائب آلت الى (ريموند) كونت طرابلس ترك آلاته وأمر رجاله بالانسحاب ورفع الحصار عن المكان ، وعاد الى دياره بعد أن أذاق المدينة النكال شهرا بأكمله ٠

على أن ذلك العمل من جانب صلاح الدين لم يصرف الملك عن الاستمرار فى زحفه الى الكرك التى تنفس أهلها الصعداء فرحا بقدومه ، فقد كانوا يتطلعون اليه منذ أمد بعيد عاقدين الأمل على أن ينقذهم مما هم فيه ، ثم لما أذن فى النفير بالرحيل أعاد تجميع قواته ورجع سالما الى بيت المقدس

هنا ينتهى الكتاب الثانى والعشرون

حواشى الكتاب الثانى والعشرين

(١) المقصود بالكبيرين هنا أمير أنطاكية وكونت طرابلس .

(٢) الواقع أن الملك بلدوين كان شديد المعارضة لزواج أخته سيبيلا من « جى دى لوزنيان » ولكنه وقع تحت ضغط شديد مارسه البطرك هرقل والملكة الأم وسيبيلا التى وصفوا لها من قبل « جى » وصفا أثار شوقها اليه فلما استقدموه اليها من فرنسا أحبته حبا شديدا ، وان لم يكن فيه ما يحمل الرجال على احترامه ، واضطر الملك تحت الضغط الشديد عليه الى قبوله زوجا لأخته وأقطعه يافا وعسقلان ، ولما اشتدت العلة ببلدوين حتى كادت يداه ورجلاه أن تفقد الحركة ألحت الملكة الوالدة وسيبيلا والبطرك هرقل على بلدوين أن يجعل لجى دى لوزنيان الاشراف الكلى على المملكة فقبل العرض على كره من كبار رجال مملكته واحتفظ لنفسه بالقدس مع معاش قدره عشرة آلاف بيزنت ، ثم رأى الملك أن يستبدل مدينة صور بالقدس فرد « جى » طلبه ردا مهينا مما حمل الملك على خلعه من الاشراف على المملكة والايحاء الى أخته « سيبيلا » بفراق زوجها فارتد « جى » الى يافا وعسقلان وخلع طاعته للتاج مما حمل بلدوين على أن يعلن سلطانه على يافا فتحصن « جى » فى عسقلان بل لقد انضم الى جانبه البطرك وكبيرا فرسان الداوية والاسبتارية وبعض من كبار الرجال ، ثم تباطؤوا فى الاستجابة الى الملك بالمضى الى الغرب لحثه على حرب صليبية ، وسار « جى » حينذاك سيرة

عوجاء كلها تحد للملك مما سوف يشير اليه المؤلف ، وقد حمل ذلك كله الملك على استدعاء ريموند كونت طرابلس ليضع مقاليد الأمور فى يده · ولقد سقنا هذه الاخبار مرة واحدة وهى وغيرها متناثرة فى صفحات الكتاب وبعضها أسقطه المؤلف وقد جمعناها مع بعضها حتى يكون من اليسير على القارىء فهم الأحداث ·

(٣) « مرقية » (بكسر القاف وتشديد الياء المثناة والمفتوحة) قلعة ـ كما قال ياقوت ـ من القلاع الحصينة على أطراف حمص · انظر فى تاريخها منذ الفتح الاسلامى

Le-Strange : Palestine Under The Moslems, P. 502.

(٤) هو الطفل « الكسيوس » الثانى (١١٨٠ ـ ١١٨٣ م) ابن مانويل من الامبراطورة مارية الأنطاكية ، وقد انتهى عهده أسوأ نهاية بسبب عوامل مختلفة منها كراهية الشعب البيزنطى للاتين ، وسوء تصرف الأم الامبراطورة الوصية ووقوعها ألعوبة فى يد مستبد طاغية ·

(٥) سبقت الاشارة الى ايرين هذه التى كانت تسمى فى الأصل « برتا سولزباخ » ، وقد ذكرها المؤلف فى الجزء الثالث من هذا الكتاب ص ، وكانت « برتا » هذه أخت زوجة الامبراطور كونراد الثالث ومن هنا كان زواج مانويل منها سياسيا ، انظر تفصيل ذلك فى :

Ch Diehl : Figures Byzantines, PP. 170 — 190.

(٦) تشير كلمة « حاليا» هنا الى أن المؤلف كتب هذا قبل سنة ١١٨٣ م وهى السنة التى انتهى فيها حكم الكسيوس الثانى الطفل بمقتله ، كما أن المؤلف وليم الصورى مات قبل نهاية سنة ١١٨٤ م ، انظر مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب ·

(٧) الوارد فى الأصل الذى كتبه وليم « خمسون عاما » والصحيح ما أثبتناه بالمتن حيث ظل على العرش من ١١٣٧ م حتى ١١٨٠ م ، وهو صاحب خبر طويل فى الحرب الصليبية الثانية ·

(٨) ورود ضمير المتكلم فى كلمة « قمت » اشارة هامة الى أن المؤلف كان يقوم بوظيفة مستشار للملك مما يتيح له أن يملى أو يشترك اشتراكا كبيرا فى وضع نصوص الاتفاقية لما له من الصـــلاحيات الكبرى · وتعلق الترجمة الانجليزية على الخبر الوارد فى المتن أعلاه بأن وليم كان لابد له

حتى هذه اللحظة يقوم بمهامه الرسمية رغم « ما كان يغص به البلاط يومذاك من طائفة كبيرة العدد تعارضه وكان لها نفوذ عظيم » .

(٩) الواقع أن وفاة مانويل الأول كانت يوم ٢٤ سبتمبر ١١٨٠ م .

(١٠) خبر بوهيموند الثالث مع كل من تيودورا وسيبيلا مثل صريح للتفكك الأخلاقى الذى كان مستشريا فى طبقات المجتمع الصليبى العليا ، وقد تزوج من تيودورا (احدى قريبات الأسرة الحاكمة) ثم هجرها وعاش عيشة تنكرها الأخلاق مع « سيبيلا » التى كانت تحوطها الاشاعات وترمى بممارسة السحر ويتهمها الأنطاكيون بالتجسس لصلاح الدين ، وقد حملت كل هذه الأمور البطرك على طردها من حضن الكنيسة واصدار قرار الحرمان ضدها ، ويمكن مراجعة ذلك فى ابن الأثير وأبى شامة ، وانظر أيضا :
Rey : Hist. des Princes d'Antioch (Rol.) 1986, II, P. 379 et fol.

(١١) يقصد بهما جوسلين خال الملك وبلدوين صاحب الرملة .

(١٢) اشار وليم اشارة موجزة الى هذا الدور .

(١٣) الأمثال ١٨/٣ .

(١٤) المزامير ٥٨/٥ .

(١٥) ذلك هو حصن المرقب المعروف فى الحوليات الصليبية باسم : Castrum Merghatum أو حصن Margat وقد وصفه ياقوت بأنه يطل على بحر الشام ويقوم بالحفاظ على مدينة بانياس وساحل جبلة ، ولقد شيده المسلمون سنة ٤٥٤ هـ (= ١٠٦٢ م) .

(١٦) متى ١٢/٢٥ .

(١٧) مزامير ١٤٧/١٦ .

(١٨) المقصود بالملكة ، هنا امارة أنطاكية .

(١٩) هو روبين الثالث (١١٧٥ ـ ١١٨٥ م) صاحب أرمينية الصغرى التى تأسست فى جبال طوروس قبل ذلك بقرن من الزمان تقريبا أعنى سنة ١٠٧١م على يد روبين الأول انظر فى ذلك ما جاء فى :
Adontz (N) : L'Age et l'origine de l'Empereur Basil I.

ثم إسبتولى خلفه على معظم حصون كيليكية الهامة بالتعاون مع الصليبين ولقد كان روبين الثالث حريصا فى فترة ما من تاريخه على تأكيد علاقاتـه الودية بالفرنجة ، فزار القدس حاجا سنة ١١٨٠م كما تزوج السيدة «ايزابيلا» صاحبة تورون • أما فى اللحظة التى يتكلم عنها وليم حين أصبحت «سيبيلا» أميرة مكان الأميرة الشرعية تيودورا في أنطاكية فقد فر كثير من كبار الفرنجة الي روبين الثالث كما فى المتن •

(٢٠) أى كنيسة صور •

(٢١) كان الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين قد بويع بالحكم بعد موت ابيه وكان صغيرا لم يبلغ الحلم وأطاعه صلاح الدين ، ثم كانت وفاته سنة ٥٧٧ هـ ، وعلى الرغم من موته المبكر الا أنه كان كابيه الشهيد محمود قائما فى خدمة المصالح الدينية فقد أوقف فى سنة ٥٦٧ هـ وقفا على مسجد بزاعة ، انظر النعيمى :الدارس فى تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر الحسنى ٦١٥/١ ، و Elisseeff : Nour ad-din I, P. 171 nole 3.

(٢٢) كانت آخر زيارة قام بها كونت طرابلس هى التى جرت فى عيد فصح ١١٨٠م كما اشار الى ذلك وليم نفسه من قبل •

(٢٣) متى ٢٥/١٢ •

(٢٤) يقصد بالرجل العظيم ريموند كونت طرابلس •

(٢٥) مزامير ١٤/٧ •

(٢٦) تعددت الاشارة اليه هنا فارجع الى الكشاف •

(٢٧) متى ١٨/١٦ •

(٢٨) Diehl : Figures Byzantines P. 195 et seq.

(٢٩) لفهم الأحداث المعقدة المتضاربة التى جرت فى هذه الفترة القصيرة وازالة ما يبدو من غموض فى تعاقب الأحداث فانا نحيل القارىء الى Ostrogorsky, op. cit. ففيه فى أماكن متناثرة ما يوضح هذه الأمور •

(٣٠) زيادة عما ورد من قبل عن بيثينيا انظر الملحق فى ختام هذا الجـزء ،

(٣١) ضمير المتكلم هنا عائد على « اللاتين » الذين كانوا يعيشون في القسطنطينية ابان هذه الحقبة عام ١١٨٢ م · ويلاحظ أن وليم لم ينس أصله اللاتيني فكان كلامه عنهم باعتباره واحدا منهم يأسى على ما يصيبهم من ضرر ·

(٣٢) كان دخوله العاصمة ايذانا بأمور عدة أولها توقع ضربة قاصمه للنفوذ الغربى اللاتينى وانهيار الأسرة البيزنطية الشرعية بل والتمهيد لسقوط الامبراطورية البيزنطية ذاتها على يد الحملة الصليبية الرابعة وقيام المملكة اللاتينية التى كانت انتقاما فى الواقع لهذه الأحداث · ولقد انتقلت مقاليد الأمور فى اللحظة التى يتكلم عنها وليم فى المتن الى يد المغتصب « أندرونيكوس » وان تظاهر أنه جاء لحماية الامبراطور الطفل ، ولم يعدم هذا المغتصب الوسيلة التى يدفع بها كبار رجال الدولة والكنيسة للمطالبة بتتويجه شريكا للامبراطور الطفل الذى مالبث أن اغتيل بعد شهرين من هذا الحادث والقى بجسده فى البحر واذ ذاك تزوج « أندرونيكوس » الذى كان فى الخامسة والخمسين من عمره من خطيبة الطفل المقتول Agnes Anna ابنة لويس السابع وكانت فى الثالثة عشرة من عمرها · لكن يذكر لهذا المغتصب أنه منع بيع الوظائف ومنع الرشوة بزيادة المرتبات واشتد ضد جامعى الضرائب الى غير ذلك من الاعمال التى أدت الى نشر الأمن والطمأنينة بين الشعب والفلاحين ، وقد حاول كسب ود صلاح الدين فلم يفلح ، راجع :

Brand (C.M.) The Byzantines and Saladin 1185 — 1192.

كما حاول محاولة فاشلة دفع التعويضات المالية للبنادقة · هذا الى قيام النرمنديين عام ١١٨٥ م بالهجوم على بعض الأملاك البيزنطية مما كان له اثر فعال فى سقوط المغتصب ·

(٣٣) هو وادى سلفستر Sylvester فى المراجع الاجنبية وقد أشار ياقوت الى أنه يقع جنوب القدس ويتجه الى الحجاز ، انظر :

Le-Srange : op. cit., P. 548 — 549.

(٣٤) آثرنا كلمة « دبورية » ترجمة لكلمة Buria التى استعملها وليم ، وهذا الاسم العربى وارد عند ياقوت اذ قال انها بلدة صغيرة قرب طبرية بالأردن ، ويشير Le-Strange, op. cit. P. 427. الى أنها هى Daberath الواردة فى التوراة والواقعة على السفح الغربى لجبل تابور ، وانظر ما كتبناه عنها فى الملحق الذى الحقناه فى نهاية هذا الجزء تحت كلمة « دبورية » ·

(٣٥) وردت فى الترجمة الانجليزية كلمة Syrians التى يمكن ترجمتها بالسوريين أو السريان وقد أشارت الترجمة الانجليزية (ج ٢ ، ص ٤٧١ ، حاشية رقم ٤٠) الى أن العبارة كلها تدل على أن وليم رغم انه كان مولودا بفلسطين التى هى جزء من الشام الا انه لم يكن يعد نفسه شاميا خالصا .

(٣٦) المقصود بالأمير هنا السلطان صلاح الدين .

(٣٧) حصن « كوكب » المعروف فى الحوليات الصليبية باسم Beauvoir وارد فى ياقوت ووصفه بأنه حصن يطل على جبل طبرية ويشرف على جند الاردن ، انظر : Le-Strange : op. cit. P. 483.

(٣٨) متى ٢٦/٥٢ .

(٣٩) الضمير هنا عائد على السلطان صلاح الدين .

(٤٠) Cf. Elisseeff : Nur ad-Din, II, PP. 438 — 439.

(٤١) Cf. Le-Srange, op. cit. PP. 425 et 492

(٤٢) فيما يتعلق ببلدد الشوحى وأيوب ، انظر فيما بعد الملحق تحت كلمة « بلدد » .

(٤٣) خلت نسخة وليم اللاتينية من الاشارة الى ذكراليوم والشهر ، وهذا ما لاحظته الترجمة الانجليزية ولم تستطع التحقق منهما .



هنـــا يبـــدأ

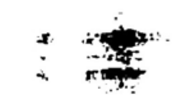
الكتاب الثالث والعشرون

هل في استطاعة ريموند كونت طرابلس انقـــاذ بيت المقـــدس ؟

فصول الكتاب :

١ ـ التمهيد

٢ ـ الكراهية المتأصلة التي بين الملك (بلدوين الرابع) وكونت يافا (جي دى لوزنيان) تتفجر في شكل صراع حاد · عدم توقع أي أمل في التفاهم بينهما · كونت طرابلس يصبح وصيا على المملكة وحارسا على الملك ·





التمهيد :

شهدت المملكة احداثا دامية لم تكن قاصرة على كثرة وقوعها فحسب بل كادت أن تكون موصولة على الدوام يأخذ بعضها بحجز البعض الآخر بلا انقطاع • لذلك آليت أن أكسر قلمى وأن أصمت صمت القبور ، وأن أكف عن كتابة الأخبار التى كنت قد أخذت على نفسى عهدا أن أدونها حتى يطلع عليها الذرارى •

وليس هناك من أحد يرضى أن يسجل أخبارا تقدح فى وطنه ، كما لا يحب أن يكشف الستر عن أخطاء بنى قومه فيبرزها للعيان ، فقد أصبح الرجال يأخذون أنفسهم بطريقة صارت على مر الزمن أشبه بطبيعة ركبت فيهم هى أن يبذل الواحد منهم أقصى جهده لابراز محاسن بلده ، ولا يحاول قط الزراية بحسن سمعة مواطنيه •

لكننا اليوم نرى أنفسنا وقد ضاع منا كل ما كان يضفى علينا مجدا مهيبا ، ولم يعد يطالعنا سوى مصائب وطن حزين ، وما منى به من النكبات الكبيرة ، وكل هذه لاتؤدى الا الى مزيد من البكاء وفيض من الدموع •

ولقد أدرجنا فى الكتب السابقة من تاريخنا هذا ــ وبقدر ما نستطيع من الأمانة ــ الأعمال النابهة التى نهض بها الرجال الأمجاد الذين كانت مقاليد السلطة فى أيديهم طوال ثمانين عاما من عمر الزمان فى قسمنا هذا من الشرق ، لاسيما فى بيت المقدس ، أما الآن فيتملكنا اشمئزاز ما بعده اشمئزاز من حاضرنا ، وان الدهشة لتبلغ ذروتها من مطالعة الأمور التى تجرى أمام أبصارنا وتصك سمعنا ، وهى أمور لا يجوز روايتها ، حتى ليستنكف جوقة المهرجين من

انشادها ، ويمتنع قصاصو حكايات « مافيوس » عن روايتها ، كما تعوزنا الشجاعة فى الاستمرار فى ايرادها ، ذلك أنه ليس فى فعال أمرائنا شىء يراه العاقل جديرا بأن يضاف الى مخزون ذكرياتنا ، وليس هناك من شىء يرضى القارىء أو تشرف روايته الكاتب ، بل ان كل ما نستطيعه هو أن نندب مع النبى أنه قد تلاشى من بيننا قول القائل(١) : « ان الشريعة لاتبيد عن الكاهن ، ولا المشورة عن الحكيم ولا الكلمة عن النبى » ، وانه ليمر بالخاطر قول القائل(٢) : « كما الشعب هكذاالكاهن » كذلك يمكن أن ينطبق علينا تمام الانطباق النبوءة القائلة(٣) : «كل الرأس مريض ، وكل القلب سقيم ، من أسفل القدم الى الرأس ليس فيه صحة بل جرح واحباط » ، ذلك لأننا قد وصلنا الآن الى درك لا نستطيع فيه أن نتحمل شرورنا ونعجز عن علاجها ٠

ولقد كان من الحق أن نعاقب على خطايانا اذ أصبح العدو يفوقنا قوة ، ويشأونا اقتدارا ، أما نحن الذين اعتدنا النصر على خصومنا ، ولا نخرج منصراعنا معه الا وعلى مفرقنا تاج الغلبة فقد غدونا الآن محرومين من العطف الالهى ، اذ نعود من ساحة القتال بعد كل معركة مجللين بعار الهزيمة الشائنة ٠

وها قد آن الأوان لأن نستمسك بالصمت فقد أصبح الزمن أكثر ملاءمة لأن نسدل سجف الظلام على هزائمنا ، فذلك خير وأجدى من أن نسلط ضوء النهار على عارنا ، ولكن على الرغم من ذلك فان هناك بعضا من الناس يطلبون منى أن أتابع العمل الذى كنت قد أخذت نفسى به ، وانهم ليلتمسون منى فى الحاح أن أسجل فى هذا السفر ـ ولو من أجل الأجيال القادمة ـ كل شىء يتعلق بمملكة بيت المقدس سواء أكان هذا الشىء أمرا يثلج الصدر أو يكرب النفس ، ولقد أرادوا تشجيعى على هذا المسلك فضربوا لى المثل بواحد من



ائبة المؤرخين وابرزهم وهو « تيتوس ليفياس » الذى لم يقتصر فى كتاباته على ذكر انتصارات الرومان وحدها ، بل أشار أيضا الى هزائمهم ، كما ضربوا لى المثل بيوسيفوس الذى لم يكتف فى كتبه الجامعة بذكر أيام اليهود المجيدة بل جاوزها فأشار الى ماحاق بهم من أمور مخزية ·

كذلك دفعتهم مساعيهم لحملى على الاستمرار فى هذا المؤلف لأن يسوقوا كثيرا من الأمثلة الأخرى ، وأرانى أكثر اســـتعدادا لاستجابة هذا الرجاء ، اذ أنه من الجلى الواضح أن مؤرخى الأحداث التى غبرت قد التزموا الحياد فى ايراد ما كان من هذه الأحداث مما يؤذى النفس خبره ، وما كان منها نير الجوانب مشرقا ، ذلك لأنهم فى ذكرهم الانجـــازات الناجحة انما يطمعون فى أن يبثوا الشجاعة فى نفوس الأجيال القادمة ، كما أنهم فى ايرادهم صور الهزائم التى تحملها من نزلت بهم هذه الهزائم انما يرجون أن يكون ابناء هذه الاجيال أكثر حذرا وحيطة حين يمرون بمثل هذه الظروف ·

ان واجب المؤرخ يقتضيه ألا يقتصر على ذكر الحوادثالتىترضى عنها نفسه وتلذ له هى وحدها بل يجب أن يلزم نفسه بالزمن الذى أملى هذه الحوادث ، كما أن عائد الأمور الدنيوية ـ لاسيما ما كان منها متعلقا بالحروب ـ انما هو عائد يعتريه التغير على الدوام ، ويتسم بعدم التوقف والثبات على وجه واحد ، فما كان للنعمة أن تستمر الى الأبد ، وما كان للبلوى أن تتسم بالرتابة التى تسير على وتيرة واحدة ، بل تتخللها فترات منيرة مشرقة ·

ولقد أذعنت لما قالوا ، ورجعت عما كنت قد اعتزمته ، وسوف استمر ـ ما قدر الرب لى أن أعيش ـ فى كتابة التاريخ ، ملتزما الدقة التامة كما فعلت فيما سبق ، مهما تكن الصورة التى تجىء عليها الأحداث المقبلة ·



واننى لأرجو من الله أن يجعل هذه الحوادث سعيدة موفقة ٠

- ٢ -

لقد جرى فى هذه الأثناء ازدياد حدة الكراهية الموجودة بين الملك وبين كونت يافا (جى دى لوزنيان) وأخذت تتفاقم يوما بعد يوم نتيجة أسباب خفية ، فقد انفجر مرجل الحقد الذى كان لايزال حتى هذه اللحظة مكتوما فى صدر الملك ، وكان انفجاره عنيفا تمثل فى أنه لم يستطع أن يكتم محاولاته فى تلمس الأسباب التى تؤدى الى انفصال أخته (سيبيلا) عن زوجها وفسخ القران ، وقد دفعه هذا الهدف للذهاب علانية ومن غير استنكار الى البطرك ليطلب منه - اذ أراد التشكى من هذا الزواج - أن يحدد يوما يعلن فيه فسخ العقد فى حضور البطرك فسخا صحيحا ٠

ولما عاد كونت يافا من الحملة أخبروه بكل ما جرى ، وسرعان ما ترك الجيش فى لحظته ومضى الى عسقلان سالكا أقصر الطرق اليها ليحذر زوجته التى كانت اذ ذاك فى القدس ، وليطلب اليها مغادرتها والذهاب الى عسقلان قبل وصول الملك خوفا عليها ان هى ظلت فى القدس أن تصبح تحت سيطرة أخيها بلدوين (الرابع) الذى لن يأذن لها بالرجوع الى زوجها جى دى لوزنيان ٠

أما الملك فقد بعث فى أعقاب ذلك رسولا لاستدعاء الكونت للحضور لمحاكمته وليخبره بأسباب المحاكمة ، فرفض الكونت (جى) متعللا بالمرض حتى يتجنب المثول أمام المحكمة ، وظل (الكونت جى) سادرا فى غلوائه ، رافضا الامتثال لأمر الملك وطاعته ، وتكرر اعلانه بالحضور للمحاكمة وتكرر منه الرفض ، واذ ذاك رأى الملك أن يذهب هو بنفسه اليه ، وأن يعلنه شخصيا فما لأذن بالمجىء لمقاضاته ٠

ولما بلغ بلدوين مدينة عسقلان محاطا بكوكبة من كبار رجال البلاط وجد أبواب المدينة مغلقة في وجهه ، فراح يطرقها بيده وطلب ثلاث مرات فتحها له فلم يستجب أحد لطلبه ، فعاد على أعقابه وهو يتميز غيظا ويتلظى غضبا ٠

وقد جرى هذا كله على مرأى ومسمع من جميع أهل المدينة الذين ماكادوا يعلمون بوصوله حتى اتخذوا أماكنهم بالأبراج والأسوار يرقبون ماذا تكون الخاتمة ٠

ومضى الملك مباشرة من عسقلان الى يافا فصادف فى طريقه كثيرا من سكان تلك المدينة : وكان فيهم أكبر رجالاتها وأناس من مختلف الطبقات ،وفتحت يافا له أبوابها فدخلها من غير مشقة ، وبعد أن عين عليها واليا يسير دفة الأمور انفلت الى عكا حيث نادى بعقد مؤتمر عام فى تلك المدينة ذاتها ٠

فلما جاء اليوم المحدد للاجتماع التام شمل جميع البارونات ومضى البطرك – بمعاونة رئيسى الداوية والاسبتارية – لمخاطبة جلالة الملك ، وركع البطرك أمامه وجثى على ركبتيه وشرع يتشفع عنده للكونت (جى دى لوزنيان) ، ويستعطف جلالته أن يطرح جانبا غضبه على الكونت وأن يعيده ليتفيأ ظلال عطفه عليه ٠ فلما لم يلق هذا الالتماس استجابة فى الحال عند الملك انصرف البطرك ومعاوناه ، وهم أشد مايكونون حنقا ، ولم يكتفوا بمغادرة البلاط فقط بل والمدينة أيضا ٠

وطرح اقتراح أمام البارونات المجتمعين يقضى بارسال مبعوثين الى ملوك بلاد ما وراء الجبال والى من هناك من الأمراء يدعونهم للحضور لمساعدة المملكة والملة النصرانية ذاتها ٠



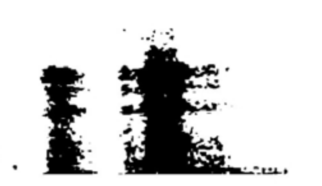
ومع أن الواجب كان يقتضى معالجة هذا الموضوع أولا قبل غيره الا أن البطرك (هرقل) أنسد هذا الاجتماع ، وأصر على الموضوع الهام ، وتكلم عن الحدث الذى أشرنا اليه ، ثم انفلت فغادر عكا كما وصفنا .

ولما عرف كونت يافا أن الملك لن يتنازل فيصفح عنه لج فى سلوكه الطائش السالف ، وارتكب مزيدا من الأعمال التى إتسمت بالعنف ، وسار بمن تحت يده من العسكر شطر القلعة المسماة بقلعة «الداروم » ، ثم مضى فهاجم جماعة من العرب كانوا قد نصبوا خيامهم فى هذه الناحية التماسا للمرعى ، وكان الملك قد وعد هؤلاء الأعراب ببسط حمايته عليهم ، وأطمعهم فى رعايته لهم ، فاطمأنوا الى هذا العهد كل الاطمئنان واعتمدوا عليه ، ومن ثم وجدهم كونت يافا غير مستعدين أو متأهبين لمقاومته ، فهاجمهم وساق مواشيهم وعبيدهم وعدها غنيمة باردة له ، ورجع بذلك كله الى عسقلان .

حين سمع الملك نبأ هذه الغارة استدعى اليه ثانية باروناته وعهد برعاية المملكة وادارة شئونها العامة الى ريموند كونت طرابلس وثوقا منه فى حكمته وسمو نفسه .

ويبدو أن العامة وأغلب الأشراف تقبلوا هذا العمل من جانب الملك قبولا حسنا وأرضى رغباتهم ، اذ كان من الواضح للجميع أن طريق السلامة الوحيدة انما يتمثل فى وضع أمور المملكة فى يد كونت طرابلس .

هنا يتوقف الكتاب



حواشي الكتاب الثالث والعشرين

(١) ارميا ١٨/١٨ .
(٢) هوشع ٩/٤ .
(٣) اشعيا ١/٥ ـ ٦

ملحـــق

وضعنا هذا الملحق خاصا للتعريف ببعض الأعــلام والأماكن الجغرافيـــة وتفسير بعض الألفاظ والمصطلحات الاسلاميـــة واليهودية والمسيحية الواردة فى الأجزاء الأربعة من هذه الترجمــة العربية ، وذلك بغية التيسير علىّ القارىء العربى لفهم ما قد يبهم عليه منها .

ح ٠ ح

ابــولــو

من آلهة الاغريق القدماء الذين تزعم أساطيرهم أن أباه هو « جوبيتر » وأمه « لاتونا » ، وأخته « ديانا » ، وأنه ولد في ديلوس Delos وهــى احــدى الجــزر الصغيرة المبعثرة فى بحرايجة ٠

أبو لونيوس

اكتفى وليم الصورى حين ذكر أبولونيوس Apollonius بالقول بأن « شهرة أعماله ذاعت وطبقت الآفاق » ، واذا رجعنا الى التاريخ وجدنا أن هناك كثيرين من رجال الفكر والأدب أطلق عليهم هذا الأسم منهم « أبولونيوس » الذى هو من « رودس » ٠

كما أن هذا الأسم يطلق على مؤلف ظهر فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ويبدو أنه هو المقصود فى متن كتابنا هذا ، ولعلـــه منسوب الى « أبو لونيا » وهو الاسم الذى يطلق على عدة مــدن بعضـــها كان في « الليريا » ، والبعض الآخــر فى « مقدونيا » ٠ ٠

ابيجايـــل

كانت « أبيجايل » تحت « نابال » الذى تفسيره «الغبى»» وقد تباعد ما بين الرجل وزوجته فى الخلق والخلق والطبيعة والقيم الأخلاقية، اذ

كانت هى عاقلة مدبرة حكيمة،تسوس الأمر بمايجنبهاكثيرامن الخطأ، أما « نابال » فكان ـ رغم شدة ثرائه لكثرة ما يملك من قطعان الغنم والماعز ـ رجلا فظا غليظا شحيحا فدما لايعرف الرحمة ولايحسن معالجة المشكلات التى تعترضه ، وكانت « أبيجايل » تتسم بالجمال والفتنة مما حببها الى نفس داود حتى صارت له فيما بعد زوجة ·

وجرت عادة « نابال » أن يبعث بقطعان غنمه وماعزه مع عبيده ترعى فى أرض داود آمنة فى حماه لايخشى صاحبها عليها هجمة الأشرار واللصوص ، فلما جز « نابال » غنمه وقت أن حان أوان جزها بعث داود اليه يذكره بفضله عليه « اذ أمن رجاله يوم كانوا فى حمايته ، حتى سلم هو وأهل بيته وكل ماله ، وبعث اليه داود بكلام رقيق يقول له فيه « اعط ما وجدته يدك لعبيدك ولابنك داود » فأنكر « نابال » ما يريده داود ، فخرج داود فى نحو أربعمائة رجل لقتال « نابال » الذى خاف عبيده من حركة داود ·

وحدث أحدهم « أبيجايل » باقتراب داود وهو الرجل الذى كان هو ورجاله « سورا لرفاقه ليلا ونهارا أيام اقامتهم معهم لرعى الغنم » ، فهداها حسن تفكيرها الى حمل « خمسين رغيف ، وزقى خمر ، وخمسة خرفان ··· وفريك وزبيب وتين ، وساقت ذلك كله أمامها الى داود دون أن تخبر زوجها أو تعلمه بما انتوت عمله ، وخرجت فصادفت داود « فخرت على وجهها أمامه ، وتوسلت اليه أن يكون رحيما » ولا « يكون كالرجل ··· اللئيم نابال ، لأن اسمه هكذا هو ··· نابال اسمه والحماقة عنده » ·

فأثنى عليها داود وعلى ما فعلت ، وقبل هديتها وصرفها مشكورة ، فلما عادت الى زوجها وجدته « فى وليمة كوليمة ملك » فلم تحدثه بشىء حتى اذا طلع الصباح وذهبت عنه نشوة الخمر

أخبرته بما كان من أمرها مع داود « فمات قلبه داخله وصار كحجر ، ثم ضربه الرب بعد عشرة أيام فمات » فسر داود بما جرى لنابال « الغبى » وبعث الى « أبيجايل » ليتخذها له زوجة « فرحبت بالعرض ومضت الى خيمة داود « وصارت له امرأة » (انظر صمويل الأول ٢٥/٣ ـ ٤٢) ، وودت « أبيجايل » لداود ولدا اختلف فى اسمه ، فهو فى صمويل الثانى ٣/٣ « كيل آب » ، ولكنه « دانيئيل » فى أخبار الأيام الأول ٣/١ ٠

أبيمالك

يكثر ورود هذا الاسم فى العهد القديم ، وهناك من يرجح أن يكون لفظ « أبيمالك » لقبا لملوك الفلسطينيين ، ويقوم هذا الترجيح على أن هناك واحدا من ملوكهم عاصر ابراهيم الخليل عليه السلام ، وعرف كل منهما الآخر ٠

على أن الأحداث التى تربط « أبيمالك » بكل من ابراهيم واسحق متشابهة ، وتكاد معظمها فى كل منهما تكون مطابقة للأخرى حتى فى أدق التفاصيل ، فنطالع فى سفر التكوين أن خليل الله فى تجواله الدائم نزل فى أرض « جرار » وكان عليها « أبيمالك » وكانت سارة امرأة الخليل معه ، فلما سأله « أبيمالك » من تكون هذه المرأة التى بصحبته زعم لها أنها أخته ، فأرسل « أبيمالك » من أخذها ، فجاءه الرائى فى نومه ينهاه عما فعل ويحذره عقباه « اذ أنها متزوجة ، ولم يكن أبيمالك قد اقترب اليها ، اذ أمسكه الله عن ذلك » ٠

وتذهب التوراة الى أن « أبيمالك » لما عرف ما كان خافيا عنه جمع « جميع عبيده » ، ودعا ابراهيم ورد عليه سارة ، ووصلهما



بصلات جزيلة (انظر سفر التكوين ١٠/٢ ـ ١٤) ، كما انه رد عليه البئر التى كان عبيده قد اغتصبوها منه ، وهى المعروفة بيبر سبع ، التى سميت بهذا الاسم كما يقول نفس السفر (٢١/٢٨ ـ [illegible] لأن أبيمالك أعطاه سبع نعاج .

وتتكرر نفس القصة بحذافيرها لكن مع اسحق ، وقد أطال فيها نفس السفر (راجع سفر التكوين ، ٧/٢٦ ـ ١٥) .

أتاليه

تقع هذه المدينة « أتالية » (أو أتاليا ، أو أضاليا ، أو ادالیا) فى اقليم « بامفيليا » جنوب آسيا الصغرى .

وقد اختلف فى رسم اسم هذه المدينة وان كان الأرجح أنه Attalia كما فى معظم المراجع الغربية ، وان رسمها بعضها Adalia ، وهو تحريف لأتالية ، وكذلك فى أعمال الرسل ٢٥/١٤ .

وكلمة « أتالية » منظور فيها الى اســـم بانيهـا « اتاليس فيلادلفوس » ، الذى شيدها قبل الميلاد بما يقرب من قرن من الزمان، ومن ثم اشتق اسمها من اسمه .

ولما ظهرت المسيحية زارها بولس الرسول مبشرا ومكـرزا وكان فى صحبته « برنابا » ، ومنها سافرا الى أنطاكية .

أجـ نيـب

اجانيب، نبع تكثر الاشارة اليه فى الأساطير الاغريقية ، وهو يجرى فى « بيوتيا » Boeotia وقد ذكره الشا[illegible]

فرجيل باعتباره رافدا مقدسا ، لما له من الصـــلة الوثيقة ببعض الإلهـــة القديمــة ٠

أخيمالك الكاهن

اذا جمعنا الاشارات الواردة بالتوراة عن أخيمالك وقارناها بعضها ببعض أخذتنا الحيرة في تبيان حقيقة هذه الشخصية وان كان الاجماع منعقدا على أنه كان معاصرا لداود وبينهما من المعرفة ما يرقى به لأن يمده بما يعرف بخبز الوجوه يوم أن جاء داود الى اخيمالك هاربا من بطش شاول وقد اشتد به الجوع فطرق باب أخيمالك الذى لم يكن عنده من الأرغفة غير « خبز الوجوه » الذى لايحـــل لأحد غير الكهنة أن يأكل منه ، فلم يتأخر أخيمالك عن المبادرة الى تقديمه لداود ، مع سيف جليات ٠

وقال له أخيمالك حين سأله أن يعطيه « ماذا يكون تحت يده » فاجابه « لا يوجد خبز محلل تحت يدى ولكن يوجد خبز مقدس اذا كان غلمانه قد حفظوا أنفسهم لا سيما من النساء أعطاهم منه ٠

كان هذا الخبز المقدس هو « خبز الوجود » عند اليهود أو « خبز التقدمة » عند المسيحيين (مرقس ٢٦/٢ ، متى ٤/١٢) ويقوم بصنعه طائفة معينة من الخبازين (يوحنا ٢٣/٩) ٠

ثم زاد داود فسأل الكاهن اخيمالك سيفا او رمحا فكان السيف الذى أعطاه له هو سيف « جليات » الفلسطينى ، الذى كان داود قد قتله ، وكان السيف ملفوفا فى ثوب ، فرحب داود بالسيف لأنه ـ

على حد قوله : « لا يوجد مثله » . (صمويل أول ٩/٢١) . ، وقد غضب شاول كل الغضب مما فعله أخيمالك من اعطاء داود خبز الوجوه وسيف جليات ، فوثب على أخيمالك فقتله ومن معه من لكهنة فى نوب .

الأرجـــوان

يكثر المؤلف من الاشارة الى « الأرجوان » لاسيما فى معرض كلامه عن « صور » ، وهو اللون الذى كانت تصـــبغ به الثياب الغالية التى لا يلبسها الا الملوك والأثرياء والحكام ، ونطالع فى العهد القديم لاسيما فى سفر استير على وجه الخصوص (١٥/٨) أن أحد الملوك القدامى كان حين ينعم على من يشمله برضائه ، انما ينعم عليه « بحلة من بز وأرجوان » .

وكانوا يعتقدون أن لهذا اللون قدرة على حفظ الانسان من « ابليس » والأرواح الشريرة ، ونستدل على ذلك بما ورد فى سفر دانيال ٥/٧ ، من أنه حدث لأحد ملوك التوراة فزع فدعى اليه السحرة وطلب من الحكماء تفسيراً لما يرى ويقول فى لهجة آمرة : « أى رجل يقرأ هذه الكتابة يلبس الأرجوان » .

كذلك نرى ثياب الأرجوان خاصة بآلهة الوثنيين تمييزا لهم عن بقية الشعب ، ومن شاء تأكيد ذلك فليرجع الى أرميا ١٠/١٠ .

وقد برع الصوريون فى صناعة الثياب الأرجوانية حتى ان « حيرام » يرسل الى سليمان رجلا من صور « حكيما ماهرا فى صناعة الذهب والفضة ... والأرجوان » . انظر أخبـــار الأيام الثانى ١٤/٢ .

وكان القوم يستخرجون اللون الأرجواني هذا من أصداف سمك معين يجمعونها ويستنبطون منها نوعا خاصا تصبغ به الملابس ، وبلغ من الاقبال على اللون الأرجواني الصوري أن قامت له أسواق خارجية ، وكانت هناك حركة تجارية نافقة فى «الأرجوان» ما بين صور وجزر « اليشة » وذلك ما نفهمه من سفر حزقيال ، ٧/٢٧ ـ ٩ ٠

أما سمك الأرجوان فنوع من الأسماك يمتاز بالأصداف الأرجوانية ، وكان لهذا الصدف سوق تجارية نشطة حتى ليقول « بولص » عن رحلته التبشيرية الى مقدونيا « ٠٠٠ وفى يوم السبت خرجنا الى خارج المدينة عند نهر ٠٠٠ وكنا نكلم النساء اللواتى اجتمعن ، وكانت تسمع امرأة ليدية بياعة أرجوان متعبدة » ٠ انظر أعمال الرسل ، ١٦/١٣ ـ ١٤ ٠

أرونـــة

« أرونة » و « أرنان » لفظان لشخص واحد ينعت باليبوسى ، وتجرى القصة كما جاء فى أخبار الأيام الأول (١٥/٢١) ان « الرب كان قد أرسل ملاكا على أورشليم لاهلاكها ٠٠٠ وكان ملاك الرب واقفا عند بيدر أرنان اليبوسى » ٠

وهذا البيدر الذى كان على جبل « الموريا » هو الذى اشتراه داود ليجعله مذبحا للرب وذلك تنفيذا لأمر من الرب ألقاه اليه على لسان ملاكه (أخبار الأيام الأول ١٩/٢١)ليبعدغضب الرب عن شعبه، فأراد داود شراء البيدر من « أرنان اليبوسى » بفضة يدفعها له فأنكر أن يأخذ ثمنا لها ، فأبى داود أن يقبل عرض « ارنان » وقال : « انى لا آخذ مالك للرب فأصعد محرقة مجانية » ودفع داود لارنان

ذهبا وزنه ست مائة شاقل ، فقبل ارنان فانفثأ غضب الرب الذى أمر « الملاك فرد سيفه الى غمده » (نفس السفر ٢١/٢٧) .

ولما خلف سليمان أباه داود بنى هيكله هنا على هذا البيدر .

اســـــتيفانوس

وقد يقال له اسطيفان أو أصطفان أو ستيفن فى اللغـــات الحديثة،ويرجح من كتبوا عنه انه « كان يهوديا يتكلم اليونانية » كما يقول القاموس ، وقد عرف بين كافة من عرفوه ـ أنصارا كانوا أو خصوما ـ باستقامته التامة وليس فيه من عوج ولايجرى لسانه قط بسوء ، ولايدنس فاه بالكذب .

كان أول ظهور « استيفانوس » يوم شمل التذمر اليونانيين عامة على العبرانيين بسبب أن «أراملهم كن يهملن فى الخدمة اليومية» فانتخبوا سبعة رجال « من المشهود لهم ، المملوئين من الروح القدس والحكمة » لسد هذا النقص فكان من بينهم « استيفانوس الذى كان « يصنع عجائب وآيات عظيمة فى الشعب » بفضل ايمانه ، فأثار ذلك ثائرة اليهود عليه ودسوا عليه من افترى عليه الكذب فاتهموه « بالتجديف على موسى وعلى الله » ، وهاج الشعب والكهنة «فخطفوه وأتوا به الى المجمع « فدافع عن نفسه دفاعا مجيدا وذكر اليهود بما كان من ايذائهم انبياءهم وبما فعلوه مع « يوسف » حتى باعوه الى مصر» وكان الله معه ... وصار مدبرا على مصر وعلى كـل بيت فرعون » . ثم جاء موسى وقد « تهذب بكل حكمة المصريين وتجلت آية الله له فى لهيب نار عليقة ، ثم كان ما نعرفه من خبر موسى اذ تجلى الله جل جلاله له . ولقد أشار القرآن الكريم الى ذلك فى قوله تعالى (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم

الصاعقة بظلمهم ، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا ، ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا) الى غير ذلك من الآيات الكريمة .

كان « استيفانوس قاسى اللهجة فى مخاطبته اليهود حتى قال لهم « ياقساة الرقاب .... أى الأنبياء لم يضطهد آباؤكم وقد قتلوا الذين سبقوا ؟ » (أعمال الرسل ٧/٥١ ـ ٥٢) .

وأثار كلامه ثائرة خصومه فأخرجوه من المدينة ورجموه ، وكان التنكيل بالمسيحيين شديدا لاسيما ما تم على يد « شاول » الذى كان فى أول أمره اعنف أعداء الملة المسيحية حتى انه يوم أن قاموا برجم « استيفانوس » كان هو يقوم على حفظ ملابس قاتليه .

اســـدود

تكتب هذه الكلمة على صور مختلفة فى العربية فهى « أسدود » و « أزدود » و « يزدود » و « أشدود » وهى دائمة الورود بالرسم الأخير فى العهدين القديم والجديد ، كما ترد فى كتب الجغرافيين العرب بصورها المختلفة .

وتقع « أسدود » الى الشمال الشرقى من غزة فى الطريق المؤدى الى يافا ، وتتفرع منها الطرق الى أماكن عدة مثل يافا والرملة ويبنى ، انظر .

Le Strange : Palestine Under The Moslems P. 405.

ويستفاد من سفر يشوع ٣/١٣ ، انهـــا كانت من امـــلاك الفلسطينيين ، وهى ذات تاريخ حربى طويل ، وكانت موضع نزاع بين اليهود والفلسطينيين ، ونســـتفيد من سفر صـــموئيل الأول (٣/٥ ـ ٨) انه لما انتصر الفلسطينيون على اسرائيل حملوا معهم التابوت الى « اشدود » ووضعوه فى هيكل « داجون » الذى خربه المكابيون فى القرن الثانى قبل الميلاد ·

وتروى الأخبار القديمة أن أحد ملوك مصر فى القرن السابع قبل الميلاد حاصر البلد حصارا طال أمده حتى قارب ـ كما يقال ـ الثلاثين عاما ، مما كان له أثره السىء فى تدمير كثير من نواحى « أسدود » حتى انه لم يبق منها الا أطلال سماها ارميا (٢٠/٢٥) « بقية أشدود » ·

كذلك لحقتها يد الخراب على يد « عزيا » ملك يهوذا (وعزيا بضم العين وفتح الزاى) هو الذى « خرج » كما جاء فى أخبار الأيام الثانى ٦/٢٦ وحارب الفلسطينيين ··· وهدم سور أشدود » ·

ولقد كانت « أشدود » من الأماكن التى دخلتها المسيحية على يد « فيليبس » اذ جاء فى أعمال الرسل (٤٠/٨) ما يشير الى أنه الهم بأن يخرج الى الجنوب فأطاع فلقى حبشيا خصيا وزيرا للملكة الحبشة كان يقرأ فى سفر اشعيا بصوت عال دون أن يفهم ما يحويه وما تشير اليه الفقرات ، ففســـر له فيليبس ما غمض عليه فكان هذا الخصى الحبشى أول المؤمنين بالنصرانية هناك ، وتم تعميده على يد « فيليبس » الذى اتخذ التبشير بالمسيحية سبيله ، وقد جاء فى أعمال الرسل ٩/٢١ « أنه كان لفيليبس هذا أربع بنات عذارى كن يتنبأن » ·

على أنه يجب الا نخلط بين فيليبس هذا المنعوت بالمبشر وبين

فيليبس المذكور فى متى ١٠/٣ الذى هو أحد تلاميذ المسـيح أو « الرسل الاثنى عشر » الذين ارسلهم « الى خراف بنى اسرائيل الضـالة » ٠

أما ملكة الحبشة هذه فكانت تدعى « كنداكة » ، أما هذا العبد الخصى الحبشى فكان وزيرا « على جميع خزائن » هذه الملكة ٠ انظر أعمال الرسل ٢٧/٨ ٠

افسـوس

افسوس من المدن التاريخية الهامة الكبـرى من الناحيتين السياسية والدينية ، وهى تقع فى أقصى الساحل الغربى من آسيا الصغرى فى مواجهة أثينا ويفصل بينهما البحر ، كما أنها تقـع قبالة جزيرة « ساموس » ٠

وقد وردت هذه المدينة فى أعمال الرسل ١٧/١٩ بفتح الهمزة والفاء وضم السين الأولى ، وجاء نفس هذا الرسم فى ياقوت: معجم البلدان ٨٠٦/٢ وان جاء ذكرها فى موضع آخر باسم « أبسوس » (نفس المصدر ٤٩١/١) ٠ ولكنها فى المراجع الغربية واردة بكسر الهمزة فيقال «Ephesus»

ونظرا للموقع الجغرافى الهام الذى تتمتع به « افسوس » من اطلالها على البحر واقترابها من أماكن ذات خطورة تجارية وحربية مثل كريت وقبرص واليونان فقد طمع فيها الأجانب طمعا تمثل فى أن تداولتها أيد أجنبية كثيرة فحكمها بعض ملوك فارس وكذلك الاسكندر المقدونى ، ثم آلت الى الرومان سنة ٣٣٣ ق٠ م٠ فلما ظهرت النصرانية كانت مركزا لدعوة « بولس » التبشيرية فقد

تعددت زياراته لها ، ونمت فيها حركة تكريز وتبشير أدت بالطبع الى قيام حركة مضادة اسفرت عن استشهاد بعض الدعاة ، فقد جاءها « بولص » هربا من يهود « أخائية » وبرفقته اثنان من أتباعه فكلفهما بالدعوة ومضى هو الى أنطاكية ، واذ ذاك وفد على « افسوس » رجل يهودى اسكندرى اسمه « ابلوس » حسب ماتقول أعمال الرسل ١٨/٢٥ الذى تصفه بعدئذ بأنه « خبير فى طريق الرب » فاجتمع الثلاثة فكانوا حربا على اليهود ٠

ولما كان « بولص » قد شن حربا لاهوادة فيها على صناعة وعمل هياكل فضية لمعبد « أرطاميس » يقوم بها فريق ليس بالقليل من الصاغة فقد خسر هؤلاء الصاغة الأرباح الكبيرة التى كانوا يجنونها من وراء هذه الحرفة ، فأجمعوا أمرهم على محاربة الدعوة المسيحية ، وقام أحد هؤلاء الصاغة واسمه « ديمتريوس » وحرك رفاقه ضد بولس لأنه ندد بما يجرى لقوله « ان ليس ما يصنع بالأيدى الهة » ٠

وأتت دعوة « بولص » ضد الوثنية أكلها « فكان كثيرون من الذين آمنوا يأتون مقرين ومخبرين بأفعالهم ، وكان كثير من الذين يستعملون السحر « يجمعون الكتب ويحرقونها أمـــام الجميع » (أعمال الرسل ، ١٨/١٩ ـ ١٩) ٠

وانتشرت المسيحية فى « افسوس » وقوى ساعدها وما لبثت كنيستها أن صارت أم الكنائس فى آسيا الصغرى ، وبلغ من أهمية البلد كمركز اشعاع مسيحى أن عقد بها سنة ٤٣١ م٠ ما عـــرف « بمجمع افسوس » ٠

والرأى الشائع أنها كانت الناحية التى ارتبطت بأهل الكهف « الذين كرهوا الوثنية ففروا حفاظا على عقيد تهم « [illegible] ربنا آتنا

من لدنك رحمة وهىء لنا من أمرنا رشدا» ولجئوا الىكهفبها يعرف بالرقيم حتى سهم القرآن الكريم بأصحاب الكهف والرقيم فقال تعالى (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيـــم كانوا من آياتنا عجبا (سورة الكهف ٩/١٨) • واشار الى ذلك البلدانى ياقوت فى معجمه ٨٠٥/٢ فقال ان « افسوس بلدهم » ، على حين نرى كاتبا مسلما آخر وهو المقدسى يقرر ان الرقيم انما يقع على بعد ثلاثة أميال من « عمان » •

أما ابن الأثير فيشير فى تاريخه الى أن الرقيم على مسيرة يومين شمالى الكرك فى الطريق الواصل بين دمشق والقلعة ••

من هذه البيانات المتضاربة يصعب علينا أن نجزم جزما تاما اين موضع « الرقيم » تماما •

وتشير الأبحاث التى جرت منذ قرن على أن هذا الاختلاف ـ أو بعضه ـ ناشىء من وجود موضعين باسم « الرقيم » (فى التلمود حسبما جاء فى •

وعلى أية حال فسيجد القارىء العربى تفصـــيلات وافيـــة واضافات جديدة حين تظهر ترجمتنا لكتاب لى سترانج • فلسطين فى ظل الحكم الاسلامى •

الليريكوم

ترد الاشارة كثيرا فى كتب الحروب الصليبية وتاريخ اليونان الى « الليريكوم Illyricum وقد تبدل الميم الأخيرة بنون • وهى على أى الرسمين اسم لمقاطعة اغريقية على الساحل الشرقى لبحر الادرياتيك ، وقد وردت الاشارة اليها فى ترجمتنا هذه(١/١٩٠) حين عرض المؤلف لسير الحملة الصليبية الأولى فذكر أنها اجتازت

« الليريكوم » ، ومنها نستدل على أنها هى المنطقة التى عرفت فيما بعد بدلماشيا التى هى جزء من البوسنة ٠

ولقد عرفت « الليريكوم » المسيحية منذ القرن الأول للميلاد اذ كانت أقصى المدى الذى بلغته الدعوة على يد بولس حيث نجده يقول فى رسالته الى رومية ١٥/١٩ » ٠٠٠ أيها الاخوة ٠٠٠ لكم افتخار فى المسيح يسوع من جهة ما لله ٠٠٠ حتى أتى من أورشليم وما حولها الى الليريكون ٠ وقد أكملت للتبشير بانجيل المسيح » ٠

وليس من شك فى أن جذور المسيحية قد تأصلت فى الليريكون وأنه كان هناك اقبال كبير على الكتاب المقدس ، حتى ان جيروم ـ من علماء النصرانية فى القرن الرابع الميلادى ـ والمولود فى الليريكون ـ قام بترجمة الكتاب المقدس الى اللاتينية ٠

اليشة

يستفاد من الكتابات الجغرافية القديمة أن « أليشة » كانت تقع عند جزيرة قبرص فى مواجهة مدينة صور الشامية ، وقد أدى هذا القرب الجغرافى الى ازدهار الحركة التجارية بينهما لاسيما فى « الأرجوان » الذى تكاد صور أن تكون قد تفردت به أو على الأقل فاقت غيرها فى شرائه من « أليشه » وبيعه بعد صناعته التى ترتب عليها قيام صناعة « الصبغة الأرجوانية » بها ٠ ومن ثم وردت الاشارة اليه فى سفر حزقيال ٢٧/٧ فى قوله « ياصور ٠٠٠ أنت قلت أنا كاملة الجمال ٠٠٠ كتان مطرز من مصر هو شراعك ٠٠٠ الاسمانجونى والأرجوان من جزائر أليشة كانا غطاءك » ٠

ويبدو أن « أليشة » ذات تاريخ موغل فى القدم ، وقد وردت

الاشارة فى سفر التكوين (١٠/٤) الى أن بعض المواليد من نسل نوح هم مواليد « أليشة » ٠

اليشـــــع

على الرغم من أن « ليم الصورى لم يصرح باسم « أليشع » فى معرض كلامه عن رخص الأسعار رخصا كبيرا فى السامرة قديما الا أنه كان يقصد « اليشع » الذى كان قد تنبأ بهذا الرخص الفاحش يعم الناحية بدءا من باب البلد حتى كل الناحية (راجع هذه الترجمة العربية ٤١٨/١ ، حاشية رقم ١) ٠

ولقد كان « أليشع » من أسرة ثرية فى وادى الأردن بما تملكه من المزارع الفسيحة والحقول الشاسعة والتى كان هو ذاته يقوم بالمشاركة فى العمل بها ٠

وحدث أن خرج « ايليا » المنعوت قديما برجل الرب ودخل مغارة فى جبل « حوريب » غضبا من بنى اسرائيل « لتركهم عهد الرب ونقضهم مذابحه وقتلهم أنبياءه » ، وجدهم فى طلبه هو ذاته ٠ ثم تجلى له الرب وأمره أن يذهب الى برية دمشق وأن « يمسح اليشع بن شافاط نبيا » عوضا عنه ، فانطلق « ايليا » مستجيبا لأمر الرب فوجد « أليشع » فى حقل ابيه « فطرح رداءه عليـــه ٠٠٠ فمضى اليشع وراءه وراح يخدمه » (انظر الملوك الأول ١٠/١٩ ـ ٢١) ٠

وصارت لاليشع معجزات منها انه رفع رداء « ايليا » الذى سقط عنه حين غادره وضرب به ماء الأردن « فانفلق الماء وعبـر اليشع فجاءه بنو الأنبياء الذين فى أريحا وقالوا استقرت « روح ايليا على اليشع » ثم سجدوا له ٠ (الملوك الثانى ١/١٢ ـ ١٨) ٠

ويتابع السفر الرواية عن « اليشع » فيشير الى أن أهل المدينة شكوا اليه رداءة الماء بها وجدب أرضها فجاؤوه ـ كما أمر بصحن حديد فيه ملح فطرحه فى الماء « فبرأت المياه » (انظر الملوك الثانى ٢/١٩ ـ ٢١) .

ويتجلى ما تم على يد « اليشع » من دعائه لعاقر أن تحمل فحملت وولدت ولدا كبر ثم مات فجاءت أمه الى « اليشع » تسأله أن يرده للحياة فمضى اليه وبعد محاولات منه عادت الحياة الى الصبى فانطلقت أم الغلام الى اليشع « فسقطت على رجليه ... ثم حملت ابنها وخرجت » (انظر الملوك الثانى ٤/٨ ـ ٣٧) .

ويفيض سفر الملوك الثانى (١٣/٢٠ ، ٢١) بما تم على يد اليشع من الآيات .

على أن هذه الآيات لم تفارقه ـ كما يذكر هذا السفر ـ حتى فى موته ، فقد كان الناس ماضين ذات يوم لدفن رجل مات فلما رأى الناس الغزاة خافوا وطرحوا الرجل فى قبر اليشع فلما مس عظمه ردت اليه الحياة من جديد « وقام على رجليه » .

أمـــم

تصادفنا فى التوراة والانجيل وكتب الرهبان والقساوسة والكهنة كلمة « أمم » ، وقد تبدو الكلمة فى غير حاجة الى ايضاح وتفسير ، ولكنها ذات دلالة مسيحية معينة فى هذه الكتب اكتسبتها من الترجمة العربية للتوراة والانجيل ، اذ يستفاد مما ورد فى رسالة بولس الى أهل رومية ٢/١٤ ، أنه يقصد بكلمة « أمم » من لايسمعون الناموس » ، ويفسر القاموس هذا القول بأن المقصود به « غير العبرانيين » فاذا رجعنا الى العهد القديم وجدنا كلمة

« الامم » ترد فى سفر اشعيا ٩: ٦ على هذه الصورة » ··· يقول الرب جعلتك نورا للأمم لتكون خلاصى الى أقصى الأرض » ·

وربما كان هذا الخلاص مما يكون فى هذه الشعوب · او الأمم التى لاتتبع الناموس ـ من روح الأنانية وتغلب شــهوة حب الحياة ولذائذها على كل شىء · فهذه جميعها مع مباهج الشرب والملبس « انما تطلبها الأمم » · وقد قدم انجيل متى عليها « ملكــوت الله وبره » راجع متى ٣٢/٦ ـ ٣٣ ·

ويصرح نفس الانجيل ولكن فى موضع آخر بأن المقصــود بالأمم كل الشعوب التى لم تعتنق النصرانيـــة ولم تتعمـد (متى ٢٩/٢٨) ·

باشــان

فى معرض كلام وليم الصورى (١٦/٣) عن « صور » يقتبس من التوراة ما يشير الى ما كانتتمدها به « باشان » من خشب البلوط للاستعانة به فى عمل مجاذيف السفن الصورية ·

وتقع منطقة « باشان » شرقى الأردن فيما بين جبلى «جرمون» و « جلعاد » ·

ويوجد هناك جبل يعرف بجبل باشان ، ولا نعــرف أيهما هو الذى خلع على الناحية اسمه ؟؟الجبل أم البلد ، وقد جاء فى مزامير داود ١٥/٦٨ « جبل الله ···· جبل باشان » ، ويؤكد القامــوس (١٥٩ ، ع ١ ، ٢) أن هذا الجبل هو المعروف حاليا باسم « جبل الدروز » ·

وقد أشار اليعقوبى (فى جغرافيته ، ص ١١٣ الى « أذرعة » التى هى « أذرعات » وقال انها قصبة ولاية « البثنية » ، ثم جــاء

فى آخر القرن الماضى العالم الجغرافى المؤرخ لى سترانج فقال « أذرعى ··· قصبة باشان » الواردة فى العهدين القديم والجديد ، وسمى سفر التكوين سكانها الأوائل باسم « الرفائيين » · انظر سفر التثنية ٣/١١ ·

وكان للرفائيين هؤلاء ملك فى القديم يدعى « عوج » الذى مضى لصد اليهود بقيادة موسى ، ودارت المعركة بين الجانبين فى العاصمة « أذرعى » (انظر العدد ٢١/٣٢ ـ ٣٥) ·

وقل أن يرد ذكر باشان فى أسفار العهد القديم الا مقرونا بما تخرجه أرضها من خشب البلوط الذى ينسب لها فيقال « بلوط باشان » ، وحسبه هذه النسبة اليها من تزكية له ·

وحين يرضى الرب عن اسرائيل يبعثهم ليرعوا فى أرض « باشان » كما جاء ذلك فى ارميا ، ٥٠/١٩ ·

ويشير « حزقيال » الى أن الرب حين يدعو الجميع الى ذبيحته انما يدعوهم « الى كباش وحملان وأعتدة وثيران كلها من مسمنات باشان » · (انظر حزقيال ٣٩/١٨) ·

بامفيليا

بامفيليا Pamphylia أو « بمفيلية » كما ترد فى بعض الكتب أحيانا وكما ذكرت فى كتب العهد القديم : مقاطعة من مقاطعات آسيا الصغرى · واذا كان « وليم الصورى » (الترجمة العربية ٣/٢٠٠) يعتبر « أتالية » أو « أضالية » عاصمتها فالواقع أن العاصمة كانت « برجة » التى كان سكانها من الاغريق ، واذ كانت « برجة » واقعة على شاطىء نهر اسمه نهر « لكسترس » فقد كانت السفن تاتيها من جهات متعددة ، ويؤكد هذا ما جاء فى أعمال

الرسل ١٣/١٣ من « أن بولس أقلع من باخوس بمن معه واتوا الى برجة بمفيلية » .

وكانت « بامفيليا » من الأقاليم التى ركز بولس على التبشير بالمسيحية فيها ، وهذا ماتشهد به الاشارات العدة الواردة فى ثلاثة اصحاحات من سفر الأعمال .

ولقد كان موقع « بامفيليا » جاعــلا اياها عرضــة لتطلع البيزنطيين اليها من ناحية ، واختراقهم اياها من ناحية اخرى كلما أقدموا على النهوض الى آسيا الصغرى وبلاد الشام .

وفى الحروب الفارسية يرد ذكر الدور الذى لعبته وان لم يكن دورا كبيرا . راجع Dussaud : Topographie Hist., P. 325

بركــــة ســـــلوام

هى البركة القريبة من بيت المقدس ، وتسمى اليوم « بركـــة سلوان» ، وينزلها اليهود منزلة القداسة حتى انهم ليبعثون اليها فى يوم معين من عيد من أعيادهم كاهنا بابريق من الذهب ، فيملؤه من مائها ثم يعود فيصب الماء فى وعاء ذهبى آخر ، ويترنم اليهود وهو يفعل ذلك ترنيمة خاصة .

ولقد شهدت هذه البركة آية للمسيح عليه السلام حين مر برجل أعمى منذ ولادته فاستصرخ به الكفيف أن يرد عليه بصره فتفل المسيح وصنع من التفل طينا ، وطلى بالطين عينى الأعمى وقال له : اذهب فاغتسل فى بركة سلوام ففعل الرجل ما أمره به المسيح واغتسل فرد اليه بصره .

ويمكن مراجعة القصة كاملة وأطول من هذا فى سفر يوحنا ٧/٩ ــ ٢٨ .

بســـيديا

بســـيديا أو بيســـيدية منطقـــة من أعمـــال آســـيا الصغرى ، شمالى « بامفيليا » وتتسم المنطقة التى تقع فيها بوعورة الأرض وصعوبة السير فيها مما جعلها صعبة على اخضاعها لمن يغزوها ، ومما يزيد فى صعوبة أرضها أن جبال طوروس تشقها ومن ثم تكثر بها المنحدرات والتلال . ومع ذلك فقد ركز « بولس » جهدا غير قليل على التبشير فيها وقت أن جعل من آسيا الصغرى مجالا للتكريز ، فزارها فيما زار من أقاليم تلك النواحى ، « وتتلمذ له كثيرون فيها » .

وكان لجغرافية البلاد أثرها فى أن تطبع أهلها بطابع يتسم بالخشونة والقوة والعنف والشدة وحب الاستقلال ، وقد تجمعت كل هذه الأمور لتجعلها شاقة على من أغاروا عليها من الفرس والرومان ، فلم يستطع هؤلاء ولا هؤلاء أن يفلوا شوكة الأهالى .

بلـــدد الشوحـــى

كان « بلدد » (بكسر الباء وسكون اللام وفتح الدال الأولى) من ولد « شوح بن ابراهيم الخليل » ومن هنا عرف بالشوحى ، كما كان واحدا من ثلاثة من أخلص أصحاب أيوب ، وكانت بينه وبينهم « خطابات » تتناول مواضيع مختلفة وهى أشبه بالحوار حول مسائل معينة كالفتنة والمرض يضرب الله به عبده الصالح ، وكلها واردة فى سفر أيوب .

وقد جاء « بلدد » مع رفيقيه ـ وان كان كل على حدة ـ الى أيوب يوم ضرب « بقرح ردىء من باطن قدمه الى هامته » . وقد حضروا « ليرثوا له ويعزوه ، ورفعوا أعينهم من بعيد ولم يعرفوه ... فبكوا ... وقعدوا معه سبعة أيام وسبع ليال ولم يكلمه أحد منهم بكلمة ، لأنهم رأوا أن كآبته كانت عظيمة جدا » (راجع أيوب ٢/١١ ـ ١٣) .

وكان لبلدد مع أيوب حوار طويل تضمنه الاصحاح الثامن من سفر أيوب ، ينصب على المصيبة يبتلى الله بها المؤمن ، فلا يكون من ايوب الا أن يفسر هذا الأمر الا بأنه بسبب ذنب الشخص ولا تثريب على غيره ويقول لربه « أذنبت فويل لى » . (أيوب ١٠/١٥) .

وكان بين بلدد وأيوب مراسلات ، وقد تضمن الاصحاح الثامن عشر من سفر أيوب حوارا « عن فاعلى الشر ومقام من لايعرف الله » .

والمتأمل فى خطابات بلدد وصاحبيه الى أيوب وردوده عليهم يرى كيف يفلسفون الخير والشر ، والحق والظلم . وكلها نمط طيب فى الاقرار بضآلة الفرد ازاء ربه .

بلعـــام

يأتى رسم هذه الكلمة بصورتين أولاهما بكسر الباء أولـه وحينذاك يقصد به موضع يقع فى أقصى غربى نهر الأردن .

أما ثانى هذين الرسمين فقد ورد فى (يشوع ١١/٧) على هذه الصورة « يبلعام » (بفتح أوله بعده باء ساكنة ولام مفتوحة) .

على أن هذا الموضع قد صار اليوم ـ كما يقول القاموس ـ قرية تعرف باسم « بلعة » . واذا رجعنا الى المصادر الاسلامية وجدنا أنه ترد فى معجم ياقوت كلمة « بالعة » ويقول انها قرية من قرى البلقاء ، وانه عاش فيها « بلعام بن بعورة المنسلخ » ، ويزيد على ذلك أنه هو الذى نزل فيه قول الحق تبارك وتعالى (سورة الأعراف ١٧٤/٧) (واتل عليم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) .

وبلعام الرجل هذا انما هو بفتح الباء أوله .

ويستفاد مما ذكره وليم (٣٩٧/٣) انه كان رجلا سيئا ، مما يتفق مع ما جاء فى القرآن الكريم .

واذا رجعنا الى التوراة فى شأن نشأته وجدناه مذكورا فيها بأنه كان نبيا مشهورا ، وكان الناس يقصدونه من شتى الجهات فيتنبأ لهم بما قد يصيبهم .

ويفسر سفر العدد (٩/٢٢ ، ٢٥/٢٤) خبر خـروجه عن الناموس بأنه لما ذاع صيته بأنه رجل مستجاب الدعاء جاءه رجال

بعث بهم اليه « بالاق » بن صفور « ملك مؤاب يسألونه على لسان صاحبهم أن يلعن شعب اسرائيل اثر خروجهم من مصر • وتطيل التوراة خبره مع « بالاق » وتصور كيف رفض الاستجابة له « حتى ولو ملأ له بالاق بيته فضة وذهبا ، فهو لايقدر أن يتجاوز قول الرب » ـ والخبر طويل فليرجع اليه من شاء فى سفر العدد ٢٢/٩ حتى آخر الاصحاح الرابع والعشرين •

ولقد لقى « بلعام بن بعورة » هذا مصرعه بالسيف اذ قتل فى خروج اليهود لمحاربة المديانيين ، وقتلوا النساء « اذ كن حسب كلام بلعام » سبب خيانة للرب » (عدد ١٥/٣١ ـ ١٦) •

ولقد جاء فى رسالة يهوذا عن المسيح الاشارة الى « ضلالة بلعام لأجل أجرة » •

تـــراخونيتس

بالاضافة الى ما ذكرناه فى الجزء الثالث ص ٢٩٦ • حاشية رقم ٣ من هذه الترجمة العربية عن تراخونيتس « وما قاله المؤلف وليم الصورى عما يظنه بشأن هذا الاسم (٣/٢٤٩) فقد وردت الاشارة اليه فى الدمشقى (ص ١٩٨ وما بعدها) بمـــا يفيد بأن « تراخونيتس » هو « اللجاة » ، وهو الاسم الذى وضعه ياقوت فى معجمه (٦٢١/١) ثم نقله عنه ابن عبد الحق فى مراصد الاطلاع • ولما نقل عنهما الباحث الايرلندى :
Le Strange : Palestine Under Moslems, P. 425
فسر « اللجاة » بأنها تراخونيتس » ، ثم عاد فكرر ذلك فى موضع آخر Le Strange : Op. Cit., P. 492 وذلك حين نقل ما أورده الجغرافى المسلم فى معجمه فى موضع ثان (معجم ياقوت ٣٥٠/٤)

وترد الاشارة الى أن هذا الاسم يونانى الأصل (راجع انجيل لوقا ٣/١) حيث يقول « فيلبس رئيس ربع على كورة تراخونيتس »

تقــــوع

تتردد كلمة تقوع (بفتح التاء وضم القاف بعدها واو وآخرها عين) كثيرا فى تاريخ وليم ، وليس من عجب فى ذلك فوليم ـ كرجل بارز من رجال الكهنوت فى وقته ـ كان لابد له من الاشارة الى تقوع باعتبارها ـ كما يقول فى أكثر من موضع ـ « مدينة الأنبياء » ، اذ كان منها عاموس الذى ظهر فى القرن الثامن قبل الميلاد والذى اشتد فى مهاجمة اليهود لما هم عليه فى يومه من انصـــراف عن الديانة الحقة ٠

وتقوع من المدن القديمة فى « يهوذا » فقد ورد فى الأخبـــار الثانى ٦/١١ ، « أنه بنيت مدن للحصار فى يهوذا منها بيت لحم وتقوع » ٠

وقد اندثرت « تقوع » الآن الا من أطلال تشير اليها ، ويقول القاموس (ص ٢٢١ ، ع ١) ان هذه الأطلال تحتوى الآن « على تل عريض القمة حيث توجد بقايا أساسات منازل من حجارة مربعة ، وخرائب » ٠ كذلك وردت الاشارة اليها فى معجم ياقوت فيصفها بأنها « قرية من قرى القدس اشتهرت بعسلها » ومعنى هذا أنهـا كانت معروفة حتى زمن ياقوت ٠

جبعـــون

كانت « جبعون » (بكسر الجيم وسـكون الباء بعدهـــا عين مضمومة وآخره نون) كبرى مدن طائفة من الكنعانيين تقع على

بعد أميال قلائل شمالى القدس ، وذكر القاموس أن « موقعها الحالى يعرف بقرية « الجب » شمالى غربى أورشليم ، فهل تكون هذه هى القرية التى ذكرها ياقوت باسم « الجيب » وقال انها موضع فى جند فلسطين بين القدس ونابلس ؟ ثم زاد فذكر انه يوجد هنا قلعتان تعرفان بالجيب الفوقانى والجيب التحتانى ٠ (ياقوت ٢/١٧٠) ٠

وترد الاشارة الى أن سكانها جاءوا الى « يشوع » يسألونه عهد أمان متظاهرين بالفقر المدقع ، وزعموا له أنهم من أرض بعيدة وقالوا له « نحن عبيدك » فجازت الحيلة على « يشوع » ٠

وقد شهدت « جبعون » انتصار داود على الفلسطينيين انتصارا « صارت له به هيبة على جميع الأمم » كما تقول اخبـــار الأيام الأول ٤/١٧ ٠٠

ولما أخذ القوم فى بناء سور أورشليم كان الجبعيون من بين الجماعات التى عملت فى هذا البناء ، فقد شارك منهم خمســة وتسعون رجلا (نحميا ٧/٢٥) ٠

وقيل انه جـــرت فى جبعون معجزة وقوف الشـــمس عن المغيب استجابة ليشوع اذ نادى ربه أمام الاسرائيليين « ياشمس دومى على جبعون » فاستجابت الشمس له بأمر الله وظلت مشرقة حتى تم للشعب الانتقام من أعدائه ٠

جبـــل تابـــور

يقع جبل تابور على مقربة من بلدة « الناصرة » من أعمـــال فلسطين وفى أرض الجليل ، ويطل هذا الجبل على مايعرف بمرج ابن عامر ، ومعنى ذلك أنه يحظى بموقع استراتيجي هام لم تفت أهميته بال المحاربين القدماء ٠

على أن لهذا الجبل ـ من ناحية أخرى ـ أهمية روحية عند المسيحيين فهم يسمونه « جبل التجلـــى » ، ويفسر لنا مـــرقص (٩/٣ ـ ٤) سبب هذه التسمية فى معرض كلامه عن صعود المسيح وثلاثة من تلاميذه هذا الجبل ، ثم رأوه قد تغيرت هيئته حتى «صارت ثيابه تلمع بيضاء جدا كالثلج» • كما ظهر لهـــم « ايليا » مع موسى • ومن هنا بالغت بعض الطوائف فى الاحتفاء بهذا الجبـل احتفاء كبيرا حتى لقد أقام كل من الروم واللاتين على قمته ديرا ، لكل منهما •

وقد أشار القاموس (ص ٢١٠ ، ع ٢) الى أنه يسمى الآن بالطــور •

ويستفاد مما ذكره ياقوت فى معجمه ٦٧٥/٢ ، ونقله عنه مراصد الاطلاع أن دير الطور ويسمى أيضا بتابور يقع بين طبريـــة واللجون (Legio) ويطل على غـــور الأردن ومـــرج « اللجون » وهذا المرج هو المعروف فى الحوليات الصليبية باسم Esdraelon كذلك سماه ياقوت بدير التجلى ، فترجمه لى سترانج بكلمة Transfiguration ويشير ياقوت (نفس المرجع والجزء والصفحة) الى أن المسيح عليه الســـلام تجلـى لتلاميذه ليكونوا شهودا على التجلى . وقد ترجم ذلك كله الباحث
Le Strange : Palestine Under The Moslems, PP. 434 — 435 .

جبـــل جابـــــوع

جلبوع (بكسر أوله وسكون ثانيه وضم الباء بعدها واو ثم عين) اسم يطلق على أحد الجبال كما يطلق على سلسلة من الجبال متصل بعضها ببعض ، وقد يتخللها فى أماكن متناثرة وديان ، أما

الجبال فتمتد ما يقرب من ثمانية أميال ، وهذه مسافة ليست بالقصيرة فى ناحية محدودة شمالى شرقى نهر الأردن •

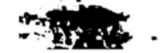
وتمتاز هذه السلسلة من الجبال بأنها شديدة الانحدار من ناحية الجنوب والشرق •

وامتازت ناحية من هذه الجبال بحدث تاريخى لكان أبطالـه الفلسطينيين وشاول الملك الذى التحم بهم التحاما أدى الى مصرعه والتمثيل به ، فقد شبت الحرب بينه وبينهم ودارت عليه الدائـــرة وهزمه الفلسطينيون هزيمة نكـــراء ، وحفظت أخبار الأيام الأول (١/١٠) نبأ ذلك فقالت « وحارب الفلسطينيون اسرائيل فهرب رجال اسرائيل من أمام الفلسطينيين وسقطوا قتلى فى جبل جلبوع »، ولم يعلم الفلسطينيون أن عدوهم شاول قد سقط قتيلا الا غداة يوم المعركة حين جاؤا « ليعروا القتلى « فوجدوا شاول » وبنيه الثلاثة صرعى وجثثا هامدة فقطعوا رأس شاول وبعثوا به الى عشيرتهم • أما جسده وأجساد أبنائه الثلاثة فسمروها على سور « بيت باشان » (صموئيل الثانى ١٢/٢١) •

وقد ذكر القاموس (ص ٢٦٢ ، ع ٢) أن جبل جلبوع هذا أصبح يعرف اليوم بجبل « فقوع » ، وزاد بأنه يوجد على مقربة منه قرية « جلبون » التى اشتق اسمها من اسمه لكن بعد تحريف •

جبـــل جلعــــاد

جلعاد (بكسر الجيم وسكون اللام وفتح العين بعدها ألف ثم دال) اسم اذا نطق اللسان به انصرف الذهن الى أكثر من مسمى ، غير أن أكثر ما يكون اطلاقه على ذلك القسم الممتد من شرقى الأردن حتى يصل الى حدود شبه الجزيرة العربية ، وأغلب ما تتسم بـــه



طبيعة هذه الناحية هو أنها منطقة صخرية ، وقد تقاسمها في التاريخ وفي أوقات مختلفة صنوف شتى من الناس ..

وكانت أرض تلك الناحية تجود بطيب زكى يعرف بالبلسان وينسب اليها فيقال « بلسان جلعاد » ونسمع فى هتاف وارد فى سفر « ارميا » قول القائل : « اصعدى الى جلعاد وخذى بلسانا ياعذراء يا بنت مصر » (ارميا ، ١١/٤٦) .

أما اذا أريد بجلعاد الجبل فانه يقع غربى الأردن ، كما توجد على مقربة منه « عين جلعود » التى كانت تسمى قديما « بعين حرود » .

وقد ينسب الى هذه الناحية : أرضا وجبلا وعينا قوم يعرفون بالجلعاديين وهم من سبط منسى أحد ابنى يوسف عليه السلام .

جدعـــون

« جدعون » (بكسر الجيم وسكون الدال وضم العين) بطل من أبطال الدفاع الوطنى ، أقام مملكة سادها العدل وان خلفه خلف أضاع بهاء مجده وطمس نوره .

أما خبر ظهور « جدعون » فيرجع الى أن الرب أراد معاقبة بنى اسرائيل على افسادهم فى الأرض فسلط عليهم « مديان » سبع سنوات أذاقهم فيها شتى صنوف النكال حتى فروا منه على وجوههم الى الكهوف فى الجبال والمغارات يتحاشون شره وشر قومه وطغيانهم ، اذ كان هؤلاء الأخيرون يتلفون غلة أرض اسرائيل « ولا يتركون لاسرائيل قوت الحياة ، ولا غنما ولا بقرا ولا حميرا » حتى كابدوا الذل والمهانة والمشقة .

ولم يطق « جدعون » صبرا على ما يفعله « المديانيون » بأهله وعشيرته ، فعمل فى بداية الأمر فى المعصرة اذ كان « يخبط الحنطة بها لكى يهربها من الميدانيين » ، وبينما هو فيما هو فيه من عمل قد يكون شاقا اذ جاءه - كما يقول سفر القضاة ١٢/٦ - ٢٤ - ملاك الرب قائلا له : « الرب معك ياجبار البأس » فكان الرجل « جدعون » أن ينكر هذا الوصف لنفسه ، وحدث نفسه : لئن كان الرب معه فلم كل هذه المصائب والنكبات ينزلها على رؤوس بنى اسرائيل ؟ فعرفه الملاك السبب ٠

وبعد أمور طويلة قام « جدعون » فهدم مذبح « البعل » الذى لأبيه ، وقطع السارية التى عنده ، وبنى مذبحا جديدا ٠

وشبت الحرب بين « جدعون » وبين المديانيين والعمالقة ، وكتب له النصر الذى « كان من عند الله لا بفضل الانسان » وتوالت انتصاراته بصورة حملت قومه على رغبتهم فى أن يملكوه عليهم ٠

جنيســـارت

تطلق كلمة جنيسارت على عدة مواضع فى أرض فلسطين ، أما أولها وأشهرها فالمنطقة الواقعة غربى بحر الجليــــل ، والتى أشار اليها متى فى انجيله ١٤/ ٣٤ فى معرض حديثه عن معجــزة السيد المسيح عليه السلام اذ أطعم جمعا كبيرا من الناس ومعهم مرضاهم ، ولم يكن عنده أو عند تلاميذه على الأصح سوى خمسة أرغفة وسمكتين ، فصرف هذا الجمع وأمر تلاميذه بالدخول الى سفينة هناك وصعد هو الجبل يصلى ثم نزل اليهم فشاهدوه يمشى على الماء « فاضطربوا قائلين انه خيال وصرخوا » ، وبعد خبر يطول ذكره عبروا وعبر معهم الى « جنيسارت » ، فلما عرفه رجالها

بعثوا و « احضروا اليه جميع المرضى فشفى من لمسوه » ، ومن ثم ارتبط اسم هذه الناحية بتلك الآية التى أكرم الله بها المسيح .

كذلك تطلق كلمة « جنيسارت » على مسطح كبير وعميق من الماء يسميه لوقا (٥/١) ببحيرة جينيسيرات ، وان أطلق عليها يوحنا اسم «بحر الجليل»،وقال انه هو «بحيرة طبرية» وان عاد فى موضع آخر (يوحنا ١/٢١) فخص هذه البحيرة باسم « طبرية ونعتها بأنها « بحر » .

وهكذا يتضح لنا أن « جينيسارت » يقصد بها حينا بحر الجليل وحينا ما يعرف ببحيرة طبرية ، وكلها لمسمى واحد ، ومن ثم فان وليم الصورى (١٦٨/٢) يقول ان مدينة طبرية تقع على بحيرة « جينيسيرات » ، ولكنه يعود فيقول فى موضع آخر (ج٣ ، ص ٥٢ من الترجمة العربية) : « جنيسيرات التى هى بحر الجليل » .

حبقـــــوق

كان حبقوق النبى (بفتح الحاء والباء وضم القاف) من أرض تقوع « مدينة الرسل والأنبياء على حد تسمية وليم الصورى لها ، وهو سبط من أسباط « لاوى » (انظر مادة لاوى فى هذا الملحق) . وكان يعمل مغنيا فى الهيكل .

ونستطيع أن نصفه بأنه كان منددا بالجبروت والطغيـان ، مدركا أن مآل الطغيان الى الهلاك ، وكان داعية للرحمة بالناس فهو يصرخ مما تضطرب به الدنيا من عنف « .... قدامى اغتصاب وظلم » (حبقوق ٣/١) وهو يرى الكلدانيين قد تجبروا وعربدوا

وافسدوا وسيملكون مساكن ليست لهم ··· ويأتون للظلم (شرحه ١/٦ ـ ٩) وهكذا كان « حبقوق » صرخة فى وجه الفساد المستشرى ومنذرا بأسوأ العواقب وأوخمها ·

حقــل الــدم

هو الاسم الذى أطلقه المسيحيون على ناحية اتخذت مقبــرة للغرباء ، وجاء فى الاخبار أنه صرف عليها المال الذى أخذه يهوذا (الاسخريوطى) لقاء خيــانته ، فرده الى « رؤســاء الكهنـة والشيوخ » وطرحه فى الهيكل · وفى ذلك يقول متى (٢٧/٧) أخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا لايحل لنا أن نلقيها فى الخزانة لأنها ثمن دم ···· واشتروا بها حقل الفخارى : مقبرة للغرباء » · وقد سمي هذا الحقل منذ ذلك اليوم باسم حقل الدم ·

وهم وان جعلوه مقبرة الا أنهم أوقفوها على دفن الغرباء ، وتشير القصة الواردة فى أعمال الرســل ١٩/١ الى أن يهــوذا الاسخريوطى « اقتنى حقلا من أجرة الظلم ··· واذ سـقط على وجهه انشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها ، وصار ذلك معلوما عند جميع سكان أورشليم حتى دعى ذلك الحقل فى لغتهم « حقل دما » أى « حقل الدم » ، وهو واقع جنوبى وادى هنوم (راجـع مادة : هنوم) ·

ولما هاجم الصليبيون القدس ومات بعضــــهم دفن أكثر هذا البعض فى ذلك الموضع ·

حيـــرام

هذا هو الرسم الشائع فى اسم هذا الشخص الذى كان ملكا على صور زمن سليمان وكانا صديقين ، وحيرام (بكسر الحاء) وان ورد فى بعض المصادر القديمة باسم « حورام » تارة و «حيروم» تارة أخرى • وعلى أية حال فقد كان بينه وبين سليمان ومن قبله داود : مراسلات يشير اليها الكتاب الذى هو بين يدى القارىء العربى الآن •

وقد اهتم « حيرام بصور » فزاد من رقعتها ، وجعل بينها وبين هيكل « جوبيتر » ممرا ، كما أكثر من العمارة والبنيان •

وتحدثنا التوراة عن علاقاته الودية مع سليمان الذى بعث اليه — حين أراد بناء الهيكل — كتابا يرجوه فيه أن يفعل معه مثل الذى فعله مع أبيه من مساعدات مادية وعينية ، فاستجاب له حيرام (انظر تفصيل ذلك فى أخبار الأيام الثانى ٢/٣ — ١١) •

وقد جاء فى قاموس الكتاب المقدس ، ص ٣٣٠ ، ع ٢ : « انه اكتشف فى مدينة « جبيل » تابوت لملك يدعى « أحيرام » وعلق كاتب ذلك المقال على هذا بقوله « وقد ظن بعضهم أنه هو نفس الملك الذى عاصر داود وسليمان » • ولم يعقب الكاتب على ما قاله بالتأكيد أو النفى حول هذه الشخصية المسماة « احيرام » •

زربابـــل

يشير وليم الصورى فى كتابه هذا (٢/٨٨) فى معرض كلامه عن الهيكل فى القدس أنه أعيد بناؤه على يد زربابل زمن كورش كسرى فارس الذى سمح له ولليهود بالعودة الى أورشليم » •

و « زربابل » (بضم الزاى والراء بعدهما باء مشددة مفتوحة ثم باء ولام) اسم ـ كما يقول القاموس ـ « أكادى » معناه زرع بابل » ، أى « المولود فى بابل » .

وتكثر الاشارة اليه فى العهد القديم فى عدة أسفار ، فنرى « نحميا » يشير اليه فى سفره (١٢/١) ويذكر أباه ويسميه « شألتئيل » ، وكذلك حجى فى سفريه الأول والثانى ، ويشير الى اسمه كاملا خمس مرات بما لايدع مجالا للشك فى أن أباه كان يدعى بهذا الاسم .

ولم ينفرد العهد القديم وحده بذكر هذا الاسم بل نراه أيضا فى العهد الجديد مذكورا بهذه الصورة فى لوقا ٢٧/٣ ، وينص الانجيلى متى (١٢/١) على ذلك فيقول بصريح العبارة ، « وشألتئيل » ولد زربابل » ، وان كان سفر أخبار الأيام الأول (١٧/٣ ـ ١٩) ينفى أن يكون « زربابل » ابنا لشألتئيل ، وينص على أن أباه هو « فدايا » ، وهذا أمر يدعو للاستغراب ، وقد تنبه اليه القاموس فقال (ص ٤٢٥ ، ع ٢) ولعل فدايا ـ أخو شألتئيل ـ تزوج بامرأته وأقام نسلا لأخيه حسب الناموس ، فصار زربابل أبنا لشألتئيل » .

على أية حال كان « زربابل » من الشخصيات البارزة التى لعبت أدوارا هامة وذات أثر غير منكور فى تاريخ الحقبة وشعوبها القريبة منها ، فلما عاد اليهود من بابل الى « أورشليم » من أسرهم على يد نابوخذ نصر عادوا وعلى رأسهم « زربابل » الذى شرع وشرع معه الكهنة فى « بناء مذبح اله اسرائيل ليصعدوا عليه محرقات الصباح والمساء ... وأقام ومن معه من اللاويين من أبناء عشرين سنة فما فوق للمناظرة على عمل بيت الرب » ، كما يقول سفر عزرا ٣/١ ـ ٩ .

ويبدو ان زربابل كان مولعا بالتجارة والبناء ·

ويرمز سفر زكريا الى ما كان عليه « زربابل » من تأييد يفوق طاقة الانسان العادى فى اقامة المبانى المقدسة عند قومه ، فقد تبدى ملاك الرب لزكريا فى نومه وأراه منارة من ذهب ، وسمعه يقول عن لسان الرب للجبل « ···· من أنت أيها الجبل العظيم ···· انك امام زربابل تصير سهلا ··· ان يدى زربابل قد أسستا هذا البيت » (زكريا ١ ـ ٦) ·

وهكذا يبدو زربابل زعيما يبنى ما تهدم ، ويرمم ما تحطم ، ويشيد ما أصبح ينسب اليه ، فيقال : « هذا هيكل زربابل » ، وما ذلك بالقليل ·

سـنبلط

اذا كان « زربابل » قد أعاد تشييد الهيكل وكانت له اليد الطولى فى التعمير فان « سنبلط » كان على عكسه تماما ، واذا كان وليم الصورى يبرزه لنا فى شكل المعتدى على « صور » يحاصرها سبعة اشهر ، وعلى « جرش » يحاصرها شهرين (وليم الصورى (٣/٢٥) فانه كان فى الوقت ذاته لايرضى أن يعيد « زربابل » بناء الهيكل وتشييده من جديد · ويشير القاموس (٤٨٧ ، ع ١) الى أنه بذل جهدا فى تحريك العرب للثورة عليه حتى لا يعاد بناء الهيكل ، كما أنه اغتنم فرصة رفض « زربابل » ما طلبه السامريون منه من السماح لهم أن يشاركوه فى بناء الهيكل فسعى « سنبلط » فى اثارتهم ، ونجح فى مسعاه وحرك أحقادهم فوقفوا ضد « زربابل » ، وأيدهم فى موقفهم هذا كل من العرب والعمونيين والأشدوديين » ·

هكذا نجحت مكيدة « سنبلط » ولكن الى حين ، اذ ما لبث اليهود أن أكملوا السور ٠

على أن موقفه هذا شق صف الوحدة اليهودية ، فانصرف البعض منهم الى هيكل بناه أحد خصومهم ٠

اللاويون

ينتسب اللاويون الى « لاوى » ثالث أبناء يعقوب ، ونستدل من سفر العدد ٤/٥ أن الرب كلم موسى وهرون ، وأخذ « عدد قهات من بين بنى لاوى » حسب عشائرهم وبيوت آبائهم ٠

وكان للاوى أخ هو « شمعون » وأخت من أبيهما هى « دينة » (بكسر الدال المشبعة وفتح النون) شاء لها قدرها أن تخرج ذات يوم فرآها « شكيم بن حمور » الحوى (وشكيم بفتح الشين ، وحمور بفتح الحاء وضم الميم) صاحب الناحية من أرض كنعان ، فوقعت الفتاة من قلبه موقعا تمناها لنفسه وتعلق بها وأخذها «وأذلها» ٠ ثم كلم شكيم أباه أن يسعى كى تكون له زوجة فمضى حمور الى يعقوب الذى كان غاضبا لأن ابن « حمور » « نجس دينة » ابنته ٠

وشعر ولدا يعقوب واخوتهم « أن شكيم صنع قباحة فى اسرائيل » ٠

وعرض حمور أن تتم المصاهرة والمتاجرة بين البيتين ، كما أبدى ابنه « شكيم » استعداده لدفع ما يطلبه اخوة « دينة » من مهر وان غلا ، فقبلوا ولكنهم قالوا انهم لا يستطيعون اعطاءه أختهم وهو « رجل أغلف » ٠ واشترطوا على قومه أن « يختتنوا كل ذكر فيهم ، فيصير الشعبان شعبا واحدا » ٠

واستجاب للشرط قوم شكيم وحمور واختتنوا كلهم ٠

ولم يكن ما قاله لاوى وشمعون الا حيلة ومكرا منهما ، اذ قاما فى اليوم الثالث من اتمام هذا الاتفاق ، وعاجا على جميع الذكور من البيت الآخر فقتلاهم كما قتلا حمور وشكيم ، وأخذا أختهما « دينة » من بيت شكيم وخرجا ، واستولى بنو يعقوب على كل ما فى البلد وعلى الحقول ، وسبوا النساء وأسترقوا الأطفال . لكن ذلك العمل لم يقع موقع الرضا من نفس يعقوب الذى أنكر على ولديه ما فعلا مخافة أن يجتمع عليه « الخصوم وهو نفر قليل ويضربونه فيبيد هو وبيته » . فكان ردهما عليه « نظير زانية يفعل بأختنا » .

هذا ما كان من أمر لاوى وأخيه شمعون .

وهناك سفر اللاويين الذى يتضمن أسلوب تقديم الذبائح .

وشرح هذا وارد فى الاصحاحات الثلاثة الأولى من سفر اللاويين .

لعازر

لعازر هو الاسم الشائع لاليعازر المعروف فى الغرب باسم القديس لازاروس St. Lazarus الذى قل ان يذكر الا مقرونا باختيه « مرثا » و « مريم » ، وكان ثلاثتهم من أشد الناس اخلاصا للمسيح عليه السلام ، وكان هو يحبهم جميعا ، وكانت « مرثا » أكبر من لعازر ومريم ، وقد وردت الاشارة اليها فى انجيل يوحنا (١١/٢١ ـ ٣٢) ، ويدل واقع عبارات يوحنا عنها أنها كانت تبجل المسيح وتقدره كل التقدير ، وكان ايمانها به وبرسالته عظيما ، وحدث أنها لما سمعت بوصوله بعد موت أخيها « لعازر » هبت للقائه وأدركته فى بيت عنيا » موطن الأشقاء الثلاثة وقالت له : « ... لو كنت هنا يا سيد لم يمت أخى » ، وكان ذلك القول بعد اربعة أيام من دفن « لعازر » ، ثم طلبت الى المسيح أن يرده الى الحياة .

وعادت « مرثا » الى أختها « مريم » ودعتها سرا لمقابلة المسيح فانطلقت مريم مسرعة حتى ظنها اليهود الذين كانوا قد جاؤوا يعزونه أنها ماضية الى قبر أخيها تبكيه فتبعوها حتى اذا بلغت المسيح « خرت عنده عند رجليه » وقالت له ما قالته أختها « مرثا » من انه لو كان هنا ما مات أخوها ، فسألها أين وضعوه فدلته على قبره فجاءه وكان مغارة قد وضع عليه حجر وطلب اليهم رفع الحجر ، فقالت له « مرثا » أنه « أنتن لأن له أربعة أيام » ·

ورفعوا الحجر عن قبره فناداه المسيح عليه السلام أن يخرج فخرج « ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة ، ووجهه ملفوف بمنديل » ثم طلب المسيح اليهم أن يحلوه من الاقمطة والمنديل فحلوه فقام « لعازر » ومشى امام الجميع فآمن بالمسيح اذ ذاك كثير من اليهود وعدوها آية · أما غيرهم من رؤساء الكهنة والفريسيين فقد جمعوا مجمعا للتشاور فيما يصنعون « بهذا الانسان الذى يعمل آيات كثيرة » فراحوا يتآمرون عليه تآمرا دنيئا ، حمل المسيح « ألا يمشى بين اليهود علانية » ، وقد اشار ياقوت فى معجمه (٢/٥٨٦ ، ٢٠٤٧) الى قيام لعازر من الموتى على يد المسيح ·

وأقامت « مرثا » عشاء لأخيها « لعازر » قبل الفصح بستة أيام (بعد قيامه من الموتى) وكان العشاء فى « بيت عنيا » ، وأخذت « مريم » كأسا من طيب غال ودهنت به قدمى عيسى ، كما مسحت قدميه بشعرها ·

ودبر اليهود مؤامرة لقتل لعازر ·

ووصف انجيل يوحنا (١/١١ ـ ٥٢ ، ١/١٢ ـ ١١) خبر قيام لعازر من بين الموتى وخبر أختيه مريم و « مرثا » ·

أما بيت عنيا « المشار اليها هنا فقرية تقع الى الجنوب الشرقى لجبل الزيتون قرب القدس ، وقد تحول اسمها (بعد قيام لعازر

حيا من قبره) الى « العازارية » ومع ايراد Le Strange : Op. Cit., 405 اسم « العازارية الا أنه فسرها بكلمة بيثانى Bethany

هذا وقد ذكر القاموس (ص ٢٠٤ ، ع ٢) أن هناك فى « العازارية » أو « بيت عنيا » قبر العازر لا يزال موجودا الى اليوم وانه منحوت فى الصخر ، واذا رجعنا الى الادريسى فى كتابه نزهة المشتاق الذى ألفه سنة ١١٥٤ م بطلب من روجر الثانى ملك صقلية ، فانه يقول (ص ٩) ان فى الجانب الشرقى من جبل الزيتون يوجد قبر « العازار » ٠

مـــؤاب

تطلق هذه الكلمة فى التوراة على شيئين ، فان أريد بها انسان فمؤاب ابن لوط (التكوين ٢٧/١٩)، وان أريد بها أرض فناحيةواقعة شرقى البحر الميت ، وقد يقال لها « عربات مؤاب » ، ويقصد بها أردن أريحا » ، وتذكر التوراة أن موسى عليه السلام صعد منها « فأراه الرب جميع الأرض » كما يقول نفس السفر انه مات هناك « حسب قول الرب » (انظر سفر التثنية ١/٣٤) ٠

ولما مات سليمان أصبحت « مؤاب » جزءا من المملكة الشمالية حسب ما يقول القس جورج خورى راعى الكنيسة الانجيلية بطرابلس لبنان فى الكلمة التى كتبها عنها فى القاموس ، ص ٩٢٨ ٠

ومؤاب حافلة بالآثار القديمة فقد اكتشف فيها حجر مؤاب منذ أكثر من قرن وهو الحجر الذى أقيم « احتفاء باستقلال مؤاب عن الاسرائيليين » ٠



المكابيــون

تشير التورة فى أخبار الأيام ٧/٢٤ الى أنه لما اجتمعت فرق بنى هرون خرجت القرعة الأولى « ليهو ياريب » جد المكابيين ـ فشبت منازعات وحروب بين الأبناء ، حتى انتهى الحكم الى « هيرودوس الكبير » ·

وهناك ما يعرف بأسفار المكابيين وهى خمسة ، ذكر القاموس انها تحتوى على تاريخ استقلال اليهود تحت قيادة الأسرة المكابية ·

وتتضمن هذه الأسفار ـ كما يشير القاموس ـ ذكرا لما كان من عصيان اليهود ثم نجاحهم وقد ضاع الأصل العبرانى للسفر الأول ولم يبق سوى ترجمته اليونانية ·

أما الأسفار الأربعة التالية فلا تعدو أن تكون « تأريخا » ، ولعل أهمها من الوجهة التاريخية السفر الثالث ، اذ يتعرض لزيارة بطليموس الرابع لأورشليم سنة ٢١٧ ق·م · واعتدائه على المعبد ، وما وقع على اليهود فى اسكندرية من الاضطهاد ·

ويصف القاموس (ص ٩١٢) مادة هذا السفر بأنها « خرافية » ·

أما آخر هذه الأسفار فيشتمل على تاريخ اليهود حتى سنة ٨٦ ق قبل الميلاد ·

ناثان النبى

هو أحد انبياء يهوذا ، وكان كثير النصح لداود وسليمان بما فيه الخير والصلاح ، نستفيد ذلك مما ورد فى هذا الصدد فى سفرى صمويل الثانى والأخبار ١/١٧ ـ ١٥ ·

ولم يكن بين ناثان وداود حجاب حتى انه ليجابهه ـ فى فعلة انكرها عليه ـ مجابهة عنيفة ويؤنبه على قتله « أوريا الحثى » الذى كان قائدا فى جيش داود ، وتصل داود بزوجة « أوريا » ... مشينا ثم زاد فجعل « أوريا » فى صف من القتال وأفاه فيه ... وتم لداود ما اراده ليخلو له الجو مع امرأة « أوريا » ، فاستنكر « ناثان » فعلة داود « لأنه قبح فى عين الرب » لاسيما وقد اخذ زوجة « أوريا » فولدت له ولدا فأماته الرب وأحزن قلب أبيه حتى انفطر (راجع صموئيل الثانى ، ١١/٢ ـ ٢٦ ، ١٢/٩ ـ ١٨) .

وصدق ناثان فيما أنذر به داود ، فقد مات ولده من امرأة أوريا فأخذ يعذب نفسه .

وكان داود كثير التعظيم لناثان وانصياعا لأمره حتى لقد استمع اليه حين أشار عليه أن ينصب « سليمان » من بعده بدلا من ولد آخر له اسمه « أدونيا » (بفتح الهمزة أوله وضم الدال وكسر النون وتشديد الياء المفتوحة بعدها الف) ، وفعل داود ما أشار به ناثان عليه ومسح « صادوق » الكاهن سليمان « ملكا فى جيحون وهو نبع فى أورشليم » ، وقد وردت هذه الاخبار بالتفصيل فى الاصحاح الأول من الملوك الأول ، ٣٢ ـ ٤٠ .

نايين

يشير وليم الصورى الى قرية صغيرة يسميها « نايين » تقع فى الجليل على مشارف القسم الجنوبى الشرقى من الناصرة ..

وترجع الأهمية التى تتمتع بها هذه القرية الى تلك المساحة الكبيرة الدينية من المعجزات التى تمت على يد السيد المسيح حين كان ماضيا فى طريقه فلما قارب باب « نايين » رأى اناسا يشيعون

ابن أرملة وهى تذرف الدمع السخين عليه فقد كان وحيدها فى هذه الدنيا ، فعطف المسيح عليها ونهاها عن البكاء ، ثم أمر المشيعين أن ينزلوا النعش على الأرض ففعلوا ، ثم تقدم هو ومسه وقال : أيها الشاب أقول : « قم » ، فجلس الميت وابتدأ يتكلم فدفعه الى أمه ، فأخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين قد قام فينا نبى عظيم » . (انظر لوقا ٧/١١ ـ ٢٣) .

ومن ثم ذهبت قرية نايين منذ تلك اللحظة بالأهمية والقداسة عند المسيحيين .

وادى هنوم

وادى هنوم (بكسر الهاء وتشديد النون المضمومة) واد يحيط بالقدس من الجنوب والغرب ، وقد يقال له وادى « ابن هنوم » كما جاء فى يشوع : ١٥/١٨ ، أو « بنى هنوم » حسبما ورد فى الملوك الثانى : ٢٣/١٠ ، ويعده اليهود كما قال القاموس موضعا نجسا ، ويعلق نفس المصدر على ذلك بأن اشتقت من « هنوم » كلمة جهنم » مسترشدا فى ذلك ببعض عبارات قال انها واردة فى انجيل متى ، لكنا لم نجد الكلمة صريحة فى المواضع التى أشار اليها القاموس .

ويربط لى سترانج
Le-Strange : Palestine Under The Moslems, PP. 218 — 220.
بين هذا الوادى وبين وادى قدرون معتمدا فى ذلك على بعض الكتاب المسلمين أمثال المقدسى وياقوت وناصرى خسرو .

يؤاب بن صروية

كان يؤاب أحد ثلاثة أبناء للمرأة «صروية» (بفتح الصاد وضم الراء بعدها واو وفتح الياء المثناة من تحت وآخرها تاء مربوطة) ،

وهى أخت داود · وكان « يؤاب » مقداما متطلعا للزعامة والعظمة ، فقد جاء فى أخبار الأيام الأول ١١/٤ ـ ٩ ، أن داود قال ان الذى « يضرب اليبوسيين أولا يكون راسا وقائدا » ، فتقدم يؤاب الجميع « فصار رأسا » ، وأسدى بذلك يدا الى داود الذى أقام فى [illegible] وسموه « مدينة داود » ·

ومع طاعة يؤاب لخاله داود الا أنه قتل ثالث أولاده وهو « أبشالوم » (بفتح الهمزة أوله وسكون الباء) الذى استطاع بلباقته وذكائه وحسن منظره ولطف حديثه أن يستحوذ على قلب أبيه وشعب أورشليم ، ثم تآمر على أبيه وأثار عليه جميع اسباط اسرائيل وجند الجند لقتال أبيه وكان يؤاب فى جيشه ولكنه فر من جيشه كراهية منه فى أن يقاتل خاله · وخـــرج يؤاب لمحاربة أبشالوم فاوصاه داود ـ على مسمع من كل الشعب ـ أن يترفق بالفتى أبشالوم « ولكنه تناسى الوصية عن عمد اذ كان « ابشالوم قد دخل بالبغل الذى يركبه تحت أكمة فتعلق رأسه « بها فعلق بين السماء والأرض ، ومر البغل الذى تحته » أى انطلق وتركه مدلى فجاء الى يؤاب واحد من خدمه فأمره يؤاب ان يقتله فأحجم العبد اذ ما كان له أن يمد يده بالسوء الى « أبشالوم » ابن مولاه بعد أن سمع وصية داود فيه فما كان من « يؤاب » الا أن أنشب ثلاثة سهام فى قلب أبشالوم وهو لايزال حيا معلقا فى الأغصان الكثيفة الملتفة ، وساعده فى قتله ثلاثة من الغلمان ، فلما سمع أبوه نبأ مصرعه انزعج أشد الانزعاج وبكى وراح يصيح « يا ابنى أبشالوم · ياليتنى مت عوضك ! » ·

وكان يؤاب طماعا ارتكب كثيرا من الشنائع التى أغضبت داود منه ، بل انه تآمر على داود وقد طعن فى السن فلم تنجح مؤامرته مما حمل داود على ان يطلب من ابنه سليمان أن يقتله

فهرب « يؤاب » فلم ينفعه هربه وقتل فى الهيكل « ورد الرب دمه على رأسه » . الملوك الأول ٣٣/٣ .

يشوع بن نون

يشوع « كلمة عبرية يفسرها كتاب العهدين بانها تعنى « يهوه » أى « الرب مخلص » ، (ويهوه بفتح الياء والواو بينهما هاء ساكنة وآخرها هاء) من أسماء الله فى العبرية .

وأول ما نرى هذا الاسم فى سفر الخروج الذى نطالع فيه أن موسى سأل الله ـ حين أرسله لبنى اسرائيل ـ ماذا هو قائل لهم ، فأمره أن يقول لهم : « يهوه ، اله آبائكم : اله ابراهيم واله اسحق واله يعقوب أرسلنى اليكم » .

هذا فيما يتعلق بكلمة « يهوه » .

ويقول مفسرو العهد القديم ان أصل « يشوع » هو « هوشع » وأنه ابن نون (العدد ٨/١٣) ، وأنه ولد بمصر وصار خليفة لموسى وكان قد عمل خادما عنده فعينه موسى لقيادة بنى اسرائيل حين خرج « عماليق » لقتالهم ، وأمر موسى « يشوع » أن ينتخب له رجالا ينهض بهم لمحاربة « عماليق » . انظر سفر الخروج ٩/١٧) .

وتروى الاخبار أن الشمس وقفت انصياعا لأمره ، ويشير الى ذلك شاعر مصر أحمد شوقى اذ يقول :

قفى يا أخت يوشع خبرينا
أحاديث القرون الغابرينا

ويقول القاموس (ص ١٠٧٠) عن سفر يشوع أنه كان مجهولا وأنه نسب لأشخاص كثيرين .

كما ورد فى القاموس أيضا ثبت بمن سموا فى العهد القديم بيشوع ، كما تضمن بحثا مطولا عن سفره فليرجع اليه من شاء الاستزادة عن هذه الناحية ٠

يوحنا المعمدان

يوحنا المعمدان هو عند المسلمين « يحيى » ، وأبوه « زكريا » الذى دعا ربه أن يهب له من لدنه غلاما وليا فجاءته البشرى بيحيى الذى لم يجعل الله له من قبل سميا ، وكان مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا » ، فهكذا كان نعته فى القرآن الكريم الذى اكرمه فذكره بكل خير فى كثير من المواضع ٠

وكان يحيى أو يوحنا من « البررة الأطهار » كما يصفه لوقا فى انجيله ١/١٥ ـ ١٦ ٠ وقد بشر جبريل عليه السلام أباه زكريا به وهو فى الهيكل وأنباه أنه سيكون « عظيما أمـــام الـــرب ٠٠٠ وخمرا ومسكرا لايشرب ٠٠٠ ويرد كثيرين من بنى اسرائيل الى الرب الاههم » ٠ فتعجب زكريا أن ينجب وهو شيخ وامرأته عاقر ٠ واشار كتاب الله الى ذلك فى قوله تعالى « قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء » (آل عمران ٣/٤٠) ٠

ولم يكن عجب زوجته أقل من عجبه فهى « متقدمة فى أيامها »

وتصف الرواية المسيحية هذا الموقف اذ قال جبريل عليه السلام لزكريا « أرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا ٠٠٠ وها أنت تكون صامتا الى اليوم الذى يكون فيه هذا الميلاد » ٠ فلما خرج زكريا لازم الصمت ففهم الناس أنه قد رأى رؤيا واقتصر كلامه على الايماء ٠٠



ويقول الله عز من قائل (يا زكريا أنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا • قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا • قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا • قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا • فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) • صدق الله العظيم • (مريم ١٩/٧ ـ ١١) •

وتمت آية الله جل من قادر ، وصدقت البشرى ، فانجبت امرأة زكريا ولدهما « يحيى » المعروف فى المسيحية باسم « يوحنا » الذى قال فيه كتاب الله (يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا • وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا • وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا • وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » • (مريم ١٩/١١ ـ ١٥) •

وكان مولد يحيى بن زكريا قبل المسيح بستة أشهر » ، واعتزت به المسيحية ـ اعتزاز الاسلام به أيضا •

ولد يحيى أو يوحنا المعمدان ـ « وقد امتلأ من الروح القدس ، وبشر بظهور المسيح الذى وصفه بأجل الأوصاف ، اذ جاء فى انجيل متى ١١/١١ » الحق الحق أقول لكم : لم يقم بين المولود من النساء أعظم من يوحنا المعمدان » •

كذلك جاء فى كتاب الله ان الله أمر زكريا ألا يكلم الناس ثلاثة أيام الا « رمزا » •

وتذكر الرواية المسيحية أن « يوحنا المعمدان » هذا هو الشخص الذى كان اليهود ينتظرون قدومه « قدام المسيح وسموه ايليا » وقال عنه المسيح لتلاميذه « انه جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا » •

ومع أن المسيح ـ حسب هذه الرواية ـ لم يصرح لهم باسمه الا أن تلاميذه فهموا أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان » (انظر متى ١٧/٩ ـ ١٣) ٠

كان يوحنا المعمدان ـ أو يحيى بن زكريا ـ قوى التغلب على شهوات البدن ، وراح يبشر بالمسيح قائلا : « هذا هو الذى قلت عنه : ان الذى يأتى بعدى صار قدامى لأنه كان قبلى » (يوحنا ١٥/١) ٠

ولما رأى اليهود من آيات يحيى ما روأوا سألوه من يكون ، وبعد حوار طويل قال لهم : « أنا صوت صارخ فى البرية » فكان هذا دليلا على شدة تواضعه ٠

وكان يوحنا المعمدان « يعمد » فأنكر اليهود عليه ما يفعل اذ ليس هو « المسيح ولا ايليا » فرد عليهم « بأنه يعمد بالماء فى نهر الأردن ٠ وأما المسيح فيعمد بالروح القدس ونار » ٠ ثم أشار الى أنه فى وسطهم » ٠ ووصف موقعه هو ذاته من المسيح بأنه « ليس بمستحق أن يحل سيور حذائه » ٠

ولم يكن يوحنا المعمدان يكف عن مجابهة الآثم باثمه ولم يرهبه أن يواجه « هيرودوس » الطاغية وهو فى قمة جبروته ، وندد بفجوره مع « هيروديا » امرأة أخيه « فيلبيس » ، وكان بين المؤمن يحيى والفاجر هيرودوس من أجل ذلك مواجهة عنيفة أثارت الطاغية فزج به فى الحبس ، وكان يتمنى لو قتله ولكنه كان يخشى ثورة الناس ان هو قتله ٠ (انظر لوقا ١٩/٣ ـ ٢٠) ٠

واستشهد يوحنا المعمدان على يد « هيردوس » بتحريض خفى من امرأة أخيه « هيروديا » نقلته اليه ابنتها « سالومى » ٠

ويلاحظ ان الانجيل حين عرض لمأساة يوحنا التى انتهت بقتله لم يصرح باسم « سالومة » ولكنا نستطيع الجزم من ملابسات الرواية التى ساقها متى فى انجيله من أن سالومة ابنة هيروديا رقصت فسرت هيردوس ، فوعد بقسم منه انها مهما طلبت يعطيها ، « فهى اذ كانت قد تلقنت من أمها قالت اعطنى ها هنا على طبق رأس يوحنا المعمدان ... فأرسل وقطع رأسه فى السجن فأحضر ودفع به الى الصبية فجاءت به الى امها » .

ونستفيد من الاصحاح الخامس عشر من أعمال الرسل أن يوحنا المعمدان كان من عمد الكنيسة فى القدس حين جرى الشقاق الكبير فى الرأى بين الناس حول أمور خاصة كالختان وغيره .

واذا تتبعنا تاريخ يوحنا المعمدان كما جاء فى العهد الجديد نجد أنه ذهب الى «افسوس» والى سميرنا (أزمير) وبرجامس وبقية كنائس آسيا الصغرى السبع ، ووردت أخبار ذلك كله بالتفصيل فى رؤيا يوحنا اللاهوتى ١/٩ ـ ٢٠ .

يهـــوذا التقـــى

اذا جرت على اللسان كلمة « يهوذا » انصرف الذهن الى شيئين ، اما أحدهما فشخص ، وأما ثانيهما فموضع بفلسطين .

فأما الشخص فتطلق على اثنين أحدهما كان عفا تقيا وهو أخو يوسف عليه السلام وأما الآخر فسمى له يعرف فى التاريخ باسم يهوذا « الخائن » وأكثر ما يسمى بيهوذا « الأسخريوطى » .

وسنتكلم عن أولهما فى هذه الأسطر فنقول انه واحد من أربعة أبناء كانوا ليعقوب من امرأته « ليئة » ، ويورد سفر التكوين

(٣٥/٢٩) من خبر « ليئة هذه أنها كانت مكروهة « فعطف عليها الرب فولدت أربعة أولاد كان آخرهم يهوذا ... ثـــم توقفت عن الولادة » .

وكان « يوسف » أثيرا عند أبيه يعقوب يقدمه على اخوته جميعا بصورة أحنقتهم عليه ، وكادوا له غدبروا أن يقتلوه أو يطرحوه أرضا ، ولم يشذ عنهم فى تدبيرهم ومكرهم السىء الا أخوه وأخوهم « يهوذا » ، ولكنه كان أعجز عن مقاومتهم فاختار أخف الأضرار ، وقال لهم كما جاء فى القرآن الكريم (لاتقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة » ، وقالت التوراة فى ذلك أنه عرض عليهم ذلك « حتى لا تكون أيديهم عليه لأنه أخوهم ولحمهم (راجع سفر التكوين ٢٦/٣٧) .

ونفذوا مؤامراتهم ولكن الله أنجاه . وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك فى قوله تعالى (وجاءت سيارة فارسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون) ويمكن مراجعة هذه القصة مفصلة فى سورة يوسف بالكتـــاب الكريم ٩/١٢ ـ ١٥ .

لقد مر به وهو فى الجب بعضهم فشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ، وتســـمى التوراة هؤلاء الذين اشتروه وحملوه الى مصر بالاسماعيليين ، أى العرب من نســـل اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، ونريد انهم أشتروه بعشرين من الفضـــة .

ولقد مكن الله ليهوذا وأسباطه الذين كانوا من أظهر الأسباط . وبلغ يهوذا من القوة والبأس الحربى ما وردت الاشارة اليه فى الاصحاح التاسع والاربعين من سفر التكوين (٨ ـ ١٢) وذلك حين

جمع يعقوب أولاده ليحذرهم عما هم ملاقوه من بعده ، وشرح لهم جرم كل واحد منهم ، فلما جاء الى « يهوذا » قال ان اخوته سوف « يحمدونه وأن يده على قفا أعدائه ، وأنه يسجد له بنو أبيه » (راجع سفر التكوين ٤٩/٨ ـ ٩) ، ووصفه نفس السفر بقوله « يهوذا جرد أسد » .

ويرد فى سفر القضاة (٢٠/١٨) أن رجال اسرائيل لما اجتمعوا وسألوا من يكون منهم أول الصاعدين الى بيت « أيل » قال الرب : يهوذا أولا » .

ونستفيد من تاريخه أن الرب كان راضيا عنه بدليل كثرة مارزقه من الأسباط ، وتقديمه أسباطه على غيرهم (انظر سفر العدد ٢/٤ ، ٢٦/٢٢) .

أما الأرض التى يطلق عليها أرض يهوذا « فلم تكن كلها لهم ، اذ كانت مدن الساحل فى أيدى الفلسطينيين ، وقد ورد تحديدها الدينى الدقيق ـ حسب النص اليهودى ـ فى الاصحاح الخامس عشر من سفر يشوع .

يهــوذا الأسخريوطى

هو يهوذا بن سمعان كان أحد تلاميذ المسيح عليه السلام ومن بين رسله الاثنى عشر الذين اصطفاهم لنشر دعوته والتبشير بالنصرانية ، وكان يهوذا الأسخريوطى رجلا غدارا مطبوعا على الشر والطمع ، قد تغلغلت الخيانة والغدر فى حناياه ، وسرتا مسير الدماء فى عروقه وكانتا طبيعة ركبت فيه ، وهو لا يتورع عن مجازاة الحسنة بالسيئة ان رأى فى سلوكه هذا السبيل نفعا لذاته حتى ولو كان هذا النفع مذموما .

وكان المسيح يعرف فيه دناءته وأدركها ولكن لم يصرح بها بل أشار اليها رمزا ذات مرة ، نستفيد ذلك من قوله لتلاميذه ذات يوم ويهوذا بن سمعان هذا حاضرهم :

« الحق الحق أقول لكم ٠ ان واحدا سيسلمنى » فعجب تلاميذه من ذلك القول تنفرج عنه شفتاه وراحوا يتبادلون النظرات فيما بينهم « وهم محتارون من يعنيه يسوع بهذا القول ، فسأله أحدهم من يكون هذا الشخص منهم ، فأجابه « هو ذاك الذى أغمس أنا اللقمة وأعطيه ، فغمس اللقمة وأعطاها ليهوذا سمعان الأسخريوطى ، فبعد اللقمة دخله الشيطان » ٠ راجع فى ذلك يوحنا ١٥/١٢ ـ ٢٧) ٠

وكان المسيح قد جعل الصندوق مع يهوذا بن سمعان الأسخريوطى (يوحنا ٢٩/١٣) فلم يزده ذلك الا فجورا كشف عن سفاهته التى تمثلت فى عدم تورعه عن سرقة مافى الصندوق « فكان يحمل ما يلقى فيه » ٠ (يوحنا ٦/١٢) ٠

ومما يدل على لؤم طبيعته موقفه من مريم اخت لعازر يوم اقامت اختهما مرثا عشاء فى بيت عنيا حضره يسوع بمناسبة اقامته لعازر من الأموات ، اذ عمدت مريم يومذاك فأخذت منا من طيب « ناردين » كثير الثمن ودهنت قدمى المسيح يسوع ، ومسحت قدميه بشعرها فامتلأ البيت من رائحة الطيب ٠٠ فقال يهوذا بن سمعان الأسخريوطى المزمع أن يسلمه : لماذا لم يبع هذا الطيب بثلاثمائة دينار ويعطى للفقراء ؟ » ، وكان فى ظاهر قوله الرحمة وفى حقيقته الجشع اذ كان يتمنى لو بيع الطيب ووضعوا ثمنه فى الصندوق فيسرق منه ما شاء ٠

وقد نعته المسيح – وان لم يسمه ويصرح باسمه – بالشيطان حين قال لتلاميذه « أليس أنا اخترتكم الاثنى عشر ، وواحد منكم شيطان ؟ ، ويعقب يوحنا على ذلك بقوله « قال يسوع هذا عن يهوذا سمعان الأسخريوطى لأن هذا كان مزمعا أن يسلمه وهو واحد من الأثنى عشر » (راجع يوحنا / ٧٠ – ٧١) ٠

وقد انتهت حياة يهوذا الأسخريوطى أسوأ نهاية ، اذ يشير متى الى ما كان من ندمه على مافعل بيسوع وتسليمه لرؤساء الكهنة وشيوخ الشعب حين ، « رد الثلاثين من الفضة اليهم قائلا : قد أخطأت اذ سلمت دما بريئا » فلم يكترث هؤلاء الرؤساء بما قال ، فأدرك أنه خسر هؤلاء وهؤلاء ، فندم على نفسه ، ومن ثم عمد الى « طرح الفضة فى الهيكل وانصرف ، ثم مضى وخنق نفسه » (متى ١/٢٧ – ٥) ٠

على هذه الصورة الزرية كانت نهاية هذا الشرير الفاجر وهى نهاية يستحقها ٠

يهوشافاط

يتردد هذا الاسم كثيرا فى بعض الأسفار والكتب القديمة ، والكلمة عبرية ، ومعناها كما يقول العالمون بتلك اللغة « هكذا قضى الـرب » ٠

وقد أطلقت فى التاريخ على رجل من الرجال ، كما أنها أطلقت فى القديم على بقعة من الأرض فى فلسطين ٠ فأما الشخص الذى تسمى بها – بعد انقسام مملكة سليمان – فواحد من ملوك يهوذا ترجع أوليات حكمه الى أخريات القرن التاسع قبل الميلاد ، وقد تميز

« بالحكمة والعقل وحسن الادارة حتى كأن الرب معه لأنه سار فى طريق داود » • وقد عند سفر أخبار الأيام الثانى ، ١٧/١٣ ـ ١٩ من كان يستعين بهم « هوشافاط » فى حكمه ، ومافيهم الا كل بارع فى عمله بمفهوم براعة ذلك الوقت وقيمه •

كما أننا نستفيد مما ذكره نفس المصدر (١٩/٥ ـ ١١) أنه كان عادلا ، لأنه ليس « عند الرب ظلم ولا محاباة ولا ارتشاء » ، ولم يكن هو يقصر من جانبه فى نصح من استعمله ، فالرب « مع الصالح » •

على هذه الصورة الكريمة يبدو لنا يهوشافاط ، فى العدل وحسن الادارة والاهتمام باحقاق الحق ورد الظلم عن المظلوم ، لكن خلفه ولد له لم يكن على شاكلته كما يقرر ذلك سفر الملوك الأول ٢٢/٥٠ ، وهذا الولد هو الذى يسمونه فى الكتب القديمة باسم « يهودام » •

هذا فيما يتعلق بلفظ « يهوشافاط » اذا قصد به الشخص •

أما الأرض فهناك وادى « يهوشافاط » الذى يعرفه القاموس هو « وادى قدرون » الواقع شرقى أورشليم ، وهو بقعة يجلها أهل الأديان السماوية الثلاثة •

وقد ورد التعريف بوادى قدرون فى القاموس (ص ٧١٦ ، ـ ٧١٧) بأنه يعرف الآن بوادى ست مريم الذى يمتد من شمال غربى أورشليم ويتجه جنوبا مشرقا حتى ينحدر الى ما يعــرف بوادى الراهب فبحر لوط ، وهنا يسمى بوادى النار ••

ويشير نفس القاموس (نفس الموضع) الى أن يوسيبوس هو القائل بأن وادى قدرون هو وادى يهوشافاط •

يوئيــــــل

« **يوئيل** » لفظ عبرى معناه « يهوه هو الله » ـ وهذا هو تفسير تلك الكلمة كما جاء فى القاموس (ص ١١٠٢) ، وهذا الاســـ كثير الورود فى غير واحد من أسفار العهد القديم ، وهو يطلق فى كل مرة على شخص معين · ويهمنا فى هذا المجال أن نقول اننا نستفيد من أخبار الأيام الأول (١٥/٧ ، ١١) أنه لما أراد داود حمل التابوت الى الخيمة التى أعدها له أمر ألا يحمله الا «اللاويون» انصياعا « لأمر الرب » فكان « يوئيل » واحداً ممن جمعهم من بنى « جرشوم » (وهى بفتح الجيم وسكون الراء وضم الشين) ·

وهكذا عرفنا مكانة « يوئيل » وأنه كان من رجال لهم الصدارة فى جليل الأمور ·

كما نستدل من نفس السفر ، لكن فى موضع آخر (١٥/١١) أنه كان وجيها فى جماعته ، رأسا فيهم ، وذلك حين يرد وصف داود ليوئيل بأنه كان « راسا من رؤوس أبناء اللاويين » ·

وهنا يحق لنا أننتساءل ـ ونحن فى مجال التعريف بهذاالاسم ـ هل تراه هو نفس « يوئيل » الذى أشارت اليه الأخبار الأول (٢٣/٨) بأنه كان أحد ثلاثة من رؤوس بنى لعوان « حيث تطالع أنه كان فى خدمة داود ؟

أما السفر الذى يحمل اسمه فقد ذكر القاموس عنه أنه لايعرفشىء عن كاتبه سوى أنه من اقليم يهوذا ·






كشـــاف عــــام

للاجــــزاء الأربعة مــن كتــاب

الحروب الصـــليبية

لوليـــم الصـــورى



***

تصـويب أخطـاء الجـزء الأول

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٩	٢٣	الحجارى	التجارى
٦٥	٨	خسروا	خسرو
٧٤	٢٤	وتكوا	وتقواع
١١٦	١١	غادروها	غادرها
١٣٥	١٥	فيزبلبورج	فيزينبرج
١٤٨	٧	تكلفه	نكلفه
١٦٥	٢١	يتم خلف	يتم حتى خلف
١٦٩	١٠	هو من معه	هو ومن معه
١٧٣	٢٠	الدق	الدوق
١٧٤	١٣	خليمه	خيامه
١٧٩	١٧	الألىا	الأهالى
١٨٢	١٣	كرمات	كلمات
١٨٤	٢٤	ثت	ومن ثم

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٠٠	١٦	كان	كاد
٢ ٨	١٣	يهدد	يهدهد
٢٠٩	١٠	مستضملين	مستعملين
٢١٤	١١	سحبوا	سجوا
٢١٥	١٤	تفويض	تقويض
٢٢٦	١٥	الثأر الثأر	(تحذف احداهما)
٢٢٩	١	المحاربين	المحاربون
٢٣٤	٦	لصلوت	لصلوات
٢٥٠	٣	ولدان	ولدا
٢٦٥	٣	فأبلوا	فقبلوا
٢٧٠	١٣	جزاء	جراء
٢٧٤	٤	البوييتية	البونية
٢٧٤	١٢	قيمته	قمته
٢٨٢	٥	قععقة	وقعقعة
٢٨٧	١١	مخ لفة	مخالفة
٢٨٨	٢١	تحت الجيش	تحت نظر الجيش
٢٩٦	١٨	الفصيل	الفيصل
٣٠٠	٤	النوحى	النواحى
٣٠٤	٤	قاتنا	قادتنا

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣١٨	٤	راح بعضا	راح بعضها
٣٣٦	١٦	تعانى	نعانى
٣٤٧	٢٤	منيا	مينا
٣٥٥	١١	مم	من
٣٥٩	٤	بينهم	بينهم طوائف تقتحم
٣٦٨	٢	تكاد الحوز ء	تكاد تبلغ الجوزاء
٣٧٩	٢٥	ظل	قل
٣٨٠	٣	وتقخذوهم	وتأخذوهم
٣٨٠	١٢	هؤلاء	كهؤلاء
٣٨٨	١٥	فيلو مينيوم	فيلو ميليام
٣٩٧	٢٣	فظهرا	فظهروا
٣٩٩	١٥	قليدة	قيادة
٤٠٥	٣	السيح	السيد
٤٠٧	٦	للخروج من	للخروج فى
٤٠٨	٥	كتنفوه	اكتنفوه
٤٢٠	٩	مستمرة	مستمدة

تصحيح أخطاء الجزء الثاني

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٣	١١	نسنى	تسنى
٢٦	١٣	راوندال	رواندال
٣٠	٩	موجوده	وجوده
٣٥	١٦	ب ا ذلين	باذلين
٤١	٥	تصطرم	تضطرم
٤٥	٢٠	هذذه	هذه
٤٦	١٦	شرموطهم	شروطهم
٤٧	١٨	جززيرة	جزيرة
٥٠	٢٠	الكسباد	الكسياد
٥٤	١٢	تمليهم	تمليه عليهم
٦٥	٤	نفيض	تفيض
٧٧	١	ارندوا	ارتدوا
٨٢	٦	سسبطية	سبسطية

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٢١	٢٥	٢٢١	١٢١
١٣٦	١٦	ف يما	فيما
١٤٤	٨	يختم	يحتم
١٥٥	٤	بصب	يصيب
١٥٥	٤	ء يتهشم	ويتهشم
١٥٨	٣	السلكسوسون	السكسون
١٦٨	٧	جيتيسارت	جنيسارت
١٧٢	٥	صدورها	صدرها
١٩٥	٨	عباء	عباءة
١٩٥	١٨	سنذكر ذلك فى	سنذكر ذلك فى موضعه
٢١٢	٦	كماألوف	كمالوف
٢١٣	٢	أكويتية	اكويتين
٢١٣	١٧	أدبيا	أدبيا
٢١٨	٢٣	أهية	أهبة
٢٤٣	٢٣	ناعوم	ناحوم
٢٤٨	٧	هارات	حاران
٢٥٠	٢٠	وقريبة	قريبه

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٥٢	٥	أب أم	أيام
٢٨٤	١٦	الت ى	التى
٣٠٣	١٠	فؤاد	قواد
٣١١	٢	شبزرة	شيزر
٣١٢	٧	الموجوديين	الموجودين
٣٢٥	٨	بابداهية	بالبديهة
٣٣٩	٢	وقربع	وقريع
٣٤٠	٢	رهظا	رهطا
٣٤٠	٥	الحزم	الجزم
٣٤٠	٨	ابولبا	أبوليا
٣٥٢	٣	ليروى خير	ليروى خبر
٣٦٣	١٥	نقس	نقص
٣٦٥	٧	مسرح	مسوح
٣٧٩	١٢	المطجود	الموجود

أعمال الأستاذ الدكتور حسن حبشى

★ نور الدين والصليبيون (حركةالافاقة الاسلامية فى القرن الثاني عشر) ـ نشر دار الفكر العربى ·

★ الحرب الصليبية الأولى ـ دار الفكر العربى ·

★ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس (الجستا) مترجم عن اللاتينية ـ نشر دار الفكر العربى ·

★ الشرق العربى بين شقى الرحى (دراســة تاريخية عن حملة لويس التاسع على مصر والشام) · ـ نشر دار الفكر العربى ·

★ أهل الذمة فى الاسلام لترتون ـ نشر دار المعارف ودار الفكر وهيئة الكتاب ·

★ زنجبار (من ١٨٩٠ ـ ١٩١٣) ـ نشره دار المعارف ·

★ رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر ـ نشره دار المعارف ·

★ مذكرات جوانفيل عن القديس لويس مع دراسة تاريخية مطولة بقلم المترجم ـ نشره دار المعارف ·

★ تاريخ مسلمى اسبانيا لدوزى (العصبيات القبلية) ـ نشره دار المعارف ·

★ الجزائر عبر التاريخ (مع اســـاتذة بعض الجامعات ، نشره معهد الدراسات الاسلامية بالقاهرة) ·

★ [illegible] (مترجم عن الفرنسية القديمة)
نشره مركز كتب الشرق الأوسط .

★ حوليات دمشقية (لمؤرخ شامي مجهول) ـ مكتبة الانجلو المصرية .

★ الاحتكار في العصر المملوكي ـ حوليات جامعة عين شمس .

★ انباء الهصر للجوهري الصيرفي ـ دار الفكر العربي .

★ مضمار الحقائق لمحمد بن عمر بن شاهنشاه ـ نشره عالم الكتب .

★ نزهة النفوس والأبدان للصيرفي (٤ مجلدات) ـ نشره مركز تحقيق التراث (بدار الكتب المصرية)

★ الحروب الصليبية لوليم الصوري (٤ مجلدات نشرته هيئة الكتاب .

★ مذكرات فلهاردوان (عن الحرب الصليبية الرابعة) ـ نشره المجلس العلمي بجامعة الملك عبد العزيز بجدة .

Fifteenth Century Crusade Against Egypt (1959).(*)

★ انباء الغمر لابن حجر العسقلاني (٤ مجلدات) ـ نشره المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بوزارة الأوقاف ـ مصر .

★ المسلمون في الأندلس لدوزي (٣ مجلدات) ـ نشرة هيئة الكتاب .

The Egyptian Expeditions Against Castellrosso(*) and Rhodes.

★ الكسياد للأميرة أنا كومنينا (مجلدان)

★ فلسطين فى ظل الحكم الاسلامى للى سترانج (مجلدان)
التاريخ بين المؤرخين المسلمين والصليبيين ·

★ A Transition Period in Antioch between 1090 and 1118 A.D.

★ البقاعى (ابراهيم بن حسن) : عنوان الزمان فى تراجم الشيوخ والأقران فرع مركز التراث بدار الكتب المصرية من اعداد الجزء الأول منه ويتلوه خمسة أخرى ·

★ البقاعى : المعجم الصغير (فى مجلدين) ·

★ البقاعى : اظهار النصر لأمراء العصر (ذيل على انباء الغمر لابن حجر) فى ٤ مجلدات من مسودة المؤلف ·

★ ابن الحنبلى ، در الحبب فى تاريخ أعيان حلب ، فى سبعة مجلدات روجع على نسخة أصلية منه بخط المؤلف ·

★ ابن حجر العسقلانى وتلاميذه : دراســـة تاريخية لـــه ولأربعة من تلاميذه ·

★ أحداث صنعت التاريخ (عرض لتسعة أحداث كبـــرى فى الشرق والغرب) ·

★ العصر المملوكى : دراسة اجتماعية ·

★ الرحمة المهداة (عرض جديد للسيرة النبوية الطاهرة) مجلدان (أذيعت باذاعة مكة والرياض فى ٣٥٦ حلقة) .

★ سجايا الرسول (صلى الله عليه وسلم) عرض وتحليل

★ قرون الهجرة (دراسة عرضية للعالم منذ الهجـرة الشريفة ، وقد أذيعت أصلا فى اذاعات السعودية).

★ سير الصحابة (وتذاع فى اذاعات مكة وجدة والرياض باسم قصة اسلام صاحبى) فى عدة أجزاء .

★ الفتح المبين (وقد أذيعت حلقاتها باذاعات السعودية تمثيلية عن مكة حتى أنعم الله عليها بالاسلام) .

صدر في هذه السلسلة

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د. خـالد الكومى

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د. يونان لبيب رزق

٣٥ ـ اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى

٣٦ ـ المجتمع الاسلامى والغرب ج ٢
ترجمة : د. احمد عبد الرحيم مصطفى

٣٧ ـ الشيخ على يوســف
تأليف : د. سليمان صالح

٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصــادى والاجتمـاعى فى العصر العثمـانى
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

٣٩ ـ قصة احتلال محمد على لليونان
د. جميل عبيد

٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى

٤١ ـ محمد فريد الموقف والمـأساة
رفعت السـعيد

٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصــور
محمد شفيق غربال

٤٣ ـ رحلة فى عقـول مصريــة
ابراهيم عبد العزيز

٤٤ ـ الأوقـاف والحيـاة الاقتصـادية فى مصر فى العصر العثمـانى
د. محمـد عفيفى

٤٥ ـ الحـروب الصليبيـة ج ١
ترجمة : أ.د. حسن حبشى

٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٦ : ١٩٥٧
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمر

٤٧ ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث
تأليف : أ.د. لطيفة محمد سالم

٤٨ ـ الفـلاح المصـرى
تأليف : د. زبيدة عطـا

٤٩ ـ العلاقات المصرية الاسرائيلية
تأليف : د. عبد العظيم رمضان

٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية
تأليف : د. سـهير اسكندر

٥١ ـ تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية
اعداد : د. عبد العظيم رمضان

٥٢ ـ مصر فى كتابات الرحـالة والقناصـل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر
تأليف : د. الهام محمد على ذهنى

٥٣ ـ أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك
د. محمد كمال الدين عز الدين على

٥٤ ـ الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى
تأليف : الدكتور محمد عفيفى
٥٥ ـ الحروب الصليبية جـ ٢
ترجمة وتحقيق : أ د. حسن حبشى
٥٦ ـ المجتمع الريفى فى عصر محمد على
د. حلمى أحمد شلبى
٥٧ ـ مصر الاسلامية وأهل الذمة
د. سيدة اسماعيل كاشف
٥٨ ـ أحمدحلمى سجين الحرية والصحافة
د. ابراهيم عبد الله المسلمى
٥٩ ـ الراسمالية الصناعية فى مصر
د. عبد السلام عبد الحليم عامر
٦٠ ـ المعاصرون من رواد الموسيقى العربية
عبد الحميد توفيق زكى
٦١ ـ تاريخ الاسكندرية
أ.د. عبد العظيم رمضان
٦٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ ٣
لمعى المطيعى
٦٣ ـ موسوعة تاريخ مصر عبد العصور
اعداد : د. عبد العظيم رمضان
٦٤ ـ مصر وحقوق الانسان
د. محمد نعمان جلال
٦٥ ـ موقف الصحافة المصرية من الصهيونية
د. سهام نصار

٦٦ ـ المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى
د. نريمان عبد الكريم أحمد

٦٧ ـ الأصول التاريخية لمساعى السلام العربية الاسرائيلية
أ. د. عبد العظيم رمضان

٦٨ ـ الحروب الصليبية ج ٣
ترجمة وتحقيق : أ. د. حسن حبشى

٦٩ ـ نبوية موسى ودورها فى الحياة
د. محمد أبو الأسعاد

٧٠ ـ أهـل الذمـة فى الاسلام .
أ. د. حسن حبشى

٧١ ـ مذكرات اللورد كليرين
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمر

٧٢ ـ رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصـادية لمصر فى العصر الفاطمى
أمينة أحمد امام

٧٣ ـ تاريخ جامعة القاهرة .
د. رؤوف عباس حامد

٧٤ ـ تاريخ الطب والصيدلة
د. يحيى سمير الجمال

٧٥ ـ أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول
د. سلام شافعى محمود

٧٦ ـ دور التعليم فى مصر
د. سعيد اسماعيل على

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية
شكرى القاضى

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير
د. نبيل راغب

١٣ ـ اكذوبة الاستعمار المصرى للسودان
د. عبد العظيم رمضان

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة
د. سيدة اسماعيل كاشف

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د. على حسنى الخربوطلى

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر
د. حلمى أحمد شلبى

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د. محمد نور فرحات

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د. على السيد محمود

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د. احمد محمود صابون

٢٠ ـ المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبدالرحمن فهمى
د. محمد أنيس

٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ١
توفيق الطويل

٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر
جمـال بدوى

٢٣ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثماني جـ ٢
توفيـق الطويـل

٢٤ ـ الصحافـة الوفـدية
د. نجـوى كامـل

٢٥ ـ المجتمع الاسلامى والغرب
ترجمة : د. عبد الرحيم مصطفى

٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة
د. سعيد اسماعيل علي

٢٧ ـ فتح العرب لمصر جـ ١
ترجمة : محمد فريد ابو حديد

٢٨ ـ فتح العرب لمصر جـ ٢
ترجمة : : محمد فريد أبو حديد

٢٩ ـ مصر فى عهد الاخشيديين
د. سيدة اسماعيل كاشف

٣٠ ـ الموظفون فى مصر
د. حلمى أحمد شلبى

٣١ ـ خمسون شخصية وشخصية
شـكرى القـاضى

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ ٢
لمعى المطيعى